



١٠

العُقَيْدَةُ السِّلَفِيَّةُ

فِي كُلِّهِمْ رَبُّنَا إِلَهٌ وَاحِدٌ
وَكُشِفَتْ أَبَاطِيلُ الْمُبَشَّرَةِ الرَّدِيَّةِ

تَأَلِيفَتْ
مَجْدِدُ اللَّهِ بِهِ مُحَمَّدٌ بْنُ سُلَيْمَانَ

هَذَا الْكُتَابُ مَرْصُومٌ فِي الْأَصْلِ لِلْمُتَّقِينَ
فِي دَلِيلَةِ الْمَقَائِلِ الْإِسْلَامِيَّةِ وَالْإِسْلَامِ الْعَامَةِ الْمَشْهُورَةِ

مَوْسَسَةُ الْوَبَّاتِ
جَمْعُهَا وَنَشْرُهَا

الْحَقِيقَةُ السِّلْفِيَّةُ
فِي كَلَامِ رَبِّ الْبَرِيَّةِ
وَكَشَفُ أَبَاطِيلِ الْمُبْتَدَعَةِ الرَّدِّيَّةِ

تَأَلَّفَتْ
عَبْدُ اللَّهِ بْنُ يُوسُفَ الْحَرَّاعِ

دار الصميعي
للنشر والتوزيع

دار الإمام مالك

جَمِيعُ الْحُقُوقِ مَحْفُوظَةٌ

الطَّبْعَةُ الثَّانِيَّةُ

١٤١٦ هـ - ١٩٩٥ م

دَارُ الْإِمَامِ مَالِكٍ

الرياض - هاتف: ٤٢٤٠٢٣٥

ص.ب: ٣٢٥٠٣ - الرمز البريدي: ١١٤٣٨

المملكة العربية السعودية

دار الصميعي للنشر والتوزيع

هاتف وفاكس: ٤٢٦٢٩٤٥

الرياض - السويدي - شارع السويدي العام

ص.ب: ٤٩٦٧ - الرمز البريدي ١١٤١٢

المملكة العربية السعودية

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

مدخل

وفيه أربعة أمور:

= مقدمة الطبعة الثانية.

= مقدمة الكتاب.

= التنبيه على مسائل يحتاج إليها قبل الشروع في

المقصد.

= مجمل خطة تأليف الكتاب.

مقدمة الطبعة الثانية

إِنَّ الْحَمْدَ لِلَّهِ ؛ نَحْمَدُهُ وَنُسْتَعِينُهُ وَنُسْتَعِذُّهُ ، وَنَعُوذُ بِاللَّهِ مِنْ شُرُورِ
أَنْفُسِنَا وَسَيِّئَاتِ أَعْمَالِنَا ، مَنْ يَهْدِهِ اللَّهُ ؛ فَلَا مُضِلَّ لَهُ ، وَمَنْ يَضِلَّ ؛ فَلَا
هَادِيَ لَهُ .

وَأَشْهَدُ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ وَحْدَهُ لَا شَرِيكَ لَهُ ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا عَبْدُهُ
وَرَسُولُهُ ، صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ تَسْلِيمًا كَثِيرًا .

أما بعدُ :

فلقد كان في حُسْبَانِي قَبْلَ صُذُورِ الطَّبْعَةِ الْأُولَى مِنْ هَذَا الْكِتَابِ أَنَّهُ
سَيَسْرُ بِهِ أَنْاسٌ ، وَيَسْتَأْ مِنْهُ آخَرُونَ ، وَذَلِكَ مَا حَصَلَ .

أَمَّا السُّرُورُ ؛ فَكَانَ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ؛ لِمَا وَجَدُوا فِيهِ مِنْ نَصْرِ اعْتِقَادِ
السَّلَفِ وَالْأُثْمَةِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ ، وَإِبْطَالِ الْبِدْعِ فِي مَسْأَلَةِ كَلَامِ
اللَّهِ الَّتِي هِيَ أخطرُ مسائلِ الْخِلَافِ فِي الْعَقْدِ بَيْنَ أَهْلِ الْقِبْلَةِ ، وَلِمَا رَأَوْا
فِيهِ مِنَ الْجَهْدِ فِي جَمْعِ الْأَدْلَةِ وَتَحْرِيرِهَا وَشَرْحِهَا وَبَيَانِهَا ، وَدَحْضِ الشُّبُهَةِ
وَأَبَاطِيلِ الْمُبْتَدِعَةِ ، مِمَّا تَوَالَتْ بِسَبَبِهِ مِنْ بَعْدِ إِشَارَاتٍ عَدِيدٍ مِنْ أَهْلِ الْعِلْمِ
وَالْفَضْلِ عَلَيَّ بِالْكِتَابَةِ عَلَى هَذَا النُّحُو فِي سَائِرِ مَسَائِلِ الْعَقْدِ ، خَاصَّةً

المسائل الكبار؛ كمسألة إثبات العلو، والرؤية، والقدر، وشبهها، ولقي الكتاب في أنفسهم قبولاً، فعولوا عليه، وأشاروا به.

وهذا كله من فضل الله تعالى ومنه، فله الحمد وحده، وهو المسؤول أن يوفق للسداد والصواب في الاعتقاد والقول والعمل.

وأما الاستياء؛ فكان من أهل البدعة، فضاقت صدورهم به ذرعاً، وليس بضارني أن ينقم عليّ مبتدع؛ فذلك سبيلهم، ولكن حسبي من ذلك نصر الشريعة والسنة.

أما هؤلاء؛ فأذكرهم بالله تعالى، وأقول: اتقوا الله، وراجعوا اعتقاداتكم، وصوبوها بالأدلة والبراهين لا بالتقليد، وتابعوا السلف تسلموا وتغنموا، ولا تغرنكم جلالة متبع فتبعوه في الخطأ؛ فإنكم بذلك تزررون بالسلف الذين هم أولى بالاتباع منه، وتزررون بأعيان الأئمة؛ كالأربعة السادة الفقهاء وغيرهم، وإن ارتضيتُم مذهبهم في الفروع؛ فحري بكم ارتضاؤها في الأصول، وإن كنتم رأيتم من صنعي هدم ما تريتُم عليه سنين؛ فلأن تعودوا للصواب خير من تماديتكم في الباطل وإقامتكم عليه، وتدارك أنفسكم بتقويم اعتقاداتكم وسلوك جادة السلف خير لكم من أن تلقوا ربكم تعالى بانحراف العقيدة.

ثم بعد؛ فإن كان لكم علم؛ فقولوه، وإلا؛ فالصمت خير لكم، واعلموا أن صدري يتسع لخلافكم؛ فاكتبوا لي وناقشوا وناظروا، والله يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم.

وهناك طرف ثالث أشرت إليه في مقدمة الكتاب الأولى، تهمهم مصائب المسلمين في المعاش وأسباب الحياة، ويغفلون عن مصائبهم

بَسَبَبِ جَهْلِهِمْ بِدِينِهِمْ ، وَأَنَا مَعَ هَؤُلَاءِ فِي ضَرُورَةِ الْإِهْتِمَامِ لِأَمْرِ الْمُسْلِمِينَ ،
وَالِاشْتِغَالِ فِي ذَلِكَ مِنْ أَعْظَمِ الْقُرْبِ ، وَاسْمُ الْإِسْلَامِ وَحْدَهُ كَافٍ فِي
وَجُوبِ نُصْرَةِ مَنْ تَسْمَى بِهِ ، وَبِهِ يَثْبُتُ لَهُ الْوَلَاءُ الْعَامُّ ، فَإِنَّ الْإِنْسَانَ الْيَوْمَ
يُحَارِبُ لِمَجَرَّدِ انْتِمَائِهِ إِلَى هَذَا الدِّينِ ، وَعَدُوُّهُ لَا يُبَالِي مِنْ أَيِّ الطُّوَائِفِ
كَانَ ، لَكُنَّا حِينَ نَعْتَقِدُ ذَلِكَ لَا نُجَوِّزُ الْإِشْتِغَالَ مِنْ أَجْلِ تَخْلِيصِهِ مِنَ الْمَوْتِ
بِيَدِ عَدُوِّهِ الظَّاهِرِ ثُمَّ نَدْعُهُ لِهَوَاهُ وَعَدُوُّهُ الْبَاطِنِ .

وَكُلُّ مَنْ يُهْمُهُ أَمْرُ الْمُسْلِمِينَ يُدْرِكُ هَلْهَلَةَ وَخِلْخِلَةَ الصَّفِّ
الْإِسْلَامِيِّ ، وَلَكِنْ أَلَا نَتَسَاءَلُ : لِمَ ذَلِكَ ؟ لِنُذْرِكَ أَنَّهَا الْأَمْرَاضُ فِي
الْإِعْتِقَادَاتِ وَالسُّلُوكِ وَالْعَمَلِ ، وَإِلَّا ؛ فَلَأَيِّ شَيْءٍ يَقْتُلُ الْمُسْلِمُ أَخَاهُ ؟

إِنَّا نَعْتَقِدُ فَرَضاً عَلَى أَهْلِ الْإِسْلَامِ الْإِشْتِغَالَ بِمُدَاوَاةِ النَّفُوسِ
بِإِصْلَاحِ الْعَقِيدَةِ وَالْعَمَلِ وَالسُّلُوكِ ، وَلَا يَشْغَلُهُمْ وَاجِبٌ عَنْ وَاجِبٍ ، فَعَدُوُّ
الْبَاطِنِ أَفْتَكُ مِنْ عَدُوِّ الظَّاهِرِ .

وَكَمَا يَجِبُ أَنْ يَجِدَ الْمُسْلِمُ أَنْصَاراً مِنْ إِخْوَانِهِ يَذُبُّونَ عَنْهُ وَيَحْمُونَهُ
يَجِبُ أَنْ يَجِدَ مِنْهُمْ الْأَخْذَ بِيَدِهِ إِلَى الصُّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ ، وَحِمَايَتِهِ مِنْ
مُضْلَلَاتِ الْهَوَى وَشَهَوَاتِ الْغَيِّ .

وَلَا يَخْفَى أَحَدًا مَا دَخَلَ جَانِبَ الْعَقِيدَةِ مِنَ الْأَهْوَاءِ ، وَافْتَرَقَتِ الْأُمَّةُ
بِسَبَبِهِ شَيْعاً وَتَنَازَعَتْ ، مِمَّا سَبَبَ الْفُشْلَ وَذَهَابَ الرِّيحَ وَالْهَزِيمَةَ ، فَلَا بُدَّ أَنْ
يَنْفَرِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ طَائِفَةٌ تَقُومُ بِالْإِصْلَاحِ لِمَا فَسَدَ وَتُصَحِّحِ
الْإِنْحِرَافَ ، لَا بِالْدَّعَاوَى الْفَارِغَةِ الْكَاذِبَةِ ، وَإِنَّمَا بِالْعَمَلِ الَّذِي يُرَى فِي
النَّاسِ أَثَرُهُ .

وَلَا أَحْسَبُ أَنَّا نَخْتَلِفُ فِي هَذَا الْمَبْدِإِ .

وعليه؛ فتناولي لقضية تعدُّ من أبرز مسائل الاعتقاد وأشدّها خطورةً
من باب الاشتغال باداء الواجب في تصحيح عقائد المسلمين.

ومن الناس من يقول: لا يلزمني معرفة العقائد المبتدعة والاشتغال
بتعلّمها، ويكفيني أن يكون اعتقادي هو اعتقاد أهل السنة والجماعة
المأثور عن السلف.

فأقول: نعم؛ الأمر كذلك إذا تيقنت الصواب من عقيدة السلف،
وأخذتها عن أهلها لا عمن ينسبون إليهم الاعتقادات المبتدعة يلبسون بها
على الناس، فإن حصلت ذلك لم يلزمك معرفة اعتقادات الطوائف، والله
تبارك وتعالى إنما كلّفك باتّباع ما بعث به نبيّه ﷺ من الهدى ودين الحقّ
قبل البدع والأهواء، واتّباع سبيل المؤمنين، وإلا كان الأمر: ﴿وَمَنْ يُشَاقِقِ
الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى
وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [النساء: ١١٥].

وكتابي هذا ليس في الردّ على الطوائف المبتدعة فحسب، بل
الأصل في وضعه شرح اعتقاد السلف، وقد صدرتُ بذكر العقيدة السلفية
مُبيّنة بأيسر عبارة، ببرهانها من الكتاب والسنة وتفسير السلف، ممّا يلزم
أهل الإسلام اعتقاده، ثم بعد ذلك عرّجت على ذكر ما يصادها ويخالفها،
ممّا يجدر بك أن تعلمه، فإن لم تحرص عليه؛ فهو لمن يهّمه من الدعاة
أهل السنة المشتغلين بتصحيح عقائد المسلمين، أو لمن جانب الصواب
من أهل البدعة إقامة للحجة ودحضاً للباطل.

ومن هؤلاء الناس من حدّثني قائلاً: لقد شدّدت في كتابك على
الأشعرية خاصّة أكثر من غيرهم!

فَقُلْتُ: نعم؛ لعموم البلوى باعتقادهم.

وربما عدّى البعض ذلك التشديد إلى الأعيان، لكنني نبّهت في خاتمة كتابي هذا على أن الحكم على العقائد والطوائف لا يلزم منه الحكم للمعنيين من الناس ممن ينتسب إليها.

وأنا إنما ناقشت العقائد لا الأفراد، ولذا تجد في كتابي هذا إطلاقاً ما أطلقه أئمة السنة: (من قال كذا؛ فهو كافر)، ولكنك لن تجد حكماً على قائلٍ معينٍ بالكفر.

نعم؛ قد نقلت أن من السلف من كفر بعض أعيان الأفراد، غير أن ذلك فيما علموه وقامت لهم به الحجة على من كفروه، وإلا؛ فالأصل:

أن ما اختلف فيه أهل القبلة من العقائد، قد تكون العقيدة منه لا تخرج عن أهل السنة فحسب، بل تخرج من الإسلام كله، غير أن هذا الحكم على العقيدة لا على عيني معتقديها، لجواز أن يكون معذوراً.

ومن أبطل الباطل وأظلم الظلم تنزيل النصوص العامة في التكفير وشبهه على الأعيان من المسلمين لمواقعتهم لذلك، خاصة في هذا الزمان لغلبة الجهل، قبل أن تقوم عليه الحجة الشرعية ممن هو أهل لإقامتها، لا من الصبيان في العلم وأتباع الخوارج، وتكون الحجة قد بلغت وفهمها المبلغ، في تفصيل ليس هذا موضعه.

والمراد أن ما تناولت به أهل البدع إنما هو الاعتقادات والأقوال، مع أنني أرى الوصف بالبدعة لمواقعها ليس من باب (الحكم للمعنيين بالكفر) لتعدّي الحكم بالكفر إلى الباطن، بخلاف البدعة؛ فإنها حكم على

الظاهر من الأقوال والأفعال ، والكلام في ذلك كالكلام في تعديل
الشهود وتفسيرهم ، فإنه حكم على الظاهر ، والله أعلم .

وتمّة نقد خاص وردني عن بعض العلماء والفضلاء ، أذكره مُجيباً عنه
في نقاط ثلاث :

* الأولى : ما ذكرته هامشاً (ص ٢٦٨ الطبعة الأولى) من إنكار قول
من قال : «لأبي الحسن الأشعري تحولان» ، وتقرير أنه تحول عن الاعتزال
إلى اعتقاد ابن كلاب ، وثبت على اعتقاد ابن كلاب ، بحسبه اعتقاد الإمام
أحمد بن حنبل ، فأشار بعض الفضلاء ممن يُصحّحون ذلك عنه بمراجعة
ذلك أكثر .

فأقول لكم أيها الأحبة : لقد بحثت وفشت فلم أجد في الحقيقة إلا
ما يؤكّد ما ذكرته ، وما زادني البحث إلا يقيناً بصحة ذلك ، بل جعل عندي
ميلاً لإفراجه وعقائده من كتبه وكلام العارفين به بالتصنيف لإطلاعكم على
حقيقة أمره في عموم مسائل الاعتقاد .

* الثانية : ما ذكرته (ص : ١٥٧-١٥٨ الطبعة الأولى) في إثبات صفة
السكوت ، على معنى أن الله تعالى يتكلّم إذا شاء ، والكلام متعلّق بمشيئته
واختياره ، ويسكت إذا شاء ، وأوردت لذلك ما وردت به السنة والأثر ،
وختمته بالنص التالي : قال شيخ الإسلام : «ثبت بالسنة والإجماع أن الله
يوصف بالسكوت» (مجموع الفتاوى ١٧٩/٦) .

والماخذ في هذا من جهات ثلاث :

(١) إثبات صفة السكوت ، وأن النصوص عليها غير كافية .

هذا أورده بعض الفضلاء .

وجوابه :

إِنْ كَانَ هَذَا الْفَاضِلُ يَعْنِي أَنَّهُ خَيْرٌ أَحَادٍ، فَهَذَا وَاسِعٌ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، وَخَيْرُ الْوَاحِدِ الْمُحْتَفَّ بِالْقِرَائِنِ يُفِيدُ الْعِلْمَ، وَأَرَى أَنَّ الْقِرَائِنَ قَدْ أَكَدَتْهُ فِيمَا ذَكَرْتُ وَأَشْرْتُ إِلَيْهِ فِي مَوْضِعِهِ .

وإِنْ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى فِي إِثْبَاتِهَا؛ فَهُوَ مِنْ نَفْسِهِ أُتِيَ، وَإِلَّا؛ فَإِنَّا نَفْهَمُ أَنَّ مَنْ تَكَلَّمَ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ سَكَتَ بِاخْتِيَارِهِ وَمَشِيئَتِهِ، وَمَا دَامَ اعْتِقَادُنَا هُوَ تَعَلَّقَ الْكَلَامَ بِمَشِيئَتِهِ عَزَّ وَجَلَّ؛ فَقَدْ زَالَ الْمَحْذُورُ .

وَقَدْ ثَبَتَ عِنْدَنَا الْحَدِيثُ بِهِ، فَتَثْبِطُهُ لَهُ تَعَالَى كَمَا تُثَبِّتُ لَهُ سَائِرَ صِفَاتِهِ، وَأَنَّهُ لَا مِثْلَ لَهُ فِيهَا، وَقَدْ ذَكَرْتُ سَلَفِي فِي إِثْبَاتِهَا، وَمَا ائْتَمَمْتُ فِيهِ بِإِمَامٍ فَلَيْسَ عَلَيَّ فِيهِ مِنْ حَرَجٍ، مَا دَامَتِ الْحُجَّةُ مِنَ النَّصِّ قَامَتْ عَلَيْهِ .

(٢) حَوْلَ النَّصِّ الَّذِي أوردته عن شيخ الإسلام قال أحدُ الفضلاء عني: «دُلَّسَ فِيهِ، وَهَذِهِ خِيَانَةٌ عِلْمِيَّةٌ، فَإِنَّهُ أَفْهَمُ أَنَّ شَيْخَ الْإِسْلَامِ هُوَ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ، وَهَذِهِ الْعِبَارَةُ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ ابْنِ تَيْمِيَّةٍ، إِنَّمَا نَقَلَهَا ابْنُ تَيْمِيَّةٍ عَنْ شَيْخِ الْإِسْلَامِ أَبِي إِسْمَاعِيلَ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مُحَمَّدٍ الْأَنْصَارِيِّ الْهَرَوِيِّ) .

فَأَقُولُ: لَيْسَ الْأَمْرُ عَلَى مَا تَوَهَّمَهُ الشَّيْخُ الْفَاضِلُ، فَإِنِّي أَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةَ حَقِيقَةً، لَمْ أَدْلَسِ اللَّتَبَ، وَقَدْ ذَكَرْتُ فِي مَقْدَمَةِ كِتَابِي أَنِّي إِذَا ذَكَرْتُ (شَيْخَ الْإِسْلَامِ)؛ فَإِنَّمَا أَعْنِي ابْنَ تَيْمِيَّةٍ، وَهَذَا النَّصُّ الَّذِي ذَكَرْتُ هُوَ لَهُ لَا لِشَيْخِ الْإِسْلَامِ الْأَنْصَارِيِّ، نَعَمْ؛ قَدْ وَدَّ كَلَامُ ابْنِ تَيْمِيَّةَ عَقَبَ كَلَامَ الْأَنْصَارِيِّ، إِلَّا أَنَّهُ مَفْصُولٌ عَنْهُ، وَبَيَانُ ذَلِكَ كَمَا يَأْتِي :

وردَ هذا النصُّ عقبَ النقلِ عن أبي إسماعيل الهَرَوِي بعضَ النُّصوصِ في مسألةِ القرآنِ، وما وقعَ من الإمام أبي بكر بن خزيمةَ فيها مع بعضِ الأعيانِ، فأوردَ (مجموع الفتاوى ١٧٧/٦) قال: «وقال شيخ الإسلام أبو إسماعيل...»، ونقلَ من كتابه في اعتقاد أهل السنة، ثم قال: «وقال شيخ الإسلام أيضاً في كتاب مناقب الإمام أحمد...»، ثم قال: «إلى أن قال: ثم جاءت طائفة...»، إلى أن قال: «قال شيخ الإسلام: فطارَ لتلك الفتنة ذاك الإمام أبو بكر، فلم يزل يصيحُ بتشويهها، ويُصنِّفُ في رَدِّها، كأنَّهُ مُنْذِرُ جيشٍ، حتى دَوَّنَ في الدُّفاترِ، وتمكَّنَ في السُّرائرِ، ولقَّنَ في الكُتاتيبِ، ونقَّشَ في المحاريبِ: إِنَّ اللَّهَ مُتَكَلِّمٌ، إِنْ شَاءَ تَكَلَّمَ، وَإِنْ شَاءَ سَكَتَ، فَجَزَى اللَّهُ ذَاكَ الْإِمَامَ وَأَوْلَئِكَ النَّفَرَ الْغَرَّ عَنْ نُصْرَةِ دِينِهِ وَتَوْقِيرِ نَبِيِّهِ خَيْرًا».

قُلْتُ: في حديث سلمان عن النبي ﷺ: «الحلال ما أحلَّ الله في كتابه...».

ثم أخذ في ذكر الأدلة المُثبتة للسُّكوتِ، ثم ذكر عقب ذلك النصُّ الذي ذكرتُ، ثم أخذ في تفسير السُّكوتِ، حتى قال (ص: ١٨٠): «ثم من تفلسف منهم كالغزالي في مشكاة الأنوار... الخ».

فهذا فيه:

١ - تمييز ابن تيمية كلام الهَرَوِي في كلِّ فقرةٍ ينقلها بإضافتها إليه صراحةً.

٢ - الفصلُ بين كلامه وكلام الهَرَوِي بقوله: (قلتُ)، وهذه اللفظة

ظاهرة من غير تكلف أنها له لا للهروي، ومن زعم أنها للهروي؛ فهي دعوى بخلاف الظاهر.

٣ - مَجِيءُ ما بعد (قُلْتُ) على أسلوب ابن تيمية الذي يعرفه كُلُّ مَنْ خَبَرَ كَلَامَهُ، مع بُعْدٍ شَدِيدٍ عن مُشَابَهَةِ سِيَاقَةِ ما أورد ابنُ تيمية من كلام الهَرَوِيِّ.

٤ - ذَكَرُ أَبِي حَامِدٍ الْغَزَالِيِّ وكتابَه، وهذا لا يَتَهَيَّأُ عَادَةً أَنْ يَكُونَ لِلْهَرَوِيِّ، لِمَنْ تَأَمَّلَ تَرْجَمَةَ كُلِّ مِنْهُمَا، وَمَتَى مَاتَ الْهَرَوِيُّ، وَمَتَى ابْتَدَأَ اشْتِهَارُ الْغَزَالِيِّ وَشُرُوعُهُ فِي التَّصْنِيفِ.

وفي هذا كفاية، وليحذر الشَّيْخُ الْفَاضِلُ مِنَ الْعَجَلَةِ فِي الْحُكْمِ.

٣) زعم فاضل آخر أنني لم أتم نقل كلام شيخ الإسلام في هذه القضية.

وفي هذا إيهام من هذا الفاضل أنني كتبت من قوله شيئاً له ضرورة في السياق، وليست الحقيقة كذلك، فإن ابن تيمية أورد حديثي سلمان وأبي ثعلبة في إثبات صفة السكوت، وأشار إلى كلام الفقهاء في دلالة المنطوق والمسكوت، ثم قال العبارة التي ذكرتها عنه، ثم قال: «لكن السكوت يكون تارة عن التكلّم، وتارة عن إظهار الكلام»، ثم وجه ذلك مستدلاً لمعنى السكوت لا في صفة الله تعالى، بل في عموم الكلام، ثم ذكر أن كلا المعنيين للسكوت لا يصحان على قول من لا يعتقد بتعلق كلامه تعالى بمشيئته واختياره.

وجميع هذا لا يعنينا؛ لأنه ليس في صدد إثبات السكوت كصفة،

فقد فرغ من ذلك بما ذكرته عنه، وإنما كان في صدّد مناقشة قول من لا يرى تعلّق كلامه تعالى بمشيئته واختياره، و«الفتاوى» في تناول الجميع، فليراجعها من شاء.

* الثالثة: بلغني عن شيخ فاضل آخر دعواه أنّي أنقل من كلام الإمام ابن القيم رحمه الله في كتابي هذا ولا أسميه موهماً أن ذلك من كلامي.

وأقول: هذه دعوى جائزة، فأنا في هذا الكتاب لم يكن من مراجعي كتب ابن القيم إلا قليلاً، مُعْتَمِداً على نقله عن بعض العلماء، وقد عزوت ذلك في هامش كتابي، وسُمِّيت مصدرِي.

وأنا أعلم الله لم أعمد في شيء من كتبي أو تحقيقاتي إلى نقل كلام أحد من أهل العلم ولا أسميه، ولكن لكثرة ما أقرأ لبعض الأئمة كشيخ الإسلام ابن تيمية مثلاً فإن بعض عباراتهم ربّما علفت في ذهني، ولا أستحضر حال الكتابة أنها لفلان، سواء كان معيناً أو مبهماً، فتدخل ضمن سياقتي، وهذا أمر واسع في كتابة العلم، وما من إمام من أئمتنا ممن نأتسي ونقتدي بهم إلا وله مثل ذلك كثير، وهذا لا يعود بالثهمة عليهم، وما هو بعيب، ويكذب في العلم من ادّعى أن مثل ذلك لا يقع له إذا اشتغل بالتصنيف.

هذا في الألفاظ.

أما المعاني؛ فنحن لا نكاد نتكلّم بشيء لم نُسَبِّق إليه، ولكننا نجتهد في إنشائه.

وإنما الخيانة في العلم أن يُنقل الكلام البين الفصل والذي لم
يدخله إنشاء الكاتب من غير عزو إلى قائله .

وإني ليحزنني كثيراً أن أجد شيوخ ذلك عند كثير من الكتاب
والمؤلفين سابقاً ولاحقاً .

وقابل هؤلاء - وللأسف - طائفة حملتهم في الغالب خصومات خاصة
على تتبع عورات خصومهم من الكتاب ، فأفحشوا حتى عدوا النقل المَعزُو
إذا كثر سرقة ، وهذا ظلم وإجحاف ؛ فإن عزو الكلام إلى قائله يُبرئ النية
ولا يلبس على القارئ .

هذا جملة ما بلغني من صور النقد لكتابي ، وقد علمت ما فيها ، ولله
الحمد والمِنَّة .

وهذه هي الطبعة الجديدة له ، وهي الثانية ، بعد أن نفدت نسخ
طبعته الأولى ، وكثر الإلحاح على طلبه ، وقد أصلحت فيها بعض خلل
الإنشاء في مواضع يسيرة وقعت في نشرته السابقة ، سوى المقدمة ؛ فقد
أصلحت فيها بعض السياقة ، وزدت يسيراً بما يحقق المقصود ويسدّد
القول .

وحري بالتنبيه أني لا آذن بنشر كتابي هذا لصالح أي جهة ؛ إلا بإذن
مكتوب صريح مني ، ولم يصدر من قبل بإذني إلا طبعة واحدة ، على ظهر
غلافها عبارة (طبع في مطابع دار السياسة - الكويت) .

وقد طلب مني الإذن بتصويره بعض الإخوة السلفيين بمصر
والإسكندرية بواسطة أحد الأصحاب ، فذكرت أننا بصدد إعادة نشره نشرة

جديدة، فلا يعجل الإخوة بذلك، ففوجئت من بعد من قبل هذا صاحب
أنهم قد صوّروا الكتاب وباعوه بسعر التكلفة لحاجتهم الماسة إليه،
فسأني ما فعلوا، وما كنت أحبّ منهم ذلك، ولكن قدّر الله وما شاء فعل،
وإنني أخرج عليهم وعلى غيرهم مثل هذا الصنيع بغير الشرط الذي تقدّم.

وهذه الطبعة الثانية، أسأل الله تعالى أن يبارك فيها أكثر من سابقتها،
وأن يكتب لي بذلك القبول عنده ووالدي وأهل بيتي، هو المستعان وعليه
التكلان.

وكتب

أبو محمد عبدالله بن يوسف بن عيسى
اليعقوب الجديع

بريطانيا - ليدز

في ١ محرم الحرام ١٤١٥ هـ
الموافق ١١/٦/١٩٩٤ م



مقدمة الكتاب

الحمد لله ؛ نحمدهُ ونُسْتَعِينُهُ ونَسْتَغْفِرُهُ، ونعوذُ بالله من شرورِ أنفسنا
وسَيِّئاتِ أَعْمَالِنَا، من يَهْدِهِ اللهُ ؛ فلا مُضِلَّ لَهُ، وَمَنْ يُضِلِّ اللهُ ؛ فلا هَادِيَ لَهُ .
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله صلى الله عليه وسلم تسليماً كثيراً .
أما بعد . . .

فإن الله عز وجل امتنَّ على عباده أعظم المِنَّةِ، فأرسل إليهم رسولاً
منهم يتلو عليهم آياته، ويصِّرُهم بسُبلِ مَرْضَاتِهِ، ويَهْدِيهم به إلى صِراطٍ
مُسْتَقِيمٍ، ولم يكن للعبادِ غُنْيَةٌ عن هذه النُّعمة ؛ لأنَّهم لولاها لَوُكِلُوا إلى
عُقُولهم وأهوائهم، ولو كان ذلك كذلك ؛ لَضَلُّوا السَّبِيلَ، وما أمكنَ أحداً من
الْخَلْقِ أن يَعْلَمَ التَّحْرِيمَ من التَّحْلِيلِ، ولا الْغَيْبَ من الشَّهَادَةِ، ولا عُرِفَ
ثَوَابٌ ولا عِقَابٌ، ولا بَعَثَ ولا حِسَابٌ، ولا تَمَيَّزَ حقٌّ من باطلٍ، ولا كُفِّرَ
من إيمانٍ، ولا مَنْ يَعْبُدُ إِبْلِيسَ مِمَّنْ يَعْبُدُ الرَّحْمَنَ، فيكونَ خَلْقُ الْخَلْقِ عَبْثاً
لا حِكْمَةً وراءه، وهذا المعنى يتنزَّه عنه الْحَكِيمُ الْخَبِيرُ: ﴿أَفَحَسِبْتُمْ أَنَّمَا
خَلَقْنَاكُمْ عَبَثاً وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لَا تُرْجَعُونَ . فَتَعَالَى اللَّهُ الْمَلِكُ الْحَقُّ لَا إِلَهَ إِلَّا

هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْكَرِيمِ ﴿[المؤمنون: ١١٥-١١٦]، ﴿يُخَسِّبُ الْإِنْسَانَ أَنْ يُتْرَكَ سُدًى﴾ [القيامة: ٣٦]، ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا بَاطِلًا ذَلِكَ ظَنُّ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ [ص: ٢٧].

فكان الرُّسُلُ هم الحُكَّام على أُمَمِهِمْ بما يُوحى إليهم من الشرائع؛ إذ كانوا هم الوسائط بين الرَّبِّ تعالى وبين سائر خلقه، يُبلِّغون رسالات ربهم، ويقومون سلوك أُمَمِهِمْ.

فَلَمْ يَدْعِ الْعَلِيمُ الْخَبِيرُ تَقْوِيمَ السُّلُوكِ لِعَقْلِ الْإِنْسَانِ الْمَجْرَدِ، وَإِنَّمَا جَعَلَهُ أَدَاةً يَعْقِلُ بِهَا مُرَادَ رَبِّهِ تَعَالَى؛ فَهُوَ تَبَعٌ لَوْحِي اللَّهِ وَتَشْرِيعِهِ، لَيْسَ لَهُ حَقُّ الْإِبْتِدَاءِ وَالْإِنشَاءِ لِلْأَحْكَامِ وَالتَّشْرِيعِ.

وهذا المعنى أدركه الرُّسُلُ وأتباعهم، فكانوا على الصُّراطِ الْمُسْتَقِيمِ، وَرَفَضْتَهُ طَوَائِفُ مِنَ الْخَلْقِ، فَخَرَجُوا عَنْ طَرِيقَةِ الرُّسُلِ، وَحَادُوا عَنِ الْحَقِّ الْمُبِينِ.

وَلَقَدْ عَلَّقَ رَبُّنَا تَعَالَى النِّجَاةَ وَالْفَلَاحَ وَالْفَوْزَ بِطَاعَةِ الرُّسُولِ ﷺ وَاتِّبَاعِهِ:

كَمَا قَالَ: ﴿إِنَّمَا كَانَ قَوْلَ الْمُؤْمِنِينَ إِذَا دُعُوا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ أَنْ يَقُولُوا سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ . وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَخْشِ اللَّهَ وَيَتَّقْهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [النور: ٥١-٥٢].

وَكَمَا قَالَ: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَالرُّسُولَ فَأُولَئِكَ مَعَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِمْ مِنَ النَّبِيِّينَ وَالصِّدِّيقِينَ وَالشُّهَدَاءِ وَالصَّالِحِينَ وَحَسُنَ أُولَئِكَ رَفِيقًا﴾ [النساء: ٦٩].

وكما قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ يُدْخِلْهُ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ . وَمَنْ يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُ يُدْخِلْهُ نَارًا خَالِدًا فِيهَا وَلَهُ عَذَابٌ مُهِينٌ﴾ [النساء: ١٣ - ١٤].

وكما قال: ﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ [الأحزاب:

[٧١].

وقال النبي ﷺ: «كُلُّ أُمَّتِي يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ إِلَّا مَنْ أَبِي». قالوا: يا رسول الله! ومن يأبى؟ قال: «مَنْ أَطَاعَنِي دَخَلَ الْجَنَّةَ، وَمَنْ عَصَانِي فَقَدْ أَبِي»^(١).

وقال ﷺ: «إِنْ مَثَلِي وَمَثَلُ مَا بَعَثَنِي اللَّهُ بِهِ كَمَثَلِ رَجُلٍ أَتَى قَوْمَهُ، فَقَالَ: يَا قَوْمُ! إِنِّي رَأَيْتُ الْجَيْشَ بَعِثْنِي، وَإِنِّي أَنَا النَّذِيرُ الْعُرْيَانُ؛ فَالْجَاءُ! فَأَطَاعَهُ طَائِفَةٌ مِنْ قَوْمِهِ، فَأَذْلَجُوا، فَانْطَلَقُوا عَلَى مُهْلَتِهِمْ، وَكَذَبَتْ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَأَصْبَحُوا مَكَانَهُمْ، فَصَبَّحَهُمُ الْجَيْشُ، فَأَهْلَكَهُمْ وَاجْتَنَحَهُمْ؛ فَذَلِكَ مَثَلُ مَنْ أَطَاعَنِي وَاتَّبَعَ مَا جِئْتُ بِهِ، وَمَثَلُ مَنْ عَصَانِي وَكَذَّبَ مَا جِئْتُ بِهِ مِنْ الْحَقِّ»^(٢).

فهما طريقان: اتِّبَاعُ الرَّسُولِ ﷺ وَطَاعَتُهُ، أَوْ اتِّبَاعُ الْهَوَى، وَلَيْسَ مِنْ

(١) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٣٦١/٢ والبخاري ٢٤٩/١٣ من طريق فليح بن سليمان عن هلال بن علي عن عطاء بن يسار عن أبي هريرة مرفوعاً.

(٢) حديث صحيح.

أخرجه البخاري ٣١٦/١١ و٢٥٠/١٣ ومسلم (٢٢٨٣) من طريق أبي أسامة عن بُرَيْدٍ عَنْ أَبِي بَرْدَةَ عَنْ أَبِي مُوسَى الْأَشْعَرِيِّ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ بِهِ.

سَبِيلٍ إِلَى ثَالِثٍ، فَمَنْ لَمْ يَتَّبِعِ الرَّسُولَ ﷺ؛ فَلَا بُدَّ أَنْ يَتَّبِعَ الْهَوَى، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَلَا تَتَّبِعِ الْهَوَى فَيُضِلَّكَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ﴾ [ص: ٢٦].

فَاتَّبَاعُ مَحْضِ الْعُقُولِ دُونَ مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ اتِّبَاعٌ لِلْهَوَى، وَعُدُولٌ عَنِ الصِّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

قَالَ تَعَالَى: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ ذَلِكُمْ وَصَّاكُمْ بِهِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾ [الأنعام: ١٥٣].

فَالصِّرَاطُ الْمُسْتَقِيمُ وَاحِدٌ، وَالْحَيْدُ عَنْهُ يَكُونُ إِلَى سُبُلٍ مُتَشَعِّبَةٍ، وَلَقَدْ صَوَّرَ ذَلِكَ النَّبِيُّ ﷺ أَحْسَنَ تَصْوِيرٍ بِأَحْسَنِ عِبَارَةٍ؛ فَعَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: خَطُّ لَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ خَطًّا، ثُمَّ قَالَ: «هَذَا سَبِيلُ اللَّهِ». ثُمَّ خَطَّ خُطُوطًا عَنْ يَمِينِهِ وَعَنْ شِمَالِهِ، ثُمَّ قَالَ: «هَذِهِ سُبُلٌ مُتَفَرِّقَةٌ، عَلَى كُلِّ سَبِيلٍ مِنْهَا شَيْطَانٌ يَدْعُو إِلَيْهِ». ثُمَّ قَرَأَ: ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيمًا فَاتَّبِعُوهُ وَلَا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَنْ سَبِيلِهِ﴾ (٣).

(٣) حديث صحيح.

أَخْرَجَهُ الطَّيَالِسِيُّ رَقْمَ (٢٤٤) وَأَحْمَدُ رَقْمَ (٤١٤٢)، وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «الْكِبَرِيِّ» - كَمَا فِي «تَحْفَةِ الْأَشْرَافِ» ٤٩/٧ - وَالدَّارِمِيُّ رَقْمَ (٢٠٨) وَابْنُ أَبِي عَاصِمٍ فِي «السَّنَةِ» رَقْمَ (١٧) وَابْنُ نَصْرِ فِي «السَّنَةِ» ص: ٥ وَابْنُ الْبَزَارِ رَقْمَ (٢٢١٠) - كَشَفَ الْأَسْتَارَ وَابْنُ حَبَانَ رَقْمَ (١٧٤١، ١٧٤٢ - مَوَارِدُ) وَابْنُ وَضَّاحٍ فِي «الْبَدْعِ» ص: ٣١ وَالحَاكِمُ ٣١٨/٢ وَابْنُ الطَّبْرِيِّ فِي «السَّنَةِ» رَقْمَ (٩٢ - ٩٤) وَالبَغْوِيُّ فِي «شرح السنة» ١٩٦/١ مِنْ طَرَقَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ أَبِي النَّجُودِ عَنْ أَبِي وَائِلٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بِهِ.

وَقَالَ الْحَاكِمُ «حَدِيثٌ صَحِيحٌ إِسْنَادًا».

قُلْتُ: إِسْنَادُهُ جَيِّدٌ.

ولقد كانت هذه الأمة مرحومة في أول عهدها، جمعتها الله على الهدى، وألف بين قلوب أفرادها، وحماها من الهوى، حيث استقامت على طاعة الله ورسوله ﷺ، أولئك أصحاب النبي ﷺ، لم يكونوا يعرفون غير أتباعه وتوقيره وأتباع النور الذي أنزل معه، مستسلمين لما جاء به من الحق، لم يكن لهم قول مع قوله، ولا اعتراض على حكمه.

وصدق عبد الله بن مسعود رضي الله عنه حين قال: «إن الله نظر في قلوب العباد، فوجد قلب محمد ﷺ خير قلوب العباد، فاصطفاه لنفسه، فابتعثه برسالته، ثم نظر في قلوب العباد بعد قلب محمد، فوجد قلوب أصحابه خير قلوب العباد، فجعلهم وزراء نبيه، يقاتلون على دينه، فما رأى

= وقد رواه أبو بكر بن عياش على هذا الوجه عن عاصم عن غير واحد ممن ذكرت، ورواه عن عاصم عن زر عن عبد الله، أخرجه النسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف» ٢٥/٧ - وابن نصر ص: ٥ والحاكم ٢/٢٣٩. وصححه الحاكم ووافقه الذهبي، وإني أحسبه خطأ من أبي بكر بن عياش، فقد تابع عاصماً عليه الأعمش فرواه عن أبي وائل عن عبد الله. أخرجه البزار رقم (٢٢١١ - كشف الأستار) وسنده صحيح. ورواه الربيع بن خثيم عن عبد الله، أخرجه البزار رقم (٢٢١٢) بسند صحيح. وله شاهد من حديث جابر بن عبد الله.

أخرجه أحمد ٣/٣٩٧ وابن ماجه رقم (١١) وابن أبي عاصم رقم (١٦) وابن نصر ص: ٥، ٦ وابن الطبري رقم (٩٥) وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني في «الحجة» ق ٧٥/أ من طريق مجالد عن الشعبي عن جابر به نحوه مرفوعاً. قلت: وإسناده لين، لضعف في مجالد.

قال الحاكم: «وشاهده لفظاً واحداً حديث الشعبي عن جابر من وجه غير

معتمد».

المسلمون حَسَنًا؛ فهو عِنْدَ اللَّهِ حَسَنٌ، وما رَأَوْا سَيِّئًا؛ فهو عِنْدَ اللَّهِ سَيِّئٌ» (٤).

فَخَلَفَ مِنْ بَعْدِهِمْ خَلْفٌ لَمْ يَقْنَعُوا بِوَحْيِ اللَّهِ وَتَشْرِيعِهِ، وَرَأَوْا هُنَاكَ حَاجَةً إِلَى التَّصْحِيحِ وَالزِّيَادَةِ وَالْحَذْفِ، فَأَعْمَلُوا الْعُقُولَ فِي الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ، وَاسْتَدْرَكُوا عَلَى أَحْكَامِ الْحَيِّ الْقَيُّومِ، فَفَرَّقُوا دِينَهُمْ وَكَانُوا شِيعًا، فَتَشَعَّبَتِ السُّبُلُ بِالنَّاسِ، وَوَقَعَ مَا كَانَ يَخْشَاهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى أُمَّتِهِ مِنْ أُتَمَّةٍ الضَّلَالَةِ:

كَمَا قَالَ: «إِنَّمَا أَخَافُ عَلَى أُمَّتِي الْأُتَمَّةَ الْمُضِلِّينَ» (٥).

(٤) أثر جيد الإسناد.

أخرجه أحمد رقم (٣٦٠٠) والبخاري رقم (١٣٠) - كشف الاستار والطبراني في «الكبير» ١١٨/٩ من طريق أبي بكر بن عياش حدثنا عاصم عن زر بن حبیش عن عبد الله بن مسعود به.

قلت: وهذا إسناد جيد، وعاصم هو ابن بهدلة.

ورواه الطيالسي رقم (٢٤٦) والطبراني ١١٨/٩ عن المسعودي عن عاصم عن أبي وائل عن عبد الله والأول أصح، فإن المسعودي اختلط، وروى عنه هذا الحديث الطيالسي وعاصم بن علي، وقد أخذنا عنه بعدما اختلط. وللحديث إسناد آخر عن ابن مسعود.

أخرجه الطبراني ١٢١/٩ من طريق الأعمش عن أبي وائل عن عبد الله، وإسناده حسن.

وإسناد ثالث عن عبد الله أيضاً.

أخرجه الخطيب في «الفيح والمفتق» ١٦٧/١ من طريق الأعمش عن مالك ابن الحارث عن عبد الرحمن بن يزيد قال: قال عبد الله بآخره.

(٥) حديث صحيح.

وَكَمَا قَالَ: «إِنَّ مِمَّا أَخْشَى عَلَيْكُمْ شَهَوَاتِ الْغَيِّ فِي بُطُونِكُمْ وَفُرُوجِكُمْ وَمُضَلَّاتِ الْهَوَى» (٦).

فَوَقَعَ الاختلافُ، وعَظَمَ في الأُمَّةِ، فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهَا عَنِ الْكِتَابِ، وَضَرَبَ آخَرُونَ آيَاتِهِ بِبَعْضِهَا، وَجَادَلُوا بِالْبَاطِلِ لِيُدْحِضُوا بِهِ الْحَقَّ، وَزَيَّنَ ذَلِكَ إِبْلِيسُ فِي أَعْيُنِهِمْ فَرَأَوْهُ حَسَنًا، وَحَسِبُوهُ عَيْنَ الْعَقْلِ وَالْإِسْتِقَامَةِ.

وَلَقَدْ أَخْبَرَ الْمُعْصُومُ ﷺ عَمَّا تَوَلَّى إِلَيْهِ حَالُ الْأُمَّةِ مِنْ بَعْدِهِ، وَدَلَّ عَلَى مَا فِيهِ النُّجَاةُ وَالسَّلَامَةُ:

فَعَنَ الْعَرَبِيَّاضُ بْنُ سَارِيَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ؛ قَالَ: صَلَّى بِنَا رَسُولَ اللَّهِ ﷺ الصُّبْحَ ذَاتَ يَوْمٍ، ثُمَّ أَقْبَلَ عَلَيْنَا، فَوَعظَنَا مَوْعِظَةً بَلِيغَةً؛ ذَرَفَتْ مِنْهَا الْعُيُونُ، وَوَجِلَتْ مِنْهَا الْقُلُوبُ، فَقَالَ قَائِلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ! كَأَنَّ هَذِهِ مَوْعِظَةُ مُودَعٍ؛ فَمَاذَا تَعْهَدُ إِلَيْنَا؟ فَقَالَ: «أَوْصِيكُمْ بِتَقْوَى اللَّهِ، وَالسَّمْعِ وَالطَّاعَةِ،

= أخرجَه أحمد ٢٧٨/٥، ٢٨٤ وأبو داود رقم (٤٢٥٢) والترمذي رقم (٢٢٢٩) والدارمي رقم (٢١٥، ٢٧٥٥) من طريق حماد بن زيد عن أيوب عن أبي قلابة عن أبي أسماء عن ثوبان به مرفوعاً، وبعضهم يذكره ضمن حديث. قلت: وإسناده صحيح، وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح». وله شواهد صالحة الأسانيد من حديث شداد بن أوس وعمر بن الخطاب وأبي ذر وأبي الدرداء...

(٦) حديث صحيح.

أخرجَه أحمد ٤٢٠/٤، ٤٢٣ والبخاري رقم (١٣٢) - كشف الاستار وابن أبي عاصم رقم (١٤) والطبراني في «الصغير» رقم (٥١١) وغيرهم من طريق أبي الأشهب عن أبي الحكم البُنَّاني عن أبي بَرَّةِ الأسلمي مرفوعاً به. قلت: وسنده صحيح.

وإن كان عبداً حبشياً؛ فإنه من يعيش منكم بعدي؛ فسيرى اختلافاً كثيراً؛ فعليكم بسنتي وسنة الخلفاء الراشدين المهديين؛ فتمسكوا بها، وعصوا عليها بالنواجز، وإياكم ومحدثات الأمور؛ فإن كل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة» (٧).

فإنما أن أمته ستختلف من بعده اختلافاً عظيماً، وما ذلك الاختلاف إلا بسبب ما يدخل عليها من البدع والأهواء.

وإنما أن المخرج من ذلك الاعتصام بسنته وسنة الخلفاء الراشدين من بعده، ذلك لأنهم على الهدى المستقيم.

وحذر من سبيل المتفرقين المختلفين أهل الأهواء والبدع.

ولو كان هناك سبيل سلامة يُصار إليه غير هذا الذي ذكر؛ لذل عليه أمته، ولأرشدهم إليه؛ لما وصفه الله تعالى به حيث قال: ﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِنْ أَنْفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُمْ بِالْمُؤْمِنِينَ رَؤُوفٌ رَحِيمٌ﴾ [التوبة: ١٢٨]، فكان في هذا حجة على أن السلامة لا تكون إلا باتباع السنة وسبيل السلف، وترك البدع وسبيل الخلف.

ولقد أنبأنا عن تفرق هذه الأمة من بعده، ودل على طائفة أهل الحق ليحتذى مثالها، فقال: «ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب اختلفوا على ثنتين وسبعين ملة، وإن هذه الملة ستفرق على ثلاث وسبعين، ثنتان وسبعون في النار، وواحدة في الجنة، وهي الجماعة، وإنه سيخرج من

(٧) حديث صحيح جليل، أخرجه أحمد وأصحاب السنن إلا النسائي، ولتفصيل تحقيقه موضع آخر.

أُمِّي أَقْوَامٌ تَجَارِي بِهِمْ تِلْكَ الْأَهْوَاءُ كَمَا يَتَجَارَى الْكَلْبُ لِمَا فِيهِ (أَوْ: بِصَاحِبِهِ) لَا يَبْقَى مِنْهُ عِرْقٌ وَلَا مَفْصِلٌ إِلَّا دَخَلَهُ» (٨).

وإنَّما عَظَّمَ شَرُّ هَذِهِ الطَّوَائِفِ بِسَبَبِ مَا خَرَجُوا بِهِ عَنِ الشَّرِيعَةِ، مِنْ الْخَوْضِ فِي آيَاتِ اللَّهِ بِغَيْرِ الْحَقِّ، وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَتَحْرِيفِ الْكَلِمِ عَنْ مَوَاضِعِهِ، فَفَارَقُوا بِذَلِكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ، وَارْتَضَوْا لِنَفْسِهِمْ مَنَاجِدَ مِنْ وَضَعِ عُقُولِهِمْ وَإِمْلَاءِ أَهْوَائِهِمْ، وَعَصَمَ اللَّهُ طَائِفَةَ أَهْلِ الْحَقِّ بِاتِّبَاعِ الرَّسُولِ ﷺ وَمَا جَاءَ بِهِ وَمَا كَانَ عَلَيْهِ الْجَمَاعَةُ أَصْحَابُ النَّبِيِّ ﷺ؛ لِأَنَّهُمْ رَأَوْا ضَلَالَ سَائِرِ الطَّوَائِفِ وَخُرُوجَهَا عَنْ مَنَهِجِ الصَّحَابَةِ الْكَرَامِ الَّذِينَ كَانُوا أَعْلَمَ الْأُمَّةِ بِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَأَبْعَدَهَا عَنْ مُحَدَّثَاتِ الْأُمُورِ، فَرَفَعَ اللَّهُ بِهَذِهِ الطَّائِفَةِ لِرِوَاءِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَقَمَعَ بِهِمْ أَهْلَ الْبِدْعِ، فَأَظْهَرُوا دَلَائِلَ الْوَحْيِ الشَّرِيفِ، وَأَبَانُوا عَنْهَا بِالْفَهْمِ السَّادِدِ، وَصَوَّبُوا سِهَاماً عَلَى الْمُبْتَدِعَةِ فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ أَسْوَةٌ يَأْتَسُونَ بِهِ إِلَّا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ، وَلَا طَائِفَةٌ يَتَّبِعُونَ إِلَيْهَا إِلَّا أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَلَا خُطَّةٌ يَنْتَهَجُونَهَا إِلَّا خُطَّةُ سَلَفِهِمْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ ﷺ، وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ، فَكَانُوا بِهَذَا أَقْوَمَ النَّاسِ سَبِيلاً، وَأَحْسَنَهُمْ طَرِيقاً.

وَلَقَدْ كَانَ مِنْ أَعْظَمَ مَا حَصَلَ فِيهِ الْاِخْتِلَافُ مَا أَحَدَّثَتْهُ الْمُبْتَدِعَةُ مِنْ

(٨) حديث صحيح .

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤/ ١٠٢ وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٤٥٩٧) مِنْ حَدِيثِ مُعَاوِيَةَ بْنِ أَبِي سَفْيَانَ

مَرْفُوعاً بِهِ، وَسَنَدُهُ جَيِّدٌ.

وَلَهُ شَوَاهِدٌ عَنْ عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ وَأَبِي هُرَيْرَةَ وَأَنْسٍ وَغَيْرِهِمْ، يَصْحَحُ بِهَا الْحَدِيثُ.

وَقَوْلُهُ «الْكَلْبُ»: دَاءٌ يَقَعُ لِلْإِنْسَانِ يَشْبَهُ الْجَنُونَ، يَكُونُ بِسَبَبِ عَضِّ الْكَلْبِ

الْكَلْبِ.

الْخَوْضِ فِي ذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى وَأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، بَلْ كَانَ هَذَا أَعْظَمَ مَا وَقَعَ
مِنَ الْفِتَنِ الَّتِي ابْتُلِيَ بِهَا هَذِهِ الْأُمَّةُ، فَحَصَلَ إِلْحَادُ طَوَائِفَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ
وَصِفَاتِهِ، وَتَكْذِيبُ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، وَرَدُّ لِمَقْطُوعٍ بِهِ مِنْ شَرَائِعِ
الْمُرْسَلِينَ، مِمَّا وَقَعَ بِهِ شَرٌّ عَظِيمٌ، وَفَسَادٌ كَبِيرٌ.

وَكَانَ مِنْ أَحْصَى تِلْكَ الْقَضَايَا الَّتِي طَارَ فِي الْأُمَّةِ شَرُّهَا، وَعَظُمَ فِي
النَّاسِ خَطَرُهَا، مَا أَخَذَتْهُ الْجَهْمِيَّةُ - أَضَلَّ الطَوَائِفَ الْخَارِجَةَ عَنْ أَهْلِ
الْحَقِّ - مِنْ وَصْفِ الْبَارِي تَعَالَى بِالنَّقَائِصِ، وَتَعْطِيلِ صِفَاتِ الْكَمَالِ الَّتِي
أُثْبِتَهَا لِنَفْسِهِ، وَأُثْبِتَهَا لَهُ رَسُولُهُ ﷺ، أَشَدَّ مِمَّا وَقَعَ مِنَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى.

وَمِنْ أُبْرَزِ ذَلِكَ اعْتِقَادُهُمْ أَنَّ لَا كَلَامَ لِلَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَسَوَّوْهُ
بِالْأَصْنَامِ الَّتِي لَا تَرْجِعُ لِعَابِدِيهَا قَوْلًا، وَلَا تَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا.

وَأَرَادُوا بِذَلِكَ إِبْطَالَ الرُّسَالَةِ؛ فَإِنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا بُعِثُوا لِيُبَلِّغُوا رِسَالَاتِ
اللَّهِ؛ فَحِينَ يَنْتَفِي أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ كَلَامٌ؛ فَقَدْ انْتَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْيٌ؛ لِأَنَّ
الَّذِي يُوحَى إِنَّمَا هُوَ كَلَامُهُ وَتَشْرِيعُهُ، وَإِذَا انْتَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ وَحْيٌ؛ فَالرَّسُولُ
رَسُولٌ مَنْ؟ وَمَا يُوحَى إِلَيْهِ وَحْيٌ مَنْ؟

فَلِعَظَمَ الْخُطُورَةِ بِسَبَبِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ، خَاصَّةً وَأَنَّ الْبِدْعَ فِيهَا تَشَعَّبَتْ
وَكَثُرَتْ، وَدِينُ الْإِسْلَامِ يَقُومُ عَلَى صِحَّةِ الْإِعْتِقَادِ فِيهَا، رَأَيْتُ لَذَلِكَ تَنَاوَلَهَا
بِالْخُصُوصِ مِنْ بَيْنِ سَائِرِ مَسَائِلِ الْإِعْتِقَادِ فِي هَذَا الْكِتَابِ.

وَأَكْثَدُ ذَلِكَ عِنْدِي مَا دَخَلَ الْأُمَّةَ - بِسَبَبِ تَلْبِيسِ أَهْلِ الْبِدْعِ - مِنْ
تَهْوِينِ شَأْنِ هَذِهِ الْقَضِيَّةِ الْخَطِيرَةِ، بَلْ وَإِهْمَالِهَا، مَعَ أَنَّ لِلْبِدْعَةِ رُؤُوسًا لَا
زِلْنَا نَرَاهُمْ يُشِيعُونَ مَا يُضَادُّ الْإِعْتِقَادَ الصَّحِيحَ وَيَنْشُرُونَهُ، وَيَدْعُونَ إِلَيْهِ فِي
أَكْثَرِ بِلَادِ الْمُسْلِمِينَ، وَنَرَى أَكْثَرَ إِخْوَانِنَا الدُّعَاةِ فِي الْعَالَمِ الْإِسْلَامِيِّ لَمْ

يستوعبوا خطورة هذا الأمر، فَهُمْ يَهْوَنُونَ مِنْ شَأْنِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَرُبَّمَا اعْتَذَرُوا عَنْهُمْ، وَرُبَّمَا حَسِبَ بَعْضُهُمْ هَذِهِ الْقَضَايَا ثَانَوِيَّةً، بَلْ رُبَّمَا حَسِبَ آخَرُونَ أَنَّهَا لَيْسَتْ مِنْ أَسَاسِيَّاتِ الدِّينِ، وَآخَرُونَ ظَنُّوا أَنَّ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ، بَلْ عُمُومَ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ لَمْ تَعُدْ مِنَ الْمَسَائِلِ ذَاتِ الْخُطُورَةِ، وَفِي الْوَاقِعِ هُنَاكَ مَسَائِلُ أَوْلَى بِالْإِعْتِنَاءِ بِهَا مِنْهَا، وَرُبَّمَا قَالَ الْبَعْضُ: لَقَدْ ذَهَبَ عَهْدُ الْمُعْتَزَلَةِ وَالْفِتْنَةِ الَّتِي لَقِيَهَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ، وَالْمُسْلِمُونَ الْآنَ يَتَعَرَّضُونَ لِأَنْوَاعٍ أُخْرَى مِنَ الْفِتَنِ . . . إِلَى غَيْرِ ذَلِكَ مِمَّا يُشَبِّهُ هَذَا مِنَ التَّلَبُّيسَاتِ الَّتِي يُلْقِيهَا الشَّيْطَانُ عَلَى أَلْسِنَةِ هَؤُلَاءِ.

وَعَفَلُوا عَنْ كَوْنِ مَعْرِفَةِ مَا يَتَعَلَّقُ بِأَسْمَاءِ اللَّهِ تَعَالَى وَصِفَاتِهِ مِنَ الْأَصُولِ الَّتِي بَعَثَ اللَّهُ بِهَا رَسُولَهُ، وَأَنْزَلَ بِهَا كُتُبَهُ، وَالْفِتْنُ الَّتِي حَصَلَتْ بِسَبَبِ أَهْلِ الْبِدْعِ لَمْ تُحْدِثْ هَذَا النَّوْعَ مِنَ الْإِعْتِقَادِ، وَإِنَّمَا نَبَّهَتْ أَهْلَ الْحَقِّ وَاسْتَنْفَرَتْهُمْ لِمُوَاجَهَةِ الْبَاطِلِ، فَقَابَلُوهُمْ بِحُجَجِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، لَا بِالْأَرَآءِ الْمُحَدَّثَةِ، وَالْمَعْقُولَاتِ الْفَاسِدَةِ؛ فَإِنَّ الْأَدْلَةَ عَلَى اعْتِقَادِهِمْ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ وَسُنَّةِ نَبِيِّهِ ﷺ كَانَتْ مُوجُودَةً قَبْلَ وَجُودِهِمْ لِإِثْبَاتِ اعْتِقَادِهِمْ، وَلَمْ يَكُنْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ أَتْبَاعُ السَّلَفِ أَنْ يَتَّبِعُوا أَصُولاً لَمْ يَرِدْ بِهَا كِتَابٌ وَلَا سُنَّةٌ، وَلَوْ كَانُوا كَذَلِكَ؛ فَبِأَيِّ شَيْءٍ إِذَا فَارَقُوا مَنْ سِوَاهُمْ مِنَ الطَّوَائِفِ؟

وَإِنِّي قَائِلٌ لَهُؤُلَاءِ: أَيُّ شَيْءٍ يَكُونُ هَذَا الَّذِي رَأَيْتُمْ تَقْدِيمَ الْإِشْتَغَالِ بِهِ عَلَى إِشْتَغَالِكُمْ بِمَعْرِفَةِ أَصْلِ الْأَصُولِ، وَهُوَ مَعْرِفَةُ الرَّبِّ تَعَالَى، الْأَسَاسُ الَّذِي يَرْتَبِطُ بِهِ قَبُولُ كُلِّ عَمَلٍ، وَعَلَيْهِ تَنْبَنِي سَلَامَةُ الدِّينِ؟ صَحَّحُوا الْأَصُولَ ثُمَّ انْتَقِلُوا إِلَى الْفُرُوعِ.

وَاعْلَمُوا أَنَّ السَّبَبَ الْأَعْظَمَ فِي وَقُوعِ مِثْلِ ذَلِكَ هُوَ الْجَهْلُ بِاعْتِقَادِ

السلف، وأن هؤلاء - أو كثيراً منهم - لما رأوا كتب الأشعرية والماتريدية ومن قبلهم المعتزلة، وما طَفَحَتْ به من الطرق الكلامية والمناهج الفلسفية لإثبات اعتقاداتهم؛ ظنوا هذا اعتقاد أهل السنة، وأكد ذلك أنهم يرون هذه الطوائف ينتسب أصحابها إلى السنة، خاصة الأشعرية والماتريدية، ويذكرون اعتقاداتهم على أنها اعتقادات أهل السنة، وكذا حين رأوا وقوع طائفة من الفضلاء في موافقة تلك الاعتقادات؛ قالوا: كيف يمكن أن تكون هذه العقائد مبتدعة وهي عقائد هؤلاء الجلة؟! غافلين عن الأصل في ذلك: (الحق لا يعرف بالرجال، اعرف الحق تعرف أهله).

فلهؤلاء نقول: ليس اعتقاد السلف والأئمة على ما ظننتم، وليس هؤلاء الذين ظننتم هم أهل السنة أتباع السلف، وما في كتبهم من الكلام والجدل؛ فليس هو من طريقة السلف؛ فاحذروا أن تنقلب عليكم الحقائق فتظنوا الباطل حقاً، والعلم اللازم للخلق مبسوطاً في الكتاب والسنة وكلام السلف أحسن بسط وأيسر، ولو أنكم تبينتم ذلك؛ وجدتموه؛ فليس من يقول: «نعتقد كذا ونثبت كذا وننفي كذا لقول الله ولقول نبيه ﷺ»؛ كمن يقول: «نعتقد كذا على اعتقاد أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي»، أو فلان وفلان، فيفهم الناس أن اعتقادهم هو الحق، ومن ثم يسمى أتباعهم (أهل الحق) و (أهل السنة) وغير ذلك من الألقاب والأوصاف، فيكون الحق عند العامة ما صدر عن طريقهم، وما غداه فهو الباطل.

ولسنا نطالبكم إلا بعرض عقائد الطوائف على الكتاب والسنة والآثار الصحيحة عن السلف، ومثلما تبينتم اعتقادات الرافضة والخوارج

ونحوهم ، فتبيّنوا جميع الاعتقادات التي تُنسبُ إلى أشخاص أو طوائف ، حتى يحكمَ فيها الكتابُ والسُّنة على طريقة السُّلف من الصحابة وأتباعهم .

واعلموا أن كلَّ لقبٍ أو وصفٍ لطائفةٍ أو جماعةٍ لا يصحُّ أن يُقضى به على غيرها حتى تردَّ به الشريعة ، وإن كان التقليدُ مذموماً في فروع المسائل ؛ فأخرى أن يُدّم في أصولها .

ولعلَّك بهذا تدركُ ضرورةَ الاجتهاد لمعرفة حقيقة المُعتقد السُّلفي ، للتفريق بينه وبين اعتقادات أصحاب البدع .

ولعلَّه يحدو بك أكثر إلى طلب معرفة الاعتقاد الصحيح ما يشيع وينتشر في بلاد المسلمين من عقائد أهل الزيغ ، الذين يتظاهرون زوراً أو غفلةً بالانتساب إلى أهل السُّنة ، وتقرّر كتبهم لتُدْرَس في معاهد المسلمين وجامعاتهم على أن ما فيها هو اعتقاد أهل السُّنة ، كما قد رأيناه وجربناه ، فقد كان مُقرراً علينا في أول أيام الطلب ونحن في مقتبل العمر أن ندرُس «شرح العقائد النسفية» للسَّعد التفتازاني ، ولم نكن حينها قد عرَفنا عقيدة السُّلف ، ولكن الله تعالى من علينا بشيخ فاضل هو شيخنا أبو عمر عادل ابن كايد البصري رحمه الله^(٩) ، فشرح لنا اعتقاد السُّلف ، ونبّهنا لما كُنّا

(٩) كان رحمه الله تعالى أفضلَ شيوخنا ، لم أرَ فيهم مثله ، سلفياً في الاعتقاد ، نابذاً للتقليد ، معظماً لأئمة السُّنة ، يقفو أثرَ شيخ الإسلام ابن تيمية ، وكان علامةً في الحديث والتفسير واللغة ، وعنه تلقينا علمَ الحديث والعقيدة ، وهو الذي حَبَّبَ الله إلينا علمَ السُّنة والحديث بسببه ، وقد نَفَعنا الله به كثيراً ، وكانت فيه بذادة وزهادة ، وصبرٌ على الشرح والإيضاح ، توفي سنة (١٤٠٥هـ) رحمه الله ، وأدخله الجنة ووقاه من النار بمنه وكرمه .

نواجهه من عقائد المأثرية المخالفة لاعتقاد أهل السنة؛ فكيف يظن أن ينشأ الطلبة في جامعة أو معهد يتلقون الاعتقاد فيه عن مبتدع؟! فالله المستعان ولا حول ولا قوة إلا بالله.

وكتابي هذا الذي بين يديك للتنبيه على خطورة البدع وأهلها، والتبصير بالاعتقاد السلفي الصحيح، على ما ستره مبسوطاً، إن شاء الله.

ومن أعظم ما حدا بي لتأليفه ما رأيته من كثير من إخواننا من الحيرة في شأن أهل البدع، خاصة الأشعرية الذين ابتلينا بهم في هذا الزمان، يأتي الواحد منهم في الجامعات الإسلامية أو غيرها متستراً ببدعته وضلالته، فيموء على الطلبة المتعلمين، بل وعلى عامة المسلمين، وربما صنفوا المصنفات، ونشروا الكتب، وفي ثايها سموهم التي تفتك بالعقيدة السلفية فتكاً، وإخواننا في حيرة: الأشعرية من أهل السنة؟ أم من أهل البدعة؟ مغترين بما يشوش عليهم به كثير من الناس بأن في الأشعرية أئمة؛ كفلان وفلان، فكيف يصح وصفهم بالبدعة؟!

سبحان الله! لقد كان الحارث المحاسبي مذكوراً بالعلم والزهد والعبادة، ومع ذلك فقد تكلم فيه إمام أهل السنة أحمد بن حنبل، ونفر عنه، وحذر منه لبدعته، وقد كشفنا في كتابنا هذا عن عدة أعيان كأبي بكر الباقلاني وغيره، صرحوا بما يخرجهم عن جملة أهل السنة، مع ما عرفوا به من العلم والديانة، ولم يزل هذي سلفنا في ذلك مشهوراً، وكلامهم فيه مذكوراً، في التحذير من البدع وأهلها؛ صيانة للعقيدة والشريعة.

ولقد فرض الله تعالى العدل والإنصاف، ومن أعظم ذلك التفرق

بين أهل البدعة وأهل السنة، لتعلم طائفة أهل الحق فتتبع، وتُحذَر طوائف أهل البدع فتُجتَنَّب، والحق لا مُحاباة فيه ولا مُجاراة لأحدٍ أياً كان، وجَنابُ العقيدة أغلى من كل جَناب؛ إذ هو الذي بِصَلاحِهِ صَلَاحُ الدُّنْيَا والآخِرَةِ.



التنبية على مسائل يحتاج إليها

قبل الشروع في المقصود

● المسألة الأولى:

من أصول أهل السنة والجماعة: أن العقل المجرد ليس له إثبات شيء من العقائد والأحكام، وإنما مرجع ذلك إلى السمع الذي هو المنقول عن الله تعالى ورسوله ﷺ، والعقل آلة الفهم.

قال الإمام أبو المظفر السمعاني: «اعلم أن مذهب أهل السنة أن العقل لا يوجب شيئاً على أحد، ولا يرفع شيئاً عنه، ولا حظ له في تحليل أو تحريم، ولا تحسين ولا تقبيح، ولو لم يرد السمع ما وجب على أحد شيء، ولا دخلوا في ثواب ولا عقاب»^(١٠).

وقال: «أهل السنة قالوا: الأصل في الدين الاتباع، والمعقول تبع، ولو كان أساس الدين على المعقول؛ لاستغنى الخلق عن الوحي وعن الأنبياء، ولبطل معنى الأمر والنهي، ولقال من شاء ما شاء»^(١١).

(١٠) ذكره عنه تلميذه إسماعيل بن الفضل في «الحجة» ق ٨٢/ب.

(١١) «الحجة» ق ٨٥/أ.

وَأَعْلَمَ أَنَّ مِنَ السَّمْعِ مَا هُوَ مَعْقُولٌ يُمْكِنُ لِلْعِبَادِ أَنْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا،
وَمِنْهُ مَا لَيْسَ بِمَعْقُولٍ لَا يُمْكِنُهُمْ أَنْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا، وَالْأَتْبَاعُ وَالتَّسْلِيمُ فِي
جَمِيعِهِ وَاجِبٌ؛ لِأَنَّهُ الْعِلْمُ الَّذِي لَا يَرِدُ عَلَيْهِ الْبَاطِلُ، وَلَيْسَ لِلشَّيْطَانِ عَلَيْهِ
مِنْ سَبِيلٍ.

عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا؛ قَالَ: لَقَدْ جَلَسْتُ أَنَا وَأَخِي
مَجْلِسًا مَا أَحَبُّ أَنْ لِي بِهِ حُمْرَ النَّعَمِ، أَقْبَلْتُ أَنَا وَأَخِي، وَإِذَا مَشِيخَةٌ مِنْ
صَحَابَةِ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ جُلُوسٌ عِنْدَ بَابٍ مِنْ أَبْوَابِهِ، فَكَّرْهُنَا أَنْ نُفَرِّقَ بَيْنَهُمْ،
فَجَلَسْنَا حَجْرَةً؛ إِذْ ذَكَرُوا آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، فَتَمَارَوْا فِيهَا، حَتَّى ارْتَفَعَتْ
أَصْوَاتُهُمْ، فَخَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مُغَضَّبًا، قَدْ احْمَرَّتْ وَجْهُهُ، يَرْمِيهِم بِالتُّرَابِ،
وَيَقُولُ: «مَهْلًا يَا قَوْمَ! بِهَذَا أَهْلَكْتَ الْأُمَّةَ مِنْ قَبْلِكُمْ، بِاخْتِلَافِهِمْ عَلَى
أَنْبِيَائِهِمْ، وَضَرْبِهِمِ الْكُتُبَ بَعْضُهَا بِبَعْضٍ، إِنَّ الْقُرْآنَ لَمْ يَنْزَلْ يُكَذِّبْ بَعْضُهُ
بَعْضًا، بَلْ يُصَدِّقُ بَعْضُهُ بَعْضًا، فَمَا عَرَفْتُمْ مِنْهُ؛ فَاعْمَلُوا بِهِ، وَمَا جَهِلْتُمْ
مِنْهُ؛ فَرُدُّوهُ إِلَى عَالِمِهِ» (١٢).

قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ: «وَنَزِدُ الْقُرْآنَ إِلَى عَالِمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِلَى اللَّهِ،
فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ» (١٣).

(١٢) حَدِيثٌ جَيِّدٌ الْإِسْنَادُ.

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَقْمَ (٦٧٠٢) مِنْ طَرِيقِ أَبِي حَازِمٍ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ عَنْ أَبِيهِ
عَنْ جَدِّهِ بِهِ.

وَأِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَأَبُو حَازِمٍ هُوَ سَلَمَةُ بْنُ دِينَارٍ ثِقَةٌ.

وَقَدْ رَوَاهُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ عَنْ عَمْرِو بْنِ شُعَيْبٍ، وَهَذَا السِّيَاقُ

أَتَمُّ.

(١٣) رَوَاهُ حَنْبَلٌ بْنُ إِسْحَاقَ فِي «الْمَحَنَةِ» ص: ٤٥ عَنْ أَحْمَدَ.

وهذه العقيدة السلفية خلاف طريقة أهل البدع؛ فإن عقولهم عندهم هي التي تُثبت وتُنفي، والسمع معروض عليها، فإن وافقها قبل، وإن عارضها رد وطرح، وهذا أعظم أسباب الضلال التي دخلت على هذه الأمة.

وَصَدَقَ السَّمْعَانِيُّ حِينَ قَالَ: «فَقَدْ جَعَلُوا عُقُولَهُمْ دُعَاءَ إِلَى اللَّهِ، وَوَضَعُوهَا مَوْضِعَ الرُّسُلِ فِيمَا بَيْنَهُمْ، وَلَوْ قَالَ قَائِلٌ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ، عَقَلِي رَسُولُ اللَّهِ، لَمْ يَكُنْ مُسْتَنَكِرًا عِنْدَ الْمُتَكَلِّمِينَ مِنْ جِهَةِ الْمَعْنَى» (١٤).

قُلْتُ: وما كثرت البدع في هذه الأمة وفشت إلا بتقديم العقول على ما جاء به الرسول ﷺ، وربنا تبارك وتعالى أتم دينه وأكملته، ولم يدع نقصاً لِيُتِمَّمَهُ أصحابُ المعقولات (!) كما قال تعالى: ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتِمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا﴾ [المائدة: ٣]؛ فَمَنْ استدرك بعقله على الشرع؛ فَإِنَّمَا يَسْتَدْرِكُ عَلَى رَبِّهِ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقَّبَ لِحُكْمِهِ﴾ [الرعد: ٤١]، ويقول: ﴿وَرَبُّكَ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ وَيَخْتَارُ مَا كَانَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ﴾ [القصص: ٦٨].

فإذا استقر العلم بهذا في قلوب أهل الإيمان؛ عَقَلُوا أَنَّهُمْ قَدْ كُفُّوا، فَلَمْ يَدْعَ لَهُمُ الشَّرْعُ مَا يَتَكَلَّفُونَ لِإِثْبَاتِهِ، وَمَا هُوَ إِلَّا الْاِتِّبَاعُ وَتَرْكُ الْبِدْعِ؛ كَمَا يَقُولُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ مَسْعُودٍ: «اتَّبِعُوا وَلَا تَبْتَدِعُوا فَقَدْ كُفَيْتُمْ، وَكُلُّ بَدْعٍ ضَلَالَةٌ» (١٥).

(١٤) «الحجة» ق ٨٣/أ.

(١٥) أثر صحيح.

أخرجه أحمد في «الزهد» ص: ١٦٢ ووُكِّعَ في «الزهد» أيضاً رقم (٣١٥) =

فهذا أصل من الأصول التي فارق بها أهل السنة أصحاب البدع.

● المسألة الثانية:

تسمية المبتدعة علم التوحيد الذي هو أشرف العلوم وأزكاها بعلم الكلام من أظلم الظلم وأبطل الباطل.

ذلك لأن علم التوحيد مَصْدَرُهُ الْوَحْيُ الْمَعْصُوم، وعلم الكلام مَصْدَرُهُ الْجَدَلُ الْمَذْمُوم؛ فأتين هذا من هذا؟

إن ما أحدثته المبتدعة من الجدل والخُصومات، مما ادَّعوا أنه أحسن الطرق لمعرفة الله تعالى ودين الإسلام، مما هو مخض العقول التي لم تقوم بمنهج الرسول ﷺ، وإنما قومت برأي جهم وطريقة بشر بن غياث، المستمدة من طريقة أهل الكتاب ومن رأي عبادة الكواكب، الذي فتنوا به المؤمنين والمؤمنات، هو الذي سمَّوه بـ «علم الكلام»، تلقَّفه عنهم ابن كلاب والأشعري وأبو منصور الماتريدي وأمثالهم من أهل البدع، فحلَّوه ببعض السَّمْعيات، فأخرجوه للناس على أنه علم التوحيد، وصاروا يقولون: علم الكلام: هو علم التوحيد، وهو أشرف العلوم؛ لتعلقه بذات الله وأسمائه وصفاته، وهو على هذا المعنى يُدرَّس اليوم في مدارس المسلمين ومعاهدهم وجامعاتهم إلا من عافى الله.

ولكن ولله الحمد ألقى الله تعالى على ألسنتهم براءتهم من توحيد

= والدارمي رقم (٢١١) وابن نصر في «السنة» ص: ٢٣ وابن وضاح في «البدع» ص: ١٠ والطبراني في «الكبير» ١٦٨/٩ وابن مجاهد في «السبعة» ص: ٤٦ وابن الطبري في «السنة» رقم (١٠٤) والبيهقي في «المدخل» رقم (٢٠٤) وسنده صحيح.

الرَّسُولَ ﷺ، فتراهم يقولونَ في واضح هذا العِلْم: واضعه أبو الحسن الأشعري وأبو منصور الماتريدي، وهذا إنصافٌ من أنفسهم؛ فإنَّهم إنَّما يُوحِّدون الله بِجَدَلِ الأشعريِّ والماتريدي، لا باتِّباعِ الرَّسُولِ ﷺ وسَلَفِ الأُمَّة.

واعلم - وفَقَّكَ الله - أنَّ السَّلَفَ كانوا من أشدَّ الناس نفرةً وتنفيراً من الكلام وأهله.

قال البغوي رحمه الله: «وَاتَّفَقَ علماء السَّلَفِ من أهل السُّنَّةِ على النهي عن الجدال والخُصوماتِ في الصِّفَاتِ، وعلى الزُّجرِ عن الخَوْضِ في علم الكلام وتعلِّمه» (١٦).

وقال الشافعي رحمه الله: «لأنَّ يُبْتَلَى العَبْدُ بِكُلِّ ما نَهَى الله عنه سوى الشُّركِ، خَيْرٌ له من الكلام، ولقد أَطْلَعْتُ من أصحابِ الكلام على شَيْءٍ ما ظَنَنْتُ أَنَّ مُسْلِمًا يَقُولُ ذَلِكَ» (١٧).

وقال: «مَنْ أَظْهَرَ العَصِيَّةَ والكلامَ، ودَعَا إليها؛ فهو مردودُ الشَّهادة، ولأنَّ يَلْقَى العَبْدُ رَبَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِكُلِّ ذَنْبٍ ما خَلا الشُّركَ خَيْرٌ له من أن يلقاه بشيءٍ من الأهواء» (١٨).

وقال الإمام أحمد رحمه الله للمعتصم أَيَّامَ المَحَنَةِ: «ولستُ صاحبَ مِرَاءٍ ولا كلامٍ، وإنَّما أنا صاحبُ آثارٍ وأخبارٍ» (١٩).

(١٦) «شرح السنة» ٢١٦/١.

(١٧) رواه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» ص: ١٨٢ بسند صحيح.

(١٨) رواه إسماعيل بن الفضل في «الحجة» ق ٧/ب بسند صحيح.

(١٩) رواه حنبل في «المحنة» ص: ٥٤ عنه.

والفاظ الأئمة في ذلك لا تدخل تحت الحصر، ولكن أهل البدع - خاصة من المنتسبين إلى الأئمة الفقهاء في الفروع - يتأولون كلام الأئمة في ذم الكلام على أنهم يريدون الكلام الذي يناقض الكتاب والسنة!! سبحانه الله! وهل في علم الجدل والكلام إلا ما يناقض الكتاب والسنة؟! ولو لم يكن هناك دليل إلا الإحداث؛ لكفى به مناقضة للكتاب والسنة.

وأيضاً؛ فلو كان موافقاً للكتاب والسنة، وقد دل عليه الدليل السمعي؛ فلنأخذ دُخْلَه في علم الكلام.

وهذه الطريقة كانت طريقة السلف؛ فإنهم وقعت من كثير منهم مناظرات لأهل البدع واحتجاجات عليهم، لكن بدلائل الكتاب والسنة، لم يخرجوا إلى شيء من البدع شأن المرادين بالذم من أهل الكلام، ولم يكن السلف يعرفون الكلام إلا محدثات الأمور التي لم يرد في شيء منها نص كتاب ولا سنة، خلافاً لكم أيها المبتدعة من أتباع الأشعري والماتريدي، ممن تتظاهرون بالانتساب للأئمة؛ فإن كلامكم ليس من قبيل مناظرات السلف، وإنما هو من قبيل جدل المعتزلة وأصحاب البدع، وكتبكم شاهدة على ذلك، وخروجكم عن طريقة السلف في غالب مسائل الاعتقاد وأصوله من أكبر الأدلة على وقوعكم في الكلام المذموم، ولكن هذه حيدة أردتم التلبيس بها على الناس؛ لئلا يقال: إنكم خالفتم السلف حيث نهوا عن علم الكلام وذمموه.

● المسألة الثالثة:

طريقة السلف في العقائد والأحكام أحسن الطرق، وهي الوسط،

وهي الأعلَم والأحكَم والأسلم، وليس فيها شيء من البدع.

ووجوه توضيح هذا المعنى كثيرة؛ فمن ذلك:

— أنهم عاصروا التشريع وعایشوه، فعلموا مواقع التنزيل، وورود الأدلة على الوقائع والأحوال.

— وأن خطاب الشارع متوجه إليهم في الأصل وهم المرادون به قبل غيرهم.

— وهم أهل الفصاحة والبيان، والوحي جاء بلسانهم، ورسول الله ﷺ يوضح لهم ما يشكّل عليهم بلغتهم.

— والنصوص في الكتاب والسنة الدالة على فضلهم وعلو قدرهم قد تواترت، وهذه المنزلة لم ينالوها إلا بما لهم من سبق في سبل الخير.

— وقد جعل الله تعالى لهم الإمامة في الدين لمن بعدهم، وأثنى على من تبعهم وسلك سبيلهم، وإنما نال التابع الفضل لفضل المتبوع؛ كما قال تعالى: ﴿وَالسَّابِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالْأَنْصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُمْ بِإِحْسَانٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ﴾ [التوبة: ١٠٠].

— يؤكده خلو زمانهم من البدع والأهواء والجدل والمراء، وإقبالهم على العلم، ولا يرتاب المسلم العارف في أن التوفيق للمقبل على ما فيه رضى ربه وطاعته والإعراض عما يفسد القلب من البدع والأهواء مضمون.

إلى غير ذلك من الوجوه الدالة على استقامة طريقتهم، وكونهم أسلم الأمة اعتقاداً، وأعلمها بالله ودينه، وأحكمها منهجاً.

وهذا يُفْسِدُ قَوْلَ بَعْضِ مُتَنَقِّصِي السَّلَفِ والجاهِلِينَ بِأَقْدَارِهِمْ :
«طَرِيقَةُ السَّلَفِ أَسْلَمٌ ، وَطَرِيقَةُ الْخَلْفِ أَعْلَمٌ وَأَحْكَمٌ» .

وَلَا يَخْفَى مَا تَضَمَّنَتْ هَذِهِ الْمَقَالَةُ مِنَ الْبَاطِلِ عِنْدَ الْعَارِفِ بِعَقِيدَتِهِ
وَدِينِهِ مِنْ أَهْلِ الْإِسْلَامِ ؛ إِذْ هِيَ مَبْنِيَّةٌ عَلَى تَفْضِيلِ الْخَلْفِ - وَالْمُرَادُ بِهِمْ
عِنْدَ صَاحِبِ الْمَقَالَةِ : الَّذِينَ امْتَاذُوا بِمَعْرِفَتِهِمْ بِالْجَدَلِ وَعِلْمِ الْكَلَامِ وَكَانَ
لَهُمْ فِيهِ قَدَمُ السَّبْقِ - عَلَى اخْتِيَارِ هَذِهِ الْأُمَّةِ ، عَلَى السَّلَفِ الْكِرَامِ : أَصْحَابِ
النَّبِيِّ ﷺ وَالتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، الَّذِينَ لَمْ يَشْتَغَلُوا بِالْجَدَلِ الْبَاطِلِ ، وَلَا
بِالْكَلَامِ الْمَذْمُومِ ، وَأَمَّنُوا بِمَا جَاءَ عَنِ اللَّهِ عَلَى مُرَادِ اللَّهِ ، وَمَا جَاءَ عَنِ رَسُولِ
اللَّهِ ﷺ عَلَى مُرَادِ رَسُولِهِ ﷺ ، الَّذِينَ وَقَفُوا عَنِ عِلْمِ حِينٍ وَقَفُوا ، وَتَكَلَّمُوا
بِعِلْمٍ حِينَ تَكَلَّمُوا ، وَالَّذِينَ لَمْ يَعْرِفِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدٌ مَعْرِفَتَهُمْ بَعْدَ رُسُلِهِ
وَأَنْبِيَائِهِ .

وَلَسْتُ أَدْرِي كَيْفَ يَخْفَى فَسَادُ الْمَقَالَةِ عَلَى أَحَدٍ تَذَوَّقَ طَعْمَ الْعِلْمِ ،
أَوْ كَانَ عِنْدَهُ ذَرَّةٌ مِنْ وَرَعٍ ، وَإِنِّي لَسْتُ أَرَى لِهَذَا الْقَائِلِ شَبَهًا إِلَّا بِالرَّافِضَةِ ؛
إِلَّا أَنَّهُ لَمَّا كَانَ أَشْعَرِيًّا - اعْتَادَ عَلَى طَرِيقَةِ أَصْحَابِهِ التَّقِيَّةِ فِي كَثِيرٍ مِنَ
الْمَسَائِلِ - زَيَّنَ مَقَالَتهُ بِوَصْفِ طَرِيقَةِ السَّلَفِ بِالسَّلَامَةِ ، وَغَفَلَ الْمَسْكِينُ
حَيْثُ وَصَفَ الْخَلْفَ بِالْعِلْمِ وَالْحِكْمَةِ أَنَّهُ شَبَّهَ السَّلَفَ بِالصُّمِّ الْبُكْمِ الَّذِينَ
لَا يَعْقِلُونَ ؛ لِأَنَّهُمْ عَلَى تَفْسِيرِ هَذَا الْمُبْطَلِ كَانُوا عَاجِزِينَ عَنِ نَيْلِ الْعِلْمِ
وَالْحِكْمَةِ الَّتِي حَصَلَهَا هُوَ وَأَشْبَاهُهُ ، فَكَانُوا يَحْمِلُونَ الْقُرْآنَ وَالسُّنَنَ وَلَا
يَدْرُونَ مَا فِيهَا ؛ لِأَنَّهُمْ لَمْ يَقْدِرُوا عَلَى التَّأْوِيلِ ، وَلَمْ يَتَوَرَّطُوا فِي التَّعْطِيلِ ،
وَهَذَا الْمُبْطَلُ وَأَشْبَاهُهُ خَاضُوا الْبَحْرَ الَّذِي وَقَفَ عِنْدَهُ السَّلَفُ ، فَعَلِمُوا مِنْ
الْأَسْرَارِ وَالْحِكْمَةِ مَا لَمْ يَذَرِهِ السَّلَفُ ؛ فَبِهَذَا كَانُوا الْأَعْلَمَ وَالْأَحْكَمَ !

سبحان الله! أي علم وأي حكمة يُحصِّلها مَنْ كانت بضاعته اللغو والجَدَل والكلام الذي لا يورث إلا قسوة القلوب بل والحيرة والشك!؟ فإن رؤوس هؤلاء والأعلام فيهم، من ذوي الأقدام الراسخة، أمثال: إمام الحرّمين، والشهرستاني، والرازي، والأُمدي، عاشوا غالب الأعمار في الحيرة والشك، مع ما حصّلوا من المعرفة بالكلام والجَدَل، ومُناظرة مُخالفيهم من أهل الأهواء، حتى تكون خاتمة الواحد منهم أن يسأل ربّه الموت على دين العجائز.

فأقبل - رَحِمَكَ الله - على طريقة سلفك الكرام، واعتصم بسبيلهم.

قال الأوزاعي رحمه الله: «عليك بآثار مَنْ سلف وإن رفضك الناس، وإياك ورأي الرُّجال وإن زخرفوه بالقول؛ فإن الأمر ينجلي وأنت منه على طريق مستقيم» (٢٠).

وقال: «فاصبر نفسك على السُّنة، وقف حيث وقف القوم، وقُل فيما قالوا، وكفّ عما كفّوا عنه، واسلك سبيل سلفك الصالح؛ فإنه يسعك ما وسعهم» (٢١).

● المسألة الرابعة:

أهل البدع والكلام لا يميّزون اعتقاد السلف من غيره، وربما لم

(٢٠) رواه البيهقي في «المدخل» رقم (٢٣٣) وسنده صحيح.

(٢١) رواه قوام السنة إسماعيل بن الفضل في «الحجة» ق ٦/١ - ب وسنده

صحيح.

يَعْرِفُوهُ؛ فلذا تجدهم يذكرون في كتبهم في العقائد والفرق اعتقاد جميع الطوائف، وحين يذكرون اعتقاد السلف لا يذكرونه على ما هو عليه؛ فإنك ترى العارف فيهم يَصِفُ مذهب السلف في الصفات بأنهم كانوا مفوضة، لا يذكرون ما معاني الصفات، وهذا جهل على السلف؛ فإنهم كانوا أعظم الناس فهماً وتدبراً لآيات الكتاب وأحاديث النبي ﷺ، خاصة ما يتعلق بمعرفة الله تعالى، فكانوا يذكرون معاني ما يقرؤون ويحملون من العلم، ولكنهم لم يكونوا يتكلمون الفهم للغيب المحجوب، فلم يكونوا يخوضون في كَيْفِيَّاتِ الصفات، شأن أهل الكلام والبدع؛ فإن هؤلاء حين خاضوا في ذات الله وصفاته، ووقعوا في التأويل والتعطيل، إنما ألجأهم إلى ذلك الضيق الذي دخل عليهم بسبب التشبيه، فأرادوا الفرار منه، فوقعوا في التعطيل، ولم يَقْعْ تعطيل إلا بتشبيه، ولو أنهم نزهوا الله تعالى ابتداءً - كفعل السلف - عن مشابهة الخلق، وأثبتوا الصفة مع نفي المماثلة؛ لَسَلِمُوا وَنَجَوْا، ولوافقوا اعتقاد السلف، ولَبَانَ لهم أَنَّ السلف لم يكونوا حَمَلَةً أسفار لا يذكرون ما فيها.

قال شيخ الإسلام ابن تيمية وهو يصف طريقة السلف في باب الاعتقاد: «ومن تدبر كلام أئمة السنة المشاهير في هذا الباب؛ علم أنهم كانوا أدق الناس نظراً، وأعلم الناس في هذا الباب، بصحيح المنقول وصريح المعقول، وأن أقوالهم هي الموافقة للمنصوص والمعقول، ولهذا تألف ولا تختلف، وتتوافق ولا تتناقض، والذين خالفوهم لم يفهموا حقيقة أقوال السلف والأئمة، فلم يعرفوا حقيقة المنصوص والمعقول، فتشعبت بهم الطرق، وصاروا مختلفين في الكتاب، مخالفين للكتاب، وقد قال

تعالى: ﴿وَإِنَّ الَّذِينَ اخْتَلَفُوا فِي الْكِتَابِ لَفِي شِقَاقٍ بَعِيدٍ﴾ [البقرة: ١٧٦] (٢٢).

وهؤلاء تراهم يذكرون المذهب، يَحْسِبُونَهُ مذهبَ السَّلَفِ، وهو من كلام أهل البدع، وإنما ذلك لجَهْلِهِم بالمنقولِ عن السَّلَفِ، بل رُبَّمَا وافقَ ذَكَرُهُم بعضُ أقوالِ السَّلَفِ، يَحْسِبُونَهَا مِنْ أقوالِ أهلِ البدع، فيردُّونَهَا وَيَسْتَنكِرونها، بل رُبَّمَا كَفَرُوا القائلَ بها مِنْ غيرِ أَنْ يَعْلَمُوا أَنَّهَا مذهبُ السَّلَفِ واعتقادُهُم.

ولذلك فقد يَصِفُونَ اعتقادَ السَّلَفِ بأنه اعتقادُ المجسِّمة، أو المشبَّهة، أو الحشوية (٢٣).

سبحان الله! إن قلوبَ أصحابِ البدع تتشابه؛ فإنَّ الجهمية - أوَّلُ الأمر - كانوا يَصِفُونَ بذلك أئمةَ السُّنَّةِ وَمَنْ يُتَابِعُهُمْ، ثُمَّ لَمَّا مضى العهدُ فظَهَرَ الأشعريةُ والماتريديةُ وأشباهُهم؛ كانت هذه الأوصافُ لأهلِ السُّنَّةِ على ألسنتِهِم.

وهذه الأوصافُ إنما يُطلقها أهلُ البدع على أهلِ السُّنَّةِ لِيُنْفِرُوا الخلقَ عن اعتقادِ السَّلَفِ، ويرغبوهم في بدعهم، خاصَّةً وأنَّهم يصفون أنفسهم بمقابل ذلك بأنَّهم أهلُ السُّنَّةِ.

(٢٢) «درء تعارض العقل والنقل» ٣٠١/٢.

(٢٣) بل إنني رأيت بعض هؤلاء المبتدعة جعل اعتقادَ السلف الصحيح القويم هو اعتقادِ المعزلة والكرامية، ذلك هو ابن خليفة عليوي الأشعري، الهالك في تعصُّبه ضدَّ أهلِ السنة في كتابه المحشو بالأغاليط الذي سَمَّاهُ زوراً «هذه عقيدة السلف والخلف في ذات الله وصفاته وأفعاله...».

ولقد أدرك ذلك أئمتنا الأوائل، فجعلوا من شعار الجهمية والزنادقة وصفهم أهل السنة بهذه الأوصاف.

قال الإمام أبو حاتم الرازي: «علامة أهل البدع: الوقعة في أهل الأثر، وعلامة الزنادقة: تسميتهم أهل السنة حشوية، يريدون إبطال الآثار، وعلامة الجهمية: تسميتهم أهل السنة مشبهة، وعلامة القدرية: تسميتهم أهل الأثر مجبرة، وعلامة المرجئة: تسميتهم أهل السنة مخالفة ونقصانية، وعلامة الرافضة: تسميتهم أهل السنة ناصبة، ولا يلحق أهل السنة إلا اسم واحد، ويستحيل أن تجمعهم هذه الأسماء» (٢٤).

قلت: أراد يلحقهم اسم أهل السنة دون هذه الأسماء.

وقال الإمام الحافظ أحمد بن سنان الواسطي: «المشبهة الذين غلوا فجاوزوا الحديث، فأما الذين قالوا بالحديث؛ فلم يزدوا على ما سمعوا؛ فهؤلاء أهل السنة، والمتمسكون بالصواب والحق، وليس هم بالمشبهة، ما شبهوا هؤلاء، إنما آمنوا بما جاء به الحديث، هؤلاء مؤمنون مصدقون بما جاء به النبي ﷺ والكتاب والسنة» (٢٥).

فالسلف والأئمة لم يكونوا كما يصفهم هؤلاء المبتدعة، وكيف يُظن ذلك بحملة القرآن والسنة والآثار؟!

ولكن أهل البدع أعداء السنن أرادوا أن يعرض الناس عن السنن،

(٢٤) رواه ابن الطبري في «السنة» ١/١٧٩ بسند صحيح، وانظر: ص

(٢٥) رواه إسماعيل بن الفضل في «الحجة» ق ٣٢/١ بسند صحيح.

فكذبوا على أهلها.

● المسألة الخامسة:

إطلاق الألفاظ المجملة التي لم ترد في الكتاب والسنة في أبواب الاعتقاد من طريقة أهل البدع وليس من طريقة السلف.

وقد ذكرت في هذا الكتاب بعض هذه الإطلاقات؛ كإطلاقهم القول في مسألة اللفظ وغيرها، وأبنت عن كون هذه الطريقة ليست هي طريقة السلف، وطريقة السلف إنما هي إطلاق ما أطلقه الكتاب والسنة، أما ابتداع ألفاظ لم ترد في الكتاب والسنة؛ فليس من مذهب السلف، وقد استنكر الأئمة كأحمد وغيره تلك الإطلاقات المبتدعة التي ظهر بها أهل البدع.

قال شيخ الإسلام: «إن الأئمة الكبار كانوا يمنعون من إطلاق الألفاظ المبتدعة المجملة المشتبهة؛ لما فيها من لبس الحق بالباطل، مع ما توقعه من الاشتباه والاختلاف والفتنة؛ بخلاف الألفاظ المأثورة، والألفاظ التي بينت معانيها؛ فإن ما كان مأثوراً حصلت به الألفة، وما كان معروفاً حصلت به المعرفة، كما يروى عن مالك رحمه الله أنه قال: إذا قلّ العلم ظهر الجفاء، وإذا قلّت الآثار كثرت الأهواء، فإذا لم يكن اللفظ منقولاً، ولا معناه معقولاً، ظهر الجفاء والأهواء...» (٢٦).

هذه بعض التنبيهات التي يحتاج إليها لتوضيح ما قد يشكّل، أولدفع إيهام، وكذا لتوضيح منهجي العام في هذا الكتاب.

(٢٦) «درء تعارض العقل والنقل» ١/ ٢٧١.

مجلد خطه تأليف الكتاب

الخطّة التي انتهجتها في تأليف هذا الكتاب هي أنّي فصلت الكلام والاستدلال لإثبات العقيدة السلفية في كلام الباري تعالى ، وعقدت لذلك باباً مستقلاً ، وهو الباب الأول .

ثم تناولت قضية اللفظ بالقرآن ، فوضّحتها بما يزيل عنها الإشكال إن شاء الله ، مع الذبّ عن الإمامين أحمد والبخاري ، وتبرئتهما مما نسب إليهما من ذلك ، وذلك في الباب الثاني .

وفي الباب الثالث تناولت اعتقادات الفرق المبتدعة المنتسبة إلى أهل القبلة ، فذكرتها إجمالاً ، ثم عيّنت بتفصيل الردّ على الجهمية المعتزلة ؛ لأنهم أصل البلية في هذه القضية ، ثم أفردت فصلاً مطوّلاً لبسط اعتقاد الأشعرية والردّ عليهم ، وذلك لتوضيح الصورة أمام من خفيهم حالهم ، فهم بين مُتَسَبِّب إليهم ، أو مُدافع عنهم ، أو مُتواطىء معهم ، أو مُعتذر عنهم .

وتخلّلت جميع ذلك مباحث عامة لرفع بعض الإشكالات ودفع بعض الإيهامات .

وشرّطي في كتابي أن لا أورد للاحتجاج والاستشهاد إلا ما ثبت
إسناده إلى قائله، ولست أقلّد في ذلك، وإنما أتابع النصوص بنفسي،
وأحكم عليها باجتهادي.

وعُنيت بأقوال السلف والأئمة في عامّة المسائل إن وقفت عليها
بالإسناد الثابت، وخاصّةً كلام إمام السنة أحمد بن حنبل؛ فإنه الإمام
القدوة في ذلك، وسائر أهل السنة بعده يعتزّون بالانتساب إلى طريقته؛
لأنّها طريقة السلف الكرام، بسطها ونصرها، فرحمه الله ورضي عنه وسائر
إخوانه من الأئمة.

ولقد انتفعت كثيراً بكتب شيخ الإسلام ابن تيمية وطريقته، بل إنني
ربّما حذوت حذوه في كثير من المسائل، إلى جانب ما أورده عنه من النقل
في ثنايا الكتاب، وحيث أطلقت (شيخ الإسلام)؛ فإنّما أعنيه.

وقد سمّيته: «العقيدة السلفية في كلام ربّ البرية، وكشف أباطيل
المبتدعة الرديّة».

وإني لأرجو الله تعالى أن يكون تذكرة لأولي الألباب، يوقظهم من
غفلة، ويُنْبههم لخطورة شأن أهل البدع، ويُقبلوا على فهم اعتقاد سلفهم
والدفاع عنه، فإنّ الاشتغال بعُلوم الاعتقاد أشرف الأعمال وأزكاها.

والله أسأل أن يغفر لي زلّتي، ويقبل مني ما خطّط يدي، إنّه نعم
مسؤول، وهو حسبي ونعم الوكيل.

وكتب

الكويت

أبو محمد عبد الله بن يوسف الجديع

الثلاثاء ٢٧ جمادى الأولى ١٤٠٧ هـ



الباب الأول

العقيدة السلفية في كلام رب البرية

وفيه ثلاثة فصول:

- = الفصل الأول: بيان حقيقة الكلام.
- = الفصل الثاني: عقيدة السلف في إثبات الصفات.
- = الفصل الثالث: شرح اعتقاد السلف في كلام الله تعالى.

الفصل الأول

بيان حقيقة الكلام

وفيه ثلاثة مباحث:

- = المبحث الأول: حقيقة الكلام.
- = المبحث الثاني: حقيقة المتكلم.
- = المبحث الثالث: أنواع الكلام.

المبحث الأول حقيقة الكلام

الكلامُ في لغة العرب التي بها نزل القرآن كما يقول ابن فارس رحمه الله: «يدلّ على نُطقٍ مُفهم، تقول: كَلَّمْتُهُ، أَكَلَّمْتُهُ تَكْلِيمًا، وهو كَلِيمِي، إِذَا كَلَّمَكْ أَوْ كَلَّمْتَهُ»^(١).

فقوله: «نطق» للدلالة على أنه لفظ اللسان.

وقوله: «مُفهم» للدلالة على كونه معنى.

فهو إذاً لفظ ومعنى.

وكذلك القول.

ولفظ «الكلام» و«القول» مما تُعَلِّمُ حَقِيقَتُهُ ضرورةً، ووَقَرُ في نفس كل عاقل من خلق الله معرفةً ماهيةً هُذَيْنِ اللفظين، لأنَّهُما صفتان لازمتان لكل من وُصِفَ بأنه «متكلم، قائل» ومن المحال إطباق جميع العقلاء على الجهل بتصورهما.

فكل عاقل متصورٌ مدركٌ أن كلَّ ما نطقَ به اللسان من الألفاظ

(١) «معجم مقاييس اللغة» ١٣١/٥.

المفيدة للمعاني فهو كلام ، أو قول .

وحين يخبر مخبرٌ فيقول : «تكلّم زيد بكذا» أو «قال زيد كذا وكذا» يتصوّر السامع أن لسانَ زيد تَلَفَّظَ بالفاظٍ دلّت على معنى كان قائماً في نفس زيد ، لا يفهم السامع أن زيدا أضمرَ في نفسه معنى مجرداً ، بل لو لم يكن زيد تَلَفَّظَ بلسانه بما أضمر في نفسه كان المُخبر كاذباً في إخباره : أن زيدا تكلّم .

وأيضاً ، فإن السامع لا يفهم أن زيدا هذى هذياناً ليس له معنى فسمّاه المخبرُ كلاماً ، أو قولاً ، وإنما يفهم أنه تكلّم بكلامٍ ، وقال بقولٍ ، مؤلف من الحروف التي هي الألفاظ المشتملة على المعاني .

ولا يُعقل بحال كلامٌ مجردٌ عن المعنى ، أو مجردٌ عن اللفظ ، إلاّ بقرينة تقيده بأحد الحالين .

فبات بهذا أن «الكلام» و«القول» إنما يُطلقان على ما كان لفظاً ومعنى ، لا لفظاً مجرداً ، ولا معنى مجرداً .

وأنبّه على أن القولَ يفارق الكلامَ من حيث وقوع المجاز فيه بأوسع من وقوعه في الكلام^(٢) ، لكنّ هذا غيرُ مراد فيما ذكرناه ، لأن ما حقّقناه إنما هو حقيقة اللفظين لا مجازهما .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : «وعامة ما يوجد في الكتاب والسنة وكلام السلف والأئمة ، بل وسائر الأمم عربهم وعجمهم من لفظ : الكلام ، والقول ، وهذا كلام فلان ، أو كلام فلان ، فإنه عند إطلاقه يتناول اللفظ

(٢) انظر : «تأويل مشكل القرآن» لابن قتيبة ص : ١٠٩ .

والمعنى جميعاً، لشموله لهما، ليس حقيقة في اللفظ فقط - كما يقوله قومٌ - ولا في المعنى فقط - كما يقوله قومٌ - ولا مشترك بينهما - كما يقوله قومٌ - ولا مشترك في كلام الأدميين، وحقيقة في المعنى في كلام الله - كما يقوله قومٌ -»^(٣).

وقال الحافظ الإمام أبو نصر السُّجزي - رحمه الله -: «لم يكن خلافٌ بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كُلاب^(٤) والقلانسي^(٥) والأشعري^(٦)، وأقرانهم... من أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً، ذا تأليفٍ واتِّساقٍ، وإن اختلفت به اللغات...»^(٧).

ومن الدلائل على صِحَّة ما ذكرنا ما يلي :

١ - إطباق سائر الأمم والطوائف - سوى بعض أهل البدع أمثال ابن

(٣) «مجموع الفتاوى» ١٢/٤٥٦ - ٤٥٧.

ويشير بقوله: «كما يقوله قوم» إلى ما أحدثته المبتدعة في تعريف الكلام، ليطلوا أن يكون كلامُ الله تعالى حروفاً وكلماتٍ.

(٤) هو أبو محمد عبد الله بن سعيد بن كُلاب القُطَّان البصري، وإليه تنتسب طائفة «الكلَّابية» وعلى طريقته جرى أبو الحسن الأشعري وغيره، وسيأتي شيء من ذكر حاله في الباب الثالث.

(٥) هو أبو العباس أحمد بن عبد الرحمن القلانسي الرازي، مذكور في أقران أبي الحسن الأشعري الآتي، وكان على شاكلته في الاعتقاد.

(٦) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل الأشعري، وإليه تنتسب طائفة «الأشعرية» وسيأتي ذكر بعض حاله في الباب الثالث.

(٧) «درء تعارض العقل والنقل» ٢/٨٣.

كُتَاب - على تناول «الكلام» و«القول» للفظ والمعنى جميعاً، كما ذكرناه عن السَّجْزِي وشيخ الإسلام.

٢ - قوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨].

هذه الآية ظاهرة في كون المنفي عنهم الكلام الذي هو اللفظ والمعنى جميعاً، إذ الخطاب لهم لا يكون معنى مجرداً يقوم في أنفسهم، ولا لفظاً مجرداً غير دالٍّ على معنى.

٣ - وقوله تعالى: ﴿وَيَنْذِرُ الَّذِينَ قَالُوا اتَّخَذَ اللَّهُ وَلَدًا . مَا لَهُمْ بِهِ مِنْ عِلْمٍ وَلَا لِآبَائِهِمْ كَبُرَتْ كَلِمَةً تَخْرُجُ مِنْ أَفْوَاهِهِمْ إِنَّ يَقُولُونَ إِلَّا كَذِبًا﴾ [الكهف: ٤ - ٥].

فاطلق الكلمة على اللفظ الخارج من الأفواه.

وكذلك سائر ما جاء في كتاب الله تعالى من إطلاق لفظ الكلام مراداً به الحقيقة.

ومثله القول.

قال تعالى: ﴿لَا يَسْبِقُونَهُ بِالْقَوْلِ وَهُمْ بِأَمْرِه يَعْمَلُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٧].

٤ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«إِنَّ اللَّهَ تَجَاوَزَ لَأُمَّتِي عَمَّا حَدَّثَتْ بِهِ أَنْفُسَهَا، مَا لَمْ تَكَلِّمْ بِهِ، أَوْ تَعْمَلْ

بِهِ»^(٨).

(٨) حديث صحيح.

فهذا الحديث ظاهر في إخراج حديث النفس عن مطلق الكلام، ألا تراه قد فرّق بينه وبين حقيقة الكلام بقوله: «ما لم تكلم به أو تعمل به»؟ فجعل الكلام الذي هو القول قسيماً للعمل، غير حديث النفس.

٥ - حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال:

يا رسول الله، وإنا لمؤاخذون بما نتكلم به؟ فقال: «ثكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس على وجوههم في النار - أو قال: على مناخرهم - إلا حوائدُ ألسنتهم؟»^(٩).

قلت: فهذا يبيّن في أن الكلام ما كان ألفاظاً منظومةً دالةً على معاني مفهومة، لأن المعنى المجرد الذي يقوم بنفس المتكلم لا يحاسب عليه العبد - كما في الحديث السابق - وهذا بخلاف ما نطق به اللسان فإنه

= أخرجه أحمد ٣٩٣/٢، ٤٢٥، ٤٧٤، ٤٨١، ٤٩١، والبخاري ١٦٠/٥، ٣٨٨/٩، ٥٤٨/١١ - ٥٤٩ ومسلم رقم (١٢٧) وأبو داود رقم (٢٢٠٩) والترمذي رقم (١١٨٣) والنسائي ١٥٦/٦ - ١٥٧ وابن ماجه رقم (٢٠٤٤، ٢٠٤٥) من طرق عن قتادة عن زُرارة بن أوفى عن أبي هريرة به مرفوعاً. وأخرجه النسائي ١٥٦/٦ من طريق حجاج بن محمد عن ابن جريج عن عطاء عن أبي هريرة به مرفوعاً.

قلت: وهذا سند صحيح، وما عنونه ابن جريج عن عطاء فلا يضره.

(٩) قطعة من حديث حسن.

أخرجه أحمد ٢٣١/٥ والترمذي رقم (٢٦١٦) وابن ماجه رقم (٣٩٧٣) من طريق معمر عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن معاذ به مرفوعاً.

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قلت: هو حديث حسن بطرقه على التحقيق، ولتفضيل ذلك موضع آخر.

محاسبٌ عليه، وهذا عينُه هو الذي أطلق عليه الشرعُ الكلامَ، لا المعنى المجرّدُ.

٦ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«كلمتان خفيفتان على اللسان، ثقيلتان في الميزان، حبيبتان إلى الرحمن: سبحان الله العظيم، سبحان الله وبحمده» (١٠).

قلتُ: وهذا ظاهر أيضاً في أن الكلامَ هو المعنى الملفوظُ به بالحروف، إذ لا تُعقل الخِفةُ على اللسان في المعنى المجرّد.

٧ - حديث عبد الله بن مسعود قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ لِنَبِيِّهِ مَا شَاءَ، وَإِنْ مِمَّا أَحَدَّثَ لِنَبِيِّهِ: أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ» (١١).

وحديث معاوية بن الحَكَم السُّلَمي رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

(١٠) حديث صحيح.

أخرجه أحمد رقم (٧١٦٧) ٢٣٢/٢ والبخاري ٢٠٦/١١، ٥٦٦، ٥٣٧/١٣ ومسلم رقم (٢٦٩٤) والترمذي رقم (٣٤٦٧) والنسائي في «اليوم والليلة» رقم (٨٣٠) وابن ماجه رقم (٣٨٠٦) من طرق عن ابن فضيل عن عمارة عن أبي زرعة عن أبي هريرة به مرفوعاً.

(١١) حديث جيد الإسناد.

أخرجه أحمد ٣٧٧/١، ٤٣٥، ٤٦٣ وأبو داود رقم (٩٢٤) والنسائي ١٩/٣ من طرق عن عاصم بن أبي النجود عن أبي وائل عن عبد الله به مرفوعاً في قصة. وعلقه البخاري رحمه الله في «الصحيح» ٤٩٦/١٣.

«إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس، إنما هو التسبيح والتكبير وقراءة القرآن» (١٢).

ولا خلاف بين أهل العلم أن من تكلم في صلاته عامداً لغير مصلحة الصلاة فصلاته باطلة، ولا يرون بما تحدث الإنسان به نفسه مما لا تعلق له بالصلاة من أمور الدنيا وغيرها مبطلاً للصلاة، لأنه بالاتفاق ليس بكلام، ذكر نحو هذا شيخ الإسلام.

ونظائر هذا في الكتاب والسنة كثيرة جداً، وهي دلائل قاطعة بأن مطلق لفظ «الكلام» شامل للألفاظ والمعاني جميعاً، خلافاً لأهل البدع الذين أرادوا نُصرة أهوائهم بإبطال الدلائل الصحيحة الصريحة من المعقول والمنقول.

وقد ذكرنا أن «الكلام» و«القول» قد يُراد بهما المعنى فقط، أو اللفظ فقط، لكن بقرينة تُبين ذلك، لا عند الإطلاق والتجرد من القرائن.

قال شيخ الإسلام: «الكلام إذا أُطلق يتناول اللفظ والمعنى جميعاً، وإذا سُمي المعنى وحده كلاماً، أو اللفظ وحده كلاماً، فإنما ذاك مع قيد يدل على ذلك» (١٣).

قلت: وذلك كقول عنترة:

(١٢) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٤٤٧/٥، ٤٤٨، ومسلم رقم (٥٣٧) وأبو داود رقم (٩٣٠، ٩٣١) والنسائي ١٤/٣ - ١٨ والدارمي رقم (١٥١٠، ١٥١١) من طريق هلال بن أبي ميمونة عن عطاء بن يسار عن معاوية بن الحكم به مرفوعاً في قصة.

(١٣) «مجموع الفتاوى» ٥٣٣/٦.

يا دارَ عِبْلَةٍ بالجِواءِ تكلِّمي وِعمي صَباحاً دارَ عِبْلَةٍ واسلِّمي^(١٤)
وكقول الآخر:

وامتلأ الحَوْضُ وقالَ: قَطني قَطني رويداً قد ملأتُ بطني
فمحضٌ ما ذكرنا:

أن لفظ «الكلام» و«القول» وما تصرف منهما، من فعلٍ، ومصدرٍ،
واسم فاعلٍ، وغير ذلك، كلُّ ذلك راجع إلى اللفظ والمعنى جميعاً.
فإذا قالَ قائلٌ في كلامٍ ما: إنَّ المرادَ بالكلام ههنا اللفظ وحده، أو
المعنى وحده، طالبناءً بالقرينة المقيِّدة التي صرَّفتِ الكلامَ عن حقيقته
المعلومة، وإلاَّ كانَ كاذباً.

ولنا بسط آخر لهذه المسألة في الباب الثالث عند إبطال قول بعض
أهل البدع - الكلامية والأشعرية وأشباههم - إنَّ الكلامَ حقيقةٌ في المعنى،
وهو ما سمَّوه بـ «الكلام النفسي» وإنما هذا تقريرٌ موجزٌ لإزالة ما قد يردُّ من
لبسٍ في هذا الموضوع.



(١٤) معلقته: البيت الثاني.

المبحث الثاني حقيقة المتكلم

المتكلم: اسمُ فاعلٍ من «التكلم».

وهو مَنْ قَامَتْ بِهِ صِفَةُ الْكَلَامِ، فَبِهَا صَارَ مُتَكَلِّمًا.

والعقلاء متفقون على أن الحركة إذا قَامَتْ بِمَحَلٍّ صَحَّ وَصْفُ الْمَحَلِّ بِكَوْنِهِ مُتَحَرِّكًا، وَإِذَا قَامَ الْعِلْمُ بِمَحَلٍّ صَحَّ وَصْفُهُ بِكَوْنِهِ عَالِمًا، وَكَذَلِكَ كُلُّ صِفَةٍ.

فالكلامُ صِفَةٌ، إِذَا قَامَتْ بِمَوْصُوفٍ سَمِيَ «مُتَكَلِّمًا».

فحين يَرُدُّ عَلَى سَمْعِكَ: ﴿إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ عَقِلْتَ مِنْهُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى صِفَةَ السَّمْعِ، وَصِفَةَ الْعِلْمِ.

فكَذَلِكَ حِينَ يَرُدُّ عَلَى سَمْعِكَ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى﴾ فَإِنَّكَ تَعْقِلُ مِنْهُ أَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى صِفَةَ الْكَلَامِ.

فدلُّ هَذَا عَلَى أَنَّ الصِّفَةَ إِنَّمَا تَقُومُ بِالمَوْصُوفِ.

وفي هَذَا إِبْطَالُ لِقَوْلِ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ: إِنَّ الصِّفَةَ لَا تَقُومُ بِالمَوْصُوفِ، وَعَلَيْهِ قَالَ مَنْ قَالَ مِنْهُمْ: إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بِلَا سَمْعٍ،

بصيرٌ بلا بصر، حيٌّ بلا حياة، خالقٌ بلا خلق.

ويظهرُ ممَّا تقرَّر من قيام الصفة بالموصوف أن المتكلِّم من قام به الكلام، ولا يصحَّ وصفه بذلك إلَّا مع قدرته عليه، إذ أن قدرة المتكلِّم على الكلام لازمة له ما دام موصوفاً بالكلام، لأنَّه لو لم يكن قادراً على الكلام لوصِف بضدِّه، وهو: الخرس، فإن «الأخرس» هو الذي لا يقدرُ على الكلام، ولذا صحَّ عدمُ وصفه بالكلام.

ويبطلُ بما قرَّرناه مذهبان من مذاهب أهل البدع:

الأوَّل: مذهبُ المعتزلة القائلين: المتكلِّم من فعَلَ الكلام ولو في غيره، ومعناه عدمُ قيام صفة الكلام بالمتكلِّم.

والثاني: مذهبُ الكلَّابية والأشعرية القائلين: المتكلِّم من قام به الكلام ولو لم يفعلْهُ، وليس له قدرةٌ عليه.

وفسادُ هذين المذهبين ظاهرٌ لغةً وشرعاً وعقلاً، إذ أن لازمَ المذهب الأوَّل أن يكون كلامُ المخلوق هو كلامُ الخالق - كما سيأتي تفصيله في الباب الثالث - ولازمُ المذهب الثاني وصفُ الأخرس بكونه متكلماً، وهذا ظاهرُ المناقضة للحسِّ والعقل - وسيأتي بسط ذلك عنهم في الباب الثالث.

والسلفُ والأئمَّةُ لا يعرفون المتكلِّم إلَّا على الصورة التي شرحناها.



المبحث الثالث

أنواع الكلام

الكلام في لغة العرب يتنوع في الأصل إلى نوعين:

● الأول: الخبر:

والبلاغيون والأصوليون على أن الخبر كلامٌ يَحْتَمِلُ الصِّدْقَ والكَذِبَ لذاته.

ويعنون بقولهم: «لذاته» أي بغَضِّ النَّظَرِ عن المُخْبِرِ إِنْ كَانَ صَادِقًا أو كَاذِبًا فِي نَفْسِهِ، لِأَجْلِ أَنْ يَعُمَّ التَّعْرِيفُ كُلَّ خَبَرٍ. وهو باعتبار المُخْبِرِ به ثلاثة أقسام:

القسم الأول: ما لا يَحْتَمِلُ إِلَّا الصِّدْقَ وَحْدَهُ.

وهو خَبَرُ اللَّهِ تَعَالَى، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ﴾.

وخبَرُ رَسولِ اللَّهِ ﷺ الثَّابِتُ عَنْهُ، كَقَوْلِهِ ﷺ: «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَبَوَّأْ مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ»^(١٥).

(١٥) حديث صحيح متواتر، جاء عن جمع كبير من الصحابة في الصحاح =

والقسم الثاني: ما لا يَحْتَمِلُ إِلَّا الكَذِبَ وحده.

وهو كخبر مسيلمة أنه رسول الله.

والقسم الثالث: ما يَحْتَمِلُ الصُّدُقَ والكَذِبَ جميعاً.

كَأَن يَأْتِيكَ إِنْسَانٌ فيقول: (قرأت القرآن في ليلة) فَإِنَّهُ يُحْتَمَلُ صدقه،
وَيُحْتَمَلُ كذبه، بغض النظر أن يكون عن قَصْدٍ أو عن غير قَصْدٍ، وربما
ترجح لك صدقه مع احتمال الخطأ لكونه معروفاً عندك بالصدق، أو ترجح
عندك كذبه مع احتمال صدقه لكونه معروفاً عندك بالكذب، وربما تساوى
عندك الاحتمالان.

● والثاني: الإنشاء:

والبلاغيون والأصوليون على أنه لا يُمكن وصفه بالصدق أو الكذب.

وهو الطلب، سواء كان طلب فعل، أو طلب ترك.

وهو أنواع منها:

١ - الأمر:

وهو طلب الفعل، كقوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَابْتَغُوا
إِلَيْهِ الْوَسِيلَةَ وَجَاهِدُوا فِي سَبِيلِهِ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [المائدة: ٣٥].

٢ - النهي:

وهو طلب الكف، كقوله تعالى: ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ...﴾ [الإسراء: ٣٦].

= والمسانيد والمعاجم وغيرها، وللحافظ أبي القاسم الطبراني جزء في جمع طرقه.

٣ - الاستفهام:

وهو طلبُ الفَهم، كقوله تعالى: ﴿قَالَ يَا مَرْيَمُ أَنِّي لَكَ هَذَا﴾ [آل عمران: ٣٧].

٤ - النداء:

وهو طلبُ الإقبال، كقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنَّهُ أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ﴾ [النمل: ٩].

وفي جميع هذا تفصيل ليس هذا موضعه، وإنما المقصودُ إبطال تلبيسِ المبتدعةِ القائلين: إن هذه الأقسامَ المذكورة، إنما هي صفاتُ للكلام، وليست أنواعاً له، لينصروا مذهبهم: أن الكلامَ في الحقيقة هو معنى واحد قائم في النفس، هو الأمرُ والنهي والخبر، وهو قول في غاية السقوط، وقد أثبتنا لك أنها متغايرة، وإنما تشترك في كونها كلاماً.



الفصل الثاني

عقيدة السلف في إثبات الصفات

وفيه:

= قاعدة جلية في الاعتقاد.

قاعدة جليلة في الاعتقاد

لقد وصفَ الله تعالى نفسه بأكمل وأجمل الأوصاف، كما يليقُ بجلاله وعظمته، في كتابه وعلى لسان نبيه ﷺ، ليُعرف خلقه بنفسه، كالعلم، والحياة، والقُدرة، والإرادة، والسمع، والبصر، والكلام، والحب، والبغض، والرفقة، والرحمة، والعلو، والاستواء على العرش، والإتيان، والمجيء، والنزول إلى سماء الدنيا، وأن له وجهًا، وبدأً، وقَدَمًا، وساقًا، وعَيْنًا، إلى غير ذلك من صفاته التي نطقَ بها الكتاب والسُّنة.

ومن صفاته تعالى اشتقَّ أسماءه الحُسنى، كالعليم، والحي، والقادر، والودود، والرحيم، والرؤوف، إلى غير ذلك.

وعقيدة السلف الذين كانوا أعلم الأمة وأعرفها بالله رب العالمين: الإيمان بجميع ذلك على وجه الإجمال فيما جاء مُجَمَّلًا، وعلى وجه التفصيل فيما جاء مُفَصَّلًا، من غير تزييد ولا نقص، وكان هذا الاعتقاد يقوم على أربع دعائم:

الأولى: الإثبات المُفَصَّل المُجَمَّل لكل صفة كما وردَ بها النص.

فِيَتَحَقَّقُ بِهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ فَادْعُوهُ بِهَا﴾
[الأعراف : ١٨٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا
تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء : ١١٠] ، وَمَا فِي مَعْنَى هَذَا .

وَالثَّانِيَةِ : التَّنْزِيهِ ، وَعَدَمُ التَّكْيِيفِ وَالتَّشْبِيهِ .

فِيَتَحَقَّقُ بِهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ
الْبَصِيرُ﴾ [الشورى : ١١] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا
يَصِفُونَ﴾ [الصفات : ١٨٠] ، وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ
عِلْمٌ...﴾ [الإسراء : ٣٦] .

وَالثَّلَاثَةِ : عَدَمُ التَّأْوِيلِ الْمُفْضِي إِلَى التَّعْطِيلِ .

فِيَتَحَقَّقُ بِهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿وَذَرُوا الَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِي أَسْمَائِهِ
سَيَّجُزُونَ مَا كَانَوَا يَعْمَلُونَ﴾ [الأعراف : ١٨٠] .

وَالْتَّعْطِيلُ : إِحْدَاثُ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ .

وَالرَّابِعَةُ : الْعِلْمُ بِاللَّهِ تَعَالَى وَالْمَعْرِفَةُ بِهِ مِنْ خِلَالِ صِفَاتِهِ .

فِيَتَحَقَّقُ بِهَذَا قَوْلُ اللَّهِ تَعَالَى : ﴿كِتَابٌ أَنْزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ
وَلِيَتَذَكَّرَ أُولُو الْأَلْبَابِ﴾ [ص : ٢٩] .

فَالدَّعَاةُ الْأُولَى تَضَمَّنَتْ الْإِيمَانَ بِكُلِّ صِفَةٍ لِلَّهِ تَعَالَى كَمَا وَرَدَتْ فِي
الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ .

وَالدَّعَاةُ الثَّانِيَةُ تَضَمَّنَتْ تَنْزِيَهُ صِفَاتِ الرَّبِّ تَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ
صِفَاتِ خَلْقِهِ .

وَالدَّعَاةُ الثَّلَاثَةُ تَضَمَّنَتْ إِثْبَاتَ كُلِّ صِفَةٍ عَلَى الْحَقِيقَةِ كَمَا وَرَدَ بِهَا

النَّصُّ، من غير صَرْفٍ له إلى معنى آخر غير الظاهر.

والدُّعَامَةُ الرابعة تَضَمَّنَتْ أَنَّ السَّلَفَ كَانُوا يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الصِّفَاتِ، وَيَفْرُقُونَ بَيْنَهَا بِحَسَبِ مَا دَلَّتْ عَلَيْهِ مِمَّا تَعْرِفُهُ الْعَرَبُ مِنْ لِسَانِهَا، فَالْعِلْمُ غَيْرُ الْحَيَاةِ، وَالْإِتْيَانُ غَيْرُ الْإِسْتَوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَالْيَدُّ غَيْرُ الْوَجْهِ، وَهَكَذَا سَائِرُ الصِّفَاتِ.

وفي هَذَا يُبْطَلُ قَوْلُ الْمُلْحِدِينَ فِي أَسْمَاءِ اللَّهِ وَصِفَاتِهِ فِي حِكَايَتِهِمْ أَمْذَهَبَ السَّلَفِ: أَنَّهُمْ كَانُوا مُفَوَّضَةً، وَيَعْنُونَ بِهَذَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَعْلَمُونَ مَعَانِيَ الصِّفَاتِ، وَلَا التَّمْيِيزَ بَيْنَهَا، وَأَنَّهَا مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي يَكِلُونَ الْعِلْمَ بِهِ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى، وَهَذَا مَعْنَى قَوْلِهِمْ «أَمَرُوهَا كَمَا جَاءَتْ».

وهَذَا الْقَوْلُ مِنْ أَفْسَدِ مَا يُنْسَبُ إِلَى السَّلَفِ، وَهُوَ مِنَ الْكُذْبِ وَالْبُهْتَانِ وَالْإِفْتِرَاءِ الْبَيِّنِ، ذَلِكَ لِأَنَّ الصِّفَاتِ إِنَّمَا تُعْرَفُ بِالْمَوْصُوفِ، فَإِذَا كَانَ السَّلَفُ يَجْهَلُونَ مَعَانِيَهَا فَكَيْفَ كَانُوا أَعْلَمَ مِنْ غَيْرِهِمْ بِاللَّهِ تَعَالَى؟ وَبِمَاذَا عَرَفُوهُ إِذَا؟
إِنَّ هَذَا لَيْمَنْ أَسْوَ مَا يُظَنُّ بِهِمْ، وَهُمْ خَيْرُ هَذِهِ الْأُمَّةِ، وَفِيهِمْ أَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ الَّذِينَ لَمْ يَقْدِرِ اللَّهُ تَعَالَى أَحَدٌ قَدْرَهُمْ.

وإِنَّمَا كَانَ السَّلَفُ أَبْعَدَ النَّاسِ عَنِ الْخَوْضِ فِيهَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا مِمَّا أَخْبَرَ اللَّهُ تَعَالَى عَنْهُ مِنَ الْغَيْبِ، فَكَمَا أَنَّهُمْ لَمْ يَكُونُوا يَحِيطُونَ بِذَاتِ اللَّهِ عِلْمًا، لَمْ يَكُونُوا يَحِيطُونَ بِصِفَاتِهِ عِلْمًا، إِذَ الْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ فَرَعٌ عَنِ الْكَلَامِ فِي الذَّاتِ، إِلَّا أَنَّ صِفَاتِهِ كَانَتْ دَلِيلَ الْمَعْرِفَةِ بِهِ، وَلَا تَصْلَحُ أَنْ تَكُونَ كَذَلِكَ وَهِيَ مِنَ الْمُتَشَابِهِ الَّذِي لَيْسَ لِلْعِبَادِ أَنْ يَعْلَمُوا حَقِيقَتَهُ، وَإِنَّمَا كَانَتْ مَعْلُومَةً الْمَعَانِي عِنْدَهُمْ، مَجْهُولَةً الْكَيْفِ، كَمَا أَنَّ ذَاتَهُ تَعَالَى مَعْلُومَةٌ عِنْدَهُمْ بِصِفَاتِهِ، مَجْهُولَةٌ الْكَيْفِ، وَهَذَا مَعْنَى إِمْرَارِ الصِّفَاتِ كَمَا جَاءَتْ.

بل تضمّن قولهم : «نُمِرُها كما جاءت» إثباتها على الحقيقة ، فإنَّ الأصل في الإطلاق الحقيقة ، فالعلمُ صفةٌ على الحقيقة ، والقدرة صفةٌ على الحقيقة ، واليدُ صفةٌ على الحقيقة ، مع أنَّ لكل صفةٍ معنى غير معنى الأخرى ، تُعرَفُ ذلك العربُ من لغاتها .

ومن تأمَّل جوابَ الإمام مالك بن أنس رحمه الله لِمَنْ سألَه عن كَيْفِيَّةِ الاستواءِ على العرش ، فقال : «الكَيْفُ غيرُ معلومٍ ، والاستواءُ غيرُ مجهولٍ ، والإيمانُ به واجبٌ ، والسؤالُ عنه بدعةٌ» تبيَّنَ له عدَّةُ أمورٍ :
الأول : كَيْفِيَّةُ الصفاتِ مجهولةٌ للعباد .

والثاني : معاني الصفاتِ معلومةٌ من لسان العرب ولُغتها .

والثالث : الإيمانُ بالصفة كما أخبر الله بها مع الجَهْلِ بكَيْفِيَّتِها والعلمُ بِمَعْنَاهَا واجبٌ ، لأنَّه داخلٌ في عمومِ الإيمانِ بالله تعالى .
والرابع : أنَّ الزيادةَ والنقصَ بالسؤالِ والخوضَ فيها بدعةٌ مذمومةٌ لم تُعرَفْ عند السُّلَفِ ، لِما تضمَّنَ من القولِ على الله تعالى بغير علم .
ولم يزل الأئمةُ يذكرونَ كلمةَ الإمام مالكٍ هذه قاعدةً لأهلِ السُّنَّةِ في سائر صفاتِ الباري تعالى .

فبهذا يظهرُ لك استقامةُ اعتقادِ السُّلَفِ ، وأنَّه المذهبُ الأسلمُ الأعلمُ الأحكمُ .

قال الإمام أبو عثمان الصابوني رحمه الله فيما حكاه من اعتقادِ السُّلَفِ : «وَيَعْرِفُونَ رَبَّهُمْ عَزَّ وَجَلَّ بِصِفَاتِهِ الَّتِي نَطَقَ بِهَا وَحِيَّةٌ وَتَنْزِيلُهُ ، أَوْ شَهِدَ لَهُ بِهَا رَسُولُهُ ﷺ ، عَلَى مَا وَرَدَتْ الْأَخْبَارُ الصَّحَاحُ بِهِ ، وَنَقَلَتْهُ الْعُدُولُ

الثَّقَاتُ عنه، وَيُثَبِّتُونَ لَهُ جَلَّ جَلَالُهُ مِنْهَا مَا أُثْبِتَ لِنَفْسِهِ فِي كِتَابِهِ، وَعَلَى لِسَانِ رَسُولِهِ ﷺ، وَلَا يَعتقدُونَ تَشْبِيهًا لَصِفَاتِهِ بِصِفَاتِ خَلْقِهِ، فيقولون: إِنَّهُ خَلَقَ آدَمَ بِيَدِهِ، كَمَا نَصَّ سُبْحَانَهُ عَلَيْهِ فِي قَوْلِهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قَالَ يَا إِبْلِيسُ مَا مَنَعَكَ أَنْ تَسْجُدَ لِمَا خَلَقْتُ بِإَيْدِي﴾ [ص: ٧٥]، وَلَا يُحَرِّفُونَ الْكَلِمَ عَنْ مَوَاضِعِهِ بِحَمْلِ الْيَدَيْنِ عَلَى النِّعَمَتَيْنِ، أَوِ الْقَوَتَيْنِ، تَحْرِيفَ الْمُعْتَزِّلَةِ وَالْجَهْمِيَّةِ - أَهْلُكَهُمُ اللَّهُ - وَلَا يُكَيِّفُونَهُمَا بِكَيْفٍ، أَوْ يَشَبِّهُونَهُمَا بِأَيْدِي الْمَخْلُوقِينَ، تَشْبِيهَ الْمُشَبَّهَةِ - خَذَلَهُمُ اللَّهُ - وَقَدْ أَعَاذَ اللَّهُ تَعَالَى أَهْلَ السُّنَّةِ مِنَ التَّحْرِيفِ وَالتَّكْيِيفِ وَالتَّشْبِيهِ، وَمَنْ عَلَيْهِمُ بِالْتَّعْرِيفِ وَالتَّفْهِيمِ، حَتَّى سَلَكُوا سُبُلَ التَّوْحِيدِ وَالتَّنْزِيهِ، وَتَرَكُوا الْقَوْلَ بِالتَّعْلِيلِ وَالتَّشْبِيهِ، وَاتَّبَعُوا قَوْلَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾ [الشورى: ١١١]» (١٦).

وقال شيخ الإسلام رحمه الله: «إِنَّ سَلَفَ الْأُمَّةِ وَأَثَمَتَهَا كَانُوا عَلَى الْإِيمَانِ الَّذِي بَعَثَ اللَّهُ بِهِ نَبِيَّهُ ﷺ، يَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَبِمَا وَصَفَهُ بِهِ رَسُولُهُ مِنْ غَيْرِ تَحْرِيفٍ، وَلَا تَعْطِيلٍ، وَمِنْ غَيْرِ تَكْيِيفٍ وَلَا تَمَثِيلٍ، وَيَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى، وَيَصِفُونَ اللَّهَ بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، مِنَ التَّكْلِيمِ، وَالْمُنَاجَاةِ، وَالْمُنَادَاةِ، وَمَا جَاءَتْ بِهِ السُّنَنُ وَالْأَثَارُ مُوَافِقَةً لِكِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى» (١٧).

وقال رحمه الله: «وَيَقُولُونَ مَا جَاءَتْ بِهِ النُّصُوصُ النَّبَوِيَّةُ، وَدَلَّتْ عَلَيْهِ الْعُقُولُ الزَّكِيَّةُ الصَّرِيحَةُ، فَلَا يَنْفُونَ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى صِفَاتِ الْكَمَالِ سُبْحَانَهُ

(١٦) «الرسالة في اعتقاد أهل السنة» ص: ٣ - ٤.

(١٧) «مجموع الفتاوى» ٥١٨/٦.

وتعالى ، فيجعلونه كالجمادات التي لا تتكلم ، ولا تبصر ، فلا تكلم عابديها ، ولا تهديهم سبيلاً ، ولا ترجع إليهم قولاً ، ولا تملك لهم ضرراً ولا نفعاً» (١٨) .

فهذا قولٌ مختصر قبل الشروع فيما أردناه تحصل به الكفاية لمن استرشد .



الفصل الثالث

شرح اعتقاد السلف في كلام الله تعالى

وفيه عشرة مباحث:

= المبحث الأول: جملة اعتقاد أهل السنة في كلام الله تعالى.

= المبحث الثاني: الأدلة المثبتة لصفة الكلام.

= المبحث الثالث: التكليم في الدنيا.

= المبحث الرابع: التكليم في الآخرة.

= المبحث الخامس: كلام الله تعالى غير مخلوق.

= المبحث السادس: الوقف في القرآن.

= المبحث السابع: كلام الله تعالى بحرف وصوت.

= المبحث الثامن: كلام الله تعالى بمشيئته واختياره.

= المبحث التاسع: تفاضل كلام الله تعالى.

= المبحث العاشر: كلام الله تعالى منزل منه، منه بدأ

وإليه يعود.

المبحث الأول

جملة اعتقاد أهل السنة في كلام الله تعالى

يعتقد السلف: أن لله تعالى صفة الكلام، وهي صفة قائمة به غير بائنة عنه، لا ابتداء لا تصافيه بها ولا انتهاء، يتكلم بها بمشيئته واختياره. وكلامه تعالى أحسن الكلام.

ولا يشبه كلام المخلوقين، إذ الخالق لا يقاس بالمخلوق. ويتكلم به من شاء من خلقه: من ملائكته، ورسله، وسائر عبادِهِ، بواسطة إن شاء، وبغيرها.

ويُسمعه على الحقيقة من شاء من ملائكته، ورسله، ويُسمعه عباده في الدار الآخرة بصوت نفسه، كما أنه كلم موسى وناداه حين أتى الشجرة بصوت نفسه فسمعه موسى.

وكما أن كلامه تعالى لا يشبه كلام المخلوقين، فإن صوته لا يشبه أصواتهم.

وكلماته تعالى لا نهاية لها.

ومن كلامه:

الْقُرْآنَ، وَالتَّوْرَةَ، وَالْإِنْجِيلَ.

فَالْقُرْآنَ كَلَامَهُ: سُورَةٌ، آيَاتُهُ، وَكَلِمَاتُهُ.

تَكَلَّمَ بِهِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ.

وَلَمْ يُنْزِلْهُ عَلَى أَحَدٍ قَبْلَ مُحَمَّدٍ ﷺ.

أَسْمَعُهُ جِبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ، وَأَسْمَعُهُ جِبْرِيلُ مُحَمَّدًا ﷺ، وَأَسْمَعُهُ مُحَمَّدٌ ﷺ أُمَّتَهُ، وَلَيْسَ لَجِبْرِيلَ وَلَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا التَّبْلِيغُ وَالْأَدَاءُ.

وَهُوَ الْمَكْتُوبُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُوَ الَّذِي فِي الْمَصَاحِفِ، يَتْلُوهُ التَّالُونَ بِالسِّتْهِمِ، وَيَقْرَأُهُ الْمُقْرَأُونَ بِأَصْوَاتِهِمْ، وَيَسْمَعُهُ السَّامِعُونَ بِأَذَانِهِمْ، وَيَنْسَخُهُ النَّسَاحُ، وَيَطْبَعُهُ الطَّابِعُونَ بِآلَاتِهِمْ، وَهُوَ الَّذِي فِي صُدُورِ الْحَفَاضِ، بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ، تَكَلَّمَ اللَّهُ بِهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، فَهُوَ كَلَامُهُ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا كَلَامٌ غَيْرُهُ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَهُوَ قُرْآنٌ وَاحِدٌ مُنْزَلٌ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، كَيْفَمَا تَصَرَّفَ: بِقِرَاءَةِ قَارِيءٍ، أَوْ بِلَفْظِ لَافِظٍ، أَوْ بِحِفْظِ حَافِظٍ، أَوْ بِخَطِّ كَاتِبٍ، وَحَيْثُ تَلَّى، وَكُتِبَ، وَقُرِئَ.

فَمَنْ سَمِعَهُ فَرَّغَمَ أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فَقَدْ كَفَرَ.

وَكُتِبَ تَعَالَى التَّوْرَةَ لِمُوسَى بِيَدِهِ، قَبْلَ خَلْقِ آدَمَ بِأَرْبَعِينَ سَنَةً - كَمَا صَحَّ بِهِ الْخَبَرُ -.

وَكَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى يَنْقَسِمُ وَيَتَّبَعُ وَيَتَجَزَأُ.

فَالْقُرْآنُ مِنْ كَلَامِهِ، وَالتَّوْرَةُ مِنْ كَلَامِهِ، وَالْإِنْجِيلُ مِنْ كَلَامِهِ.

وَالْقُرْآنُ غَيْرُ التَّوْرَةِ، وَالتَّوْرَةُ غَيْرُ الْإِنْجِيلِ.

والفاتحةُ بعضُ القرآنِ ، وآيةُ الكرسيِّ بعضُ البقرةِ ، وسُورةُ البقرةِ غيرُ
سورةِ آلِ عمرانَ ، وهكذا سائرُ كلامِهِ .

كَمَا أَنَّهُ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِاللُّغَاتِ ، فَالتَّوْرَةُ بِالْعِبْرَانِيَّةِ ، وَالْقُرْآنُ بِالْعَرَبِيَّةِ ،
وَالْإِنْجِيلُ بِالسَّرْيَانِيَّةِ .

وَفِي الْقُرْآنِ مِنَ الْمَعَانِي مَا لَيْسَ فِي التَّوْرَةِ ، وَفِيهَا مِنَ الْمَعَانِي مَا
لَيْسَ فِي الْقُرْآنِ ، وَهَكَذَا سَائِرُ كَلَامِهِ .

كَمَا أَنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى يَتَفَاضَلُ ، فَيَكُونُ بَعْضُهُ أَفْضَلَ مِنْ بَعْضٍ ، فَآيَةُ
الْكُرْسِيِّ أَفْضَلُ مِنْ سِوَاهَا مِنَ الْآيِ وَسُورَةُ الْفَاتِحَةِ لَمْ يَنْزَلْ فِي التَّوْرَةِ وَلَا
فِي الْإِنْجِيلِ وَلَا فِي الْقُرْآنِ مِثْلُهَا ، وَ ﴿ قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ ﴾ تَعْدِلُ ثَلَاثَ الْقُرْآنِ .

كَمَا أَنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى يَتَعَاقَبُ - أَيِ يَتَلَوُ بَعْضُهُ بَعْضًا - كَ ﴿ بِسْمِ اللَّهِ ﴾
فكَلِمَةُ ﴿ اللَّهُ ﴾ عَقَبَ ﴿ بِسْمِ ﴾ وَالسَّيْنُ عَقَبَ الْبَاءَ ، وَالْمِيمُ عَقَبَ السَّيْنَ ،
وَكُلُّ ذَلِكَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، بِالْفَاظِ وَحُرُوفِهِ ، لَا يُشَبِّهُ كَلَامَ
الْخَلْقِ .

وَأَصْوَاتُ الْعِبَادِ وَحَرَكَاتُهُمْ بِالْقُرْآنِ ، وَوَرَقُ الْمُصْحَفِ ، وَجِلْدُهُ ، وَمِدَادُ
الْكِتَابَةِ ، كُلُّ ذَلِكَ مَخْلُوقٌ مَصْنُوعٌ ، وَالْمُؤَلَّفُ مِنَ الْحُرُوفِ الْمَنْطُوقَةِ
الْمَسْمُوعَةِ الْمَسْطُورَةِ الْمَحْفُوظَةِ ، كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِحُرُوفِهِ
وَمَعَانِيهِ .

هَذِهِ جَمَلَةُ الْإِعْتِقَادِ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَتَفْصِيلُ هَذِهِ الْجُمْلِ
وَالِاسْتِدْلَالُ لَهَا سَيَأْتِي فِي الْمَبَاحِثِ الْآتِيَةِ .



المبحث الثاني الأدلة المثبتة لصفة الكلام

● من أدلة الكتاب:

١ - قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ﴾ [البقرة: ٢٥٣].

٢ - وقال عز وجل: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤].

٣ - وقال تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣].

٤ - وقال تعالى: ﴿وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنَّنِي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٣ - ١٤].

٥ - وقال تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠].

٦ - وقال تعالى: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠].

٧ - وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩].

٨ - وقال تعالى : ﴿ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ صِدْقاً وَعَدْلاً لَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ ﴾ [الأنعام : ١١٥].

٩ - وقال جل وعلا : ﴿ يُرِيدُونَ أَنْ يُبَدِّلُوا كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [الفتح : ١٥].

١٠ - وقال تعالى : ﴿ يَسْمَعُونَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ يُحَرِّفُونَهُ مِنْ بَعْدِ مَا عَقَلُوهُ وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ [البقرة : ٧٥].

١١ - وقال تعالى : ﴿ وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ﴾ [التوبة : ٦].

والآيات في ذلك كثيرة جداً.

● من أدلة السنة:

١ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«احتج آدم وموسى ، فقال له موسى : يا آدم ، أنت أبونا ، خيبتنا وأخرجتنا من الجنة ، قال له آدم : يا موسى ، اصطفاك الله بكلامه ، وخط لك [التوراة] بيده ، أتلومني على أمرٍ قدره الله عليّ قبل أن يخلقني بأربعين سنة؟ فحج آدم موسى ، فحج آدم موسى - ثلاثاً -»^(١).

(١) حديث صحيح .

أخرجاه في «الصحيحين» وغيرهما من طرق كثيرة عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قد جمعتها في جزء فبلغت ثلاث عشرة طريقاً .

وكذا وقفت عليه من حديث عمر بن الخطاب ، وأبي سعيد الخدري ، وجندب =

٢ - حديث جابر بن عبد الله قال :

كَانَ النَّبِيُّ ﷺ يَعْزُضُ نَفْسَهُ عَلَى النَّاسِ بِالْمَوْقِفِ فَيَقُولُ :

«هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ فَإِنْ قَرِيشًا قَدْ مَنَعُونِي أَنْ أَبْلَغَ
كَلَامَ رَبِّي عَزَّ وَجَلَّ» الحديث^(٢).

٣ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال :

«فَضَّلَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضَّلَ اللَّهُ عَلَى سَائِرِ
خَلْقِهِ»^(٣).

= ابن عبد الله البجلي ، وأبي موسى الأشعري رضي الله عنهم ، وجميعها مخرجة في
الجزء المشار إليه .

(٢) حديث صحيح .

أخرجه أحمد ٣/ ٣٩٠ وأبو داود (٤٧٣٤) والترمذي رقم (٢٩٢٥) وابن ماجه
رقم (٢٠١) والدارمي رقم (٣٣٥٧) والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف»
١٧٥/٢ - والبخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٨٦ ، ٢٠٥) وعثمان الدارمي في
«الرد على الجهمية» رقم (٢٨٤) والحاكم ٢/ ٦١٢ - ٦١٣ وأبو نعيم في «دلائل النبوة»
رقم (٢١٧) واللالكائي في «السنة» رقم (٥٥٤ ، ٥٥٥) والبيهقي في «الاعتقاد» ص :
١٠٠ و «الأسماء والصفات» ص : ١٨٧ و «دلائل النبوة» ٢/ ٤١٣ وإسماعيل بن
الفضل الأصبهاني في «الحجة» ق ٤٨/أ - ب من طرق عن إسرائيل : حدثنا عثمان
ابن المغيرة عن سالم بن أبي الجعد عن جابر به .

قلت : وإسناده صحيح ، وصححه الترمذي والحاكم وأقره الذهبي .

وتابع إسرائيل شريك القاضي .

أخرجه إسماعيل بن الفضل ق ٦١/ب .

وإسناده جيد في المتابعات .

(٣) حديث حسن .

٤ - حديث أبي أمامة أن رجلاً أتى النبي ﷺ قال:
يا نبي الله، أنبيأ كان آدم؟ قال: «نعم، مُكَلِّمًا».
قال: كم بينه وبين نوح؟ قال:
«عشرة قُرُون»^(٤).

= أخرجه عثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٢٨٧، ٣٤٠) واللالكائي رقم (٥٥٧) من طريقين، الأولى عند الدارمي: محمد بن سواء، والثانية عند اللالكائي: عبد الوهاب بن عطاء، كلاهما عن سعيد بن أبي عروبة عن أشعث الحُدَاني عن شهر بن حوشب عن أبي هريرة به.
قلت: وهذا سند حسن، وعبد الوهاب قديم السماع من سعيد، وصرَّح بسماعه منه.

ورواه عمرو بن حمدان عن سعيد، وكذا يونس بن واقد عنه، وذكرنا قتادة بدل أشعث ولا يبعد أن يكون من تخليط سعيد، ورواية عبد الوهاب أثبت.
ورواه عُمر الأُبَيْحُ عن سعيد فزاد فيه تخليطاً، والأُبَيْحُ هذا قال البخاري: «منكر الحديث».

ورواه حماد بن سلمة عن أشعث عن شهر به مراسلاً، ورواية سعيد أصح.
وللحديث شاهد من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «... وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه».

أخرجه الترمذي رقم (٢٩٢٦) والدارمي رقم (٣٣٥٩) وآخرون من حديث محمد بن الحسن بن أبي يزيد الهَمْداني عن عمرو بن قيس عن عطية - هو العوفي - عن أبي سعيد الخدري به.
قلت: وإسناده صالح في الشواهد.
(٤) حديث صحيح.

= أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٢٩٩) وابن حبان رقم (٢٠٨٥) -

٥ - حديث النعمان بن بشير عن النبي ﷺ قال :

«إِنَّ اللَّهَ كَتَبَ كِتَابًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ بِالْفَيِّ عَامٍ، فَأَنْزَلَ مِنْهُ آيَتَيْنِ خَتَمَ بِهِمَا سُورَةَ الْبَقَرَةِ، فَلَا تُقْرَأُ فِي دَارٍ ثَلَاثَ لَيَالٍ فَيَقْرُبُهَا شَيْطَانٌ»^(٥).

= (موارد) والطبراني في «الكبير» ١٣٩/٨ - ١٤٠ و «الأوسط» رقم (٤٠٥) والحاكم ٢٦٢/٢ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٠٦ وابن عساكر ٣٢٥/٢ ب من طريق الربيع بن نافع ثنا معاوية بن سلام عن زيد بن سلام أنه سمع أبا سلام يقول: حدثني أبو أمامة به.

قلت: وهذا سند صحيح.

قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم».

وأقره الذهبي، وابن كثير في «البداية والنهاية» ١٠١/١.

وقال الهيثمي في «المجمع» ١٩٦/١ و ٢١٠/٨: «رجال رجال الصحيح» زاد

في الموضوع الثاني: «غير أحمد بن حنبل الحلبي وهو ثقة».

قلت: هو شيخ الطبراني في الحديث، وهو متابع أيضاً.

(٥) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٢٧٤/٤ والترمذي رقم (٢٨٨٢) والنسائي في «عمل اليوم

والليلة» رقم (٩٦٧) والدارمي رقم (٢٢٩٠) وابن حبان رقم (١٧٢٦) - موارد) والحاكم

٥٦٢/١ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٣١ - ٢٣٢ من طرق عن حماد بن

سلمة قال: حدثنا الأشعث بن عبد الرحمن عن أبي قلابة عن أبي الأشعث الصنعاني

عن النعمان بن بشير به.

قلت: وهذا سند صحيح، رجاله ثقات.

وأبو الأشعث الصنعاني اسمه شراحيل بن آدة.

قال الترمذي: «حديث حسن غريب».

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وأقره الذهبي.

٦ - حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال :

احتبس علينا رسولُ الله ﷺ ذاتَ غداةٍ عن صلاةِ الصُّبحِ ، حتَّى كِدْنَا نَترأى قَرْنَ الشَّمسِ ، فخرَجَ رسولُ الله ﷺ سَريعاً ، فثُوبَ بالصَّلَاةِ ، وصَلَّى وتَجَوَّزَ في صَلَاتِهِ ، فلَمَّا سَلَّمَ قال :

«كَمَا أَنتُمْ عَلَى مَصَافِّكُمْ» .

ثُمَّ أَقْبَلَ إِلَيْنَا فَقَالَ :

قلتُ : لكن الكوثريُّ الزائغُ قال في تعليقه على «الأسماء والصفات» في شأن الأشعث وأبي قِلابة : «تكلَّم به النسائي - يعني الأشعث - وأبو قِلابة مدلس» .

قلتُ : الأشعث الذي تكلَّم فيه النسائي هو ابن عبد الرحمن اليامي ، غير هذا ، وهذا ابن عبد الرحمن الجرمي ، كما صرَّح به في رواية الترمذي وغيره ، وقد قال أحمد : «ما به بأس» وقال ابن معين : «ثقة» وذكره ابن حبان في «الثقات» .

وأما أبو قِلابة - واسمه عبد الله بن زيد - فإنه ثقة يُرسل كثيراً ، وأخطأ مَنْ وَصَفَهُ بالتدليس . وإنما أراد الكوثريُّ إبطالَ دلالة هذا الحديث على خلاف مذهبه في كلام الله تعالى ، وهي شَيْشَنَةٌ عهدناها منه .

تنبيه : وقع عند الترمذي : «أبو الأشعث الجرمي» وإنما هو الصنعاني ، قال المزِّي : «وقع في رواية الترمذي : عن أبي الأشعث الجرمي ، وهو وهم ، وإنما هو الصنعاني ، واسمه شراحيل» .

والحديث رواه رِيحَان بن سعيد عن عباد بن منصور عن أيُّوب عن أبي قِلابة عن أبي صالح الحارثي عن النعمان بن بشير به .

أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٩٦٦) والطبراني في «الصغير» رقم (١٤٧) .

قلتُ : وهذا إسناد ضعيف ، لا يُقَابِلُ الإسنادَ الأوَّلَ قوَّةً ، فإن رواية رِيحَان عن عباد عن أيُّوب عن أبي قِلابة ضعيفة .

«إني سأحدثكم ما حبسني عنكم الغداة:

إني قمت من الليل، فصليت ما قُدر لي، فنعست في صلاتي حتى [استثقلت] (٦) فإذا برّبي عزّ وجلّ في أحسن صورة، فقال: يا مُحَمَّد، أتدري فيم يختصم المَلأ الأعلى؟ قلت: لا أدري يا ربّ، قال: يا مُحَمَّد، فيم يختصم المَلأ الأعلى، قلت: لا أدري يا ربّ، فرأيتُه وضع كفه بين كتفَيّ، حتى وجدتُ بردَ أنامله بينَ صدرَيّ، فتجلّى لي كلُّ شيءٍ، وعرفتُ، فقال: يا مُحَمَّد، فيم يختصم المَلأ الأعلى؟ قلت: في الكفّارات، قال: وما الكفّارات؟ قلت: نقلُ الأقدام إلى الجمعات، وجُلوسُ في المساجد بعد الصلاة، وإسباغُ الوضوء عند الكريهات، قال: وما الدّرجات؟ قلت: إطعامُ الطعام، ولينُ الكلام، والصلاة والناسُ نيام، قال: سلّ، قلت: اللَّهُمَّ إني أسألكَ فعلَ الخيرات، وتركَ المنكرات، وحُبَّ المساكين، وأن تغفرَ لي، وترحمَني، وإذا أردتَ فتنةً في قومٍ فتوفني غيرَ مفتونٍ، وأسألكَ حُبّك، وحُبَّ من يُحبُّك، وحُبَّ عملٍ يقرّني إلى حُبّك».

وقال رسول الله ﷺ:

«إنها حقٌّ فأدرُسوها وتعلّموها» (٧).

(٦) وقع في «مسند الإمام أحمد»: «... استيقظت...» وهي مختلة، وما أثبتته هو الصواب، وهو في بقية مصادر التخريج كما أورده على الصواب.

(٧) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٢٤٣/٥ والترمذي رقم (٣٢٣٥) وابن خزيمة في «التوحيد»

ص: ٢١٨ - ٢١٩ وغيرهم من طريق جَهْضَم بن عبد الله اليمامي ثنا يحيى - يعني ابن =

١ - عن نيار بن مُكْرَم - وكانت له صحبة - أن أبا بكر رضي الله عنه خاطَرَ قَوْمًا مِنْ أَهْلِ مَكَّةَ عَلَى أَنَّ الرُّومَ تَغْلِبُ فَارِسَ ، فَغَلِبَتِ الرُّومُ ، فَنَزَلَتْ ﴿الْم . غَلِبَتِ الرُّومُ﴾ [الروم : ١ - ٢] فَأَتَى قُرَيْشًا ، فَقَرَأَهَا عَلَيْهِمْ ، فَقَالُوا : كَلَامُكَ هَذَا ؟ أَمْ كَلَامُ صَاحِبِكَ ؟ قَالَ : «لَيْسَ بِكَلَامِي ، وَلَا كَلَامِ صَاحِبِي ، وَلَكِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» .

وفي لفظ : «اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ أَنْزَلَ هَذَا» (٨) .

= أبي كثير - ثنا زيد - يعني ابن أبي سَلَام - عن أبي سَلَام أنه حَدَّثَهُ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَاشٍ الْحَضْرَمِيُّ عَنْ مَالِكِ بْنِ يَخَامِرٍ أَنَّ مَعَاذَ بْنَ جَبَلٍ قَالَ : فَذَكَرَهُ .
زيد بن أبي سَلَام هُوَ زَيْدُ بْنُ سَلَامٍ بْنِ أَبِي سَلَامٍ نُسِبَ إِلَى جَدِّهِ .
قُلْتُ : وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

قال الترمذي : «حديث حسن صحيح ، سألتُ محمد بن إسماعيل - يعني البخاري - عن هذا الحديث ؟ فقال : هذا حديث حسن صحيح . . .» .
قُلْتُ : وَأُورِدَ عَلَى إِسْنَادِ الْحَدِيثِ اخْتِلَافٌ ، غَيْرُ ضَارٍّ فِي ثُبُوتِهِ ، وَلَهُ شَوَاهِدٌ عَنْ جَمَاعَةٍ مِنَ الصَّحَابَةِ ، تَفْصِيلُهَا فِي غَيْرِ هَذَا الْمَوْضِعِ .
(٨) أثر صحيح ، وله حكم الرفع .

أَخْرَجَهُ ابْنُ خَزِيمَةَ فِي «التَّوْحِيدِ» ص : ١٦٦ - ١٦٧ وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي «السَّنَةِ» رَقْم (١١٦) وَابْنُ بَيْهَقٍ فِي «الْإِعْتِقَادِ» ص : ١٠٢ وَ«الْأَسْمَاءُ وَالصِّفَاتُ» ص : ٢٣٩ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ فِي «الْحِجَّةِ» ق ٦١/أ - ب مِنْ طَرِيقِ سُرَيْجِ بْنِ النُّعْمَانِ حَدَّثَنِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ أَبِي الزُّنَادِ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عُرْوَةَ بْنِ الزُّبَيْرِ عَنْ نِيَارِ بْنِ مُكْرَمَ بِهِ .
قُلْتُ : وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ .

وهو عند الترمذي رقم (٣١٩٤) من غير موضع الشاهد ، وصححه .

٢ - وعن عائشة رضي الله عنها قالت - في قصة الإفك - :

«والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحيًا يتلى ، ولشأني في نفسي
كان أحقر من أن يتكلم الله فيَّ بأمر يتلى . . . » (٩) .

٣ - وعن فروة بن نوفل الأشجعي قال :

«كنت جاراً لخباب ، فخرجنا يوماً من المسجد ، وهو آخذ بيدي ،
فقال :

«يا هناء ، تقرب إلى الله ما استطعت ، فإنك لن تقرب إليه بشيء
أحب إليه من كلامه - يعني القرآن - » (١٠) .

(٩) متفق عليه .

(١٠) أثر صحيح .

أخرجه أحمد في «الزهد» ص : ٣٥ وأبو بكر بن أبي شيبة ٥١٠/١٠ - ٥١١
وعبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (١١١ ، ١١٢ ، ١١٣) والدارمي في «الرد على
الجهمية» رقم (٣١٠) والأجري في «الشرعية» ص : ٧٧ والحاكم ٤٤١/٢ واللالكائي
رقم (٥٥٨) والبيهقي في «الاعتقاد» ص : ١٠٣ - ١٠٤ و «الأسماء والصفات» ص :
٢٤١ من طرق عن منصور بن المعتمر عن هلال بن يساف عن فروة بن نوفل الأشجعي
به .

قلت : وإسناده صحيح .

قال الحاكم : «صحيح الإسناد» وأقره الذهبي .

وقال البيهقي : «هذا إسناد صحيح» .

قلت : خباب ، هو ابن الأرت ، صحابي معروف .

وقوله : «يا هناء» : أي : يا هذا ، وهي مختصة بالنداء ، وقد قيل : إنها تكون
للأبله ، أو لتنبه الغافل .

٤ - عن نافع (هو مولى ابن عمر) قال :

خَطَبَ الْحَجَّاجُ (هو الثَّقَفِيُّ) فقال : إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ (هو عبد الله) يُبَدِّلُ
كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، قال : فقال ابْنُ عُمَرَ رضي الله عنهما :
«كَذَبَ الْحَجَّاجُ ، إِنَّ ابْنَ الزُّبَيْرِ لَا يُبَدِّلُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يَسْتَطِيعُ
ذَلِكَ» (١١) .

٥ - عن أبي عبد الرحمن السُّلَمِيِّ (تابعِي ثِقَّةَ إِمَامٍ) قال :

«فَضَّلَ الْقُرْآنَ عَلَى سَائِرِ الْكَلَامِ كَفَضَّلَ الرَّبُّ عَلَى خَلْقِهِ ، وَذَلِكَ
أَنَّهُ مِنْهُ» (١٢) .

٦ - وعن قَتَادَةَ (بن دِعَامَةَ السُّدُوسِيِّ ، ثِقَّةَ عَالَمٍ من خِيَارِ أَصْحَابِ

أَنَسٍ) قال :

«فَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ الْحَقُّ مِنْ رَبِّهِمْ...» [البقرة : ٢٦]

(١١) أثر صحيح .

أخرجه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص : ٢٤٤ بسند صحيح .

(١٢) أثر جيد الإسناد .

أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٣٤١) واللالكائي في «السنة»

رقم (٥٥٦) والبيهقي في «الاعتقاد» ص : ١٠١ و «الأسماء والصفات» ص : ٢٣٧ من

طرق عن إسحاق بن سليمان قال : ثنا الجَرَّاحُ بن الضُّحَّاك الكِنْدِيُّ عن علقمة بن مرثد

عن أبي عبد الرحمن به عقب روايته لحديث عثمان رضي الله عنه عن النبي ﷺ :

«خيركم من تعلَّم القرآن وعلمه» .

وهذا الحديث في «الصحيح» دون قول أبي عبد الرحمن .

قلت : وإسناده جيد .

قَالَ: «أَي: يَعْلَمُونَ أَنَّهُ كَلَامُ الرَّحْمَنِ» (١٣).

وَالْخَبَرُ عَنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ وَعَنْ أَصْحَابِهِ الْمَرْضِيِّينَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ، وَاتَّبَاعِهِمْ رَحِمَهُمُ اللَّهُ فِي ذَلِكَ لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَضَرِ، وَفِيمَا أَوْرَدْنَاهُ مِنْ ذَلِكَ كَافٍ لِمَنْ طَلَبَ الْحَقَّ وَأَرَادَهُ.

● من المعقول:

وَأَمَّا دَلَالَةُ الْمَعْقُولِ عَلَى إِبْطَاتِ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى فَمِنْ وَجْهَيْنِ:

الوجه الأول:

إِنَّ الْكَلَامَ صِفَةُ كَمَالٍ، وَضِدُّهَا صِفَةُ نَقْصٍ، وَهِيَ: الْبَكَمُ وَالْخَرَسُ، وَهَذِهِ الصِّفَةُ إِنْ وُجِدَتْ فِي الْمَخْلُوقِ الْعَاجِزِ الضَّعِيفِ كَانَتْ نَقْصًا بَيِّنًا، فَكَيْفَ يَصْلُحُ إِثْبَاتُهَا لِمَنْ لَهُ الْكَمَالُ الْمَطْلُوقُ سُبْحَانَهُ؟ وَكَيْفَ يَصِحُّ ذَلِكَ وَهُوَ وَاهِبُ الْكَمَالِ لِلْكَامِلِينَ؟ أَفَيَصِحُّ أَنْ يَهَبَ عَبْدُهُ مَا هُوَ عَاجِزٌ عَنِ الْإِتِّصَافِ بِهِ مِنْ صِفَاتِ الْكَمَالِ؟

إِنَّ لَهُ تَعَالَى الْمَثَلَ الْأَعْلَى، وَالْكَمَالَ مِنْ جَمِيعِ وُجُوهِهِ، وَهُوَ السَّلَامُ الْمَلِكُ الْقُدُّوسُ الْمُتَعَالِي عَنِ الْمَعَائِبِ وَالنَّقَائِصِ، فَحَيْثُ نَفَيْْنَا عَنْهُ كُلَّ غَيْبٍ وَنَقْصٍ فَهُوَ إِذَا الْمَتَّصِفُ بِكَمَالٍ ضِدُّ ذَلِكَ، فَلَمَّا كَانَ ضِدُّ الْكَلَامِ نَقْصًا نَزَّهْنَاهُ عَنْهُ وَاثْبَتْنَا لَهُ كَمَالَ ضِدِّهِ، أَلَا وَهُوَ الْكَلَامُ الَّذِي لَا نَظِيرَ لَهُ، كَسَائِرِ صِفَاتِهِ.

(١٣) أثر صحيح .

أَخْرَجَهُ الدَّارِمِيُّ أَبُو مُحَمَّدٍ فِي «السَّنَنِ» رَقْم (٣٣٥٥) وَابْنُ جَرِيرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ»

١٨٠/١ . وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ .

ولقد جاء القرآن العظيم بتقرير هذا المعقول أحسن تقرير، فقال تعالى في العجل الذي اتخذهُ قومُ موسى إلهاً يعبدونه من دون الله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يَكْلُمُهُمْ وَلَا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا﴾ [الأعراف: ١٤٨] وقال تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَلَّا يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾ [طه: ٨٩] فعاب العجل بكونه قد سلب صفة الكلام، فدل على أن سلبها صفة نقص لا تليق بالإله المعبود، وما كان ليعيب إلههم الباطل، بما هو غيب فيه، تعالى وتقدس.

وقال سبحانه في حكاية قول إبراهيم عليه السلام لقومه حين حطم أصنامهم: ﴿قَالَ بَلْ فَعَلَهُ كَبِيرُهُمْ هَذَا فَاسْأَلُوهُمْ إِنْ كَانُوا يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٣] فكان جوابهم الإقرار بسلب هذه الصفة عن إلهتهم، والاعتراف بأن ذلك نقص فيها ﴿فَرَجَعُوا إِلَى أَنْفُسِهِمْ فَقَالُوا إِنَّكُمْ أَنْتُمُ الظَّالِمُونَ . ثُمَّ نَكَسُوا عَلَى رُؤُوسِهِمْ لَقَدْ عَلِمْتُمْ مَا هَؤُلَاءِ يَنْطِقُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٤ - ٦٥] فكانت هذه حجة إبراهيم عليهم لإظهار فساد دينهم ﴿قَالَ أَتَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَنْفَعُكُمْ شَيْئًا وَلَا يَضُرُّكُمْ . أَفْ لَكُمْ وَلِمَا تَعْبُدُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ أَفَلَا تَعْقِلُونَ﴾ [الأنبياء: ٦٦ - ٦٧].

فدلت الآيات على أن سلب صفة الكلام صفة نقص فيمن سلبت عنه، فكان من حجة إبراهيم عليهم: أن إلهتهم لا تتكلم، فلو لم يكن ضد هذه الصفة لازماً لربه تعالى، لم يكن له في إلزامه إياهم حجة عليهم، لمساواة إلهه لإلهتهم في سلب هذه الصفة، ولصح لقومه أن يقولوا له: ما وصفت به إلهتنا من النقص هو صفة لإلهك أيضاً، فتبطل بذلك حجته، ولكن لما كان الله تعالى موصوفاً بصفة الكلام لم يكن لهم أن يعترضوا

عليه بمثل ما اعترض عليهم .

والوجه الثاني :

إن العباد لا غنى لهم عن إرسال الرُّسل ، وإنزالِ الكُتبِ ، لأنَّ أحوالَ الدنيا والآخرة لا تستقيمُ لهم إلا بذلك ، بل إنَّ الحكمةَ من خلقهم تنفي بدونِ ذلك ، ويعيشُ الناسُ في الدنيا عيشَ البهائمِ بغيرِ تكليفٍ ، فلا أمرٌ ولا نهْيٌ .

فلما كانوا لا غنى لهم عن ذلك أرسلَ الله تعالى الرُّسلَ وأنزلَ عليهم الكتبَ ، إذ لو تركَهُم لعقولهم لضلُّوا ، وليسَ للرُّسولِ معنى إلا تبليغِ الرُّسالةِ ، والرُّسالةُ إنما هي وحيُّ الله الذي يوحى إلى رسلِهِ ، ووحيُّه إنما هو كلامه تعالى ، ومنه كتبه المُنزلةُ الهاديةُ .

فبانَ بما شَرَحْنَاهُ ثبوتُ صفةِ الكلامِ لله تعالى ، على رَغمِ أنوفِ الجَهميَّةِ الكُفارِ ، ولله الحمدُ والمِنَّةُ .



المبحث الثالث

التكليم في الدنيا

قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بَأْذَنِهِ مَا يَشَاءُ إِنَّهُ عَلَىٰ عَلِيمٌ﴾ [الشورى : ٥١].

فأخبر تعالى في هذه الآية أن تكليمه للنبي يقع على ثلاث مراتب :

● المرتبة الأولى : الوحي المجرد :

ودليله قوله : ﴿إِلَّا وَحْيًا﴾ .

وهذا غير الوحي العام الذي يشمل جميع أنواع التكليم ، وإنما هو نوع منه ، وقد فُسر بالإعلام السريع الخفي ، ويقع للأنبياء عليهم السلام مناماً .

ومن الدليل عليه :

١ - رؤيا إبراهيم عليه السلام :

قَالَ تَعَالَى : ﴿فَبَشَّرْنَاهُ بِغُلَامٍ حَلِيمٍ﴾ . فَلَمَّا بَلَغَ مَعَهُ السَّعْيَ قَالَ يَا بُنَيَّ إِنِّي أَرَىٰ فِي الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ فَانْظُرْ مَاذَا تَرَىٰ قَالَ يَا أَبَتِ افْعَلْ مَا

تَوَمَّرُ سَتَجِدُنِي إِنْ شَاءَ اللَّهُ مِنَ الصَّابِرِينَ . فَلَمَّا أَسْلَمَا وَتَلَّهُ لِلْجَبِينِ .
وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ . قَدْ صَدَّقَتِ الرُّؤْيَا إِنَّا كَذَلِكَ نَجْزِي الْمُحْسِنِينَ ﴿
[الصفافات: ١٠١ - ١٠٥].

قَالَ عُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ: «رُؤْيَا الْأَنْبِيَاءِ وَحْيٌ»، ثُمَّ قَرَأَ: ﴿إِنِّي أَرَى فِي
الْمَنَامِ أَنِّي أَذْبَحُكَ﴾^(١٤).

٢ - وَعَنْ عَائِشَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا قَالَتْ:

«أَوَّلُ مَا بُدِيََ بِهِ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الْوَحْيِ الرُّؤْيَا الصَّالِحَةُ (وَفِي
لَفْظٍ: الصَّادَقَةُ) فِي النَّوْمِ، فَكَانَ لَا يَرَى رُؤْيَا إِلَّا جَاءَتْ مِثْلَ مَثَلٍ فَلَقِ
الصُّبْحُ»^(١٥).

٣ - وَعَنْ مُعَاذِ بْنِ جَبَلٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ قَالَ:

«إِنِّي قُمْتُ مِنَ اللَّيْلِ، فَصَلَّيْتُ مَا قُدِّرَ لِي، فَنَعَسْتُ فِي صَلَاتِي حَتَّى
اسْتَقَلْتُ، فَإِذَا أَنَا بِرَبِّي عَزَّ وَجَلَّ فِي أَحْسَنِ صُورَةٍ، فَقَالَ: يَا مُحَمَّدُ،
أَتَدْرِي فِيمَ يَخْتَصِمُ الْمَلَأُ الْأَعْلَى؟...» الْحَدِيثُ وَقَدْ سَبَقَ بِطَوْلِهِ فِي
الْمَبْحَثِ السَّابِقِ^(١٦).

وَلَيْسَ الْإِلَهَامُ الَّذِي يَحْصُلُ لِأَحَادِ النَّاسِ مِنْ هَذَا النَّوعِ، لِأَنَّهُ لَا
يَصِحُّ تَسْمِيَتُهُ تَكْلِيمًا خِلَافًا لِمَا ذَهَبَ إِلَيْهِ بَعْضُ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنَ الْمُتَأَخِّرِينَ.

(١٤) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ، وَعُبَيْدُ بْنُ عُمَيْرٍ هُوَ اللَّيْثِيُّ تَابِعِي ثِقَةٌ عَالِمٌ.

(١٥) مُتَّفَقٌ عَلَيْهِ.

(١٦) ص ٨٩ - ٩٠.

● والمرتبة الثانية: التكليم الخاص من وراء حجاب بلا واسطة:

والدليل عليه قوله: ﴿أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ﴾.

وهذا تكليم مباشر من الرب تعالى، بكلام يُسمعه من شاء من رسله، من وراء حجاب.

وهذه المرتبة أعلى مراتب التكليم وأشرفها وأفضلها، قال تعالى: ﴿تِلْكَ الرُّسُلُ فَضَّلْنَا بَعْضَهُمْ عَلَى بَعْضٍ مِنْهُمْ مَنْ كَلَّمَ اللَّهُ وَرَفَعَ بَعْضَهُمْ دَرَجَاتٍ...﴾ [البقرة: ٢٥٣].

وقد وقع هذا النوع لثلاثة من الأنبياء فيما جاء به السمع، هم:

١ - آدم عليه السلام:

والدليل عليه قوله تعالى: ﴿فَتَلَقَّى آدَمُ مِنْ رَبِّهِ كَلِمَاتٍ...﴾ [البقرة: ٣٧].

ومن السنة: حديث أبي أمامة رضي الله عنه أن رجلاً أتى النبي ﷺ، قال: يا نبي الله، أنبيأ كان آدم؟ قال: «نعم، مكلماً»^(١٧).

٢ - موسى عليه السلام:

والأدلة عليه من الكتاب كثيرة منها:

قوله تعالى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤] وقوله تعالى: ﴿وَلَمَّا جَاءَ مُوسَى لِمِيقَاتِنَا وَكَلَّمَهُ رَبُّهُ﴾ [الأعراف: ١٤٣] وقوله تعالى: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي اصْطَفَيْتُكَ عَلَى النَّاسِ بِرِسَالَتِي وَبِكَلَامِي﴾

(١٧) سبق الحديث وتخريجه في المبحث السابق ص ٨٦ - ٨٧.

[الأعراف: ١٤٤].

ومن السنة: حديث عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«إِنَّ مُوسَى قَالَ: يَا رَبِّ أَرِنَا آدَمَ الَّذِي أَخْرَجْنَا وَنَفْسَهُ مِنَ الْجَنَّةِ، فَأَرَاهُ اللَّهُ آدَمَ، فَقَالَ: أَنْتَ أَبُونَا آدَمُ، فَقَالَ لَهُ آدَمُ: نَعَمْ، قَالَ: أَنْتَ الَّذِي نَفَخَ اللَّهُ فِيكَ مِنْ رُوحِهِ وَعَلَّمَكَ الْأَسْمَاءَ كُلَّهَا، وَأَمَرَ الْمَلَائِكَةَ فَسَجَدُوا لَكَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فَمَا حَمَلَكَ عَلَى أَنْ أَخْرَجْتَنَا وَنَفْسَكَ مِنَ الْجَنَّةِ؟ فَقَالَ لَهُ آدَمُ: وَمَنْ أَنْتَ؟ قَالَ: أَنَا مُوسَى، قَالَ: أَنْتَ نَبِيُّ بَنِي إِسْرَائِيلَ الَّذِي كَلَّمَكَ اللَّهُ مِنْ وَرَاءِ الْحِجَابِ، لَمْ يَجْعَلْ بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ رَسُولًا مِنْ خَلْقِهِ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَفَمَا وَجَدْتَ أَنَّ ذَلِكَ كَانَ فِي كِتَابِ اللَّهِ قَبْلَ أَنْ أُخْلَقَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: فِيمَ تَلُومُنِي؟ فِي شَيْءٍ سَبَقَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى فِيهِ الْقَضَاءُ قَبْلِي؟» قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «عِنْدَ ذَلِكَ: «فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى، فَحَجَّ آدَمُ مُوسَى» (١٨).

وقد سَمَّى اللَّهُ تَعَالَى هَذَا التَّكْلِيمَ نِدَاءً، كَمَا قَالَ: ﴿فَلَمَّا آتَاهَا نُودِي يَا مُوسَى . إِنِّي أَنَا رَبُّكَ فَاخْلَعْ نَعْلَيْكَ إِنَّكَ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى . وَأَنَا اخْتَرْتُكَ فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى . إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ

(١٨) حديث صحيح.

أخرجه عبد الله بن وهب في «القدر» رقم (٣) ومن طريقه: أبو داود رقم (٤٧٠٢) وأبو يعلى رقم (٢٤٣) وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (١٣٧) وآخرون. وإسناده جيد.

وقد استوعبت الكلام عليه في جزء مستقل، كما أشرت إليه فيما سبق في التعليق على حديث أبي هريرة ص ٨٥.

لَذِكْرِي... ﴿ [طه: ١١ - ١٤] وَكَمَا قَالَ سُبْحَانَهُ: ﴿ فَلَمَّا جَاءَهَا نُورْدِي
 أَنْ بُورِكَ مَنْ فِي النَّارِ وَمَنْ حَوْلَهَا وَسُبْحَانَ اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ . يَا مُوسَى إِنَّهُ
 أَنَا اللَّهُ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ ﴿ [النمل: ٨ - ٩] وَكَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا
 نُورْدِي مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ أَنْ يَا مُوسَى
 إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴿ [القصص: ٣٠].

٣ - نبينا محمد ﷺ:

ووقع له ذلك في قصة المعراج عند سِدْرَةِ الْمُنتَهَى .

قال ﷺ: «فأوحى الله إليَّ ما أوحى، ففرض عليَّ خَمْسِينَ صَلَاةً فِي
 كُلِّ يَوْمٍ وَلَيْلَةٍ، فنزلتُ إلى موسى ﷺ فَقَالَ: مَا فَرَضَ رَبُّكَ عَلَيَّ أُمَّتِكَ؟
 قُلْتُ: خَمْسِينَ صَلَاةً، قَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، فَإِنَّ أُمَّتَكَ
 لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَإِنِّي قَدْ بَلَوْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَخَبَرْتُهُمْ، قَالَ: فَرَجَعْتُ إِلَى
 رَبِّي، فَقُلْتُ: يَا رَبِّ، خَفَّفْ عَلَيَّ أُمَّتِي، فَحَطَّ عَنِّي خَمْسًا، فَرَجَعْتُ إِلَى
 مُوسَى فَقُلْتُ: حَطَّ عَنِّي خَمْسًا، قَالَ: إِنَّ أُمَّتَكَ لَا يُطِيقُونَ ذَلِكَ، فَارْجِعْ
 إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ، قَالَ: فَلَمْ أَزَلْ أَرْجِعُ بَيْنَ رَبِّي تَبَارَكَ وَتَعَالَى وَبَيْنَ
 مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ، حَتَّى قَالَ: يَا مُحَمَّدُ، إِنَّهُنَّ خَمْسُ صَلَوَاتٍ كُلُّ يَوْمٍ
 وَلَيْلَةٍ، لِكُلِّ صَلَاةٍ عَشْرٌ، فَذَلِكَ خَمْسُونَ صَلَاةً، وَمَنْ هُمْ بِحَسَنَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا
 كُتِبَتْ لَهُ حَسَنَةٌ، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ لَهُ عَشْرًا، وَمَنْ هُمْ بِسَيِّئَةٍ فَلَمْ يَعْمَلْهَا لَمْ
 تُكْتَبْ شَيْئًا، فَإِنْ عَمِلَهَا كُتِبَتْ سَيِّئَةٌ وَاحِدَةً، قَالَ: فَنَزَلْتُ حَتَّى انْتَهَيْتُ إِلَى
 مُوسَى ﷺ فَأَخْبَرْتُهُ، فَقَالَ: ارْجِعْ إِلَى رَبِّكَ فَاسْأَلْهُ التَّخْفِيفَ»، فقال رسول
 الله ﷺ: «فَقُلْتُ: قَدْ رَجَعْتُ إِلَى رَبِّي حَتَّى اسْتَحْيَيْتُ مِنْهُ» (١٩).

(١٩) متفق عليه من حديث أنس بن مالك، والسياق لمسلم.

قلتُ : وهذا التكليمُ هو المرادُ بقوله تعالى : ﴿ فَأَوْحَىٰ إِلَىٰ عَبْدِهِ مَا أَوْحَىٰ ﴾ [النجم : ١٠] .

وقَدْ ذَهَبَ بعضُ أهل العلم إلى أنَّ هذا التكليمَ كانَ بواسطة جبريلَ ، فقالوا : فأوحى إلى عبده بواسطة جبريلَ ما أوحى ، أي : جبريلُ .

وهذا مردودٌ ، إذ الأصلُ عدمُ الحذفِ في الكلامِ ، وظاهرُ الحديثِ أنَّ الخطابَ من الله تعالى لنبِيِّهِ ﷺ كانَ بغير واسطةٍ ، ومن قرائنه مُراجعةُ النَّبِيِّ ﷺ رَبَّهُ ، وكذا يُؤكِّدُهُ أنَّ النَّبِيَّ ﷺ رُفِعَ إلى موضعٍ لَمْ يُرْفَعْ إليه موسى عليه السَّلامُ الَّذي فَضِّلَ بكلامِ الله ، ولا إبراهيمُ عليه السلامُ الَّذي فَضِّلَ بالخُلَّةِ ، فذلك مُستوجبٌ أن يكونَ فضلُهُ أعظمَ من فضلِ مَنْ دونَهُ ، فجدِّيرُ به أن ينالَ درجَاتِ الفضلِ التي حصلها مَنْ دونَهُ .

والَّذي ألجأ القائلينَ بهذا إلى هذه المقالةِ أنهم التزموا أَنَّهُ ﷺ إن أثبتَ له تكليمُ الله تعالى إياه بغير واسطةٍ ، فإنَّ ذلك يستوجبُ رؤْيَتَهُ ﷺ لِرَبِّهِ ، والتَّحْقِيقُ الَّذي عليه جُمهورُ أهلِ السُّنَّةِ أَنَّهُ ﷺ لَمْ يَرِ رَبَّهُ تعالى ليلةَ الإسراءِ .

والصَّوابُ أنَّ هذا الَّذي التزموه ليسَ بلازمٍ ، لأنَّ التَّكليمَ غيرُ الرُّؤْيَةِ ، وهو مُمكنُ الوقوعِ بخلافِ الرُّؤْيَةِ ، وذلك من وراء حجابٍ ، كما وقعَ لموسى عليه السَّلامُ ، فإنَّ موسى لَمْ يَرِ رَبَّهُ ، مع أَنَّهُ كَلَّمَهُ وناداهُ .

وقد عَلِمْنَا أنَّ هذه المرتبةَ من التَّكليمِ أكملُ المراتبِ وأعلاها ، فهي فضلٌ عظيمٌ ، ودرجةٌ رَفيعةٌ ، فحريٌّ أن تكونَ لسيِّدِ ولدِ آدمَ عليه الصلاة والسلامِ .

● والمرتبة الثالثة: التكليم بواسطة الرسول:

والدليل عليه قوله: ﴿أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾.

والرَسُولُ جبريل عليه السلام، وربما كَانَ غَيْرُهُ، إِلَّا أَنَّ ذَلِكَ قَلِيلٌ، وهذا فِي الرُّسُلِ مِنَ الْمَلَائِكَةِ، أَمَّا الرُّسُلُ مِنَ الْبَشَرِ فَإِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَكَلِّمُ أُمَّتَهُمْ بِوَاسِطَتِهِمْ، كَمَا يُكَلِّمُهُمْ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ الْمَلَكِيِّ.

وبيانه:

أَنَّ الرَّسُولَ الْمَلَكِيَّ يَسْمَعُ كَلَامَ اللَّهِ مِنَ اللَّهِ بِغَيْرِ وَاسِطَةٍ، فَيُلْغُهُ إِلَى الرَّسُولِ الْبَشَرِيِّ، فَهَذَا تَكْلِيمٌ بِالْوِاسِطَةِ، وَالرُّسُولُ الْبَشَرِيُّ يُلْغُهُ أُمَّتَهُ، وَهَذَا أَيْضاً تَكْلِيمٌ بِالْوِاسِطَةِ، وَكُلُّ مَنْ كَلَّمَهُ اللَّهُ بِالْوِاسِطَةِ فَهُوَ سَامِعٌ لِكَلَامِهِ مِنَ الْوِاسِطَةِ لَا مِنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وجبريل عليه السلام هو الذي كَانَ يَأْتِي نَبِيَّنَا ﷺ بِالْوَحْيِ مِنْ رَبِّهِ، قَالَ تَعَالَى: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وَقَالَ: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ...﴾ [النحل: ١٠٢]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧]، وَقَالَ تَعَالَى: ﴿وَالنَّجْمِ إِذَا هَوَى . مَا ضَلَّ صَاحِبُكُمْ وَمَا غَوَى . وَمَا يَنْطِقُ عَنِ الْهَوَى . إِنْ هُوَ إِلَّا وَحْيٌ يُوحَى . عَلَّمَهُ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ﴾ [النجم: ١ - ٦] وهو جبريل عليه السَّلام.

ولقد كَانَ يَأْتِي النَّبِيَّ ﷺ بِصُورَةِ بَشَرٍ، تَأْنِيساً لَهُ، فَإِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلام

خَلَقَ عَظِيمٌ مِنْ خَلْقِ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَمْ يَرَهُ النَّبِيُّ ﷺ عَلَى صُورَتِهِ إِلَّا مَرَّتَيْنِ ،
 كَمَا قَالَتْ عَائِشَةُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهَا لَمَسْرُوقٍ حِينَ سَأَلَهَا عَنْ قَوْلِهِ تَعَالَى :
 ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ بِالْأَفْقِ الْمُبِينِ﴾ [التكوير: ٢٣] ، وَقَوْلُهُ : ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾
 [النجم: ١٣] : أَنَا أَوَّلُ هَذِهِ الْأُمَّةِ سَأَلَ عَنْ ذَلِكَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ؟ فَقَالَ :
 «إِنَّمَا هُوَ جِبْرِيلُ ، لَمْ أَرَهُ عَلَى صُورَتِهِ الَّتِي خُلِقَ عَلَيْهَا غَيْرَ هَاتَيْنِ الْمَرَّتَيْنِ ،
 رَأَيْتُهُ مُنْهَبِطًا مِنَ السَّمَاءِ ، سَادًّا عَظَمَ خَلْقِهِ مَا بَيْنَ السَّمَاءِ إِلَى الْأَرْضِ» (٢٠) .
 وَقَالَ ابْنُ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ فِي هَذِهِ الْآيَةِ ﴿وَلَقَدْ رَأَاهُ نَزْلَةً أُخْرَى﴾ :
 قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ : «رَأَيْتُ جِبْرِيلَ عِنْدَ سِدْرَةِ الْمُنتَهَى ، عَلَيْهِ سِتُّ مِثَّةٍ
 جَنَاحَ ، يُنْثَرُ مِنْ رِيشِهِ التَّهَاقِيلُ : الدَّرُّ وَالْيَاقُوتُ» (٢١) .

وَلَقَدْ أَنْبَأَنَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ نَفْسَهُ عَنْ صِفَةِ إِيْتَانِ الْوَحْيِ إِلَيْهِ ، حِينَ
 سَأَلَهُ الْحَارِثُ بْنُ هِشَامٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، كَيْفَ يَأْتِيكَ

(٢٠) قِطْعَةٌ مِنْ حَدِيثٍ صَحِيحٍ .

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٢٣٦/٦ ، ٢٤١ وَمُسْلِمٌ رَقْمَ (١٧٧) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٣٠٦٨) مِنْ
 طَرَقَ عَنْ دَاوُدَ بْنِ أَبِي هِنْدَ عَنِ الشَّعْبِيِّ عَنْ مَسْرُوقٍ بِهِ .
 قَالَ التِّرْمِذِيُّ : «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ ، وَمَسْرُوقُ بْنُ الْأَجْدَعِ ، يُكْنَى أَبَا
 عَائِشَةَ ، وَهُوَ مَسْرُوقُ بْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ . . .» .

قُلْتُ : وَأَصْلُ الْحَدِيثِ عِنْدَ الْبُخَارِيِّ فِي «الصَّحِيحِ» .

(٢١) حَدِيثٌ جَيِّدٌ الْإِسْنَادُ .

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ٤١٢/١ ، ٤٦٠ وَابْنُ طَهْمَانَ فِي «مَشِيخَتِهِ» رَقْمَ (١٢٦)
 وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكِبَرِيِّ» - كَمَا فِي «تَحْفَةِ الْأَشْرَافِ» ٢٥/٧ - وَأَبُو يَعْلَى فِي «مُسْنَدِهِ»
 رَقْمَ (٤٩٩٣) وَابْنُ خَزِيمَةَ فِي «التَّوْحِيدِ» ص : ٢٠٣ وَابْنُ جُرَيْرٍ فِي «تَفْسِيرِهِ» ٤٩/٢٧
 مِنْ طَرَقَ عَنْ حَمَادِ بْنِ سَلَمَةَ عَنْ عَاصِمِ بْنِ بَهْدَلَةَ عَنْ زَيْدٍ عَنْ ابْنِ مَسْعُودٍ بِهِ .

الوحي؟ فقال رسول الله ﷺ: «أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس وهو أشده عليّ، فيفصم عني وقد وعيت عنه ما قال، وأحياناً يتمثل لي الملك رجلاً فيكلمني، فأعي ما يقول» (٢٢).

ولقد أتى مريم عليها السلام بصورة بشر، كما قال تعالى: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا فَتَمَثَّلَ لَهَا بَشَرًا سَوِيًّا. قَالَتْ إِنِّي أَعُوذُ بِالرَّحْمَنِ مِنْكَ إِنْ كُنْتَ تَقِيًّا. قَالَ إِنَّمَا أَنَا رَسُولُ رَبِّكِ لِأَهَبَ لَكِ غُلَامًا زَكِيًّا﴾ [مريم: ١٧ - ١٩].

وجاءت الملائكة رسل الله إلى إبراهيم ولوط عليهما السلام بصورة بشرية، كما حكى الله في سورة هود وغيرها.

وإنما كان ذلك يقع كذلك لأن البشر يأنس جنسه، ولا يرتاع لرؤيته، ففيه من تهذبة القلب ما لا يكون لو أتى بصورة الملك، ومن طبيعة بني آدم النفرة من الأمور غير المألوفة، ولذا كانت هذه من حكمة الله تعالى في إرسال الرسل إلى البشر من أنفسهم، كما قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ وَلَوْ أَنزَلْنَا مَلَكَاً لَّفُضِيَ الأَمْرُ ثُمَّ لَا يُنْظَرُونَ. وَلَوْ جَعَلْنَاهُ مَلَكَاً

(٢٢) حديث صحيح.

أخرجه مالك في «الموطأ» ٢٠٢/١ - ٢٠٣ وأحمد ١٥٨/٦، ١٦٣، ٢٥٦ - ٢٥٧ والبخاري ١٨/١ و٣٠٤/٦ ومسلم ١٨١٦/٤ - ١٨١٧ والترمذي رقم (٣٦٣٤) والنسائي في «المجتبى» ١٤٦/٢، ١٤٧ وفي «الكبرى» كما في «فضائل القرآن» له رقم (٤) وكما في «تحفة الأشراف» ١٩٣/١٢ - ١٩٤ من طرق عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة أن الحارث بن هشام سأل رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله... الحديث.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

لَجَعَلْنَاهُ رَجُلًا وَلَلَبَسْنَا عَلَيْهِمْ مَا يَلْبِسُونَ ﴿[الأنعام : ٨ - ٩] وقال تعالى : ﴿وَمَا مَنَعَ النَّاسَ أَنْ يُؤْمِنُوا إِذْ جَاءَهُمُ الْهُدَى إِلَّا أَنْ قَالُوا أَبَعَثَ اللَّهُ بَشَرًا رَسُولًا . قُلْ لَوْ كَانَ فِي الْأَرْضِ مَلَائِكَةٌ يَمْسُونَ مُطْمَئِنِّينَ لَنَزَّلْنَا عَلَيْهِمْ مِنَ السَّمَاءِ مَلَكًا رَسُولًا﴾ [الإسراء : ٩٤ - ٩٥] .

قال الحافظ ابن كثير: «فَمِنْ رَحْمَتِهِ تَعَالَى بِخَلْقِهِ أَنَّهُ يَرْسِلُ إِلَى كُلِّ صَنَفٍ مِنَ الْخَلَائِقِ رُسُلًا مِنْهُمْ ، لِيَدْعُوَ بَعْضُهُمْ بَعْضًا ، وَلِيُمْكِنَ بَعْضُهُمْ أَنْ يَنْتَفِعَ بِبَعْضٍ فِي الْمُخَاطَبَةِ وَالسُّؤَالِ» (٢٣) .

قلتُ : ولذا امتنَّ اللهُ تَعَالَى عَلَى الْمُؤْمِنِينَ بِذَلِكَ ، فَقَالَ : ﴿لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ . . .﴾ الآية [آل عمران : ١٦٤] .

فهذا بيان أنواع ومراتب التكليم العام الذي جاءت به آية الشورى ، وهو متضمنٌ لإبطال أقوال كثير من المبتدعة الذين لم يفرقوا بين تكليم الله لموسى وتكليمه لغيره بواسطة الملك ، ولا بين الإيحاء المجرد والتكليم الخاص ، فوقعوا بسبب ذلك في ضلالات ، أوقعتهم في الإلحاد في صفات الله تعالى ، وتعطيل صريح النصوص ، وإبطال حقائقها .

ومما ينبغي التنبيه عليه دفعاً لما قد يُشكَل في إطلاق لفظ (الوحي) ولفظ (التكليم) في مواضع من كتاب الله تعالى ، فالقاعدة في ذلك كما يقول شيخ الإسلام رحمه الله : «فيهما عمومٌ وخصوصٌ ، فإذا كان أحدهما

عاماً اندرج فيه الآخر، كما اندرج الوحي في التكليم في هذه الآية، واندرج التكليم في الوحي العام، حيث قال تعالى: ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا يُوحَى﴾ [طه: ١٣] (٢٤).



المبحث الرابع التكليم في الآخرة

تكليمُ الله تعالى لعباده في الآخرة يَقَعُ منه إليهم من غير وسائط بينه وبينهم، والمقصودُ به غيرُ المقصود بالتكليم في الدنيا، فإنَّ التكليم في الدنيا، إنما كان المرادُ به تقويمُ السُّلوكِ إلى الدَّارِ الآخرة، وأما وقوعه في الآخرة، فعلى أوجهٍ ثلاثة:

● الوجه الأول: للحساب والقضاء بين العباد في المحشر:

وتستوي الخلائق في هذا التكليم إلا أقواماً شاء الله أن يَحْرِمَهُمْ ذلك، تَنْكِيلًا وزيادةً في العذاب.

ومن الدليل على ما ذكرنا:

١ - قوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

٢ - وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ أَيْنَ شُرَكَائِيَ قَالُوا أَدْذُنَاكَ مَا مِنَّا مِنْ شَهِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٧].

٣ - وحديث أبي هريرة قال: سمعتُ رسول الله ﷺ يقول:

«يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ، وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ بِيَمِينِهِ، ثُمَّ يَقُولُ: أَنَا الْمَلِكُ، أَيْنَ مُلْكُ الْأَرْضِ؟» وفي لفظ: «يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ...» (٢٥).

٤ - وحديث عَدِيَّ بْنِ حَاتِمٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ اللَّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ، فَيَنْظُرُ أَيَمَّنَ مِنْهُ فَلَا يَرَى إِلَّا مَا قَدَّمَ، وَيَنْظُرُ بَيْنَ يَدَيْهِ فَلَا يَرَى إِلَّا النَّارَ تِلْقَاءَ وَجْهِهِ، فَاتَّقُوا النَّارَ وَلَوْ بِشِقِّ تَمْرَةٍ».

وفي لَفْظٍ: «مَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ إِلَّا سَيَكْلُمُهُ رَبُّهُ، لَيْسَ بَيْنَهُ وَبَيْنَهُ تَرْجُمَانٌ وَلَا حِجَابٌ يَحْجُبُهُ» (٢٦).

٥ - وحديث عبد الله بن أنيس رضي الله عنه قال: سَمِعْتُ النَّبِيَّ ﷺ يَقُولُ:

(٢٥) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٣٧٤/٢ والبخاري ٥٥١/٨ و ٣٧٢/١١ و ٣٦٧/١٣ ومسلم رقم (٢٧٨٧) والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف» ٦٢/١٠ - وابن ماجه رقم (١٩٢) والدارمي رقم (٢٨٠٢) من حديث أبي هريرة به. ونحوه في «الصحيحين» وغيرهما من حديث ابن عمر. (٢٦) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٢٥٦/٤ والبخاري ٤٠٠/١١ و ٤٢٣/١٣، ٤٧٤، ومسلم ٧٠٣/٢ - ٧٠٤ والترمذي رقم (٢٤١٥) وابن ماجه رقم (١٨٥) و (١٨٤٣) من طرق عن الأعمش عن خيثمة بن عبد الرحمن عن عَدِيَّ بْنِ حَاتِمٍ بِهِ، وَرَبَّمَا أَدْخَلَ الْأَعْمَشُ بَيْنَهُ وَبَيْنَ خَيْثَمَةَ فِي بَعْضِ أَسَانِيدِهِ عَمْرُو بْنُ مُرَّةٍ، وَهُوَ مُحْفُوظٌ مِنَ الْوَجْهِينِ. وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح» قلت: واللفظ الثاني للبخاري.

«يَحْشُرُ اللهَ الْعِبَادَ - أَوِ النَّاسَ - عُرَاةً غُرْلًا بُهِمَا».

قلنا: [ما] بُهِمَا؟ قال:

«لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيَنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ - أَحْسَبُهُ قَالَ: كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرَبَ - : أَنَا الْمَلِكُ، [أَنَا الدِّيَّانُ]، لَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَدْخُلُ الْجَنَّةَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ، وَلَا يَنْبَغِي لِأَحَدٍ مِنْ أَهْلِ النَّارِ يَدْخُلُ النَّارَ وَأَحَدٌ مِنْ أَهْلِ الْجَنَّةِ يَطْلُبُهُ بِمَظْلَمَةٍ».

قلت: وكيف؟ وإنما تأتي الله عُرَاةً بُهِمَا؟ قال:

«بِالْحَسَنَاتِ وَالسَّيِّئَاتِ» (٢٧).

٦ - وحديث صَفْوَانَ بْنِ مُخْرَزٍ قَالَ: قَالَ رَجُلٌ لَابْنِ عُمَرَ: كَيْفَ سَمِعْتَ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ يَقُولُ فِي النَّجْوَى؟ قَالَ: سَمِعْتُهُ يَقُولُ:

«يُذْنِي الْمُؤْمِنُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عَزَّ وَجَلَّ، حَتَّى يَضَعَ عَلَيْهِ كَنَفَهُ (٢٨)، فَيَقْرَأُ بِذُنُوبِهِ، فَيَقُولُ: هَلْ تَعْرِفُ؟ فَيَقُولُ: أَيْ رَبِّ أَعْرِفُ، قَالَ: فَإِنِّي قَدْ سَتَرْتُهَا عَلَيْكَ فِي الدُّنْيَا، وَإِنِّي أَغْفِرُهَا لَكَ الْيَوْمَ: فَيُعْطَى صَحِيفَةً حَسَنَاتِهِ، وَأَمَّا الْكَفَّارُ وَالْمُنَافِقُونَ فَيُنَادَى بِهِمْ عَلَى رُؤُوسِ الْخَلَائِقِ: هَؤُلَاءِ

(٢٧) حديث حسن.

أخرجه أحمد ٤٩٥/٣ والبخاري في «الأدب» رقم (٩٧٠) وآخرون من حديث جابر عن عبد الله بن أنيس.

وقد فصلت القول فيه في تحقيق جزء «الحديث الذي رَحَّلَ فيه جابر بن عبد الله مسيرة شهر» لابن ناصر الدين.

(٢٨) أي: ستره.

الذين كذبوا على الله» (٢٩).

وأما الأدلة على حرمان أقوام من تكليم الله لهم، فمنها:

١ - قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ مِنَ الْكِتَابِ وَيَشْتَرُونَ بِهِ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ مَا يَأْكُلُونَ فِي بُطُونِهِمْ إِلَّا النَّارَ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ. أُولَئِكَ الَّذِينَ اشْتَرُوا الضَّلَالَةَ بِالْهُدَى وَالْعَذَابِ بِالْمَغْفِرَةِ فَمَا أَصْبَرَهُمْ عَلَى النَّارِ﴾ [البقرة: ١٧٤ - ١٧٥].

٢ - وقوله عز وجل: ﴿إِنَّ الَّذِينَ يَشْتَرُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَأَيْمَانِهِمْ ثَمَنًا قَلِيلًا أُولَئِكَ لَا خَلَاقَ لَهُمْ فِي الْآخِرَةِ وَلَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يُزَكِّيهِمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ [آل عمران: ٧٧].

٣ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«ثلاثة لا يكلمهم الله [يوم القيامة]، ولا ينظر إليهم، ولا يزكيهم، ولهم عذاب أليم: رجلٌ على ماءٍ بالفلاة يمنعه من ابن السبيل، ورجلٌ بايع الإمام لا يبايعه إلا لدنيا، فإن أعطاه منها وفى له، وإن لم يعطه لم يف له، ورجلٌ بايع رجلاً سلعةً بعد العصر، فحلف له بالله لأخذها بكذا وكذا، فصَدَّقَهُ وهو على ذلك» (٣٠).

(٢٩) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٧٤/٢، ١٠٥ والبخاري ٩٦/٥ و ٣٥٣/٨ و ٤٨٦/١٠

و ٤٧٥/١٣ ومسلم رقم (٢٧٦٨) والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف»

٤٣٧/٥ - وابن ماجه رقم (١٨٣) من طرق عن قتادة عن صفوان به.

(٣٠) حديث صحيح.

وفي لفظ:

«ثَلَاثَةٌ لَا يَكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ: رَجُلٌ حَلَفَ عَلَى سِلْعَةٍ: لَقَدْ أُعْطِيَ بِهَا أَكْثَرُ مِمَّا أُعْطِيَ، وَهُوَ كَاذِبٌ، وَرَجُلٌ حَلَفَ عَلَى يَمِينٍ كَاذِبَةٍ بَعْدَ الْعَصْرِ لِيَقْتَطَعَ بِهَا مَالَ رَجُلٍ مُسْلِمٍ، وَرَجُلٌ مَنَعَ فَضْلَ مَائِهِ، فَيَقُولُ اللَّهُ [يَوْمَ الْقِيَامَةِ]: الْيَوْمَ أَمْنَعُكَ فَضْلِي كَمَا مَنَعْتَ فَضْلَ مَا لَمْ تَعْمَلْ يَدَاكَ» (٣١).

٤ - حديث أبي ذر الغفاري رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«ثَلَاثَةٌ لَا يُكْلَمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ».

قال: فقرأها رسول الله ﷺ ثلاث مرار.

قال أبو ذر: خابوا وخسروا، مَنْ هُمْ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قال:

«الْمُسْبِلُ [إِزَارَهُ]، وَالْمَنَانُ [عِطَاءَهُ]، وَالْمُنْفِقُ سِلْعَتَهُ بِالْحَلِفِ الْكَاذِبِ» (٣٢).

= أخرجه أحمد ٢/٢٥٣، ٤٨٠ والبخاري ٥/٣٤، ٤٣، ٢٨٤ و ١٣/٢٠١، ٤٢٣ ومسلم رقم (١٠٨) وأبو داود رقم (٣٤٧٤، ٣٤٧٥) والترمذي رقم (١٥٩٥) والنسائي ٧/٢٤٦ - ٢٤٧ وابن ماجه رقم (٢٢٠٧، ٢٨٧٠) من طريق أبي صالح السمان عن أبي هريرة به.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

(٣١) هذا اللفظ للبخاري في رواية.

(٣٢) حديث صحيح.

= أخرجه أحمد ٥/١٤٨، ١٥٨، ١٦٢، ١٦٨، ١٧٧ - ١٧٨ ومسلم رقم =

٥ - وَحَدِيثُ أَبِي هُرَيْرَةَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«ثَلَاثَةٌ لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَلَا يُزَكِّيهِمْ، وَلَا يَنْظُرُ إِلَيْهِمْ، وَلَهُمْ عَذَابُ أَلِيمٍ: شَيْخُ زَانٍ، وَمَلِكٌ كَذَّابٌ، وَعَائِلٌ مُسْتَكْبِرٌ» (٣٣).

وَقَدْ نَقَلَ الْخَلَّالُ فِي «كِتَابِ السُّنَّةِ» مِنْ طَرِيقِ حَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ:
قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ -: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُكَلِّمُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ:

«نَعَمْ، فَمَنْ يَقْضِي بَيْنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يُكَلِّمُ عَبْدَهُ وَيَسْأَلُهُ، اللَّهُ مَتَكَلَّمٌ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ، وَلَيْسَ لَهُ عَدْلٌ

= (١٠٦) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٤٠٨٧، ٤٠٨٨) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (١٢١١) وَالنَّسَائِيُّ ٨١/٥ وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمَ (٢٢٠٨) وَالدَّارِمِيُّ رَقْمَ (٢٦٠٨) مِنْ طَرِيقِ خُرَشَةَ بْنِ الْحَرْثِ عَنْ أَبِي ذَرِّبِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣٣) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ رَقْمَ (١٠٧) وَالنَّسَائِيُّ فِي «الْكَبِيرِ» - كَمَا فِي «تَحْفَةِ الْأَشْرَافِ» ٨٤/١٠ - مِنْ طَرِيقِ الْأَعْمَشِ عَنْ أَبِي حَازِمٍ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

وَهُوَ عِنْدَ أَحْمَدَ فِي «الْمُسْنَدِ» ٤٨٠/٢ لَكِنْ قَالَ: «عَنْ أَبِي صَالِحٍ» بَدَلًا: «أَبِي حَازِمٍ» وَهُوَ فِي غَالِبِ ظَنِّي تَحْرِيفٌ، وَإِنْ صَحَّ أَنَّهُ «أَبُو صَالِحٍ» فَهُوَ إِسْنَادٌ صَحِيحٌ، وَالْأَعْمَشُ إِمَامٌ حَافِظٌ لَا يَبْعُدُ أَنْ يَحْفَظَ الْحَدِيثَ مِنَ الْوَجْهَيْنِ.

وَأَخْرَجَهُ النَّسَائِيُّ ٨٦/٥ مِنْ طَرِيقِ مُحَمَّدِ بْنِ عَجْلَانَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ مَرْفُوعاً بَنَحْوِهِ.

قُلْتُ: وَإِسْنَادُهُ جَيِّدٌ، وَهِيَ مُتَابَعَةٌ قَوِيَّةٌ لِأَبِي حَازِمٍ.

ولا مثلاً، كيف شاء، وأنى شاء» (٣٤).

قلت: وفيما سُقَّتْهُ من الأدلة نصُّ قاطعٍ على صحّة هذه العقيدة، وفي جرّمانِ الله تعالى أقواماً من تكليمه زيادةً في العذاب دليلٌ على إثباته لسواهم، وإلاً فلا فائدة بتخصيص هذه الأصنافِ دون سائر مَنْ يُحَاسَبُ بِعَدَمِ التَّكْلِيمِ.

● والثاني: تكليمه تعالى أهل الجنة نعمة منه وفضلاً:

ومن الدليل عليه:

حديثُ أبي سعيدٍ الخُدْري رضي الله عنه قال: قال رسولُ الله ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ تَبَارَكَ وَتَعَالَى يَقُولُ لِأَهْلِ الْجَنَّةِ: يَا أَهْلَ الْجَنَّةِ، فيقولون: لَبَّيْكَ رَبَّنَا وَسَعْدَيْكَ، فيقول: هل رَضِيتُمْ؟ فيقولون: وما لنا لا نَرْضَى وَقَدْ أُعْطِينَا ما لَمْ تُعْطِ أَحَدًا مِنْ خَلْقِكَ؟ فيقول: أَلَا أُعْطِيَكُمْ أَفْضَلَ مِنْ ذَلِكَ؟ قالوا: يَا رَبِّ، وأَيُّ شَيْءٍ أَفْضَلُ مِنْ ذَلِكَ؟ فيقول: أَحِلُّ عَلَيْكُمْ رِضْوَاني، فلا أَسْخَطُ عَلَيْكُمْ بَعْدَهُ أَبَدًا» (٣٥).

(٣٤) نقله شيخ الإسلام في «درء التعارض» ٣٧/٢ - ٣٨.

وقد رواه غلام الخلال في «كتاب السنة» ق ١٥٥/ب.

(٣٥) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٨٨/٣ والبخاري ٤١٥/١١ و٤٨٧/١٣ ومسلم رقم (٢٨٢٩) والترمذي رقم (٢٥٥٥) والنسائي - كما في «تحفة الأشراف» ٤٠٥/٣ عن «الكبرى» - من طريق مالك بن أنس عن زيد بن أسلم عن عطاء بن يسار عن أبي سعيد الخدري به.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح».

قلتُ: قال البخاري رحمه الله: «باب كلام الربِّ مع أهل الجنة»
وساق هذا الحديث.

● والثالث: تكليمه تعالى لأهل النار توبيخاً وتقريعاً:

ومن الدليل عليه:

١ - قوله تعالى: ﴿قَالَ اخْسَوْوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونِ . إِنَّهُ كَانَ فَرِيقٌ مِنْ عِبَادِي يَقُولُونَ رَبَّنَا آمَنَّا فَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا وَأَنْتَ خَيْرُ الرَّاحِمِينَ . فَاتَّخَذْتُمُوهُمْ سِخْرِيًّا حَتَّى أَنْسَوْكُمْ ذِكْرِي وَكُنْتُمْ مِنْهُمْ تَضْحَكُونَ . إِنِّي جَزَيْتُهُمُ الْيَوْمَ بِمَا صَبَرُوا إِنَّهُمْ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [المؤمنون: ١٠٨ - ١١١].

٢ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:
«يقول الله تبارك وتعالى لأهل النار عذاباً: لَوْ كَانَتْ لَكَ الدُّنْيَا وما فيها أَكُنْتَ مُفْتَدِيًّا بِهَا؟ فيقول: نَعَمْ، فيقول: قَدْ أَرَدْتُ مِنْكَ أَهْوَنَ مِنْ هَذَا وَأَنْتَ فِي صُلْبِ آدَمَ: أَنْ لَا تُشْرِكَ - أَحْسَبُهُ قَالَ: وَلَا أَدْخَلَكَ النَّارَ - فَأَبَيْتَ إِلَّا الشُّرْكَ» (٣٦).

قلتُ: وهذه الأوجه الثلاثة من التكليم لم يقع شيءٌ منها بعدُ، وإنما دلتِ النصوصُ التي سقنا على الإخبار عن وقوعها، وإنما تقع بعدَ نهاية الدنيا يومَ تقومُ الساعةُ، ويعدُّذُ، خلافاً للمبتدعة القائلين: إنَّ الله قد تكلم

(٣٦) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ١٢٩/٣ والبخاري ٣٦٣/٦ و٤١٦/١١ ومسلم رقم (٢٨٠٥)

من حديث شعبة عن أبي عمران الجوني عن أنس به.

وأبو عمران اسمه: عبد الملك بن حبيب.

بذلك منذ الأزل ، وهذا الأصل سيأتي توضيحه في المبحث الثامن من هذا الفصل .

فرع :

وقد صحَّ الخبرُ عن المعصوم عليه السلام أَنَّ الله تعالى كلَّم الشَّهيدَ عبدَ الله ابنَ عمرو بن حَرَام ، أحدَ شهداءِ أحد ، كلَّمَهُ كِفاحاً من غيرِ حِجَاب .

فعن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال :

لَمَّا قُتِلَ عبدُ الله بن عمرو بن حَرَام يومَ أحدٍ ، لَقِينِي رسولُ الله ﷺ ، فقال : « يا جابر ، أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللهُ لِأَبِيكَ ؟ » .

وفي لفظ : « يا جابر ، مَالِي أَرَاكَ مُنْكَسِراً ؟ » .

قَالَ : قُلْتُ : يَا رَسُولَ اللهِ ، اسْتَشْهَدْ أَبِي ، وَتَرَكَ عِيَالاً وَدِيناً ، قَالَ : « أَفَلَا أَبْشُرُكَ بِمَا لَقِيَ اللهُ بِهِ أَبَاكَ ؟ » .

قَالَ : بَلَى يَا رَسُولَ اللهِ ، قَالَ :

« مَا كُلَّم اللهُ أَحَدًا قَطُّ إِلَّا مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ ، وَكُلَّمْ أَبَاكَ كِفاحاً ، فقال : يَا عَبْدِي ، تَمَنَّ عَلَيَّ أُعْطِكَ ، قَالَ : يَا رَبِّ ، تُحْيِيَنِي فَأَقْتُلَ فِيكَ ثَانِيَةً ، فقالَ الرَّبُّ سُبْحَانَهُ : إِنَّهُ سَبَقَ مِنِّي أَنَّهُمْ إِلَيْهَا لَا يَرْجِعُونَ ، قَالَ : يَا رَبِّ فَأَبْلُغْ مِنْ وَرَائِي » .

قَالَ : فَأَنْزَلَ اللهُ تَعَالَى : ﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللهِ أَمْواتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴾ [آل عمران : ١٦٩] (٣٧) .

(٣٧) حديث صحيح .

= أخرجه الترمذي رقم (٣٠١٠) وابن ماجه رقم (١٩٠) و (٢٨٠٠) وابن أبي عاصم رقم (٦٠٢) وعثمان الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (١١٥، ٢٨٩) وابن خزيمة في «التوحيد» ص: ٣٧٩ - ٣٨٠ والحاكم ٢٠٣/٣ - ٢٠٤ والبيهقي في «دلائل النبوة» ٢٩٨/٣ - ٢٩٩ والواحدي في «أسباب النزول» ص: ١٢٤ والبعوي في «تفسيره» ٤٤٦/١ - هامش «الخازن» - وإسماعيل بن الفضل الأصبهاني في «الحجة» ق ٦٤/أوق ١١٥/أ من طرق عن موسى بن إبراهيم بن كثير الأنصاري قال: سمعت طلحة بن خراش قال: سمعت جابر بن عبدالله به.

وفي رواية: لَقِيتُ جَابِرَ بْنَ عَبْدِ اللَّهِ فَأَخْبَرَنِي . . .

قال الترمذي: «حديث حسن غريب من هذا الوجه. . . ولا نعرفه إلا من حديث موسى بن إبراهيم، ورواه علي بن عبدالله بن المديني وغير واحد من كبار أهل الحديث هكذا عن موسى بن إبراهيم».

وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد».

قلت: التحقيق أن إسناده جيد، فإن رجاله جميعاً ثقات، وهو متصل. وقد رأيت بعض المعاصرين يغمز موسى بن إبراهيم بأن فيه ضعفًا من جهة حفظه، فتأملت قول هذا القائل فرأيت عمدة قول ابن حبان: «كَانَ مِمَّنْ يُخْطِئُ» (ثقات ٤٤٩/٧) وهذا لا يطرح روايته أو يعللها حتى يثبت خطؤه، ألا ترى أن ابن حبان نفسه أورده في «ثقاته»؟

وزيادة على هذا، فقد روى هذا الحديث عنه إمام علل الحديث والجرح والتعديل علي بن المديني، ولقد كان يدع حديث الراوي لأدنى مغمز، فهلاً اعتبرت يا هذا رواية هذا الإمام رافعة لشأنه.

وقد ذكر ابن عبد البر حافظ المغرب هذا الحديث في «الاستيعاب» ٣٣٤/٦ -

٣٣٥ - حاشية «الإصابة» - من رواية دُحَيْمٍ حدثنا موسى بن إبراهيم . . . ثم قال:

«موسى بن إبراهيم هذا هو موسى بن إبراهيم بن كثير بن بشير بن الفاكه الأنصاري المدني، وطلحة بن خراش أنصاري أيضاً من ولد خراش بن الصمة، وكلاهما مدني» =

قلت: وهذا تكليمٌ على الحقيقة، بلا واسطةٍ، ومُواجهةٌ بلا حجابٍ، وهذا خصوصيةٌ لعبد الله رضي الله عنه فضلاً منه تعالى ومنه لما ناله في سبيل الله، وإنما وقعَ في الحياة بعد الموتِ.



= ثقةٌ.

قلت: وقد رُوي هذا الحديث من غير هذا الوجه عن جابر، وله شاهدٌ أيضاً من حديث عائشة، ولكن جميع ذلك بأسانيد غير نظيفة، سوى ما رواه أحمد ٣/٣٦١ من طريق محمد بن علي بن ربيعة السُّلمي عن عبد الله بن محمد بن عقيل عن جابر معناه مختصراً.

وهذا إسناد صالح، محمد بن علي هذا ثقةٌ، وابن عقيل صالح الحديث.

المبحث الخامس

كلام الله تعالى غير مخلوق

كلامُ الله تعالى صفةٌ من صفاته غيرُ مخلوقٍ كسائرِ صفاته، سواء كان القرآن العربي، أو التوراة العبرية، أو غير ذلك من كلامه تعالى، ممَّا وَقَعَ من كلامه، وممَّا لم يقع بعدُ.

ولَقَدْ كَانَ السَّلَفُ فِي صَدْرِ الْإِسْلَامِ فِي غِنَى عَنْ إِطْلَاقِ لَفْظِ (غير مخلوق) لِأَنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُسْلِمِ عِنْدَهُمْ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ صِفَةٌ مِنْ صِفَاتِهِ، وَصِفَاتُهُ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، حَتَّى ظَهَرَتِ الْجَهْمِيَّةُ، فَنفَتْ صِفَةَ الْكَلَامِ عَنِ اللَّهِ تَعَالَى، لَكِنْ لَمَّا كَانَ هَذَا الْقَوْلُ مَنْكَرًا شَنِيعًا، تَنَفَّرَ مِنْهُ قُلُوبُ النَّاسِ، وَتَقَشَّعَرُ مِنْهُ جُلُودُهُمْ، وَيرْفُضُهُ إِيْمَانُهُمْ، أَبْدَلُوهُ بِقَوْلِهِمْ: كَلَامُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، فَتَظَاهَرُوا بِإِثْبَاتِ الْكَلَامِ، وَأَبْطَلُوهُ بِقَوْلِهِمْ: مَخْلُوقٌ.

فَلَمَّا كَانَ حَقِيقَةُ قَوْلِهِمْ إِبْطَالُ صِفَةِ الْكَلَامِ وَتَعْطِيلُهَا قَابِلَهُمُ السَّلَفُ بِرَفْضِ هَذِهِ الْبَدْعَةِ وَإِنْكَارِهَا، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ فِي ذَلِكَ، بَلْ وَتَكْفِيرِهِمْ، لِأَنَّ حَقِيقَةَ قَوْلِهِمُ الْكُفْرَ، لِمَا تَضَمَّنَ مِنْ تَكْذِيبِ الْقُرْآنِ، وَإِثْبَاتِ النِّقْصِ لِلرَّحْمَنِ، فَقَالَ السَّلَفُ حِينَئِذٍ: (كَلَامُ اللَّهِ - كَالْقُرْآنِ وَغَيْرِهِ - غَيْرُ مَخْلُوقٍ).

وَلَقَدْ كَانَتْ هَذِهِ الْعَقِيدَةُ مَبْنِيَّةً عَلَى أُسُسٍ مَتِينَةٍ وَقَوَاعِدَ عَظِيمَةٍ مِنْ

الكتاب والسنة، والمعقول الصريح، ونصوص السلف وكلامهم، خلافاً لما يحسبه الجاهلون.

وإنني ذاكر لك من ذلك ما فتح الله تعالى به لكلاً تفضل السبيل، ولتتقي ما أحدثه الناس من القال والقال:

● من أدلة الكتاب:

١ - قال الله تعالى: ﴿إِنْ رِئُوكُمُ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَى عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسُ وَالْقَمَرُ وَالنُّجُومُ مُسَخَّرَاتٌ بِأَمْرِهِ أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

والاحتجاج بهذه الآية من وجهين:

الأول: أنه تعالى فرق بين الخلق والأمر، وهما صفتان من صفاته، أضافهما إلى نفسه، أما الخلق ففعله، وأما الأمر فقوله، والأصل في المتعاطفين التغاير إلا إذا قامت القرينة على عدم إرادة ذلك، وهنا قد قامت القرائن على توكيد الفرق بينهما، ومنها الوجه الآتي.

والثاني: أن الخلق إنما يكون بالأمر، كما قال تعالى: ﴿إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [يس: ٨٢].

فقوله تعالى: ﴿كُنْ﴾ هو أمره، فلو كان مخلوقاً لاحتاج خلقه إلى أمر، والأمر إلى أمر، إلى ما لا نهاية، وهذا باطل.

وقد احتج الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية المعتزلة بهذه الآية. قال رحمه الله: «قلت: قال الله: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ ففرق بين

الْخَلْقِ وَالْأَمْرِ» (٣٨).

وقال لهم: «قال الله: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ...﴾ [النحل: ١] فَأَمْرُهُ كَلَامُهُ واستطاعته ليس بمخلوق، فلا تَضْرِبُوا كِتَابَ اللَّهِ بَعْضُهُ بِبَعْضٍ» (٣٩).

وقال فيما كتبه للمتوكل حين سألَهُ عن مسألة القرآن: «وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ...﴾ [التوبة: ٦]، وَقَالَ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾، فَأَخْبَرَ بِالْخَلْقِ، ثُمَّ قَالَ: ﴿وَالْأَمْرُ﴾، فَأَخْبَرَ أَنَّ الْأَمْرَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ» (٤٠).

وقد سبق الإمام أحمد إلى هذا الاحتجاج شيخه الإمام سفيان بن عيينة الهلالي الحافظ الثقة الحجة، فقال رحمه الله:

«ما يقول هذا الدؤيبه؟» - يعني بشراً المريسي -.

قالوا: يا أبا محمد، يزعم أن القرآن مخلوق، فقال:

«كَذَبَ، قال الله عَزَّ وَجَلَّ: ﴿أَلَا لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ فَاخْلُقْ خَلْقُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، وَالْأَمْرُ الْقُرْآنُ» (٤١).

قال الحافظ هبة الله ابن الطبري عقب هذا: «وكذلك قال أحمد بن حنبل ونعيم بن حماد، ومحمد بن يحيى الذهلي، وعبد السلام بن عاصم»

(٣٨) رواه حنبل في «المحنة» ص: ٥٣ عن أحمد.

(٣٩) رواه حنبل في «المحنة» ص: ٥٤ عنه.

(٤٠) رواه صالح ابنه في «المحنة» روايته ص: ١٢٠ - ١٢١.

(٤١) رواه الأجري في «الشریعة» ص: ٨٠ وابن الطبري في «السنة» رقم

(٣٥٨) والخطيب في «تاريخ بغداد» ٨٨/٩ - ٨٩ بسند جيد عنه.

الرازي، وأحمد بن سنان الواسطي، وأبو حاتم الرازي».

٢ - وقال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ الْإِنْسَانَ﴾
[الرحمن: ١ - ٣].

ففرَّق تعالى بين علمه وخلقه، فالقرآن علمه، والإنسان خلقه،
وعلمه تعالى غير مخلوق.

قال تعالى: ﴿قُلْ إِنْ هَدَى اللَّهُ هُوَ الْهُدَى وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ
الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾ [البقرة: ١٤٠].

وقال تعالى: ﴿... وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ
الْعِلْمِ إِنَّكَ إِذَا لَمِنَ الظَّالِمِينَ﴾ [البقرة: ١٤٥].

وقال تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ أَنْزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِنْ وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٧].

فسمى الله تعالى القرآن علماً، إذ هو الذي جاءه من ربه، وهو الذي
علمه الله تعالى إياه ﷺ، وعلمه تعالى غير مخلوق، إذ لو كان مخلوقاً
لا تُصِفَ تعالى بضده قبل الخلق، تعالى الله عن ذلك وتنزه وتقدس.

وبهذا احتج الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية فيما كتبه للمتوكل
في مسألة القرآن.

قال رحمه الله: «قَالَ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ . خَلَقَ
الْإِنْسَانَ . عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، فَأَخْبَرَ تَعَالَى أَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِلْمِهِ» ثم احتج
بالآيات الثلاث المذكورات، ثم قال: «فَالْقُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ تَعَالَى، وَفِي
هَذِهِ الْآيَاتِ دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الَّذِي جَاءَهُ ﷺ هُوَ الْقُرْآنُ، لِقَوْلِهِ: ﴿وَلَئِنْ اتَّبَعْتَ

أَهْوَاءَهُمْ بَعْدَ الَّذِي جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ ﴿٤٣﴾.

وقال رحمه الله في حكاية مناظرته للجهمية في مجلس المعتصم :
« قَالَ لِي عَبْدُ الرَّحْمَنِ الْقَزَّازُ (٤٣) : كَانَ اللَّهُ وَلَا قَرَأَنَ ، قُلْتُ لَهُ : فَكَانَ اللَّهُ وَلَا
عِلْمُ ! فَأَمْسَكَ ، وَلَوْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ كَانَ وَلَا عِلْمَ لَكَفَرَ بِاللَّهِ (٤٤) .

وقيل له رحمه الله : قَوْمٌ يَقُولُونَ : إِذَا قَالَ الرَّجُلُ : كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ
بِمَخْلُوقٍ ، يَقُولُونَ : مَنْ إِمَامُكَ فِي هَذَا ؟ وَمِنْ أَيْنَ قُلْتَ : لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ؟
قال :

« الْحُجَّةُ قَوْلُ اللَّهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى : ﴿ فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ
مِنَ الْعِلْمِ ﴾ ، فَمَا جَاءَهُ غَيْرُ الْقُرْآنِ » .

قال : « الْقُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ ، وَعِلْمُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ
اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ ، وَمِثْلُ هَذَا فِي الْقُرْآنِ كَثِيرٌ » (٤٥) .

وقال رحمه الله : « الْقُرْآنُ عِلْمٌ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عِلْمَ اللَّهِ
مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ » (٤٦) .

٣ - وقال تعالى : ﴿ قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ
قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا ﴾ [الكهف : ١٠٩] .

(٤٢) رواه صالح في « المحنة » ص : ١٢١ وعبد الله في « السنة » رقم (١٠٧)
عن أبيهما به .

(٤٣) أحد مناظري الإمام بحضرة المعتصم .

(٤٤) رواه حنبل في « المحنة » ص : ٤٥ عنه .

(٤٥) رواه صالح في « المحنة » ص : ٦٩ عنه .

(٤٦) رواه ابن هانئ في « المسائل » ١٥٣/٢ ، ١٥٤ عنه .

وقال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ مَا فِي الْأَرْضِ مِنْ شَجَرَةٍ أَقْلَامٌ وَالْبَحْرُ يَمُدُّهُ مِنْ بَعْدِهِ سَبْعَةُ أَبْحُرٍ مَا نَفِدَتْ كَلِمَاتُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴾ [لقمان : ٢٧].

فأخبر تعالى - وقوله الحق - أَنَّ كَلِمَاتِهِ غَيْرُ مُتَنَاهِيَةٍ، فلو أَنَّ البحارَ التي خَلَقَ الله كانتَ مِدَاداً تُكْتَبُ به، والشَّجَرُ الذي خَلَقَ الله أَقْلَاماً تُحِطُّ به، لَنَفِدَ مِدَادُ الْبُحُورِ، وَلَفَنِيَتِ الْأَقْلَامُ، وَلَمْ تَفْنِ كَلِمَاتُ اللَّهِ.

وإنَّما في هذه الإبانة عن عَظَمَةِ كَلَامِهِ تعالى، وأَنَّهُ وَصْفُهُ وَعِلْمُهُ، وهذا لا يُقَاسُ بالكلامِ المَخْلُوقِ الفاني، إذ لو كَانَ مَخْلُوقاً لَفَنِيَ من قَبْلِ أَنْ يَفْنَى بَحْرٌ مِنَ الْبُحُورِ، وَلَكِنَّ اللَّهَ تعالى إِنَّمَا كَتَبَ الْفَنَاءَ عَلَى الْمَخْلُوقِ لَا عَلَى نَفْسِهِ وَصِفَتِهِ.

٤ - أسماءُ الله تعالى في القرآن، كـ (الله، الرحمن، الرحيم، السميع، العليم، الغفور، الكريم...) وغيرها من أسمائِهِ الْحُسْنَى، وهي من كَلَامِهِ، إذ هو الذي سَمَّى بها نَفْسَهُ، بِالْفَاظِهَا وَمَعَانِيهَا.

وقد ساوى الله تعالى بين تَسْبِيحِ نَفْسِهِ وَتَسْبِيحِ أَسْمَائِهِ، فقال تعالى : ﴿ وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً ﴾ [الأحزاب : ٤٢]، وقال : ﴿ سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى ﴾ [الأعلى : ١]، وقال : ﴿ فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ ﴾ [الواقعة : ٧٤، ٩٦ والحاقة : ٥٢].

وساوى تعالى بين دُعَائِهِ بِنَفْسِهِ وَدُعَائِهِ بِأَسْمَائِهِ، فقال : ﴿ ادْعُوا رَبَّكُمْ تَضَرُّعاً وَخُفْيَةً ﴾ [الأعراف : ٥٥] وقال : ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى ﴾ [الإسراء : ١١٠] وقال : ﴿ وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ

الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا» [الأعراف : ١٨٠].

وكذلك ساوى تعالى بين ذِكْرِهِ بنفسه وذِكْرِهِ بِأَسْمَائِهِ، فقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً﴾ [الأعراف ؛ ٢٠٥] وقال: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ بُكْرَةً وَأَصِيلًا﴾ [الإنسان : ٢٥].

وهذا التَّسْبِيحُ والدُّعَاءُ والذِّكْرُ إِنْ كَانَ يَقَعُ لِمَخْلُوقٍ كَانَ كُفْرًا بِاللَّهِ.

فإِنْ قِيلَ: إِنْ كَلَامَهُ تَعَالَى مَخْلُوقٌ، كَانَتْ أَسْمَاؤُهُ دَاخِلَةً فِي ذَلِكَ، وَمَنْ زَعَمَ ذَلِكَ فَقَدْ كَفَرَ لِمَا ذَكَرْنَا، وَلَأَنْ مَعْنَى ذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ تَكُنْ لَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى قَبْلَ خَلْقِ كَلَامِهِ، وَلَكَانَ الْحَالِفُ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَائِهِ مُشْرِكًا لِأَنَّهُ حَلَفَ بِمَخْلُوقٍ، وَالْمَخْلُوقُ غَيْرُ الْخَالِقِ، وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «مَنْ حَلَفَ بِغَيْرِ اللَّهِ فَقَدْ أَشْرَكَ» (٤٧).

وبِهَذِهِ الْحُجَّةِ احْتَجَّ جَمَاعَةٌ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَثَمَةِ عَلَى كَوْنِ الْقُرْآنِ غَيْرَ مَخْلُوقٍ، مِنْهُمْ:

(١) الْإِمَامُ الْحُجَّةُ سُفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّوْرِيُّ.

قَالَ: «مَنْ قَالَ: إِنْ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. اللَّهُ الصَّمَدُ» مَخْلُوقٌ، فَهُوَ

(٤٧) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَقْمَ (٤٩٠٤، ٦٠٧٢) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٣٢٥١) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (١٥٣٥) وَابْنُ جَبَّانٍ رَقْمَ (١١٧٧ - مَوَارِدُ) وَالْحَاكِمُ ١٨/١ وَ٢٩٧/٤ وَآخَرُونَ مِنْ حَدِيثِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَمْرٍو بِهِ.

قُلْتُ: وَإِسْنَادُهُ صَحِيحٌ، وَقَدْ حَسَّنَهُ التِّرْمِذِيُّ، وَصَحَّحَهُ الْحَاكِمُ وَأَقْرَأَهُ الذَّهَبِيُّ. وَقَدْ شَرَحْتُ ذَلِكَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ.

كافراً» (٤٨).

(٢) ناصر السنة أبو عبدالله محمد بن إدريس الشافعي .

قال: «مَنْ حَلَفَ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ فَحَنَثَ فَعَلِيهِ الْكَفَّارَةُ، لِأَنَّ اسْمَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ حَلَفَ بِالْكَعْبَةِ، أَوْ بِالْصُّفَا وَالْمَزْوَةِ، فَلَيْسَ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَذَاكَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ» (٤٩).

(٣) إمام أهل السنة أحمد بن حنبل .

قال: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ فَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيهِ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ» (٥٠).

وقال: «وَأَسْمَاءُ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، فَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ فَقَدْ كَفَرَ» (٥١).
وَذَكَرَ لَهُ رَجُلٌ أَنَّ رَجُلًا قَالَ: إِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ، وَالْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَقَالَ أَحْمَدُ: «كُفْرٌ بَيْنٌ» (٥٢).

وقال: «أَسْمَاءُ اللَّهِ فِي الْقُرْآنِ، وَالْقُرْآنُ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ، وَعِلْمُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ عَلَى كُلِّ وَجْهِ، وَعَلَى كُلِّ

(٤٨) أخرجه عبدالله في «السنة» رقم (١٣) وسنده جيد .

(٤٩) أخرجه ابن أبي حاتم في «آداب الشافعي» ص: ١٩٣ وأبو نعيم

١١٣/٩ والبيهقي في «السنن» ٢٨/١٠ و«الأسماء والصفات» ص: ٢٥٥ - ٢٥٦ و«المناقب» ٤٠٥/١ بإسناد صحيح .

(٥٠) رواه ابنه عبدالله في «السنة» رقم (١) .

(٥١) رواه ابنه صالح في «المحنة» ص: ٥٢، ٦٦ - ٦٧ .

(٥٢) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٢ عنه .

جهة، وعلى أي حال^(٥٣).

وكما أنه تعالى لا يوصف بصفة مخلوقة، فلا يسمى باسم مخلوق.

٥ - أخبر تعالى عن تنزيله منه وإضافته إليه، كما قال: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ [السجدة: ٢]، وقال: ﴿وَالَّذِينَ آمَنُوا بِالْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنْزَلٌ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [الأنعام: ١١٤]، وقال: ﴿قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ﴾ [النحل: ١٠٢]، ولم يوصف شيئاً مما أنزله إلى نفسه غير كلامه^(٥٤)، مما دل على الاختصاص بمعنى، فليس هو كإنزال المطر والحديد وغير ذلك، فإن هذه الأشياء أخبر عن إنزالها، لكنه لم يوصفها إلى نفسه، بخلاف كلامه تعالى، والكلام صفة، والصفة إنما تُضاف إلى من اتصف بها لا إلى غيره، فلو كانت مخلوقة لفارقت الخالق، ولم تصلح وصفاً له، لأنه تعالى غني عن خلقه، لا يتصف بشيء منه.

● من أدلة السنة:

١ - حديث خولة بنت حكيم السلمية قالت: سمعتُ رسول الله ﷺ

يقول:

«مَنْ نَزَلَ مَنْزِلاً ثُمَّ قَالَ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ مَا خَلَقَ، لَمْ يَضُرَّهُ شَيْءٌ حَتَّى يَرْتَحِلَ مِنْ مَنْزِلِهِ ذَلِكَ»^(٥٥).

(٥٣) رواه ابنه صالح في «المحنة» ص: ٦٩.

(٥٤) انظر: «مجموع الفتاوى»: ٢٤٧/١٢، ٢٩٧.

(٥٥) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٣٧٧/٦، ٤٠٩، ومسلم ٢٠٨٠/٤، والترمذي رقم (٣٤٣٧) =

وحديث أبي هريرة رضي الله عنه قال: جاء رجل إلى النبي ﷺ، فقال: يا رسول الله، ما لقيت من عقربٍ لدغتنِي البارحة، قال: «أما لو قلت حين أمسيت: أعوذ بكلماتِ الله التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ لم تَضُرُّكَ» (٥٦).

وفي سياق آخر عنه قال: قال النبي ﷺ: «مَنْ قَالَ إِذَا أَمْسَى ثَلَاثَ مَرَّاتٍ: أَعُوذُ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّاتِ مِنْ شَرِّ ما خَلَقَ، لَمْ تَضُرَّهُ حُمَةٌ تِلْكَ اللَّيْلَةَ». قال: فكان أهلنا قد تعلَّموها، فكانوا يقولونها، فلُدِغْتُ جاريةً منهم، فلم تَجِدْ لها وَجَعاً (٥٧).

والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٦٠، ٥٦١) وابن ماجه رقم (٣٥٤٧) من حديث سعد بن أبي وقاص عن خولة به.

وقال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب». وأورد على إسناده اختلاف لا يضر، وبسطه في غير هذا الموضع. (٥٦) حديث صحيح.

أخرجه مالك ٩٥١/٢ وأحمد ٣٧٥/٢ ومسلم ٢٠٨١/٤ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٨٥ - ٥٨٩، ٥٩١ - ٥٩٢) وابن ماجه رقم (٣٥١٨) من طريق أبي صالح السَّمَّان عن أبي هريرة به. وأورد أيضاً عليه اختلاف في إسناده، ولا يضر، وبسطه في غير هذا الموضع. (٥٧) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٢٩٠/٢ والنسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٥٩٠) من طريق سهيل بن أبي صالح عن أبيه عن أبي هريرة به مرفوعاً، وهو لفظ من ألفاظ حديثه المُخَرَّج آنفاً في التعليق السابق.

قلت: وإسناده صحيح، ورجاله رجال الصحيح.

وَحَدِيثُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُعَوِّذُ حَسَنًا وَحُسَيْنًا، يَقُولُ:

«أَعِيذُكُمْ بِكَلِمَاتِ اللَّهِ التَّامَّةِ، مِنْ كُلِّ شَيْطَانٍ وَهَامَّةٍ، وَمِنْ كُلِّ عَيْنٍ لَآمَةٍ».

وَكَانَ يَقُولُ:

«كَانَ إِبْرَاهِيمُ أَبِي يُعَوِّذُ بِهِمَا إِسْمَاعِيلَ وَإِسْحَاقَ» (٥٨).

فَأُثْبِتَ النَّبِيُّ ﷺ بِمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ شَرْعِيَّةَ الاستعاذة بكلمات الله، فلو كانت كلماته مخلوقةً لكانت الاستعاذة بها شركاً، لأنها استعاذة بمخلوق، ومن المعلوم أن الاستعاذة بغير الله تعالى وأسمائه وصفاته شرك، فكيف يصح أن يعلم النبي ﷺ أمته ما هو شرك ظاهر، وهو الذي جاءهم بالتوحيد الخالص؟

فدُلَّ هَذَا عَلَى أَنَّ كَلِمَاتِ اللَّهِ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

وَقَالَ نَعِيمُ بْنُ حَمَّادٍ (شَيْخُ الْبَخَارِيِّ، وَمِنْ أَئِمَّةِ السُّنَّةِ): «لَا يُسْتَعَاذُ بِالْمَخْلُوقِ، وَلَا بِكَلَامِ الْعِبَادِ وَالْجِنِّ وَالْإِنْسِ وَالْمَلَائِكَةِ».

وَقَالَ الْبَخَارِيُّ عَقِبَهُ: «وَفِي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَأَنَّ

(٥٨) حَدِيثٌ صَحِيحٌ.

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَقْمَ (٢١١٢، ٢٤٣٤) وَالْبَخَارِيُّ ٤٠٨/٦ وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٤٧٣٧) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٢٠٦٠) وَالنَّسَائِيُّ فِي «عَمَلِ الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» رَقْمَ (١٠٠٦)، وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمَ (٣٥٢٥) مِنْ طَرِيقِ مَنْصُورِ بْنِ الْمَعْتَمِرِ عَنِ الْمُنْهَالِ بْنِ عَمْرٍو عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

سواه خَلَقَ» (٥٩). ثُمَّ احتَجَّ البخاريُّ لذلك بما ذكرنا.

واعترضَ بعضُ أهلِ البدعِ على هذه الحُجَّةِ بقوله ﷺ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ...» الحديث (٦٠)، فقالوا:

(٥٩) «خلق أفعال العباد» ص: ١٤٣.

(٦٠) حديث صحيح.

مرويٌّ من حديث عائشة وعلي، رضي الله عنهما.

أما حديث عائشة، فأخرجه أحمد ٥٨/٦، ٢٠١ ومسلم رقم (٤٨٦) وأبو داود رقم (٨٧٩) والنسائي ١٠٢/١ و٢١٠/٢ وابن ماجه رقم (٣٨٤١) من طريق عُبيد الله ابن عمر عن محمد بن يحيى بن حبان عن الأعرج عن أبي هريرة عن عائشة قالت: فَقَدْتُ رَسُولَ اللَّهِ ﷺ ليلة من الفرائش، فالتَمَسْتُهُ، فَوَقَعْتُ يَدِي عَلَى بَطْنِ قَدَمَيْهِ وَهُوَ فِي الْمَسْجِدِ، وَهُمَا مَنْصُوبَتَانِ (زاد في بعض الطرق: وهو ساجد) وَهُوَ يَقُولُ: «اللَّهُمَّ أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وبِمُعَافَاتِكَ مِنْ عُقُوبَتِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءَ عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ».

وأخرجه مالك ٢١٤/١ والترمذي رقم (٣٤٩٣) والنسائي ٢٢٢/٢ عن يحيى ابن سعيد عن محمد بن إبراهيم بن الحارث عن عائشة بنحوه.

قلت: وهذا سند منقطع، محمد بن إبراهيم لم يسمع من عائشة، وقد حَسَّنَ الترمذي هذه الطريق لمجيء الحديث من غير هذا الوجه عن عائشة. وللحديث طريق ثالثة.

أخرجها النسائي ٢٨٣/٨ - ٢٨٤ من حديث مسروق بن الأجدع عن عائشة به نحوه.

قلت: لكن إسناده ضعيف، لحال العلاء بن هلال أحد رجال الإسناد فإنه منكر الحديث جداً.

أما حديث علي رضي الله عنه.

فأخرجه أحمد رقم (٧٥١، ٩٥٧) وأبو داود رقم (١٤٢٧) والترمذي رقم =

فاستعاذ النبي ﷺ بالرُّضا والمُعافاة، وهما مخلوقان .

والجوابُ: أنَّ هذا الاعتراضَ من فاسدِ الفَهم الذي أدخله عليهم الشيطانُ - لعنه الله - وذلك أنَّهم حَسَبُوا أنَّ الرُّضا والمُعافاةَ من خَلَقه تعالى، جَزْياً على سُتَيْهِم في أنَّ الله تعالى لا يقوم به اختياراً ولا مَشِيئَةً، والرُّضا والمُعافاةُ إنما يتعلَّقان بالمشيئةِ، وكلُّ ما تَعَلَّقَ بالمشيئةِ فهو مخلوقٌ .

وهذا الأصلُ الفاسدُ جرَّهم إلى الوقوع في تعطيل جميع الصفات الاختيارية، كالرُّضا، والغضب، والرَّحمة، والرَّأفة، والحبُّ، والبُغض، والإِنعام، والانتقام، وغيرها مما يتعلَّقُ بمشيئته تعالى واختياره .

والحقُّ الأبلجُ الذي يَهَرُّ أبصارَ أهلِ البِدَعِ أنَّه تعالى يقومُ به الصِّفاتُ الاختياريةُ، كما سيأتي تقريره بأبسط من هذا .

= (٣٥٦٦) والنسائي ٢٤٨/٣ - ٢٤٩ وابن ماجه رقم (١١٧٩) من طرق عن حماد بن سلمة عن هشام بن عمرو عن عبد الرحمن بن الحارث بن هشام عن عليّ أنَّ النبي ﷺ كان يقولُ في آخر وِتره :

«اللَّهُمَّ إِنِّي أَعُوذُ بِرِضَاكَ مِنْ سَخَطِكَ، وَأَعُوذُ بِمُعَافَاتِكَ مِنْ عِقَابِكَ، وَأَعُوذُ بِكَ مِنْكَ، لَا أَحْصِي ثَنَاءً عَلَيْكَ، أَنْتَ كَمَا أَثْنَيْتَ عَلَى نَفْسِكَ» .

قال الترمذي : «حديث حسنٌ غريبٌ من حديث عليّ، لا نعرفه إلا من هذا الوجه، من حديث حماد بن سلمة» .

قلت : إسناده صحيح ، وهشام هذا هو الفَزاري معروف برواية هذا الحديث، وهو ثقة .

وقد رواه عن عليّ أيضاً إبراهيم بن عبد الله بن عبيد القاري .

أخرجه النسائي في «عمل اليوم والليلة» رقم (٨٩١، ٨٩٢) .

ولإسناده منقطع، إبراهيم عن علي مرسل .

والاستعاذة بالرُّضا والمُعافاة، استعاذة بصفته تعالى، إذ رضاهُ تعالى صفةٌ التي يرضى بها عَمَّنْ شاءَ من عباده، ومعافاته صفةٌ التي يُعافي بها من شاءَ من عباده، والمخلوق إنما هو العافيةُ الموجودةُ في الناس، والتي كانت بمعافاته تبارك وتعالى، فتأمل هذا رَحِمَكَ اللهُ ترشد إن شاءَ اللهُ.

٢ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

«فَضَّلَ كَلامَ اللهِ على سائرِ الكلامِ كَفَضَّلَ اللهُ على سائرِ خلقِهِ» (٦١).

تضمَّن هذا الحديث إثباتَ عقيدةِ السَّلَفِ (القرآن كلام الله غير مخلوق) وذلك من وجهين:

الأول: التفريق بين كلام الله وما سواه من الكلام، والكلامُ إمَّا كلامُ الله الذي هو صفته، أو الكلامُ المخلوق الذي يَقَعُ من خلقِهِ، فأضاف ما كانَ صفةً لله إلى الله، وعمَّم ما سواه، ليشمَل كلَّ كلامٍ سوى ما أضافه إلى الله، ولو كان الجميعُ مخلوقاً لَمَا كانت هناك حاجة إلى التفريق.

والثاني: جعلَ الفَرْقَ بينَ كلامِ الله وكلامِ غيره كالْفَرْقِ بينَ ذاتِ الله وذاتِ غيره، فجعلَ كلامَه مساوياً لذاتِهِ، وكلامَ المخلوقِ مساوياً لذاتِ المخلوقِ، ولو كانَ كلامُهُ مخلوقاً لم يساوه بذاتِهِ، فإنَّ الله تعالى ليس يُساويه شيءٌ غيرُ صفاتِهِ وأسمائِهِ.

وقد احتجَّ بهذا الإمام عثمان بن سعيد الدَّارِمِيُّ في «الرَّدِّ على

(٦١) حديث حسن.

سبق تخريجه ص ٨٥ - ٨٦.

الجهمية» فقال بعدما ذكر الأحاديث في هذا المعنى :

«ففي هذه الأحاديث بيان أن القرآن غير مخلوق، لأنه ليس شيء من المخلوقين من التفاوت في فضل ما بينهما كما بين الله وبين خلقه في الفضل، لأن فضل ما بين المخلوقين يستدرِك، ولا يستدرِك فضل الله على خلقه، ولا يُحصيه أحد، وكذلك فضل كلامه على كلام المخلوقين، ولو كان مخلوقاً لم يكن فضل ما بينه وبين سائر الكلام كفضل الله على خلقه، ولا كعشر عشر جزء من ألف ألف جزء، ولا قريباً فافهموه، فإنه ليس كمثله شيء، فليس كلامه كلام، ولن يوتى بمثله أبداً» (٦٢).

● من المعقول الصريح:

وذلك من وجهين:

الأول: أن كلام الله إن كان مخلوقاً، فلا يخلو من أحد حاليين:

الأولى: أن يكون مخلوقاً قائماً بذات الله.

والثانية: أن يكون منفصلاً عن الله بائناً عنه.

وكلا الحالين باطل، بل كفر شنيع.

أما الأولى فيلزم منها أن يقوم المخلوق بالخالق، وهو باطل في قول أهل السنة، وعامة أهل البدع، فإن الله تعالى مُستغنٍ عن خلقه من جميع الوجوه.

وأما الثانية فيلزم تعطيل صفة الكلام للباري تعالى، إذ أن الصفة إنما

(٦٢) «الرد على الجهمية» ص: ١٦٢ - ١٦٣.

تقومُ بالْمَوْصُوفِ - كما سبق تقريرُهُ - لا تقومُ بِسِوَاهِ، فَإِنْ قَامَتْ بِغَيْرِ
المَوْصُوفِ كَانَتْ وَصْفًا لِمَنْ قَامَتْ بِهِ، وَهَذَا مَعْنَاهُ أَنَّ الرَّبَّ تَعَالَى غَيْرُ
مُتَكَلِّمٍ، وَهُوَ كَفَرٌ بَيِّنٌ، كَمَا بَيَّنَّا الدَّلَالََةَ عَلَيْهِ.

وَالثَّانِي: عَلِمْتَ أَنَّ الصِّفَةَ لَا تَقُومُ بِنَفْسِهَا، فَإِنْ كَانَتْ صِفَةً لِلْخَالِقِ
قَامَتْ بِهِ، وَإِنْ كَانَتْ صِفَةً لِلْمَخْلُوقِ قَامَتْ بِهِ وَلَا بَدَّ، فَالْحَرَكَةُ، وَالسُّكُونُ،
وَالْقِيَامُ، وَالْقَعُودُ، وَالْقُدْرَةُ، وَالْإِرَادَةُ، وَالْعِلْمُ، وَالْحَيَاةُ، وَغَيْرُهَا مِنْ
الصِّفَاتِ، إِنْ أُضِيفَتْ لَشَيْءٍ كَانَتْ وَصْفًا لَهُ، وَهِيَ تَابِعَةٌ لِمَنْ قَامَتْ بِهِ،
فَهَذِهِ صِفَاتٌ تُضَافُ لِلْمَخْلُوقِ، فَهِيَ صِفَاتٌ لَهُ حَيْثُ أُضِيفَتْ لَهُ، وَمِنْهَا مَا
يُضَافُ إِلَى الْخَالِقِ، كَالْقُدْرَةُ وَالْإِرَادَةُ وَالْعِلْمُ وَالْحَيَاةُ وَغَيْرِ ذَلِكَ، فَهِيَ
صِفَاتٌ لَهُ حَيْثُ أُضِيفَتْ لَهُ، وَحَيْثُ أُضِيفَتْ لِلْمَخْلُوقِ فَهِيَ مَخْلُوقَةٌ،
وَحَيْثُ أُضِيفَتْ لِلْخَالِقِ فَهِيَ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

فَصِفَةُ الْكَلَامِ كَغَيْرِهَا مِنَ الصِّفَاتِ، لَا بَدَّ أَنْ تَقُومَ بِمَحَلٍّ، فَإِذَا قَامَتْ
بِمَحَلٍّ كَانَتْ صِفَةً لِذَلِكَ الْمَحَلِّ، لَا صِفَةً لْغَيْرِهِ، فَإِنْ هِيَ أُضِيفَتْ إِلَى
الْخَالِقِ تَعَالَى فَهِيَ صِفَتُهُ، وَإِنْ أُضِيفَتْ إِلَى غَيْرِهِ فَهِيَ صِفَةٌ لِذَلِكَ الْغَيْرِ،
وَصِفَةُ الْخَالِقِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ كَنَفْسِهِ، وَصِفَةُ الْمَخْلُوقِ مَخْلُوقَةٌ كَنَفْسِهِ.

فَلَمَّا أَضَافَ اللَّهُ لِنَفْسِهِ كَلَامًا، وَوَصَفَ نَفْسَهُ بِهِ، كَانَ كَلَامُهُ غَيْرَ
مَخْلُوقٍ، لِأَنَّهُ تَابِعٌ لِنَفْسِهِ، وَنَفْسُهُ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، وَالْكَلَامُ فِي الصِّفَاتِ
فَرَعٌ عَنِ الْكَلَامِ فِي الذَّاتِ.

فَإِنْ قِيلَ: هُوَ مَخْلُوقٌ، قُلْنَا: إِذَا يَتَنَزَّهُ اللَّهُ عَنِ الْإِتِّصَافِ بِمَخْلُوقٍ،
وَأَنْتُمْ تَنْزَهُونَهُ تَعَالَى بِزَعْمِكُمْ عَنِ قِيَامِ الْحَوَادِثِ بِهِ، فَحَيْثُ نَزَّهْتُمْ رَبَّكُمْ
تَعَالَى عَنِ ذَلِكَ فَإِنَّهُ يَلْزَمُكُمْ أَنْ لَا تُضِيفُوا إِلَيْهِ كَلَامًا، وَبِهَذَا تَكْذِبُونَ السَّمْعَ

والعقل الشاهدين على أن لله تعالى صفة الكلام ، كما قد بيناه فيما مضى .

لكنهم أبوا الإقرار بأن كلام الله تعالى غير مخلوق بأدهى مما سبق من الباطل ، فقالوا : ثبت أن الله متكلم بكلام قائم في غيره ، فكلم الله تعالى موسى بكلام مخلوق قائم بالشجرة ، لا به تعالى ، فنحن نزهناه عن قيام الحوادث به .

قلنا : جعلتم الكلام إذا صفة للمحل الذي قام به ، وهو على قولكم الشجرة ، فكانت الشجرة بهذا هي القائلة لموسى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ ﴾ ، فانفضى حينئذ الفرق بين قول الشجرة وقول فرعون اللعين : ﴿ أَنَا رَبُّكُمُ الْأَعْلَى ﴾ ؛ لأن كلام الشجرة صفتها لا صفة الله ، وكلام فرعون صفة ، وكل ادعى الربوبية ، فلم يكن موسى إذا مُحِقاً في إنكاره قول فرعون وقبوله قول الشجرة .

سبحان الله ! كم تجرُّ البدع على أهلها من المحاذير؟

تأمل رحمك الله هذا الكفر الصراح ، الذي أوقع أهله فيه الابتداء المُشِين ، وعدم الرضا والتسليم لحقائق التنزيل ، واستبدال الوحي الشريف بزبالات الأذهان التي تُصرفها الأهواء كيف شاءت .

ولقد كانت هذه الحجة العقلية مما احتج به الإمام أحمد رحمه الله على الجهمية المعتزلة حين ناظرهم بحضرة المعتصم ، قال رحمه الله :

« وهذه قصة موسى ، قال الله في كتابه حكاة عن نفسه : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى ﴾ فأثبت الله الكلام لموسى كرامة منه لموسى ، ثم قال بعد كلامه له ﴿ تَكْلِمًا ﴾ تأكيداً للكلام ، قال الله تعالى : ﴿ يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ

إِلَّا أَنَا ﴿ وَتَتَكْرَرُونَ هَذَا، فَتَكُونُ هَذِهِ الْيَأْيُ تَرُدُّ عَلَى غَيْرِ اللَّهِ، وَيَكُونُ مَخْلُوقٌ يَدْعِي الرُّبُوبِيَّةَ؟! أَلَا هُوَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ ﴾ (٦٣).

وكذا احتجَّ بهذه الحُجَّة من أئمة السَّلَفِ الثَّقَةِ المأمونُ أبو أيوب سليمان بن داود الهاشمي، فقال:

«مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ، وَإِنْ كَانَ الْقُرْآنُ مَخْلُوقًا كَمَا زَعَمُوا فَلِمَ صَارَ فِرْعَوْنُ أَوَّلَى بِأَنْ يُخْلَدَ فِي النَّارِ، إِذْ قَالَ: ﴿أَنَا رَبُّكُمْ الْأَعْلَى﴾، وَزَعَمُوا أَنَّ هَذَا مَخْلُوقٌ، وَالَّذِي قَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَاعْبُدْنِي﴾، هَذَا أَيْضًا قَدْ ادَّعَى مَا ادَّعَى فِرْعَوْنُ، فَلِمَ صَارَ فِرْعَوْنُ أَوَّلَى بِأَنْ يُخْلَدَ فِي النَّارِ مِنْ هَذَا، وَكِلَاهُمَا مَخْلُوقٌ؟».

قال البخاري رحمه الله: فَأَخْبَرَ بِذَلِكَ أَبُو عُبَيْدٍ فَاسْتَحْسَنَهُ وَأَعْجَبَهُ (٦٤).

قلت: وأبو عُبَيْدٍ هو القاسم بن سلام لغويُّ أهلِ الحديث.

● من كلام أئمة السلف في إثبات هذه العقيدة:

١ - عمرو بن دينار (من خيار أئمة التابعين):

قال: «أَدْرَكْتُ أَصْحَابَ النَّبِيِّ ﷺ فَمَنْ دُونَهُمْ مِنْذُ سَبْعِينَ سَنَةً، يَقُولُونَ: اللَّهُ الْخَالِقُ، وَمَا سِوَاهُ مَخْلُوقٌ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ خَرَجَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» (٦٥).

(٦٣) رواه حنبل في «المنحثة» ص: ٥٢ عنه.

(٦٤) «خلق أفعال العباد» رقم (٥٩) عن سليمان به.

(٦٥) أثر صحيح الإسناد.

قال إسحاق بن راهوئية:

«وقد أذكركم عمرو بن دينار أجلة أصحاب رسول الله ﷺ، من البذريين، والمهاجرين، والأنصار، مثل: جابر بن عبد الله، وأبي سعيد الخدري، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وعبد الله بن الزبير، وأجلة التابعين، وعلى هذا مضى صدر هذه الأمة» (٦٦).

٢ - جعفر بن محمد بن علي بن الحسين المعروف بـ «الصادق» (إمام ثقة سني):

قال معاوية بن عمارة الذهني: قلت لجعفر - يعني ابن محمد - إنهم يسألون عن القرآن: مخلوق هو؟ قال: «ليس بخالق ولا مخلوق، ولكنه كلام الله» (٦٧).

= أخرجه الدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٣٤٤) و«النقض على المريسي» ص: ١١٦ والبيهقي في «السنن» ٢٠٥/١٠ وإسناده صحيح. وانظر تعليقي على «اختصاص القرآن لضياء الدين المقدسي، تعليق رقم (٥٠).

(٦٦) قول إسحاق هذا زاده البيهقي في «السنن» ٢٠٥/١٠ و«الأسماء والصفات» ص: ٢٤٥ عقب قول عمرو بن دينار، وسنده صحيح. (٦٧) أثر صحيح الإسناد.

أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٠٩) والدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٣٤٥) و«النقض على المريسي» ص: ١١٦ وعبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٣٢ - ١٣٤) وأبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٥ والأجري في «الشرعية» ص: ٧٧ والبيهقي في «الأسماء» ص: ٢٤٦ - ٢٤٧ و«الاعتقاد» ص: ١٠٧ من طريق معاوية به.

٣ - مالك بن أنس (إمام دار الهجرة):

قال عبد الله بن نافع: كان مالك يقول: «كَلَّمَ الله موسى ﷺ»
ويقول: «القرآن كلامُ الله» ويستفطع قول من يقول: القرآن مخلوق^(٦٨).

٤ - سفيان بن عُيَيْنَةَ (إمام حُجَّة):

سئل عن القرآن؟ فقال: «كلامُ الله، وليس بمخلوق»^(٦٩).

٥ - عبد الله بن المبارك (ذاك العَلَم):

قال: «القرآن كلامُ الله عَزَّ وَجَلَّ، ليس بخالقٍ ولا مَخْلُوقٍ»^(٧٠).

٦ - أبو عبد الله الشافعي الإمام:

قال الربيع بن سليمان صاحبه وتلميذه حاكياً المناظرة التي جرت بينه
وبين حفص الفرد في القرآن:

فسأل الشافعي، فاحتج عليه الشافعي وطالت فيه المناظرة، فأقام
الشافعي الحجة عليه بأن القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق، وكفر حفصاً الفرد.

قال الربيع:

فلقيت حفصاً الفرد في المجلس بعد، فقال: أراد الشافعي

(٦٨) رواه صالح بن أحمد في «المحنة» ص: ٦٦ بسند صحيح عنه.

(٦٩) أخرجه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٥ بسند جيد عنه.

(٧٠) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٤٤) وسنده صحيح، وكذا

رواه اللالكائي رقم (٤٢٦).

قتلي (٧١).

٧ - وكيع بن الجراح (أحد كبار الحفاظ):

قال: «القرآن كلام الله عز وجل ليس بالمخلوق» (٧٢).

٨ - يحيى بن سعيد القطان (رأس في الحديث وعلمه):

قال الحافظ أبو الوليد الطيالسي: قال لي يحيى بن سعيد:

«كيف يصنعون بـ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾؟ كيف يصنعون بهذه الآية: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ﴾؟ يكون مخلوقاً؟» (٧٣).

٩ - يزيد بن هارون (من كبار أئمة الحديث):

قال: «من قال: القرآن مخلوق فهو كافر» (٧٤).

١٠ - عبدالله بن إدريس (ثقة ثبت):

قال: «القرآن كلام الله، ومن الله، وما كان من الله عز وجل فليس بمخلوق» (٧٥).

١١ - أبو الوليد الطيالسي: هشام بن عبد الملك (ثقة حافظ):

(٧١) رواه عبد الرحمن بن أبي حاتم في «آداب الشافعي» ص: ١٩٤ - ١٩٥

وسنده صحيح.

(٧٢) رواه عبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (١٥١) بسند صحيح.

(٧٣) رواه عبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (١٥٧) بسند صحيح.

وكذا أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٣٠) عن الطيالسي نحوه.

(٧٤) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٨ بسند صحيح.

(٧٥) رواه عبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (١٦١) بسند صحيح.

قال: «القرآن كلامُ الله، وكلامُ الله ليس بمخلوق» (٧٦).

١٢ - سليمان بن حرب (ثقة جليل صاحبُ سنة):

قال عباس بن عبد العظيم - وكان ثقةً - سمعتُ سليمان بن حرب

قال:

«القرآن ليس بمخلوق».

فقلتُ له: إنَّكَ كنتَ لا تقولُ هذا، فما بدا لك؟

قال: «استخرجتهُ من كتاب الله عزَّ وجلَّ: ﴿لَا يُكَلِّمُهُمُ اللَّهُ وَلَا يَنْظُرُ

إِلَيْهِمْ﴾ [آل عمران: ٧٧] فالكلام والنظر واحد» (٧٧).

١٣ - الإمام أحمد بن حنبل إمام أهل السنة:

النقلُ عنه في ذلك متواترٌ، والناقلون عنه لا يُحصيهم العدُّ، وكفى ما

كان منه في المِحنة مع الجهمية المعتزلة القائلين بخلق القرآن، وقد تقدَّم

ذكرُ بعضِ النقلِ عنه، وسيأتي بعضُ ذلك متناثراً.

ومما يَحسُنُ ذكرُهُ هنا ما قاله الإمام أحمدُ جواباً لسؤالِ المتوكِّل عن

مسألة القرآن:

«وقد روي عن غير واحدٍ ممَّن مَضَى من سَلَفِنَا رحمهم الله أَنَّهُمْ كانوا

يقولون: القرآن كلام الله عزَّ وجلَّ، وليس بمخلوق، وهو الذي أَذْهَبَ إِلَيْهِ،

ولسْتُ بصاحبِ كلامٍ، ولا أرى الكلامَ في شيءٍ من هذا، إلَّا ما كان في

(٧٦) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٦ بسند صحيح.

(٧٧) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٦٩) عن عباس عنه به.

كتاب الله عَزَّ وَجَلَّ، أو في حديث عن النبي ﷺ، أو عن أصحابه، أو عن التابعين، فأما غير ذلك فإنَّ الكلام فيه غير محمود» (٧٨).

وقال حنبل: سمعت أبا عبد الله يقول:

«لم يَزَلْ الله عَزَّ وَجَلَّ متكلماً، والقرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ غير مخلوق، وعلى كل جهة، ولا يوصف الله بشيء أكثر مما وصف به نفسه عَزَّ وَجَلَّ» (٧٩).

١٤ - يحيى بن معين (إمام الجرح والتعديل) وأبو خيثمة زهير بن حرب (حافظ إمام ناقد):

قالا: «القرآن كلام الله عَزَّ وَجَلَّ، وهو غير مخلوق» (٨٠).

١٥ - أبو بكر بن أبي شيبة (حافظ إمام مُصَنِّف):

قال له رجل من أصحابه: القرآن كلام الله وليس بمخلوق، فقال أبو بكر:

«مَنْ لَمْ يَقُلْ هذا فهو ضالٌّ مُضِلٌّ مُبْتَدِعٌ» (٨١).

١٦ - عثمان بن أبي شيبة (ثقة حافظ):

(٧٨) رواه صالح في «المحنة» ص: ١٢٢ وعبد الله في «السنة» رقم (١٠٨) عن أبيهما.

(٧٩) رواه حنبل في «المحنة» ص: ٦٨ وانظر ص: ٧٤.

(٨٠) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٧٣) بسند صحيح، وانظر «تاريخ يحيى» رواية الدوري ٣/٣٣٥.

(٨١) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٦٢) عنه به.

قال: «القرآن كلامُ الله وليسَ بمخلوق» (٨٢).

١٧ - جماعةٌ من شيوخ أبي داود السجستاني صاحب «السنن»:

قال أبو داود رحمه الله:

سمعتُ إسحاقَ بن إبراهيمَ بن رَاهِيَمَ بن رَاهِيَمَ، وهَنَّادَ بن السَّرِيِّ،
وعبدَ الأعلَى بنَ حمَّادٍ، وعبيدَ الله بنَ عُمَرَ بنَ مَيْسَرَةَ القَوَارِيرِيَّ، وحَكِيمَ بنَ
سَيْفِ الرَّقِيِّ، وأَيُّوبَ بنَ مُحَمَّدٍ، وسَوَّارَ بنَ عبدِ الله، والرَّبِيعَ بنَ سُلَيْمَانَ
- صاحبَ الشَّافِعِيِّ - وعبدَ الوَهَّابِ بنَ الحَكَمِ، ومُحَمَّدَ بنَ الصَّبَّاحِ بنِ
سُفْيَانَ، وعُثْمَانَ بنَ أَبِي شَيْبَةَ، ومُحَمَّدَ بنَ بَكَّارِ بنِ الرِّثَّانِ، وأَحْمَدَ بنَ
جَوَّاسِ الحَنْفِيِّ، وَوَهْبَ بنَ بَقِيَّةٍ، وَمَنْ لَا أَحْصِيهِمْ مِنْ عُلَمَائِنَا، كُلُّ هَؤُلَاءِ
سَمِعْتُهُمْ يَقُولُونَ:

«القرآنُ كلامُ الله ليسَ بمخلوق».

وبعضُهُمْ [قال:

«القرآنُ] غيرُ مخلوق» (٨٣).

قلتُ: وجميعُ هَؤُلَاءِ الشُّيُوخِ مِنْ أئِمَّةِ الْحَدِيثِ، وَكُلُّهُمْ ثِقَاتٌ،
سِوَى حَكِيمِ بْنِ سَيْفٍ فَإِنَّهُ صَالِحٌ لَا بَأْسَ بِهِ.

١٨ - عَلِيُّ بْنُ الْمَدِينِيِّ (صَيَّرَنِي الْحَدِيثَ وَأَهْلِي).

قال مُحَمَّدُ بْنُ عُثْمَانَ بْنِ أَبِي شَيْبَةَ: سَمِعْتُ عَلِيَّ بْنَ الْمَدِينِيِّ يَقُولُ

(٨٢) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (١٦٣) عنه به.

(٨٣) «المسائل» لأبي داود ص: ٢٦٦.

قَبْلَ أَنْ يَمُوتَ بِشَهْرَيْنِ :

«القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وَمَنْ قَالَ: مخلوقٌ، فهو كافرٌ»^(٨٤).

١٩ — أبو يعقوب البُوَيْطِيُّ (تلميذُ الشافعي وخريجهُ):

قال: «مَنْ قَالَ: القرآنُ مخلوقٌ، فهو كافرٌ»^(٨٥).

٢٠ — الْمُزْنِيُّ: إسماعيل بن يحيى (إمامٌ فقيهٌ، من أخصَّ أصحابِ

الشافعي به):

قال: «القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وَمَنْ قَالَ: إنَّ القرآنَ مخلوقٌ،

فهو كافرٌ»^(٨٦).

٢١ — البخاريُّ: مُحَمَّد بن إسماعيل (إمامُ المحدثين):

قال: «القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ»^(٨٧).

٢٢ — أبو حاتمٍ وأبو زُرْعَةَ الرَّازِيَانِ (عالمَانِ حافظَانِ، من كبارِ أئمةِ

الحديثِ):

قال عبدُ الرَّحْمَنِ بن أبي حاتمٍ:

(٨٤) أخرجه ابن الطبري في «السنة» رقم (٤٥٣) والخطيب في «تاريخ

بغداد» ٤٧٢/١١ بسند صحيح، وانظر «مسائل ابن أبي شيبة لابن المديني» نص:

(١١٣).

(٨٥) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٨ بسند صحيح عنه.

(٨٦) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٥٢ بسند صحيح، ورواه

هو وابن الطبري بإسنادين آخرين عنه.

(٨٧) «خلق أفعال العباد» ص: ٣٧.

سألتُ أبي وأبا زُرْعَةَ عن مَذَاهِبِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي أَصُولِ الدِّينِ، وَمَا
أَدْرَكَ عَلَيْهِ الْعُلَمَاءُ فِي جَمِيعِ الْأُمُصَارِ، وَمَا يَعْتَقِدَانِ مِنْ ذَلِكَ؟

فَقَالَا: «أَدْرَكْنَا الْعُلَمَاءُ فِي جَمِيعِ الْأُمُصَارِ: حِجَازًا، وَعِرَاقًا، وَشَامًا،
وَيَمَنًا، فَكَانَ مِنْ مَذَهَبِهِمُ: الْإِيمَانُ قَوْلُ وَعَمَلُ يَزِيدُ وَيَنْقُصُ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ
اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بِجَمِيعِ جِهَاتِهِ» (٨٨).

فَهَؤُلَاءِ بَضْعَةُ ثَلَاثُونَ مِنَ الْأَثْمَةِ، قَدْ سَمَّيْنَاهُمْ، عَامَّتُهُمْ مِمَّنْ يُقْتَدَى
بِهِمْ، وَجَمِيعُهُمْ مِنْ أَهْلِ الْقُرُونِ الْمُفْضَلَةِ الَّتِي هِيَ خَيْرُ الْقُرُونِ.
قَالَ الْإِمَامُ أَبُو عَثْمَانَ الصَّابُونِيُّ:

«وَيَشْهَدُ أَصْحَابُ الْحَدِيثِ، وَيَعْتَقِدُونَ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَكِتَابُهُ،
وَخِطَابُهُ، وَوَحْيُهُ، وَتَنْزِيلُهُ، غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ قَالَ بِخَلْقِهِ وَاعْتَقَدَهُ فَهُوَ كَافِرٌ
عِنْدَهُمْ» (٨٩).

وَلَوْ أَرَدْنَا اسْتِيعَابَ مَا بَلَّغْنَا مِنْ أَقْوَالِهِمْ فِي إِثْبَاتِ هَذِهِ الْعَقِيدَةِ (الْقُرْآنُ
كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ) لَاحْتَاجَ ذَلِكَ إِلَى تَصْنِيفٍ مُسْتَقِلٍّ.

وَقَدْ سَأَلَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ هَبَةُ اللَّهِ بْنِ الْحَسَنِ الطُّبْرِيَّ اللَّالِكَاثِيَّ فِي
كِتَابِهِ الْعَظِيمِ (شَرْحُ أَصُولِ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ) أَوْ (كِتَابِ السُّنَّةِ)
الْقَوْلَ بِذَلِكَ عَنْ خَمْسِ مِثَّةٍ وَخَمْسِينَ نَفْسًا مِنْ عُلَمَاءِ الْأُمَّةِ وَسَلَفِهَا، كُلُّهُمْ
يَقُولُونَ: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ».
قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ:

(٨٨) أَخْرَجَهُ ابْنُ الطُّبْرِيِّ فِي «السُّنَّةِ» ١٧٦/١ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٨٩) «رِسَالَتُهُ فِي السُّنَّةِ» نَصُّ ٦.

«فهؤلاء خَمْسُ مِئَةٍ وخمسونَ نَفْساً أو أكثر، من التَّابِعِينَ، وأتباع التَّابِعِينَ، والأئمةِ المَرْضِيِّينَ، سوى الصحابةِ الخَيْرِينَ، على اختلاف الأعصارِ، ومُضِيِّ السنين والأعوامِ، وفيهم نحوُ من مِئَةِ إمامٍ، ممَّن أخذَ الناسُ بقولهم، وتَدَيَّنُوا بِمَذَاهِبِهِمْ، ولو اشتغلتُ بنقلِ قولِ المُحَدِّثِينَ لَبَلَّغْتُ أَسْمَاءَهُمْ أُلُوفاً كَثِيرَةً» (٩٠).

قلتُ: وفيما ذكر كفايةً لإثباتِ قوَّةِ هذه العقيدة، وأنها المَذْهَبُ الحقُّ وحده، ومُجَانِبَةُ مُخَالَفِهِ لِلْحَقِّ البَيِّنِ الصَّرِيحِ الذي أَطْبَقَ على اعتقادهِ سادةُ علماءِ الأُمَّةِ، فهو إجماعُ أهلِ السُّنَّةِ الَّذِي لَا يَقَعُ فِيهِ امْتِرَاءٌ، واللَّهِ أَعْلَمُ.



المبحث السادس الوقوف في القرآن

المُراد بهذه المسألة الشُّكُوتُ عن القولِ : القرآنُ مخلوقٌ، أو غيرُ مخلوقٍ، والاكتفاء بالقول : إنه كلامُ الله .

وقد ذكّرنا فيما مضى أن الناسَ في صَدْرِ الإسلام كانوا في غِنَى عن الزيادةِ على القول : (القرآنُ كلامُ الله) لأنهم لم يكونوا يفقهون مِنْ هذه الإضافةِ إلّا أنها صفةُ الله ، وهم أَجَلُ مِنْ أن يجَهلُوا أن صفاتِهِ تعالى تابعةٌ لذاته ، غيرُ مخلوقةٍ .

فلَمّا ظهرت بدعةُ القولِ بِخَلْقِ القرآن عَقَلَ أئمةُ السُّنَّةِ خَطَرَهَا ، فردُّوها وأبطلوها ، وليسَ بعدَ ذلكَ من سَبِيلِ إلّا القولُ : (القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ) لإبطالِ دينِ أهلِ الضلالةِ ، وإحقاقِ دينِ أهلِ السُّنَّةِ .

وقد أقمنا الحُجَجَ على صِحَّةِ هذا الاعتقادِ ، وموافقتهِ للكتابِ والسُّنَّةِ .

ولكنَّ طائفةً من المُتَنَسِّينَ إلى العِلْمِ لم يفقهوا حقيقةَ هذه البدعةِ ، ولم يفهموا مُرادَ أهلِها جهلاً منهم ، فتعسَّروا القولُ : القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ ، كما تعسَّروا القولُ : كلامُ الله مخلوقٍ ، خوفاً من البدعةِ ، فوقفوا

عن وَرَعٍ مَبْنِيٍّ عَلَى جَهْلٍ ، وَإِنَّمَا أَكَّدَ ذَلِكَ أَنَّهَا كَانَتْ مَسْأَلَةً حَدِيثَةَ الْوُرُودِ عَلَى أَذْهَانِهِمْ ، لَمْ يَكُنْ لَهُمْ بِهَا سَابِقُ عِلْمٍ .

وَلَكِنِ النَّاسَ حِينَ وَقَعُوا فِي ذَلِكَ ، وَعَظَّمَتِ بَسْبِيهِ الْبَلِيَّةُ ، وَجَبَ إِظْهَارُ الْحَقِّ وَالْإِبَانَةُ عَنْهُ ، وَذَلِكَ مَا كَانَ مِنَ الْأَثْمَةِ ، وَأَعْلَامِ الْأَمَّةِ ، الَّذِينَ هُمْ قُدُوةُ النَّاسِ - كَمَا حَكَيْنَاهُ عَنْهُمْ فِيمَا مَضَى . . .

وَلَقَدْ سُئِلَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ : هَلْ لَهُمْ رُخْصَةٌ أَنْ يَقُولَ الرَّجُلُ : الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ثُمَّ يَسْكُتُ ؟ فَقَالَ : «وَلَمْ يَسْكُتْ ؟ لَوْلَا مَا وَقَعَ فِيهِ النَّاسُ كَانَ يَسَعُهُ السُّكُوتُ ، وَلَكِنْ حَيْثُ تَكَلَّمُوا فِيمَا تَكَلَّمُوا لِأَيِّ شَيْءٍ لَا يَتَكَلَّمُونَ ؟ » (١) .

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْأَجْرِيُّ : «مَعْنَى قَوْلِ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ فِي هَذَا الْمَعْنَى ، يَقُولُ : لَمْ يَخْتَلَفْ أَهْلُ الْإِيمَانِ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، فَلَمَّا جَاءَ جَهْمٌ فَأَحْدَثَ الْكُفْرَ بِقَوْلِهِ : إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ ، لَمْ يَسْعَ الْعُلَمَاءُ إِلَّا الرَّدَّ عَلَيْهِ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ غَيْرُ مَخْلُوقٍ بَلَا شَكٍّ وَلَا تَوْقُفٍ فِيهِ ، فَمَنْ لَمْ يَقُلْ : غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، سُمِّيَ وَاقِفِيًّا شَاكَاً فِي دِينِهِ » (٢) .

وَقَالَ أَحْمَدُ أَيْضاً : «كُنَّا نَرَى السُّكُوتَ عَنْ هَذَا قَبْلَ أَنْ يَخُوضَ فِيهِ هَؤُلَاءِ ، فَلَمَّا أَظْهَرُوهُ لَمْ نَجِدْ بُدْأً مِنْ مُخَالَفَتِهِمْ وَالرَّدِّ عَلَيْهِمْ » (٣) .

وَالْأَثْمَةُ جَمِيعاً عَلَى إِنْكَارِ مَسَلِكِ هَؤُلَاءِ ، وَالتَّشْدِيدِ عَلَيْهِمْ ،

(١) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَسَائِلِ» ص : ٢٦٣ - ٢٦٤ وَمِنْ طَرِيقِهِ : الْأَجْرِيُّ

ص : ٨٧ وَإِسْمَاعِيلُ بْنُ الْفَضْلِ ق ١١٤ / أ .

(٢) «الشَّرِيعَةُ» لِلْأَجْرِيِّ ص : ٨٧ .

(٣) ذَكَرَهُ عَنْهُ عُثْمَانُ الدَّارِمِيُّ فِي «النَّقْضِ عَلَى الْمَرِيسِيِّ» ص : ١١٠ .

وَيُبَدِّعُهُمْ، وَأَبُو عَبْدِ اللَّهِ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ أَشَدُّهُمْ إِنْكَارًا.

قال أبو داود السُّجِسْتَانِيُّ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ ذَكَرَ رَجُلَيْنِ كَانَا وَقَفَا فِي الْقُرْآنِ، وَدَعَا إِلَيْهِ، فَجَعَلَ يَدْعُو عَلَيْهِمَا، وَقَالَ لِي: هَذَا لِأَحَدِهِمَا فِتْنَةٌ، وَجَعَلَ يَذْكُرُهُمَا بِالْمَكْرُوهِ^(٤).

وَقَالَ: رَأَيْتُ أَحْمَدَ سَلَّمَ عَلَيْهِ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ بَغْدَادِ مِمَّنْ وَقَفَ - فِيمَا بَلَغَنِي - فَقَالَ: «اغْرُبْ»، لَا أَرَيْنَاكَ تَجِيءُ إِلَى بَابِي - فِي كَلَامٍ غَلِيظٍ - وَلَمْ يَرُدُّ عَلَيْهِ السَّلَامَ، وَقَالَ لَهُ:

«مَا أَحْوَجَكَ إِلَى أَنْ يُصْنَعَ بِكَ مَا صَنَعَ عُمَرُ بِصَبِيغٍ».

قال أبو داود: فَهَمَنِي بِصَبِيغٍ بَعْضُ وَلَدِ أَحْمَدَ - [فَدَخَلَ بَيْتَهُ وَرَدَّ الْبَابَ]^(٥).

وَقَالَ أَبُو طَالِبٍ: سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَمَّنْ أَمْسَكَ، فَقَالَ: لَا أَقُولُ لَيْسَ هُوَ مَخْلُوقًا، إِذَا لَقِينِي بِالطَّرِيقِ وَسَلَّمْتُ عَلَيَّ، أَسَلَّمْتُ عَلَيْهِ؟

قال: «لَا تُسَلِّمُ عَلَيْهِ، وَلَا تَكَلِّمُهُ، كَيْفَ يَعْرِفُهُ النَّاسُ إِذَا سَلَّمْتَ عَلَيْهِ؟ وَكَيْفَ يَعْرِفُ هُوَ أَنَّكَ مُنْكَرٌ عَلَيْهِ، فَإِذَا لَمْ تُسَلِّمْ عَلَيْهِ عَرَفَ الدَّلَّ، وَعَرَفَ أَنَّكَ أَنْكَرْتَ عَلَيْهِ، وَعَرَفَهُ النَّاسُ»^(٦).

(٤) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٤ ومن طريقه الأجرى ص: ٨٧.

(٥) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٤ ومن طريقه الأجرى ص: ٨٧. وَصَبِيغٌ هَذَا بَصْرِيٌّ قَدِيمٌ عَلَى عُمَرُ فَكَانَ يُجَادِلُ فِي مِثَابَةِ الْقُرْآنِ، فَجَلَّدَهُ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ لِذَلِكَ، وَقَصَّتْهُ صَحِيحَةٌ مَشْهُورَةٌ، رَوَيْتُ مُوَصَّلَةً بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عِنْدَ ابْنِ عَسَاكِرَ ٨/١١٧/أ وَغَيْرِهِ، وَرَوَيْتُ مَرْسَلَةً مِنْ وَجْهِ مُتَعَدِّدَةٍ.

(٦) رواه الأجرى ص: ٨٨ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

وقال أبو داود: سمعتُ أحمدَ وقيلَ له: ما ترى في الصَّلَاةِ خَلْفَ من يقولُ في القرآنِ: كَلَامُ اللهِ، وَيَقِفُ؟ قال: «يُعْجِبُنِي أَنْ يُجَفَّوْا» (٧).

وسألتني عنه البيانُ أَنَّ الجاهلَ من هؤلاءِ يَسْأَلُ ويتعلَّمُ.

وسألتني عن الإمامين أبي حاتمٍ وأبي زُرْعَةَ الرازيينِ أَنَّهُ مبتدعٌ ولا يُكْفَرُ، لأنَّهُ وقفَ عن جَهْلٍ وضعفِ بصيرةٍ.

وبعدَ انكشافِ المِحنةِ عن الناسِ في عهدِ المتوكلِ، وقُوَّةِ شوكةِ أهلِ السُّنَّةِ حينئذٍ، وإخمادِ نارِ الفتنَةِ وخُذْلانِ أهلِها، لَجأتِ طائفةٌ من الجَهميَّةِ إلى استعمالِ التَّقِيَّةِ خوفاً من سَيْفِ أهلِ السُّنَّةِ، فقالوا: نحنُ نقولُ: القرآنُ كَلَامُ اللهِ، ولا نَزِيدُ، فلا نقولُ: مخلوقٌ، ولا غيرُ مخلوقٍ.

وتابعهم على ذلك بعضُ مَنْ لا يَفْهَمُ.

ووجدوا في وَقْفٍ من كانَ يَقِفُ تورَعاً من بعضِ مَنْ خَفِيَهِ الحقُّ من المتتسبين إلى الحديثِ مِمَّنْ أَشْرَبْنَا إِلَيْهِمْ أَنْفَاءً، حِيلَةً يَتَشَبَّهُونَ بها، ويحتجُّون بها على صِحَّةِ مذهبِهِمْ، وهم يُبْطِنُونَ الحَقِيقَةَ الفاسدةَ.

ولكنَّ الأئمةَ كانوا حذيثي عهدٍ بالفتنةِ، وقد عالجوها وخبروها، فلم يغتروا بهذه المَقَالَةِ، فأنكروها وشدَّدوا على مُعْتَقِدِها وقالوا: هو شاكٌّ، وهذا أدنى أحوالِهِمْ عندهم.

فألحقوهم بالجَهميَّةِ الأوائلِ، ولذا يقولُ الإمامُ أحمدُ رحمه الله:

«افترقتِ الجَهميَّةُ على ثلاثِ فِرَقٍ: فِرْقَةٌ قالوا: القرآنُ مخلوقٌ، وفِرْقَةٌ

(٧) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٤.

قالوا: كلامُ الله وتَسَكَّتْ، وفرقةٌ قالوا: لفظُنا بالقرآنِ مخلوقٌ»^(٨).

ومقالاتُ الإمام أحمدَ فيهم كثيرةٌ مُستفيضةٌ، وكذا عن غيره من أئمةِ السُّنة، فمن ذلك:

١ - قال مُهَنَّا أبو عبد الله السُّلَمي (وكان من خيار أصحاب أحمد): سألتُ أحمدَ بن حنبل بعدَ ما أخرجَ من السُّجُنِ بستانين: ما تقول في القرآن؟ فقال: «كلامُ الله غيرُ مخلوق» وقال: «مَنْ رَوَى عَنِّي غيرَ هذا القولِ فهو مُبْطَلٌ» قلتُ له: إِنَّ بعضَ مَنْ ذَكَرَ عَنْكَ أَنَّكَ قلتُ له: هو كلامُ الله، لا مَخْلُوق ولا غيرُ مخلوق، ولكن هو كلامُ الله، فقال أحمد: «أَبْطَلُ، ما قلتُ هذا، ولكنه هو كلامُ الله غيرُ مخلوق»^(٩).

٢ - وقال سلمةُ بن شبيب: دخلتُ على أحمد بن حنبل فقلتُ: ما تقول فيمن يقول: القرآن كلامُ الله؟ فقال أحمد: «مَنْ لم يَقُلْ: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو كافرٌ».

ثم قال: «لا تَشْكُنْ في كُفْرِهِمْ، فَإِنَّ مَنْ لم يَقُلْ: القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق فهو يقول: مخلوق، وَمَنْ قال: هو مخلوق، فهو كافرٌ بالله عزَّ وجلَّ».

قال سلمةُ: وقلتُ لأحمد: الواقعةُ كفَّارٌ؟ فقال: «كفَّارٌ»^(١٠).

٣ - وقال عبد الله بن أحمد: سمعتُ أبي - وسُئِلَ عن الواقعة - فقال

(٨) رواه صالح في «المحنة» ص ٧٢ عن أبيه به.

(٩) رواه عبد الله في «السنة» رقم (٥٢٩) عن مُهَنَّا عن أحمد.

(١٠) رواه ابن الجوزي في «مناقب الإمام أحمد» ص: ١٥٧ بسند جيد.

أبي :

«مَنْ كَانَ يُخَاصِمُ وَيُعَرِّفُ بِالْكَلَامِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، وَمَنْ لَمْ يُعَرِّفْ بِالْكَلَامِ يُجَانِبْ حَتَّى يَرْجِعَ ، وَمَنْ لَمْ يَكُنْ لَهُ عِلْمٌ يَسْأَلُ»^(١١) .
وَقَالَ مَرَّةً فِي الْوَاقِفَةِ : «هُمْ شَرٌّ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ»^(١٢) .
قُلْتُ : لَخَفَاءُ أَمْرِهِمْ .

٤ - وَقَالَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهِ (الإمام الفقيه الحافظ) :
«مَنْ قَالَ : لَا أَقُولُ : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ ، وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ»^(١٣) .

٥ - وَقَالَ قُتَيْبَةُ بْنُ سَعِيدٍ (وَهُوَ ثِقَةٌ ثَبَتَ حَافِظٌ) :
«هَؤُلَاءِ - يَعْنِي الْوَاقِفَةَ - شَرٌّ مِنْهُمْ ، مِمَّنْ قَالَ : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ»^(١٤) .
٦ - وَقَالَ الْحَافِظُ الْإِمَامُ أَبُو الْوَلِيدِ الطَّيَالِسِيُّ :

«مَنْ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ فَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْإِسْلَامِ»^(١٥) .

٧ - وَقَالَ عَثْمَانُ بْنُ أَبِي شَيْبَةَ (ثِقَةٌ حَافِظٌ) :

(١١) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي «السَّنَةِ» رَقْمَ (٢٢٣) .
(١٢) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي «السَّنَةِ» رَقْمَ (٢٢٥) .
(١٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَسَائِلِ» ص : ٢٧٠ وَمِنْ طَرِيقِهِ الْأَجْرِيُّ فِي «الشَّرِيعَةِ» ص : ٨٨ .

(١٤) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَسَائِلِ» ص : ٢٧٠ وَمِنْ طَرِيقِهِ الْأَجْرِيُّ ص : ٨٨ .
(١٥) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَسَائِلِ» ص : ٢٦٦ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

«هؤلاء الذين يقولون: كلامُ الله ويسكتون، شرٌّ من هؤلاء - يعني ممن قال: القرآن مخلوق»^(١٦).

٨ - وقال أبو داود: سألتُ أحمدَ بنَ صالحِ المِصْرِيَّ (الحافظ الإمام) عمن يقول: القرآن كلامُ الله، ولا يقول: مخلوق، ولا غيرُ مخلوق؟ قال: «هذا شاكٌّ»^(١٧).

٩ - وقال أبو خَيْثَمَةَ (ثِقَّةٌ حَافِظٌ) - وسألَ يحيى بنَ مَعِينٍ - فقال: إنهم يقولون: إنك تقول: القرآن كلامُ الله، وتسكت، ولا تقول: مخلوق، ولا غيرُ مخلوق، قال: «لا» فعاودته، فقال: «معاذُ الله، القرآن كلامُ الله غيرُ مخلوق، ومن قال غير هذا فعليه لعنةُ الله»^(١٨).

١٠ - وقال أبو حاتمٍ وأبو زُرْعَةَ الرّازِيَانِ الحافظان: «ومن شك في كلام الله عزَّ وجلَّ، فوقفَ شاكًّا فيه، يقول: لا أدري، مخلوق أو غيرُ مخلوق، فهو جهمي، ومن وقفَ جاهلاً علماً، وبدع ولم يكفر»^(١٩).

وكذا ذكر الإمامُ هَبَةُ الله ابنُ الطُّبْرِيّ نحو ما ذَكَرَ من الإنكار عن نحو مئةٍ من المحدثين والفقهاء^(٢٠).

(١٦) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٧١ ومن طريقه الأجرى ص: ٨٨.

(١٧) رواه أبو داود ص: ٢٧١ وعنه الأجرى ص: ٨٨.

(١٨) رواه ابن الطبري في «السنة» رقم (٤٥٦) بسند صحيح.

(١٩) رواه ابن الطبري ١/ ١٧٨ بسند صحيح.

(٢٠) كتاب «السنة» ٢/ ٣٢٣ - ٣٢٩.

قلت: وإنما شدد الأئمة كل هذا التشديد على هؤلاء الواقعة لأجل أن الحق في كلام الله قد بان وظهر، وقامت عليه دلائل الشرع القاطعة، فلم يبق عند هؤلاء تردد في اعتقاده والقول به؟

أما دعواهم أن القول: (القرآن كلام الله غير مخلوق) لم يتكلم به المتقدمون، فهو مكابرة منهم لإحقاق باطلهم، وإلا فكيف يتكلم المتقدمون بما لم يقع ولم يشهدوه؟ أو بما لا يدرون إن وقع كيف يكون؟ وقد شرحنا من الدلالة ما يكفي لصحة اعتقاد أهل السنة، وبيننا أنه الذي مضى عليه سلف الأمة حتى قبل ظهور هذه البدعة من جهة اتفاقهم على أنها صفة الله، والخالق بصفاته غير المخلوق بصفاته.

وفي قصة الوحيد حجة على هؤلاء، قال تعالى: ﴿ذَرْنِي وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا . وَجَعَلْتُ لَهُ مَالًا مَمْدُودًا . وَبَنِينَ شُهُودًا . وَمَهَّدْتُ لَهُ تَمْهِيدًا . ثُمَّ يَطْمَعُ أَنْ أَزِيدَ . كَلَّا إِنَّهُ كَانَ لِآيَاتِنَا عَنِيدًا . سَأُرْهِقُهُ صَعُودًا . إِنَّهُ فُكِّرَ وَقَدَّرَ . فَقُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قُتِلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَسَكَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ . إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ . وَمَا أَدْرَاكَ مَا سَقَرُ . لَا تُبْقِي وَلَا تَذَرُ . لَوَاحَةٌ لِلْبَشَرِ . عَلَيْهَا تِسْعَةُ عَشْرَ﴾ [المدر: ١١ - ٣٠].

فما أشبه القوم به، ومن قال: إنه قول الجن، أو الملائكة، أو غير ذلك من خلق الله فهو مع الوحيد في القول سواء، إلا أن القوم يتسترُونَ بالإسلام.

وقد أبنا لك فيما مضى أن الله تعالى لا يوصف بشيء مخلوق، وفيما ذكرنا كفاية ومقنع لمن أراد الحق وقصده.

المبحث السابع كلام الله تعالى بحرف وصوت

ومن اعتقاد السلف في كلام الله تعالى أن كلامه جل وعز مؤلف من الحروف، إن شاء جعلها عريضة، وإن شاء جعلها عبرانية، وإن شاء جعلها غير ذلك، فهو المتكلم بحروف القرآن، والتوراة، والإنجيل، وغيرها من كلامه.

قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤].

وقال تعالى: ﴿الَمْ . اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ . نَزَّلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ التَّوْرَةَ وَالْإِنْجِيلَ . مِنْ قَبْلُ هَدَى لِلنَّاسِ وَأَنزَلَ الْفُرْقَانَ إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِآيَاتِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَاللَّهُ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ﴾ [آل عمران: ١ - ٤].

فأخبر تعالى أنه أنزل الكتب: القرآن، والتوراة والإنجيل، وإنما ذلك بلغات الرسل الذين أنزل عليهم، وبلغات أقوامهم، لأجل أن تقوم الحجة عليهم به، إذ لو كان بغير لغتهم ما فقهوه.

قال تعالى: ﴿الر تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا أَنزَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا

لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ ﴿يوسف: ١ - ٢﴾.

وقال تعالى: ﴿حَمَّ . وَالكِتَابِ الْمُبِينِ . إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ . وَإِنَّهُ فِي أُمِّ الْكِتَابِ لَدَيْنَا لَعَلِيَّ حَكِيمٌ﴾ [الزخرف: ١ - ٤].
وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِّسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠٣].

وقال جلَّ وعزَّ: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ . وَإِنَّهُ لَفِي زُبْرِ الْأَوَّلِينَ . أَوَّلَمْ يَكُنْ لَهُمْ آيَةٌ أَنْ يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ . وَلَوْ نَزَّلْنَاهُ عَلَى بَعْضِ الْأَعْجَمِينَ . فَقَرَأَهُ عَلَيْهِمْ مَا كَانُوا بِهِ مُؤْمِنِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٩].

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ ضَرَبْنَا لِلنَّاسِ فِي هَذَا الْقُرْآنِ مِنْ كُلِّ مَثَلٍ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ . قُرْآنًا عَرَبِيًّا غَيْرَ ذِي عِوَجٍ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ﴾ [الزمر: ٢٧ - ٢٨].
وقال سبحانه: ﴿حَمَّ . تَنْزِيلُ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا فَأَعْرَضَ أَكْثَرُهُمْ فَهُمْ لَا يَسْمَعُونَ﴾ [فصلت: ١ - ٤].

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا أَعْجَمِيًّا لَقَالُوا لَوْلَا فُصِّلَتْ آيَاتُهُ أَعْجَمِيٌّ وَعَرَبِيٌّ قُلْ هُوَ لِلَّذِينَ آمَنُوا هُدًى وَشِفَاءٌ وَالَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ فِي آذَانِهِمْ وَقْرٌ وَهُوَ عَلَيْهِمْ عَمًى . . .﴾ [فصلت: ٤٤].

فأخبر تعالى أن القرآن الذي نزل به جبريل عليه السلام منه تبارك وتعالى وحيه وتنزيله، وهو هذا القرآن العربي الذي أنزل على محمد ﷺ

بلغه قومه، ليفقهوه ويعقلوه ويعلموه.

وقوله: ﴿لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ أي: بلغة العرب.

فالله تعالى تكلم به كذلك، بحروفه العربية، كالألف والباء والتاء، ليس شيء من ذلك قول أحد سواه، وإنما بلغه جبريل عليه السلام عنه، وبلغه محمد ﷺ عن جبريل، وهو الذي أعجز الكفار أن يأتوا بمثله، بل تحدى الله تعالى الإنس والجن أن يأتوا بمثله، كما قال تعالى: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا﴾ [الإسراء: ٨٨].

فكونه مؤلفاً من الحروف ظاهر لا يحتاج إلى استدلال، إذ أن كل أحد يعلم أن ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ آية، وهي أربع كلمات، كل كلمة مؤلفة من حرفين أو أكثر، وهي كلمات عربية، وحروف عربية.

ولكن بعض أهل البدع نازع في إطلاق لفظ (الحرف) وأنه يحتاج إطلاقه إلى دليل.

وهذا المنازع لا يخلو من أحد حالين:

إما أن يكون مكابراً - كما هي سمة أهل البدع -.

وإما أن يكون غيباً جاهلاً.

وذلك أن كل أحد يبصر (آلَم . الأمر . كهيعص . حم . طه . يس) لا يخطر بباله غير أنها حروف، وليس لها تسمية إلا هذه.

ونحن مع ذلك نزيده حجباً على صحة إطلاق هذه التسمية من السنة وآثار السلف، لنكسر أنف كبيره، أو نمحو جهل فكره، فمن ذلك:

١ - حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال :

بينما جبريلُ قاعدٌ عندَ النبيِّ ﷺ سَمِعَ نَقِيضاً مِنْ فَوْقِهِ ، فَرَفَعَ رَأْسَهُ فَقَالَ :

« هَذَا بَابٌ مِنَ السَّمَاءِ فَتُخَ الْيَوْمَ لَمْ يُفْتَحْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَتَنَزَلَ مِنْهُ مَلَكٌ ، فَقَالَ : هَذَا مَلَكٌ نَزَلَ إِلَى الْأَرْضِ لَمْ يَنْزَلْ قَطُّ إِلَّا الْيَوْمَ ، فَسَلَّمَ وَقَالَ : أَبَشِّرْ بَنُورَيْنِ أُوتِيَتْهُمَا لَمْ يُوْتَهُمَا نَبِيٌّ قَبْلَكَ : فَاتِحَةُ الْكِتَابِ ، وَخَوَاتِيمِ سُورَةِ الْبَقَرَةِ ، لَنْ تَقْرَأَ بِحَرْفٍ مِنْهُمَا إِلَّا أُعْطِيَتهُ » (٢١) .

٢ - حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال :

« تَعْلَمُوا الْقُرْآنَ ، فَإِنَّهُ يُكْتَبُ بِكُلِّ حَرْفٍ مِنْهُ عَشْرُ حَسَنَاتٍ ، وَكَفَّرُ بِهِ عَشْرُ سَيِّئَاتٍ ، أَمَا إِنِّي لَا أَقُولُ : ﴿ آلَمْ ﴾ وَلَكِنْ أَقُولُ : أَلْفُ عَشْرٍ ، وَلَا مِمْ عَشْرٍ ، وَمِمْ عَشْرٌ » (٢٢) .

(٢١) حديث صحيح .

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ رَقْمَ (٨٠٦) وَالنَّسَائِيُّ ١٣٨/٢ وَفِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» - مِنْ «الْكَبْرِى» - رَقْمَ (٣٩ ، ٤٠) وَابْنُ نَصْرِ فِي «قِيَامِ اللَّيْلِ» ص : ١٤٢ - ١٤٣ وَابْنُ جَبَّانٍ فِي «صَحِيحِهِ» رَقْمَ (٧٦٦) وَالْحَاكِمُ ٥٥٨/١ - ٥٥٩ مِنْ طَرِيقِ عُمَارِ بْنِ زُرَيْقٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عِيسَى عَنْ سَعِيدِ بْنِ جُبَيْرٍ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِهِ .

قَالَ الْحَاكِمُ : «حَدِيثٌ صَحِيحٌ عَلَى شَرْطِ الشَّيْخَيْنِ وَلَمْ يَخْرُجْهُ هَكَذَا ، إِنَّمَا أَخْرَجَ مُسْلِمٌ هَذَا الْحَدِيثَ . . . مُخْتَصَرًا ، وَأَقْرَأَهُ الذَّهَبِيُّ .

قُلْتُ : بَلْ هُوَ بِتَمَامِهِ عِنْدَ مُسْلِمٍ .

(٢٢) حديث صحيح .

أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي شَيْبَةَ ٤٦١/١٠ مِنْ طَرِيقِ قَيْسِ بْنِ سَكَنٍ عَنْ عَبْدِ اللَّهِ بِهِ مَوْقُوفًا .

٣ - وقول ابن عباس رضي الله عنه :

«ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه، أو من حاجته، إلى أهله، أن يقرأ القرآن فيكون له بكل حرف عشر حسنة» (١٣).

٤ - وقال شعيب بن الحباب (ثقة من صغار التابعين) :

كان أبو العالية إذا قرأ عنده رجل لم يقل : ليس كما يقرأ، وإنما يقول : أما أنا فقرأ كذا وكذا، قال : فذكرت ذلك لإبراهيم النخعي، فقال : أرى صاحبك قد سمع : «أن من كفر بحرف منه، فقد كفر به كله» (٢٤).

* وأما كلامه تعالى بصوت، فقد قامت الدلائل القواطع على إثباته، وهو كسائر صفاته تعالى، كما أنها لا تشبه صفات المخلوقين، فصوته تعالى لا يشبه أصواتهم، وقياس الخالق على المخلوق تشبيه، والله تعالى ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ في ذاته، وجميع صفاته.

والأدلة على إثبات كلام الله تعالى بصوت كثيرة، منها :

١ - تكليمه تعالى لموسى عليه السلام، فإنه قال له : ﴿فَاسْتَمِعْ لِمَا

وسنده صحيح .

وروي من غير هذا الوجه عن عبدالله مرفوعاً وموقوفاً، والصواب وقفه مع أن له حكم الرفع كما لا يخفى، وشرحت ذلك في تعليقي على «مناظرة ابن قدامة في مسألة القرآن»، وفي آخر تحقيقي لكتاب «الرد على من يقول (الم حرف)».

(٢٣) رواه ابن المبارك في «الزهد» رقم (٨٠٧) وسنده جيد.

(٢٤) رواه ابن أبي شيبة ١٠/٥١٣ - ٥١٤ وابن جرير في «التفسير» رقم (٥٦)

وسنده صحيح .

يُوحَى ﴿طه : ١٣﴾ .

فَذَلَّ هَذَا عَلَى أَنَّهُ سَمِعَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَلَا يُسْمَعُ إِلَّا الصَّوْتُ ،
وَرَيْنَا تَعَالَى قَدْ خَاطَبَنَا بِاللُّسَانِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي نَفْهَمُهُ ، وَلَيْسَ فِيهِ سَمَاعٌ
يَحْصُلُ مِنْ غَيْرِ صَوْتٍ (٢٥) .

وَسَبَقَ أَنْ بَيَّنَّا أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ لِمُوسَى كَانَ أَعْلَى دَرَجَاتِ التَّكْلِيمِ ، وَلَيْسَ
هُوَ مِنْ جَنْسِ الْإِلْهَامَاتِ ، وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مَسْمُوعٌ بِالْأَذَانِ .

وَقَدْ قَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ : سَأَلْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ عَنْ قَوْمٍ
يَقُولُونَ : لَمَّا كَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى لَمْ يَتَكَلَّمْ بِصَوْتٍ ؟ فَقَالَ أَبِي :

«بَلَى ، إِنَّ رَبَّكَ عَزَّ وَجَلَّ تَكَلَّمَ بِصَوْتٍ ، هَذِهِ الْأَحَادِيثُ نَرُويهَا كَمَا
جَاءَتْ» (٢٦) .

وَاحْتِجَّ لِذَلِكَ بِحَدِيثِ ابْنِ مَسْعُودٍ الْآتِي .

وَقَالَ الْإِمَامُ أَبُو بَكْرٍ الْمَرْوُذِيُّ صَاحِبُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ : سَمِعْتُ أَبَا
عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدَ - وَقِيلَ لَهُ : إِنَّ عَبْدَ الْوَهَّابِ قَدْ تَكَلَّمَ وَقَالَ : مَنْ زَعَمَ
أَنَّ اللَّهَ كَلَّمَ مُوسَى بِلا صَوْتٍ فَهُوَ جَهْمِيٌّ عَدُوُّ اللَّهِ وَعَدُوُّ الْإِسْلَامِ ، فَتَبَسَّمَ
أَبُو عَبْدِ اللَّهِ وَقَالَ : «مَا أَحْسَنَ مَا قَالَ ، عَافَاهُ اللَّهُ» (٢٧) .

وَقَالَ عَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ أَيْضاً : قُلْتُ لِأَبِي : إِنَّ هَهُنَا مَنْ يَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ
لَا يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ ، فَقَالَ : «يَا بُنَيَّ ، هَؤُلَاءِ جَهْمِيَّةٌ زَنَادِقَةٌ ، إِنَّمَا يَدُورُونَ عَلَى

(٢٥) انظر : «درء تعارض العقل والنقل» ٩٣/٢ .

(٢٦) رواه عبد الله في «السنة» رقم (٥٣٣) عنه .

(٢٧) رواه الخلال عن المروزي به - كما في «درء التعارض» ٣٨/٢ - ٣٩ - .

التعطيل» وذكر الآثار في خلاف قولهم^(٢٨).

٢ - إخباره تعالى عن نداءه لموسى عليه السلام، ولعباده يوم القيامة.

وذلك في عدة مواضع من كتابه، منها:

قوله تعالى: ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ مُوسَى . إِذْ نَادَاهُ رَبُّهُ بِالْوَادِ الْمُقَدَّسِ طُوًى﴾ [النازعات: ١٥ - ١٦].

وقوله تعالى: ﴿وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ وَقَرْنَاهُ نَجِيًّا﴾ [مريم: ٥٢].

وقوله تعالى: ﴿فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى﴾ [طه: ١١].

وقوله جلَّ وعزَّ: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ مَاذَا أَجَبْتُمُ الْمُرْسَلِينَ﴾ [القصص: ٦٥].

وقوله تعالى: ﴿وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ فَيَقُولُ أَيْنَ شُرَكَائِيَ الَّذِينَ كُنتُمْ تَزْعُمُونَ﴾ [القصص: ٦٢، ٧٤].

والنداء: قال الجوهري: «الصَّوْتُ، وقد يُضَمُّ، مثل: الدُّعَاءُ، والرُّغَاءُ، وناداه مُنَادَاةً، ونداءً، أي: صاح به»^(٢٩).

وفي «اللسان»: «النداء - ممدود - الدُّعَاءُ بأَرْفَعِ الصَّوْتِ، وقد نادَيْتُهُ

(٢٨) ذكر هذا النص شيخ الإسلام - كما في «مجموع الفتاوى» ٣٦٨/١٢ - ونسبه إلى «كتاب السنة» لعبدالله، ولم أقف عليه فيه، فلعله وقع له في نسخة.

(٢٩) «الصحاح» مادة (ندا).

نداء» (٣٠).

وقال شيخ الإسلام: «والنداء في لغة العرب: هو صوت رفيع، لا يطلق النداء على ما ليس بصوت، لا حقيقة ولا مجازاً» (٣١).

قلت: ما قاله شيخ الإسلام موافق لما حكته عن أهل اللغة من أن النداء الصوت الرفيع.

فإذا علم هذا ثبت أن الله تعالى نادى موسى بصوت، وينادي بصوت عباده يوم القيامة.

٣ - حديث عبدالله بن أنيس رضي الله عنه قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول:

«يَخْشُرُ الله العباد - أو الناس - عِراءَ غُرْلًا بُهْمًا».

قلنا: ما بُهْمًا؟ قال:

«لَيْسَ مَعَهُمْ شَيْءٌ، فَيُنَادِيهِمْ بِصَوْتٍ يَسْمَعُهُ مَنْ بَعْدَ - أَحْسَبُهُ قَالَ: كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قُرْبَ - : أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّيَّانُ...» الحديث (٣٢).

وهذا الحديث صريح في إثبات كلام الرب تعالى بصوت، وقد احتج به على ذلك إمام أهل الحديث محمد بن إسماعيل البخاري رحمه الله، فقال:

(٣٠) «اللسان» مادة (ندي).

(٣١) «مجموع الفتاوى» ٥٣١/٦.

(٣٢) حديث حسن، وقد سبق سياقه بتمامه وتخريجه في المبحث الرابع.

«وإنَّ اللهَ عَزَّ وَجَلَّ يُنَادِي بِصَوْتٍ، يَسْمَعُهُ مَنْ بُعِدَ كَمَا يَسْمَعُهُ مَنْ قَرُبَ، فليسَ هَذَا لغيرِ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ، وفي هَذَا دَلِيلٌ أَنَّ صَوْتَ اللهِ لَا يَشْبَهُ أَصْوَاتَ الْخَلْقِ، لِأَنَّ صَوْتَ اللهِ جَلَّ ذِكْرُهُ يُسْمَعُ مِنْ بُعْدٍ كَمَا يُسْمَعُ مِنْ قُرْبٍ . . . » ثُمَّ أَسْنَدَ الْحَدِيثَ (٣٣).

٤ - حديث أبي هريرة رضي الله عنه أَنَّ نَبِيَّ الله ﷺ قَالَ :
«إِذَا قَضَى اللهُ الْأَمْرَ فِي السَّمَاءِ ضَرَبَتِ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا خُضْعَاناً لِقَوْلِهِ، كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ، فَإِذَا فُزَّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا: مَاذَا قَالَ

(٣٣) «خلق أفعال العباد» ص: ١٤٩.

ولقد أبى بعضُ أهل البدع الاحتجاجَ بهذا الحديث على إثبات الصوت لله تعالى، وأَوَّلُهُ بِأَنَّهُ مِنْ مَجَازِ الْحَذَفِ، والتقدير: يأمر من ينادي.
- وهذا باطلٌ من أوجه:

الأول: أَنَّ الْأَصْلَ فِي الْإِطْلَاقِ الْحَقِيقَةَ، وَهَذَا رُبَّمَا وَافَقْنَا فِيهِ الْمُبْتَدِعَ فِي مَوَاضِعٍ أُخْرَى.

والثاني: أَنَّ التَّقْدِيرَ إِنَّمَا يُصَارُ إِلَيْهِ فِي أَحَدِ حَالَيْنِ:
- دلالة القرينة.

- عدم استقامة السياق.

وكلاهما مُتَتَّفِعٌ هُنَا، فَلَا قَرِينَةَ تَدْعُو إِلَى هَذَا التَّقْدِيرِ سِوَى التَّنْزِيهِ فِي دَعْوَى الْمُبْتَدِعِ، وَهُوَ عِنْدَنَا غَيْرُ مُتَتَّفِعٍ، وَشَأْنُهَا كَسَائِرِ صِفَاتِ الْبَارِي تَعَالَى، تَنْبِئُهَا مَعَ التَّنْزِيهِ.

وَأَمَّا السِّيَاقُ فَهُوَ مُسْتَقِيمٌ لَا اضْطِرَابَ فِيهِ، وَيُؤَكِّدُهُ الْوَجْهُ الْآتِي.

والثالث: أَنَّهُ خُرُوجٌ عَنِ الظَّاهِرِ بِغَيْرِ بَرَهَانٍ، بَلْ إِنَّ الْبَرَهَانَ ضِدُّهُ، أَلَا تَرَاهُ قَالَ:
«أَنَا الْمَلِكُ، أَنَا الدِّينَ . . . ؟» فَهَلْ يُنَاسِبُ أَنْ يَكُونَ هَذَا كَلَاماً لغيرِ الله مِنْ مَلِكٍ أَوْ غَيْرِهِ؟

رَبُّكُمْ؟ قَالُوا لِلَّذِي قَالَ: الْحَقُّ، وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ» (٣٤).

وفي لفظ:

«إِنَّ اللَّهَ إِذَا قَضَى أَمْرًا فِي السَّمَاءِ، ضَرَبَتْ الْمَلَائِكَةُ بِأَجْنِحَتِهَا جَمِيعًا، وَلِقَوْلِهِ صَوْتُ كَصَوْتِ السَّلْسِلَةِ عَلَى الصِّفَا الصَّفْوَانِ، فَذَلِكَ قَوْلُهُ: ﴿حَتَّى إِذَا فُزِّعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ قَالُوا مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ قَالُوا الْحَقُّ وَهُوَ الْعَلِيُّ الْكَبِيرُ﴾ [سبأ: ٢٣]» (٣٥).

ووجه الاستدلال بهذا اللفظ ظاهر، وذلك أَنَّ قَوْلَهُ: «ولِقَوْلِهِ صَوْتُ كَصَوْتِ السَّلْسِلَةِ» صَرِيحٌ فِي أَنَّ قَوْلَهُ تَعَالَى وَكَلَامَهُ يَكُونُ بِصَوْتٍ.

وَأَمَّا اللفظ الأولُ فَإِنَّ الضَّمِيرَ فِي قَوْلِهِ: «كَأَنَّهُ سِلْسِلَةٌ» عَائِدٌ إِلَى أَقْرَبِ مَذْكُورٍ، وَهُوَ قَوْلُهُ: «لِقَوْلِهِ» فَقَوْلُهُ: «سِلْسِلَةٌ عَلَى صَفْوَانٍ» تَضَمَّنَ إِثْبَاتَ الصَّوْتِ لِلْمُخْبَرِ عَنْهُ الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ، فَيُظْهِرُ بِهَذَا إِثْبَاتُ قَوْلِهِ تَعَالَى وَكَلَامِهِ بِصَوْتٍ.

وَلَكِنَّ بَعْضَ أَهْلِ الْبِدْعِ أَبَوْا ذَلِكَ مِنْ أَجْلِ أَنْ يُبْطَلُوا تَكْلِمَ الرَّبِّ

(٣٤) حديث صحيح.

أَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٣٨٠/٨، ٥٣٧، وَ ٤٥٣/١٣، وَفِي «خُلُقِ أَفْعَالِ الْعِبَادَةِ» رَقْمُ (٤٦٧) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمُ (٣٩٨٩) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمُ (٣٢٢٣) وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمُ (١٩٤) وَابْنُ خُزَيْمَةَ فِي «التَّوْحِيدِ» ص: ١٤٧ مِنْ طَرِيقِ سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ عَنْ عَمْرِو بْنِ دِينَارٍ عَنْ عِكْرَمَةَ - مَوْلَى ابْنِ عَبَّاسٍ - عَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ بِهِ.

وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

(٣٥) أَخْرَجَهُ ابْنُ جَرِيرٍ فِي «التَّفْسِيرِ» ٩١/٢٢ حَدَّثَنَا أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ الصَّمِيِّ

قَالَ: ثَنَا سَفْيَانُ بِإِسْنَادِ الْفَرَزْدَقِ السَّابِقِ، وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ، أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ ثِقَةٍ مَشْهُورٌ.

تعالى بِصَوْتٍ، فقالوا: الضَّمِيرُ في قوله: «كَأَنَّهُ» عائِدٌ على أَجْنَحَةِ الملائكةِ، فَالصَّوْتُ صَوْتُ أَجْنَحَةِ الملائكةِ.

وهذا ظاهرُ البُطلانِ لوجهين:

الأوّل: أَنَّ الضَّمِيرَ في الأَصْلِ يعودُ إلى أَقْرَبِ مذكورٍ.

والثاني: أَنَّهُ ضميرٌ مذكّرٌ، ولو كان عائداً على أَجْنَحَةِ الملائكةِ لكان مؤنثاً.

فإن قيل: هذان الوجهان تصرفهما القرائن!

قلنا: نعم، إن وُجِدَتْ، لكنّها هنا مُتَفَتِيَةٌ، يُوَكِّدُ نَفْيُهَا اللَّفْظُ الثاني لحديث أبي هريرة كما تراه.

والحديثُ ممّا احتجّ به البخاريُّ رحمه الله لإثباتِ تَكَلُّمِ الرَّبِّ تعالى بِصَوْتٍ (٣٦).

٥ - حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال:

«إِنَّ اللَّهَ إِذَا تَكَلَّمَ بِالْوَحْيِ، سَمِعَ أَهْلُ السَّمَاوَاتِ لِلسَّمَاءِ صَلَصلةً كَجَرِّ السُّلْسَلَةِ عَلَى الصِّفَاءِ، فَيُضْعَقُونَ، فَلَا يَزَالُونَ كَذَلِكَ حَتَّى يَأْتِيَهُمْ جِبْرِيلُ، فَإِذَا جَاءَهُمْ جِبْرِيلُ فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ، قَالَ: فَيَقُولُونَ: يَا جِبْرِيلُ، مَاذَا قَالَ رَبُّكَ؟ قَالَ: الْحَقُّ» (٣٧).

(٣٦) «خلق أفعال العباد» ص: ١٥١.

(٣٧) حديث صحيح.

أخرجه ابن خزيمة في «التوحيد» ص: ١٤٦، ١٤٧ وابن جرير ٩٠/٢٢ وعبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٥٣٧) والبيهقي في «الأسماء والصفات» وغيرهم =

وفي لفظ عن عبدالله قال :

«إِذَا تَكَلَّمَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ بِالْوَحْيِ سَمِعَ صَوْتَهُ أَهْلُ السَّمَاءِ، فَيَخِرُّونَ سُجْدًا ﴿حَتَّى إِذَا فُزِعَ عَنْ قُلُوبِهِمْ﴾ قال : سَكَنَ عَنْ قُلُوبِهِمْ - نادى أَهْلُ السَّمَاءِ : ﴿مَاذَا قَالَ رَبُّكُمْ؟ قَالُوا: الْحَقُّ...﴾ قال : كَذَا وَكَذَا» (٣٨).

وهذا الحديث مما احتج به الإمام أحمد لإثبات كلام الرب تعالى بصوت.

قال ابنه عبدالله، قال أبي رحمه الله :

= من طريق أبي الضحى عن مسروق عن عبدالله به موقوفاً، وسنده صحيح .
وقد روي مرفوعاً، والصواب وقفه كما شرحته في التعليق على «مناظرة ابن قدامة».

(٣٨) حديث صحيح .

أخرجه عبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (٥٣٦) والخلال - كما في «درء التعارض» ٣٨/٢ - عن الإمام أحمد : نا عبدالرحمن بن محمد المحاربي عن الأعمش عن مسلم عن مسروق عن عبدالله به .
قلت : وهذا إسناد جيد، المحاربي ثقة جيد الحديث، وباقي الإسناد ثقات معروفون، ومسلم هو ابن صبيح أبو الضحى .

وقد أعل بعضهم الإسناد بعننة المحاربي بدعوى أنه مدلس، وهذا قول غير محقق، وذلك لأن المحاربي إنما وصفه بالتدليس ممن يعتمد قوله : الإمام أحمد، وهو إنما احتج لذلك بما يرويه عن معمر فإنه لم يسمع منه، وهذا النوع وإن كان يسمى إرسالاً إلا أن الكثير من الأئمة كانوا يطلقون عليه وصف التدليس، لأن فيه مشابهة له من بعض الوجوه، فيغلط في فهمه كثير من متأخري الطلبة .
ومن أقوى ما يعضد به الإسناد، أن الإمام أحمد نفسه احتج به لمذهب أهل الحق في إثبات صفة الصوت .

«حديث ابن مسعود رضي الله عنه : إذا تكلم الله عز وجل سمع له صوت كجبر السلسلة على الصفوان».

قال أبي : «وهذا الجهمية تنكره».

وقال أبي : هؤلاء كفار، يريدون أن يموهوا على الناس ، من زعم أن الله عز وجل لم يتكلم فهو كافر، إلا أنا نروي هذه الأحاديث كما جاءت» (٣٩).

قلت : فهذه الأدلة كافية - لمن استهدى - لإثبات صفة تكلم الرب تعالى بصوت، ونمير ذلك كما جاء ، فلا نكيّفه ، ولا نشبهه بصوت المخلوق، ونقول : هو صوت على الحقيقة، ونبرأ إلى الله تعالى من بدع المبتدعين، الذين لم يعرفوا من الأدلة إلا الآراء المذمومة، والظنون الفاسدة، المخرومين من نور الكتاب والسنة وهذي خير القرون من السلف والأئمة.

قال شيخ الإسلام : «واستفاضت الآثار عن النبي ﷺ، والصحابة، والتابعين، ومن بعدهم من أئمة السنة، أنه سبحانه يُنادي بصوت، نادى موسى، ويُنادي عباده يوم القيامة بصوت، ويتكلم بالوحي بصوت، ولم يُنقل عن أحد من السلف أنه قال : إن الله يتكلم بلا صوت، أو بلا حرف، ولا أنه أنكر أن يتكلم الله بصوت، أو بحرف» (٤٠).

(٣٩) رواه عبد الله بن أحمد في «السنة» رقم (٥٣٤)، ونحوه روى الخلأل عن يعقوب بن بختان - أحد الثقات من أصحاب أحمد - عن أحمد - كما في «درء التعارض» ٣٨/٢ -.

(٤٠) «مجموع الفتاوى» ١٢/٣٠٤ - ٣٠٥.

وقال: «وليس في الأئمة والسلف من قال: إن الله لا يتكلم بصوت، بل قد ثبت عن غير واحد من السلف والأئمة أن الله يتكلم بصوت، وجاء ذلك في آثار مشهورة عن السلف والأئمة، وكان السلف والأئمة يذكرون الآثار التي فيها ذكر تكلم الله بالصوت ولا يتكرها منهم أحد»^(٤١).

وقال الحافظ أبو نصر السجزي: «وليس في وجود الصوت من الله تعالى تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له كلام من خلقه»^(٤٢).

تنبيهان:

الأول: الفرق بين الحروف التي يتكلم الله بها، والحروف التي يتكلم بها المخلوق.

تنازع الناس في حروف المعجم: هل هي مخلوقة؟ أو غير مخلوقة؟ وليس في تحقيق ذلك كبير فائدة، وليس فيه نص عن معصوم يُصار إليه، وإنما يجب الكف عن إطلاق القول بالخلق لثلاث متوهم أن الحروف التي تكلم الله بها مخلوقة.

وذكر شيخ الإسلام في غير موضع أن الإمام أحمد أنكر الإطلاق، لأنه مسلك إلى البدعة، وإلى القول بأن القرآن مخلوق^(٤٣).

وكما يُمنع من إطلاق القول بأن الحروف مخلوقة، يُمنع أيضاً

(٤١) «مجموع الفتاوى» ٥٢٧/٦، وانظر: ٢٤٤.

(٤٢) «درء تعارض العقل والنقل» ٩٣/٢.

(٤٣) انظر: «مجموع الفتاوى» ٤١/١٢، ٨٤ - ٨٥، ٤٤٢.

إطلاق القول بأن الحروف غير مخلوقة، لئلا يتوهم متوهم أن الحروف التي هي مباني كلام الناس غير مخلوقة، والذي يجبر إلى القول بأن ما يتكلم به العباد من كلام أنفسهم هو نفسه كلام الله، فيتحقق حينئذ للملاحدة كابن عربي الطائي وأمثاله صحة قولهم:

وكلُّ كلامٍ في الوجود كلامُهُ سواء علينا نثرُهُ ونظامُهُ
وهذا القول من أفحش الباطل، وأكفر الكُفر، إذ معناه أن كل ما تلفظ به الخلائق من الصدق والكذب، والزور، والبُهتان، وألفاظ الخنا والفجور والكُفر، كلام الله.

وحينئذ لا يتميز حق من باطل، ولا صدق من كذب ولا كفر من إيمان.

وإنما الحق والصواب أن يُقال:

إن الحرف المجرد الذي هو جزء من اللفظ، مثل: (ز) من كلمة: (زيد) لا يُقال فيه مخلوق ولا غير مخلوق، لأن الحرف المجرد ليس كلاماً، وإنما يقع الكلام فيما أُلِفَ من الحروف فأفاد معنى، ككلمة (زيد) اسم علم معروف^(٤٤).

(٤٤) فإن اعترض معترض بقوله تعالى: ﴿الْم﴾، ﴿الر﴾، ﴿ص﴾، ﴿ن﴾، وما يشبهها مما جاء في أوائل بعض السور، وقال: إنها حروف، ونطلق أنها غير مخلوقة لأنها كلام الله، فالجواب: أن هذه ليست حروفاً مجردة، كحروف كلمة (زيد) وغيرها من الكلام المؤلف، وإنما هي أسماء للحروف، ألا ترى أنك تقرؤها: (ألف، لام، ميم...)؟ فلو كان حرفاً مجرداً لقلت: (أ. ل. م) فهي على ما تلفظ وتسمع لا على ما تُكتب وترسم، وقد نقل شيخ الإسلام أن الخليل بن أحمد - إمام العربية - سأل =

والكلام المؤلف من الحروف الذي يُفِيدُ معنى يُفَصِّلُ فيه : فإن كان كلاماً لله تعالى كان غير مخلوق، وإن كان كلاماً للعبد يُنشِئُه من تلقاء نفسه، ولا يُريدُ به قراءة كلام الله فهو مخلوق، فقولُه تعالى : ﴿ فَلَمَّا قُضِيَ زَيْدٌ مِنْهَا وَطَرًا... ﴾ [الأحزاب : ٣٧] غيرُ مخلوق، وقولك : (جاءني زيد فأكرمتُه) مخلوق، لأنَّ الأوَّلَ كلامُ الله تعالى نظمُه وحروفُه، والثاني كلامُكَ نظمُه وحروفُه.

ولو قال قائلٌ : (محمَّدُ رسولُ الله) أو : (ألف، لام، ميم) لم يصحَّ فيه إطلاقُ أنَّه مخلوق، أو غيرُ مخلوق، حتى يُستَفَصَّلَ منه، فإنَّ أرادَ به قراءةَ كلامِ الله كانَ غيرَ مخلوقٍ، وإنَّ كان أنشأه مبتدئاً من نفسه، أو يُبلِّغُه عن غيره، وهو من إنشاءِ ذلك الغيرِ سوى الله تعالى، كانَ مخلوقاً.

وقد سألَ الحافظُ الثَّقَّةُ أحمدُ بنُ الحَسَنِ الترمذِيُّ الإمامَ أحمدَ فقال :

قلتُ لأحمدَ بنِ حنبلٍ : إنَّ الناسَ قد وقَّعوا في أمرِ القرآنِ، فكيف أقولُ؟

قال : «أليسَ أنتَ مخلوقٌ؟».

قلتُ : نعم.

قال : «فكلامُكَ منك مخلوقٌ؟».

قلتُ : نعم.

= أصحابه : كيف تنطقون بالراء من (زيد)؟ قالوا : نقول : (زا) قال : جَسَمَ بالاسم، وإنما يقال : (زه) - «مجموع الفتاوى» ٤٤٨/١٢ - .

قال: «أَوَلَيْسَ الْقُرْآنُ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ؟» .

قلت: نعم .

قال: «وَكَلَامُ اللَّهِ؟» .

قلت: نعم .

قال: «فَيَكُونُ مِنَ اللَّهِ شَيْءٌ مَخْلُوقٌ؟» (٤٥) .

فتأمل هذا القول الموجز فإنه من أسدِّ الكلام وأحسِّنه، فرَّق الإمام أحمدُ فيه بينَ كلامِ الله وكلامِ المَخْلُوق، بأنَّ كلامَ الله هو الذي قاله مبتدئاً، وكلامَ المَخْلُوق هو الذي قاله مبتدئاً، فلَمَّا كان كلامُ الله ابتداءً منه كانَ غيرَ مَخْلُوقٍ، لأنَّهُ ليسَ من الله شيءٌ مَخْلُوقٌ، ولَمَّا كانَ كلامُ المَخْلُوق ابتداءً منه - بمعنى أنه هو الذي أنشأه - كانَ مَخْلُوقاً، لأنَّ العبدَ بأفعاله جميعاً مَخْلُوقٌ .

التنبيه الثاني: الصَّوْتُ المسموعُ من القارىء وهو يتلو كلامَ الله، هو صَوْتُ القارىء، لا صَوْتُ الله تعالى، كما نصَّ عليه الأئمةُ كأحمدَ وغيره (٤٦) .

وذلك أنَّ صوتَ العبدِ إنما هو فعلُهُ القائمُ به، وأفعاله جميعاً مضافةٌ إليه مخلوقةٌ كخَلْقِهِ، لكنَّ المسموعَ بصَوْتِهِ، الذي نطقَ به لسانُهُ، وتحركتْ به شفتاهُ، كلامُ الله تعالى .

(٤٥) رواه اللالكائي في «السُّنَّة» رقم (٤٥١) بسند صحيح .

(٤٦) ذكر ذلك شيخ الإسلام في «درء التعارض» ٤٠/٢ .

والدليل على ذلك قول النبي ﷺ: «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ»^(٤٧).
فأضاف النبي ﷺ الأصوات إلى القراء، لأنها اكتسابهم وفعلهم،
وفرق بينها وبين القرآن الذي هو كلام الله وحيه وتنزيله، الذي لا يكون
من التالي سوى قراءته وأدائه وتبليغه.

فالقرآن كلام الله مضاف إليه تعالى لأنه منه، لا يُضاف للتالي لأنه
أداه بصوته وحركته، شأن كل كلامٍ سواه يُبلغه الواحد منّا، فإنه إنما يُضاف
إلى مَنْ قاله مُبتدئاً.

فقولك: «إنما الأعمال بالنيات، وإنما لكل امرئ ما نوى»^(٤٨)، يُبلغه
أنت بصوتك وحركتك، وليس لك من نظمه شيء، إنما هو كلام النبي ﷺ
بلفظه ومعناه، ولو قلت: هو كلامي، لكذبك من يسمعك، إذ ليس لك من
ذلك إلا التبليغ والأداء.

(٤٧) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٢٨٣/٤، ٢٨٥، ٢٩٦، ٣٠٤، وأبو داود رقم (١٤٦٨)
والنسائي ١٧٩/٢ وفي «فضائل القرآن» - من «الكبرى» - رقم (٧٥) وابن ماجه رقم
(١٣٤٢) والبخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٢٥٠ - ٢٥٤، ٢٥٦) والدارمي رقم
(٣٥٠٣) وابن حبان رقم (٧٣٧) والحاكم ٥٧١/١، ٥٧٢، ٥٧٣، ٥٧٤، ٥٧٥
وغيرهم من طريق عبد الرحمن بن عوسجة عن البراء بن عازب به مرفوعاً.
وهو مروي من طرق أخرى عنه، وعن غيره من الصحابة، خرجتها في غير هذا
الموضع.

وشد بعض رواه فقلب المتن: «زَيَّنُوا أَصْوَاتَكُمْ بِالْقُرْآنِ» وهو خطأ.
(٤٨) حديث صحيح معروف، أخرجه الشيخان في «صحيحيهما» من حديث
عمر رضي الله عنه.

فكذلك كلامُ الله تعالى إذا تلاه التالي ، وقرأه القارىء .

قال الله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ...﴾ [التوبة : ٦] فأضاف الكلام إلى نفسه ، لأنه هو الذي ابتداءً نظمَهُ بحروفِهِ ومعانيهِ ، يسمعه المُشرك بأذنيه بصوتِ القارىء ، فإنه إنما يسمع كلامَ الله من القارىء .



المبحث الثامن

كلام الله تعالى بمشيئته واختياره

يَعْتَقِدُ السَّلَفُ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَّصِفُ بِالصِّفَاتِ الْاِخْتِيَارِيَّةِ، كَالْكَلَامِ، وَالنَّدَاءِ، وَالرِّضَا، وَالْغَضَبِ، وَالْحُبِّ، وَالْبُغْضِ، وَالرَّحْمَةِ، وَالرَّأْفَةِ، وَالْاِنْتِقَامِ، وَالْاِتْيَانِ، وَالنُّزُولِ، وَالْاِسْتِوَاءِ عَلَى الْعَرْشِ، وَالْخَلْقِ، وَالرِّزْقِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ مِنْ صِفَاتِهِ الْعَلِيَّةِ الَّتِي تَقُومُ بِمَشِيئَتِهِ وَاِخْتِيَارِهِ، وَمَعْنَى تَعَلُّقِهَا بِمَشِيئَتِهِ وَاِخْتِيَارِهِ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَلَا يَزَالُ رَحِيمًا إِذَا شَاءَ، وَلَا يَزَالُ خَالِقًا إِذَا شَاءَ، وَهَكَذَا، فَالْصِّفَةُ ثَابِتَةٌ لَهُ تَعَالَى فِي الْأَزَلِ، وَهِيَ مُتَعَلِّقَةٌ بِمَشِيئَتِهِ، فَإِنْ شَاءَ تَكَلَّمَ وَإِنْ شَاءَ سَكَتَ^(٤٩)، وَإِنْ شَاءَ

(٤٩) وَصَفَهُ تَعَالَى بِالسَّكُوتِ جَاءَتْ بِهِ السُّنَّةُ، وَجَرَى ذِكْرُهُ فِي كَلَامِ الْأَئِمَّةِ، وَلَا تَعَارُضُ بَيْنَ إِثْبَاتِهِ وَإِثْبَاتِ الْكَلَامِ، لِأَنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ، فَإِنْ شَاءَ تَكَلَّمَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَتَكَلَّمْ، وَهَذَا يَنْقُضُ اعْتِقَادَ أَهْلِ الْبِدْعِ نَقْضًا فِي كَلَامِهِ تَعَالَى، وَذَلِكَ وَاضِحٌ لِمَنْ تَأَمَّلَهُ.

وَأَمَّا الْاِسْتِدْلَالُ لِثُبُوتِ هَذِهِ الصِّفَةِ مِنَ السُّنَّةِ وَالْأَثَرِ:

١ - فَحَدِيثُ أَبِي الدَّرْدَاءِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ رَفَعَ الْحَدِيثَ قَالَ:

«مَا أَحَلَّ اللَّهُ فِي كِتَابِهِ فَهُوَ حَلَالٌ، وَمَا حَرَّمَ فَهُوَ حَرَامٌ، وَمَا سَكَتَ عَنْهُ فَهُوَ عَافِيَةٌ، فَاقْبَلُوا مِنَ اللَّهِ عَافِيَّتَهُ، فَإِنَّ اللَّهَ لَمْ يَكُنْ نَسِيًّا» ثُمَّ تَلَا هَذِهِ الْآيَةَ: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ =

= نَسِيًّا [مريم : ٦٤].

حديث صحيح .

أخرجه البزار رقم (٢٢٣١) - كشف الأستار وابن أبي حاتم - كما في «تفسير ابن كثير» ٤/٤٧٤ - والدارقطني ٢/١٣٧ والحاكم ٢/٣٧٥ والبيهقي ١٠/١٢ من طريق عاصم بن رجاء بن حيوة عن أبيه عن أبي الدرداء به .

قال البزار: «إسناده صالح» .

وقال الحاكم: «صحيح الإسناد» وأقره الذهبي .

قلت: إسناده جيد، عاصم بن رجاء صدوق جيد الحديث، وأبوه ثقة مشهور

روى عن أبي الدرداء .

وللحديث شاهد من حديث أبي ثعلبة الخشني وغيره يرتقي به إلى الصحة .

٢ - وحديث عبد الله بن عباس رضي الله عنهما قال :

كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء، ويتركون أشياء تقدرأ، فبعث الله تعالى نبيه ﷺ، وأنزل كتابه، وأحلّ حلاله، وحرم حرامه، فما أحلّ فهو حلال، وما حرم فهو حرام، وما سكّت عنه فهو عفو، وتلا: ﴿قُلْ لَا أَجِدُ فِي مَا أُوحِيَ إِلَيَّ مُحَرَّمًا...﴾ إلى آخر الآية [الأنعام : ١٤٥] .

حديث صحيح .

أخرجه أبو داود رقم (٣٨٠٠) والحاكم ٤/١١٥ من طريق محمد بن شريك

المكي عن عمرو بن دينار عن أبي الشعثاء عن ابن عباس به .

قلت: وهذا سند صحيح، وقد صحّحه الحاكم وأقره الذهبي .

والأئمة والفقهاء منذ القرون الأولى يقولون: هذا تكلم به الشارع، وهذا

سكت عنه الشارع، ويقولون: دلالة المنطوق، ودلالة المسكوت، والشارع هو الله

تعالى، ورسوله ﷺ .

قال شيخ الإسلام: «ثبت بالسنة والإجماع أن الله يوصف بالسكوت»

«مجموع الفتاوى» ٦/١٧٩

خَلَقَ، وَإِنْ شَاءَ لَمْ يَخْلُقْ، وَإِنْ شَاءَ غَضِبَ، وَإِنْ شَاءَ رَضِيَ.

ومن الأدلة الموضحة لذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَاكُمْ ثُمَّ صَوَّرْنَاكُمْ ثُمَّ قُلْنَا لِلْمَلَائِكَةِ اسْجُدُوا لِآدَمَ فَسَجَدُوا...﴾ [الأعراف : ١١].

تضمنت الآية ثلاث صفات : الخلق ، التصوير ، الأمر ، وقد وصف الله بها نفسه ، وهي صفاته قبل خلق الخلق ، متعلقة بمشيئته ، فشاء أن يخلق فخلق ، وبعد الخلق صور ، وبعد التصوير أمر الملائكة بالسجود ، فهي أفعال متعاقبة ، لم يقع تصوير آدم قبل خلقه ، ولا أمر بالسجود للملائكة قبل خلقه وتصويره ، وإنما كان ذلك بعد الخلق والتصوير ، ولا يزال الله تعالى خالقاً ، مصوراً ، آمراً ، إذا شاء .

٢ - وقوله تعالى : ﴿فَلَمَّا آسَفُونَا انتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَأَغْرَقْنَاهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [الزخرف : ٥٥].

فقوم فرعون لما أغضبوا ربهم تعالى انتقم منهم ، لم يقع انتقامه منهم قبل ذلك ، مع أنه لا زال متصفاً بالانتقام من أعدائه ، كما قال : ﴿إِنَّا مِنَ الْمُجْرِمِينَ مُنتَقِمُونَ﴾ [السجدة : ٢٢].

٣ - وقوله تعالى : ﴿ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ اتَّبَعُوا مَا أَسْخَطَ اللَّهَ وَكَرِهُوا رِضْوَانَهُ فَأَحْبَطَ أَعْمَالَهُمْ﴾ [محمد : ٢٨].

فإحباط أعمالهم لم يكن قبل اتباعهم ما أسخط الله وكرهه الله ، فإحباط أعمالهم ، فدل ذلك على أن فعل الإحباط الذي هو صفة الرب تعالى إنما أوقعه الله بعد استحقاق العبد ذلك .

وأمثله هذا لا تدخل تحت الحصر، وهو أمرٌ آتٍ من أن يستدل له،
ولكن أهل البدع أبوا إلا إنكار الحقائق.
وهذا الذي بيناه هو قول السلف.

قال البخاري رحمه الله: «وقال أهل العلم: التخليق فعل الله،
وأفَاعِلُنَا مخلوقة، لقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ
بِذَاتِ الصُّدُورِ. أَلَا يَعْلَمُ مَنْ خَلَقَ...﴾ [الملك: ١٣ - ١٤] يعني:
السِّرَّ والجهر من القول، ففعلُ الله صفةُ الله، والمفعولُ غيره من
الخلق» (٥٠).

قلت: ويجري هذا في سائر أفعاله تعالى، فكل أفعاله تعالى صفاتُ
له، والمخلوق إنما هو مفعولُهُ.

قال شيخ الإسلام: «هو المأثور عن السلف، وهو الذي ذكره
البخاري في خلق أفعال العباد عن العلماء مُطلقاً، ولم يذكر فيه نزاعاً،
وكذلك ذكره البغوي وغيره عن مذهب أهل السنة».

وقال: «وهو قول السلف قاطبة، وجمهور الطوائف...» (٥١).

وكلامُ الله تعالى ونداؤه كذلك، فهو تعالى موصوفٌ بالكلام والنداء
وصفاً أزلياً، متعلقاً بمشيئته واختياره، يتكلم إذا شاء متى شاء، ويُنادي إذا
شاء متى شاء، يتكلم كلاماً بعد كلام، ويُنادي نداءً بعد نداء، وكل ذلك
غير مخلوقٍ لأنه صفةٌ.

(٥٠) «خلق أفعال العباد» ص: ١٨٨.

(٥١) «شرح حديث النزول» ص: ١٥٢.

والأدلة على ذلك كثيرة جداً في الكتاب والسنة والمعقول الموافق لهما.

فمن ذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿ إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [يس : ٨٢].

فهو تعالى يقول لكل ما يريد خلقه وتكوينه : ﴿ كُنْ ﴾ ليكون ، وقوله : ﴿ كُنْ ﴾ كلامه وصفته ، جعله متعلقاً بإرادته ، فمتى يريد تكوين شيء قال : ﴿ كُنْ ﴾ فيكون ، فقوله تعالى : ﴿ وَيَوْمَ يَقُولُ كُنْ فَيَكُونُ قَوْلُهُ الْحَقُّ ﴾ [الأنعام : ٧٣] هو يوم القيامة ، ويوم القيامة لم يكن بعد ، والله تعالى لم يقل له بعد : ﴿ كُنْ ﴾ وإنما يقول ذلك حين يشاء ذلك .

وهذا من أظهر الأدلة على تعلق كلامه تعالى بمشيئته .

والأشعرية وأشباههم يحتجون بهذه الآية وأمثالها على أن القرآن غير مخلوق ويردّون بذلك على المعتزلة الجهمية ، وأغفلوا دلالة الآية نفسها على تعلق قوله تعالى بمشيئته ، وهو من خيّدتهم عن الحق والصراط المستقيم كما سيأتي شرحه في الباب الثالث .

٢ - أخبر تعالى عن تكليمه لموسى وندائه له في مواضع عدّة من كتابه ، وإنما وقع ذلك بعد خلق موسى ، لم يكلم موسى ولم يناده قبل أن يخلقه ، بل لم يناده ولم يكلمه قبل أن يأتي الشجرة ، كما قال تعالى : ﴿ فَلَمَّا أَتَاهَا نُودِيَ يَا مُوسَى ﴾ فلم يناده قبل إتيانه ، خلافاً لأهل البدع ، وهذا مقتضى اللغة التي نزل بها القرآن ، والله تعالى إنما خاطب العباد بألسنتهم

التي يعقلونها ويفهمونها.

٣ - وقال تعالى مخاطباً أهل النار: ﴿أَلَمْ تَكُنْ آيَاتِي تُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فَكُنْتُمْ بِهَا تُكَذِّبُونَ . قَالُوا رَبَّنَا غَلَبَتْ عَلَيْنَا شِقْوَتُنَا وَكُنَّا قَوْمًا ضَالِّينَ . رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْهَا فَإِنْ عُدْنَا فَإِنَّا ظَالِمُونَ . قَالَ اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ الآيات [المؤمنون: ١٠٥ - ١٠٨].

فهذا قوله تعالى وكلامه، إنما يُكَلِّمُ به أهل النار بعد أن يُصَارَ بهم إليها، ولم يقع ذلك بعد، وإنما أخبرنا عن وقوعه، ولا يفقه مؤمنٌ، بل ولا عاقل أن الله تعالى قد كَلَّمَ أهل النار من الأزل - كما يدّعيه بعض أهل البدع - فقال لهم: ﴿اخْسَرُوا فِيهَا وَلَا تُكَلِّمُونَ﴾ وهم لم يوجَدوا بعد ولم يُخْلَقُوا.

٤ - وعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ:

«احتج آدم وموسى...» فذكر الحديث، وفيه:

«... فقال آدم: أنت موسى الذي اصطفاك الله برسالتِهِ وبكلامِهِ، وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء، وقربك نجياً، فبكم وجدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق؟ قال موسى: بأربعين عاماً...» الحديث (٥٢).

فأخبر النبي ﷺ أن تكلم الرب تعالى بالتوراة كان مؤقتاً بوقت، وذلك قبل خلق آدم بأربعين سنة، هذا مع أن كلامه تعالى قديم النوع، وصفة الكلام له ثابتة في الأزل، إلا أنها متعلقة بمشيئته واختياره، فلما شاء أن

(٥٢) حديث صحيح.

سبق الكلام عنه في التعليق على المبحث الثاني ص ٨٤ - ٨٥.

يَتَكَلَّمُ بِالتَّوْرَةِ تَكَلَّمَ بِهَا، فَخَطَّهَا لِمُوسَى بِيَدِهِ، جَلَّ وَعَلَا.

٥ - جَمِيعُ مَا سَقْتُهُ مِنْ أَدَلَّةِ التَّكْلِيمِ فِي الْآخِرَةِ لَمْ يَقَعْ مِنْهُ شَيْءٌ بَعْدُ، وَإِنَّمَا يَقَعْ فِي الْآخِرَةِ، وَهُوَ أَثْبَتُ مِنْ أَنْ يُفْصَلَ.

وَقَدْ سَبَقَ النُّقْلُ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ مِنْ طَرِيقِ حَنْبَلِ بْنِ إِسْحَاقَ قَالَ: قُلْتُ لِأَبِي عَبْدِ اللَّهِ - يَعْنِي أَحْمَدَ -: اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يُكَلِّمُ عَبْدَهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ؟ قَالَ: «نَعَمْ، فَمَنْ يَقْضِي بَيْنَ الْخَلَائِقِ إِلَّا اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، يَكَلِّمُ عَبْدَهُ وَيَسْأَلُهُ، اللَّهُ مُتَكَلِّمٌ، لَمْ يَزَلِ اللَّهُ يَأْمُرُ بِمَا يَشَاءُ وَيَحْكُمُ، وَلَيْسَ لَهُ عَدْلٌ وَلَا مِثْلٌ، كَيْفَ شَاءَ، وَأَنْتَى شَاءَ» (٥٣).

٦ - وَفِي حَدِيثِ جَابِرِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمَا فِي حُجَّةِ النَّبِيِّ ﷺ قَوْلُهُ ﷺ: «تَبْدَأُ بِمَا بَدَأَ اللَّهُ بِهِ» فَبَدَأَ بِالْصُّفَا وَقَرَأَ ﴿إِنَّ الصُّفَا وَالْمَرْوَةَ مِنْ شَعَائِرِ اللَّهِ...﴾ [البقرة: ١٥٨] (٥٤).

وَفِي هَذَا دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ يَتْلُو بَعْضُهُ بَعْضًا، وَيَسْبِقُ بَعْضُهُ بَعْضًا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَقَدْ قَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ وَغَيْرُهُ مِنَ الْأَثَمَةِ: لَمْ يَزَلِ اللَّهُ مُتَكَلِّمًا إِذَا شَاءَ، وَهُوَ يَتَكَلَّمُ بِمَشِئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ، يَتَكَلَّمُ

(٥٣) سبق تخريجه ص ١١٤ - ١١٥.

(٥٤) حديث صحيح.

أَخْرَجَهُ مَالِكُ ٣٧٢/١ وَأَحْمَدُ ٣/٣٨٨، ٣٩٤ وَمُسْلِمٌ رَقْمَ (١٢١٨) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (١٩٠٥) وَالتِّرْمِذِيُّ رَقْمَ (٨٦٢، ٢٩٦٧) وَالنَّسَائِيُّ ٥/٢٣٦، ٢٣٩، ٢٤٠ - ٢٤١ وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمَ (٣٠٧٤) مِنْ طَرَفِ جَعْفَرِ بْنِ مُحَمَّدٍ عَنْ أَبِيهِ عَنْ جَابِرِ بِهِ. وَقَالَ التِّرْمِذِيُّ: «حَدِيثٌ حَسَنٌ صَحِيحٌ».

بَشِيءٍ بَعْدَ شَيْءٍ» (٥٥).

وقال أبو عبد الله بن حامد: «ولا خلاف عن أبي عبد الله - يعني أحمد - أَنَّ اللَّهَ كَانَ مُتَكَلِّمًا قَبْلَ أَنْ يَخْلُقَ الْخَلْقَ، وَقَبْلَ كُلِّ الْكَائِنَاتِ، وَأَنَّ اللَّهَ كَانَ فِيمَا لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا، كَيْفَ شَاءَ، وَكَمَا شَاءَ، وَإِذَا شَاءَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ، وَإِذَا شَاءَ لَمْ يُنْزِلْهُ» (٥٦).

قلت: فأفادَ هذا النقلُ عن الإمام أحمدَ أمرين:

الأول: أَنَّ صِفَةَ الْكَلَامِ لِلَّهِ تَعَالَى ثَابِتَةٌ لَهُ فِي الْأَزَلِّ لَيْسَتْ مُحَدَّثَةً وَلَا مَخْلُوقَةً.

والثاني: أَنَّ كَلَامَهُ تَعَالَى مُتَعَلِّقٌ بِمَشِئَتِهِ، فَهُوَ يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ، وَيُسْكُتُ إِذَا شَاءَ.

وأما قولُ ابنِ حامدٍ في نقله الذي حَكِينَا: «وَإِذَا شَاءَ أَنْزَلَ كَلَامَهُ...» إلخ ففيه نَظَرٌ، ذَلِكَ لِأَنَّهُ مُفْهِمٌ أَنَّهُ تَعَالَى لَا يَتَكَلَّمُ بَعْدَ خَلْقِ الْخَلْقِ، وَإِنَّمَا يُنْزِلُ كَلَامَهُ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ، وَهَذَا الْمَعْنَى لَيْسَ هُوَ قَوْلُ الْإِمَامِ أَحْمَدَ - كَمَا يَنْقُلُهُ شَيْخُ الْإِسْلَامِ وَغَيْرُهُ - وَإِنَّمَا قَوْلُهُ: إِنَّ اللَّهَ تَعَالَى يَتَكَلَّمُ بِكَلَامٍ بَعْدَ كَلَامٍ، وَفِي الْأَدَلَّةِ الَّتِي سَقْنَا دَلَالَةً بَيِّنَةً عَلَى ذَلِكَ، وَهَذَا الَّذِي قَالَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ حَامِدٍ إِنَّمَا هُوَ عَلَى طَرِيقَةِ بَعْضِ فَضَلَاءِ الْحَنَابِلَةِ الَّذِينَ كَانُوا يَذْهَبُونَ إِلَى قِدَمِ الْكَلَامِ الْمُعَيَّنِ قَبْلَ خَلْقِ الْخَلْقِ، وَالتَّحْقِيقُ أَنَّ هَذَا لَيْسَ

(٥٥) «مجموع الفتاوى» ٥٨٨/١٢ وانظر: «شرح حديث النزول» ص:

١٥٥.

(٥٦) «درء التعارض» ٧٦/٢ عن كتاب ابن حامد في أصول الدين.

مذهب السلف، وهو خلاف ما دلت عليه الأدلة من أن كلامه تعالى متعلق بمشيئته ولا نُؤوّل ذلك بأن إنزال كلامه متعلق بمشيئته، وقد أراد ابن حامد معنى اعتقاد أحمد ولكنه أخطاه، وأصابه شيخ الإسلام حين قال: «... وهو يتكلّم بمشيئته، يتكلّم بشيء بعد شيء».

وسبق أن قرّرنا أن الله تعالى له الكمال المطلق، والمتكلّم بمشيئته واختياره أكمل ممّن لا يتكلّم بمشيئته واختياره، بل إنّه لا يتصور متكلّم بغير مشيئة ولا قُدرة ولا اختيار، وإنّما يوصف بذلك الأخرس، فإنّه لو قدر الكلام في نفسه لا يقدر على التكلّم به والتلفّظ به للآفة التي فيه، والله تعالى منزّه عن هذا النقص، وهو أعلى وأجلّ من أن يتصف به، فمن لم يثبت له الكلام بمشيئته واختياره فهو واصف له بالنقص والآفة، تعالى عن ذلك علواً كبيراً.



المبحث التاسع

تفاضل كلام الله تعالى

كَلِمَاتُ اللَّهِ تَعَالَى لَا نِهَآيَةَ لَهَا، وَهِيَ بَاقِيَةٌ لَا تَنْفَدُ كَمَا قَالَ تَعَالَى : ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي وَلَوْ جِئْنَا بِمِثْلِهِ مَدَدًا﴾ [الكهف: ١٠٩].

وَمِنْ كَلِمَاتِهِ تَعَالَى : كُتِبَتْهُ الْمَنْزَلَةُ، كَالْتَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَالْقُرْآنِ، وَكَلِمَاتُهُ الَّتِي يَخْلُقُ بِهَا الْخَلْقَ، وَكَلِمَاتُهُ الَّتِي كُلَّمُ بِهَا آدَمَ، وَالَّتِي كُلَّمُ بِهَا مُوسَى، وَالَّتِي كُلَّمُ بِهَا مُحَمَّدًا ﷺ، وَكَلِمَاتُهُ الَّتِي يُكَلِّمُ بِهَا عِبَادَهُ فِي الْمَحْشَرِ، وَفِي الْجَنَّةِ، وَكَلِمَاتُهُ الَّتِي يُخَاطِبُ بِهَا أَهْلَ النَّارِ تَوْبِيخًا وَتَقْرِيعًا، وَغَيْرُ ذَلِكَ مِنْ كَلَامِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى .

فَكَلَامُهُ تَعَالَى مُتَبَعٌ مُتَجَزِئٌ، فَالْتَّوْرَةُ بَعْضُ كَلَامِهِ وَجْزٌ مِنْهُ، وَالْإِنْجِيلُ كَذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ كَذَلِكَ، وَالْقُرْآنُ أِبْعَاضُ وَأَجْزَاءُ، وَسُورٌ وَآيَاتٌ، وَكَلِمَاتٌ .

وَجَمِيعُ هَذَا مِنَ الْمُسَلَّمَاتِ الْمَعْلُومَةِ لَدَى الْكَافَّةِ، دَلٌّ عَلَيْهَا الْحِسُّ، وَالْعَقْلُ، وَالشَّرْعُ، وَهِيَ أَجْلَى مِنْ أَنْ تَحْتَاجَ إِلَى ضَرْبِ الْأَمْثَلَةِ، وَسِيَاقِ الْبَرَاهِينِ وَالْأَدْلَةِ، وَلَكِنْ مَنْ رَامَ الْهَدْيَ بِاتِّبَاعِ الْهَوَى فَقَدْ ضَلَّ السَّبِيلَ .

فكلامه تعالى الذي هو أجزاء وأبعاض، بعضه أفضل من بعض، وليس ذلك من جهة المتكلم به وهو الله تعالى، وإنما هو من جهة ما تضمن من المعاني العظيمة، فإن كلام الله المتضمن للتوحيد والدعوة إليه، أفضل من كلامه المتضمن ذكر الحدود والقصاص ونحو ذلك، وما يُخبر به عن نفسه وصفاته أعظم مما يُخبر به عن بعض خلقه، وذلك لشرف الأول على الثاني.

وقد ورد في السنة الصحيحة ما يثبت ذلك ويوضحه ويُجّله، فمن ذلك:

١ - حديث أنس بن مالك رضي الله عنه قال:

كان النبي ﷺ في مسير له، فنزل ونزل رجل إلى جانبه، فالتفت إليه النبي ﷺ، فقال:

«ألا أخبرك بأفضل القرآن؟».

قال: فتلا عليه ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ (٥٧).

٢ - وعن أبي سعيد بن المَعْلَى رضي الله عنه قال:

كنت أصلي في المسجد، فدعاني رسول الله ﷺ، فلم أجبه، فقلت: يا رسول الله! إني كنت أصلي، فقال:

(٥٧) حديث صحيح.

أخرجه النسائي في «فضائل القرآن» - من «الكبرى» - رقم (٣٦) و«عمل اليوم والليلة» رقم (٧٢٣) من طريق سليمان بن المغيرة عن ثابت عن أنس به، وسنده صحيح.

«أَلَمْ يَقُلِ اللَّهُ: ﴿اسْتَجِيبُوا لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمْ﴾» [الأنفال: ٢٤].

ثُمَّ قَالَ لِي:

«لَعَلَّكُمْ سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ السُّورِ فِي الْقُرْآنِ، قَبْلَ أَنْ تَخْرُجَ مِنَ الْمَسْجِدِ».

ثُمَّ أَخَذَ بِيَدِي، فَلَمَّا أَرَادَ أَنْ يَخْرُجَ قُلْتُ لَهُ: أَلَمْ تَقُلْ: «لَعَلَّكُمْ سُورَةٌ هِيَ أَعْظَمُ سُورَةٍ فِي الْقُرْآنِ»؟

قَالَ: «الْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، هِيَ السَّبْعُ الْمَثَانِي، وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ الَّذِي أُوتِيَتْهُ» (٥٨).

٣ - وعن أَبِي بِن كَعْبٍ قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ:

«يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَذَرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟».

قَالَ: قُلْتُ: اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَعْلَمُ.

قَالَ: «يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَذَرِي أَيُّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ مَعَكَ أَعْظَمُ؟».

قَالَ: قُلْتُ: ﴿اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ الْحَيُّ الْقَيُّومُ...﴾ [البقرة: ٢٥٥].

قَالَ: فَضَرَبَ فِي صَدْرِي، وَقَالَ:

(٥٨) حديث صحيح.

أخرجه أحمد ٤٥٠/٣ و ٢١١/٤ والبخاري ١٥٦/٨ - ١٥٧، ٣٠٧، ٣٨١ و ٥٤/٩ وأبو داود رقم (١٤٥٨) والنسائي ١٣٩/٢ وفي «فضائل القرآن» - من «الكبرى» - رقم (٣٥) وابن ماجه رقم (٣٧٨٥) من طرق عن شعبة عن خبيب بن عبد الرحمن عن حفص بن عاصم عن أبي سعيد بن المعلى به.

«والله، لِيَهْنِكَ الْعِلْمُ أبا المُنذر» (٥٩).

٤ - وعن أبي سعيد الخُدري رضي الله عنه أَنَّ رجلاً سَمِعَ رجلاً يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ يُرَدِّدُهَا، فَلَمَّا أَصْبَحَ جَاءَ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، فَذَكَرَ ذَلِكَ لَهُ - وَكَأَنَّ الرَّجُلَ يَتَقَالُّهَا - فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: «وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ» (٦٠).

٥ - وعن عُقْبَةَ بْنِ عامر رضي الله عنه قال: كُنْتُ أَقُودُ بِرَسُولِ اللَّهِ ﷺ نَاقَتَهُ فِي السَّفَرِ، فَقَالَ لِي: «يَا عُقْبَةُ، أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ سَوْرَتَيْنِ قُرِئَتَا؟»

فَعَلَّمَنِي: ﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ الْفَلَقِ﴾ و﴿قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ النَّاسِ﴾. قال: فَلَمْ يَرْنِي سُرْرَتُ بِهِمَا جَدًّا، فَلَمَّا نَزَلَ لِصَلَاةِ الصُّبْحِ صَلَّى بِهِمَا صَلَاةَ الصُّبْحِ لِلنَّاسِ، فَلَمَّا فَرَغَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ مِنَ الصَّلَاةِ التَفَتَ إِلَيَّ

(٥٩) حديث صحيح.

أَخْرَجَهُ مُسْلِمٌ رَقْمَ (٨١٠) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (١٤٦٠) مِنْ طَرِيقِ عَبْدِ الْأَعْلَى بْنِ عَبْدِ الْأَعْلَى عَنِ الْجُرَيْرِيِّ عَنِ أَبِي السَّلِيلِ عَنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ رِزَاحٍ الْأَنْصَارِيِّ عَنِ أَبِي بِنِ كَعْبٍ بِهِ.

(٦٠) حديث صحيح.

أَخْرَجَهُ مَالِكٌ ٢٠٨/١ وَمِنْ طَرِيقِهِ: أَحْمَدُ ٢٣/٣، ٣٥، ٤٣، وَابْنُ خَالِيٍّ ٥٨/٩ وَ٥٢٥/١١ وَ٣٤٧/١٣ وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (١٤٦١) وَالنَّسَائِيُّ ١٧١/٢ وَفِي «الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ» رَقْمَ (٦٩٨).

وَانْظُرْ تَعْلِيقِي عَلَى «الْمَفَارِيدِ» لِأَبِي يَعْلَى الْمُوصِلِيِّ رَقْمَ (٦٠).

فَقَالَ: «يَا عُقْبَةُ كَيْفَ رَأَيْتَ؟» (٦١).

وَبُوجْهُ شَيْخِ الْإِسْلَامِ حَدِيثَ فَضْلِ سُوْرَةِ الْإِخْلَاصِ فَيَقُولُ: «وَذَلِكَ أَنَّ الْقُرْآنَ إِمَّا خَبَرٌ، وَإِمَّا إِنِّشَاءٌ، وَالْخَبَرُ إِمَّا خَبَرٌ عَنِ الْخَالِقِ، وَإِمَّا عَنِ الْمَخْلُوقِ، فَثُلُثُهُ قَصَصٌ، وَثُلُثُهُ أَمْرٌ، وَثُلُثُهُ تَوْحِيدٌ، فَهِيَ تَعْدِلُ ثُلُثَ الْقُرْآنِ بِهَذَا الْاِعْتِبَارِ» (٦٢).

قُلْتُ: فَدُلْتُ هَذِهِ النُّصُوصُ عَلَى تَفْضِيلِ كَلَامِ اللَّهِ بَعْضِهِ عَلَى بَعْضٍ، وَذَلِكَ حَسَبَ مَا يَدُلُّ عَلَيْهِ مِنَ الْمَعَانِي، وَهُوَ مَذْهَبُ جُمْهُورِ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَالصُّوَابُ الَّذِي عَلَيْهِ جُمْهُورُ السَّلَفِ وَالْأَئِمَّةُ أَنَّ بَعْضَ كَلَامِ اللَّهِ أَفْضَلُ مِنْ بَعْضٍ، كَمَا دُلُّ عَلَى ذَلِكَ الشَّرْعُ وَالْعَقْلُ» (٦٣).



(٦١) حديث حسن أو صحيح .

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ ١٥٣/٤ وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (١٤٦٢) وَالنَّسَائِيُّ ٢٥٢/٨ - ٢٥٣ مِنْ طَرِيقِ مَعَاوِيَةَ بْنِ صَالِحٍ عَنِ الْعَلَاءِ بْنِ الْحَارِثِ عَنِ الْقَاسِمِ مَوْلَى مَعَاوِيَةَ عَنْ عَقْبَةَ بِهِ .
قُلْتُ: وَهَذَا سَنَدٌ حَسَنٌ، وَالْقَاسِمُ هُوَ ابْنُ عَبْدِ الرَّحْمَنِ صَدُوقٌ جَيِّدُ الْحَدِيثِ، وَقَدْ صَحَّ سَمَاعُهُ مِنْ عَقْبَةَ بْنِ عَامِرٍ .

وَالْحَدِيثُ مَرْوِيٌّ عَنْ عَقْبَةَ مِنْ غَيْرِ هَذَا الْوَجْهِ مَعْنَاهُ .

(٦٢) «دَرَةُ التَّعَارُضِ» ٢٧٢/٧ .

(٦٣) الْمَرْجِعُ السَّابِقُ .

كلام الله تعالى منزل منه ، منه بدأ وإليه يعود

يَعْتَقِدُ السَّلَفُ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، مِنْهُ خَرَجَ وَبَدَأَ ، تَكَلَّمَ بِهِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ ، فَاسْمَعَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، وَنَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ عَلَى قَلْبِ نَبِيِّنَا ﷺ ، وَهُوَ هَذَا اللِّسَانُ الْعَرَبِيُّ الْمُبِينُ ، النَّازِلُ بِلُغَةِ قُرَيْشٍ .

وهذا مُبَيَّنٌ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ تَعَالَى ، فَمِنْ ذَلِكَ :

١ - قَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الرَّكِتَابُ أُحْكِمَتْ آيَاتُهُ ثُمَّ فُصِّلَتْ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود : ١] .

٢ - وَقَوْلُهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿تَنْزِيلًا مِمَّنْ خَلَقَ الْأَرْضَ وَالسَّمَاوَاتِ الْعُلَى﴾ [طه : ٤] .

٣ - وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿وَإِنَّكَ لَتَلْقَى الْقُرْآنَ مِنْ لَدُنْ حَكِيمٍ عَلِيمٍ﴾ [النمل : ٦] .

٤ - وَقَوْلُهُ تَعَالَى : ﴿الْم . تَنْزِيلُ الْكِتَابِ لَا رَيْبَ فِيهِ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ الْحَقُّ مِنْ رَبِّكَ﴾ [السجدة : ١ - ٣] .

٥ - وَقَوْلُهُ جَلَّ وَعَلَا : ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ . إِنَّا

أَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ... ﴿[الزمر: ١ - ٢].

٦ - وقوله تعالى: ﴿حَمَّ . تَنْزِيلٌ مِنَ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ . كِتَابٌ فُصِّلَتْ آيَاتُهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ . بَشِيرًا وَنَذِيرًا﴾ [فصلت: ١ - ٤].

٧ - وقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا بِالذِّكْرِ لَمَّا جَاءَهُمْ وَإِنَّهُ لَكِتَابٌ عَزِيزٌ . لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤١ - ٤٢].

فأخبر تعالى في هذه الآيات وما يشبهها أن القرآن العربي الذي هو كلامه، إنما هو تنزيله، نزل منه، فمنه بدأ وخرج لا من سواه.

٨ - وقوله تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ . قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسُ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ١٠١ - ١٠٣].

فأنبا تعالى في هذه الآيات أن القرآن العربي نزل به روح القدس منه، وروح القدس هو جبريل عليه السلام، كما قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ كَانَ عَدُوًّا لِجِبْرِيلَ فَإِنَّهُ نَزَّلَهُ عَلَى قَلْبِكَ بِإِذْنِ اللَّهِ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَهُدًى وَبُشْرَى لِلْمُؤْمِنِينَ﴾ [البقرة: ٩٧].

فليس هو كلام محمد ﷺ - كما زعم الكفار - ولا كلام جبريل عليه السلام - كما زعمه بعض أهل البدع - وإنما هو كلام الله تعالى، منه بدأ وخرج، وهو الذي أنزله بواسطة رسوله الملك جبريل، فمن قال غير هذا فقد

كَفَرَ، لِأَنَّهُ كَذَّبَ اللَّهَ فِي قَوْلِهِ، وَجَحَدَ مَا أَنْبَأَتْ بِهِ رُسُلُهُ، وَإِنْ ادَّعَى الْإِسْلَامَ
وَانْتَسَبَ إِلَيْهِ، فَالْإِسْلَامُ يَبْرَأُ مِنْهُ.

وقد ذكرتُ في المَبْحَثِ الخامس أن الله تعالى لم يُضِفْ شيئاً ممَّا
أنزله إلى نفسه غيرَ كلامه، وذلك لأنَّه صفته.

* وأما عَوْدُ كلامه تعالى إليه فقد تأوَّله بعضُ أهلِ السُّنَّةِ بعَوْدِ تلاوته
وقراءته التي هي كَسْبُ العبدِ.

وهذا المعنى حقٌّ، فإنَّه تعالى: ﴿إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ
الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ﴾ [فاطر: ١٠] ولكن ليس هو المرادُ في تفسيرِ هذه اللَّفْظَةِ
(وإليه يعودُ) وإنما المرادُ أن كلامَ الله تعالى يُسرى عليه في لَيْلَةٍ فَيُرْفَعُ من
المَصاحِفِ، وَصُدُورِ الحُفَظِ، فلا تَبْقَى في الأرضِ منه آية.

وبهذا جاء الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ وغيره من أصحابه.

فأما الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ فعَنْ حذيفةَ بنِ اليمانَ وأبي هريرة رضي
الله عنهما قالا: قال رسول الله ﷺ:

«يُسرى على كتابِ الله لَيْلاً، فيُصْبِحُ النَّاسُ ليس في الأرضِ، ولا
جوفِ مسلمٍ منه آية» (٦٤).

وأما الخبرُ عن أصحابه، فوردَ عن أبي هريرة وابنِ مسعود.

١ — عن أبي هريرة رضي الله عنه قال:

(٦٤) حديث صحيح، خرجته وحققته في التعليق على «اختصاص القرآن»
لضياء الدين المقدسي تعليق (٦٨).

«يُسْرَى عَلَى كِتَابِ اللَّهِ، فَيَرْفَعُ إِلَى السَّمَاءِ، فَلَا يُصْبِحُ فِي الْأَرْضِ آيَةً مِنَ الْقُرْآنِ، وَلَا مِنَ التَّوْرَةِ، وَالْإِنْجِيلِ، وَلَا الزَّبُورِ، وَيُتَزَعُّ مِنْ قُلُوبِ الرِّجَالِ، فَيُصْبِحُونَ وَلَا يَذَرُونَ مَا هُوَ» (٦٥).

٢ - وعن شَدَّادِ بْنِ مَعْقِلٍ أَنَّ عَبْدَ اللَّهِ بْنَ مَسْعُودٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ قَالَ: «لَيْتَنَزَعَنَّ هَذَا الْقُرْآنُ مِنْ بَيْنِ أَظْهُرِكُمْ».

قال: قلت: يا أبا عبد الرحمن! كيف يُتَزَعُّ وقد أُثْبِتَتْهُ فِي صُدُورِنَا، وَأُثْبِتَتْهُ فِي مَصَاحِفِنَا؟

قال: «يُسْرَى عَلَيْهِ فِي لَيْلَةٍ، فَلَا يَبْقَى فِي قَلْبِ عَبْدٍ مِنْهُ، وَلَا مُصْحَفٍ مِنْهُ شَيْءٌ، وَيُصْبِحُ النَّاسُ فَقَرَاءَ كَالْبَهَائِمِ».

ثم قرأ عبد الله: ﴿وَلَكِنْ شِئْنَا لَنَذْهَبَنَّ بِالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ ثُمَّ لَا تَجِدُ لَكَ بِهِ عَلَيْنَا وَكِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٦] (٦٦).

وهذان الأثران تَصْمُنَا الْإِخْبَارَ عَنْ غَيْبٍ، لَا يَقَالُ إِلَّا بِتَوْقِيفٍ.

فبهذا يظهر لك معنى قول من قال من السَّلَفِ: (الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، مُنَزَّلٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ).

والمَصِيرُ إِلَى هَذَا التفسير واجبٌ لدلالة ما ذكرنا من الأخبار.

وقال شيخ الإسلام: «فقالوا: (منه بدأ) ردًّا على الجَهْمِيَّةِ الَّذِينَ

(٦٥) حديث صحيح، وانظر تحقيقه في التعليق على «اختصاص القرآن»

تعليق (٦٨).

(٦٦) حديث صالح الإسناد، وانظر تحقيقه في التعليق على «اختصاص

القرآن» تعليق (٧٤).

يقولون: بدأ من غيره، ومقصودهم أنه هو المتكلم به، كما قال تعالى: ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ﴾ وقال تعالى: ﴿وَلَكِنْ حَقَّ الْقَوْلُ مِنِّي...﴾ وأمثال ذلك» (٦٧).

قال: «وأما (إليه يعود) فإنه يُسرى به في آخر الزمان، من المصاحف والصدور، فلا يبقى في الصدور منه كلمة، ولا في المصاحف منه حرف» (٦٨).

قلت: والتنصيص على هذه العقيدة مأثور عن جماعة من أئمة السلف، منهم:

١ - عمرو بن دينار (أحد خيار التابعين وثقاتهم وأئمتهم).

قال: «أدركت أصحاب النبي ﷺ (٦٩) فمن دونهم منذ سبعين سنة، يقولون: الله الخالق، وما سواه مخلوق، والقرآن كلام الله منه خرج وإليه يعود».

٢ - سفيان الثوري (الإمام العلم).

قال: «القرآن كلام الله غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود، من قال غير هذا فهو كافر».

(٦٧) «درء التعارض» ١١٣/٢.

(٦٨) «مجموع الفتاوى» ١٧٤/٣ - ١٧٥ عن المناظرة في الواسطية.

(٦٩) ذكر الحافظ ضياء الدين المقدسي في «اختصاص القرآن» فقرة (٦)

عشرة أنفس من الصحابة أدرکهم عمرو بن دينار فيهم: عبدالله بن عمر، وابن عباس، وابن الزبير، وجابر بن عبدالله، وغيرهم، وانظر قول ابن راهويه السابق ص ١٣٩.

٣ - سفيان بن عُيَيْنَةَ (إمام حافظ).

سأله رجلٌ: يا أبا محمَّد، ما تقول في القرآن؟ فقال: «كلامُ الله، مِنْهُ خَرَجَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ».

٤ - أبو بكر بن عيَّاش (إمام محدِّث صاحبُ سنة).

قال: «القرآنُ كلامُ الله، ألقاهُ إلى جبرائيلَ، وألقاهُ جبرائيلُ إلى محمَّدٍ ﷺ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ» (٧٠).

٥ - الإمام أحمدُ بن حنبل.

قال: «لَقِيتُ الرُّجَالَ، والعُلَمَاءَ، والفُقَهَاءَ، بِمَكَّةَ، والمَدِينَةِ، والكُوفَةِ، والبَصْرَةِ، والشَّامِ، والثُّغُورِ، وَخُرَاسَانَ، فرَأَيْتُهُمْ عَلَى السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وسَأَلْتُ عَنْهَا - يَعْنِي هَذِهِ اللَّفْظَةَ - الْفُقَهَاءَ؟ فَكُلُّ يَقُولُ: الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، مِنْهُ بَدَأَ، وَإِلَيْهِ يَعُودُ» (٧١).

وقال: «لَمْ يَزَلِ اللَّهُ عَالِمًا مُتَكَلِّمًا، نَعْبُدُ اللَّهَ لِصِفَاتِهِ، غَيْرَ مَحْدُودَةٍ وَلَا مَعْلُومَةٍ إِلَّا بِمَا وَصَفَ بِهِ نَفْسَهُ، وَنَزَدَ الْقُرْآنُ إِلَى عَالَمِهِ تَبَارَكَ وَتَعَالَى، إِلَى اللَّهِ، فَهُوَ أَعْلَمُ بِهِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ» (٧٢).

٦ - أبو جعفر أحمد بن سنان الواسطي (حافظٌ ثَبَّتَ، من شيوخِ

(٧٠) جميع هذه الآثار الأربعة صحيحة، خرجتها في تعليقي على «اختصاص القرآن» وأثر عمرو قد سبق ص ١٣٨.

(٧١) ذكر هذا النص الحافظ الضياء في «اختصاص القرآن» عن المروزي عن أحمد، فقرة (٩).

(٧٢) رواه حنبل في «المحنة» ص: ٤٥ عنه به.

البُخَارِيُّ وَمُسْلِمٌ).

قال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ شَيْئَيْنِ (٧٣) أَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ حِكَايَةٌ، فَهُوَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، زَنْدِيقٌ كَافِرٌ بِاللَّهِ، هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ جَبْرِيلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، لَا يَغْيَرُ وَلَا يُبَدِّلُ: ﴿لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ تَنْزِيلٌ مِنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢]، كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ...﴾ [الإسراء: ٨٨]، وَلَوْ أَنَّ رَجُلًا حَلَفَ لَا يَتَكَلَّمُ الْيَوْمَ، ثُمَّ قَرَأَ الْقُرْآنَ، أَوْ صَلَّى وَقَرَأَ الْقُرْآنَ، أَوْ سَلَّمَ فِي الصَّلَاةِ، لَمْ يَحْنُثْ، لَا يُقَاسُ بِكَلَامِ اللَّهِ شَيْءٌ، الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، لَيْسَ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى شَيْءٌ مَخْلُوقٌ، وَلَا صِفَاتُهُ، وَلَا أَسْمَاؤُهُ، وَلَا عِلْمُهُ» (٧٤).

وَنَقَلَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ اتِّفَاقَ السَّلَفِ وَالْأئِمَّةِ عَلَى ذَلِكَ فِي غَيْرِ مَوْضِعٍ مِنْ كَلَامِهِ (٧٥).

تَنْبِيْهِ:

وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّهُ لَيْسَ مَعْنَى قَوْلِهِمْ (مِنْهُ خَرَجَ) أَنَّ صِفَةَ الْكَلَامِ فَارَقَتْهُ تَعَالَى، وَخَلَّتْ فِي غَيْرِهِ، وَأَنَّ مَا تَكَلَّمَ بِهِ نُسِبَ إِلَى غَيْرِهِ، وَصَارَ وَصْفًا لِذَلِكَ الْغَيْرِ - كَمَا قَدْ وَسَّوَسَ بِهِ بَعْضُ أَهْلِ الْبَدْعِ - فَإِنَّ هَذَا الْمَعْنَى لَا يُعْقَلُ فِي حَقِّ الْإِنْسَانِ الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ، إِذَا تَكَلَّمَ بِكَلَامٍ تَزُولُ عَنْهُ صِفَةُ

(٧٣) هَكَذَا عَلَى النَّصَبِ فِي الْأَصْلِ، وَهِيَ مَتَجَهَّةٌ عَلَى تَقْدِيرِ مَحْذُوفٍ، وَلِذَا أَثْبَتَهَا كَمَا هِيَ.

(٧٤) صَحِيحُ الْإِسْنَادِ، أَخْرَجَهُ الضَّيَاءُ فِي «اِخْتِصَاصِ الْقُرْآنِ» رَقْمَ (١٦).

(٧٥) انْظُرْ: «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى»: ٥٢٨/٦، ١٦٤/١٢.

الكلام بذلك وتفارقه إلى غيره، فإن من كان كذلك لم يمكنه الكلام إلا مرة واحدة، فإذا تكلم هذه المرة فارقت صفته، لأن الكلام خرج منه وفارقه، وبمفارقه زالت عنه الصفة ولحقت غيره، هذا كلام لا يقوله من يدري ما يقول، فإن من وُصف بالكلام على هذا المعنى موصوف بالعجز عنه، وهو غير متصور في حق الناطق المخلوق على ضعفه، فكيف تصوّره هؤلاء الضالّاء في حق الله الذي ليس كمثله شيء، فإنه تعالى وصف نفسه بأنّه متكلم بكلام متعلق بمشيئته وقدرته، يُسمعه من شاء من خلقه، متى شاء، وأنّ كلماته تعالى لا تنفذ، ومن كان هذا وصفه لم تفارقه صفته بتكلمه مرة أو مرّات، وكان كل ما تكلم به منسوباً إليه لا إلى غيره.

قال الإمام الحافظ أبو الوليد الطيالسي: «القرآن كلام الله ليس ببائن من الله» (٧٦).

وقال شيخ الإسلام: «وإن قول السلف: (منه بدأ) لم يريدوا به أنه فارق ذاته، وحلّ في غيره، فإن كلام المخلوق، بل وسائر صفاته لا تفارقه وتنقل إلى غيره، فكيف يجوز أن يفارق ذات الله كلامه أو غيره من صفاته» (٧٧).

قلت: قال الله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فالذي يسمعه المشرك المستجير من القارئ إنما هو كلام الله المضاف إليه لا إلى غيره، فلو أن كلامه بأن منه

(٧٦) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٦ بسند صحيح عنه.

(٧٧) «مجموع الفتاوى» ٢٧٤/١٢ وانظر: ٥١٧/١٢ - ٥١٨، ٥٥٠.

وفارقه لما صَحَّتْ إِصْفَاتُهُ إِلَيْهِ إِضَافَةُ الصُّفَةِ إِلَى الْمَوْصُوفِ .

وهذا الكلامُ بِعَيْنِهِ هو الذي في مَصَاحِفِ الْمُسْلِمِينَ بلا شكٍّ ولا ريبٍ، خِلَافاً لِلْفُظْيَةِ مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهِمُ الْقَائِلِينَ بِأَنَّ مَا فِي الْمَصَاحِفِ دَلَالَةٌ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ كَلَامُ اللَّهِ، وَقَدْ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى : ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ . تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فَأَبَانَ أَنَّ كَلَامَهُ الَّذِي هُوَ وَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ يَكُونُ فِي الْكِتَابِ الْمَكْنُونِ، فَكَذَلِكَ كَوْنُهُ فِي الْمَصَاحِفِ، وَنَحْنُ لَا نَعْلَمُ الْقُرْآنَ إِلَّا هَذَا الْعَرَبِيَّ الْمَنْزَلَ، وَهُوَ الَّذِي سَمَّاهُ اللَّهُ تَعَالَى كَلَامَهُ .

وَقَدْ قَالَ النَّبِيُّ ﷺ :

« لَا تُسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، فَإِنِّي أَخَافُ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ » (٧٨) .

وَلَا خِلَافَ فِي أَنَّ النَّهْيَ عَنِ السَّفَرِ بِالْقُرْآنِ، إِنَّمَا هُوَ النَّهْيُ عَنِ السَّفَرِ

(٧٨) حديث صحيح .

أَخْرَجَهُ مَالِكٌ ٤٤٦/٢ وَالشَّافِعِيُّ رَقْمَ (١١٤٩ ، ١١٥٠) وَأَحْمَدُ رَقْمَ (٤٥٠٧ ، ٤٥٢٥ ، ٤٥٧٦ ، ٥١٧٠ ، ٥٢٩٣) وَالْبُخَارِيُّ ١٣٣/٦ وَمُسْلِمٌ رَقْمَ (١٨٦٩) وَأَبُو دَاوُدَ رَقْمَ (٢٦١٠) وَالنَّسَائِيُّ فِي «فَضَائِلِ الْقُرْآنِ» - مِنْ «الْكِبَرِيِّ» - رَقْمَ (٨٥) وَابْنُ مَاجَةَ رَقْمَ (٢٨٧٩ ، ٢٨٨٠) مِنْ طَرَقٍ عَنْ نَافِعٍ عَنْ ابْنِ عُمَرَ بِهِ مَرْفُوعاً .

وَتَابِعَ نَافِعاً عَلَيْهِ : عَبْدُ اللَّهِ بْنُ دِينَارٍ، أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَقْمَ (٦١٢٤) وَابْنُ أَبِي دَاوُدَ فِي «الْمَصَاحِفِ» ص : ١٨٣ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْهُ .

وَكَذَا تَابِعَهُ سَالِمٌ عَنْ أَبِيهِ، أَخْرَجَهُ ابْنُ أَبِي دَاوُدَ ص : ١٧٩ - ١٨٠ بِسَنَدٍ صَالِحٍ فِي الْمَتَابِعَاتِ .

وَهَذَا حَدِيثٌ جَلِيلٌ قَدْ أَفْرَدَتْ الْكَلَامَ عَلَيْهِ إِسْنَاداً وَمَتْناً فِي جُزْءٍ .

بالمصاحف، لأن القرآن إنما يكون فيها، وهي التي تُحْمَلُ وتُنْقَلُ، ولا نعلم القرآن إلا كلام الله المنزل على الحقيقة.

قال شيخ الإسلام: «ومما كان أحمد أنكره من قول الجهمية قول من زعم أن القرآن ليس في الصدور، ولا في المصاحف» (٧٩).

قلت: وفي الباب الثالث في إبطال اعتقاد الأشعرية ما يتضمن إبطال قول من قال: ليس القرآن في المصحف على الحقيقة، وإنما فيه الدلالة عليه.

والله تعالى أعلم، وما توفيقي إلا به عليه توكلت وإليه أنيب.



الباب الثاني

توضيح مسألة اللفظ بالقرآن ورفع ما وقع بسببها من الاشكال

وفيه تمهيد وفصلان:

= الفصل الأول: تفسير الألفاظ المجملة التي وقع بسببها
الاشكال.

= الفصل الثاني: مسألة اللفظ وموقف أهل السنة.

تمهيد

المُرَادُ بِمَسْأَلَةِ اللَّفْظِ بِالْقُرْآنِ هُوَ الْقَوْلُ بِأَنَّ (لَفْظَ الْقَارِئِ بِالْقُرْآنِ، وَقِرَاءَتَهُ لَهُ، وَتِلَاوَتَهُ) هَلْ يُقَالُ: (مَخْلُوقٌ، أَوْ مَخْلُوقَةٌ) أَوْ لَا يُقَالُ ذَلِكَ؟

وهي من الْمَسَائِلِ الَّتِي كَانَ لَهَا صَدَى وَاسِعٌ فِي صَفُوفِ الْمُحَدِّثِينَ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّا أَدَّى إِلَى شِقَاقٍ وَفَرَقَةٍ، أَفْرَحَتِ الشَّيْطَانَ وَأَوْلِيَائَهُ، وَضَاقَتْ بِسَبَبِهَا صُدُورُ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ.

وكَانَتْ هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ حَيْدَةً مِنَ الْجَهْمِيَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ إِلَى لَفْظِ يَوْمِهِمْ مُوَافَقَتَهُمْ لِأَهْلِ السُّنَّةِ، مَعَ أَنَّهُمْ يُرِيدُونَ مَذْهَبَهُمُ الْبَاطِلَ، فَلَبَّسُوا بِهَذَا عَلَى النَّاسِ، وَفَتَحُوا عَلَيْهِمْ بَاباً جَدِيداً مِنَ الْبِدْعَةِ، فَقَالُوا: أَلْفَظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ.

وَكَانَ مَبْدَأُ ظُهُورِ هَذِهِ اللَّفْظَةِ وَالْقَوْلِ بِهَا فِي عَهْدِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، حِينَ ظَهَرَ الْحَقُّ الَّذِي أَعْلَاهُ اللَّهُ بِأَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمَنْ ثَبَّتَ مَعَهُ مِنْ إِخْوَانِهِ، وَقَوَّيْتُ شَوْكَةَ أَهْلِهِ، وَنَصَرَهُمُ اللَّهُ، وَخَذَلَ الْمُبْتَدِعَةَ مِنَ الْجَهْمِيَةِ الْمَعْتَزَلَةِ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ.

وَكَانَ أَوَّلُ مَنْ عُرِفَ أَنَّهُ قَالَهَا الْحُسَيْنُ الْكِرَائِسِيُّ.

قال الإمام إسماعيل بن الفضل الأصبهاني: «وأول من قال باللفظ، وقال: ألفاظنا بالقرآن مخلوقة حُسين الكرابيسي، فبدَّعه أحمد بن حنبل، ووافقه على تبديعه علماء الأمصار...»^(١).

ثم ساق أسماء جماعة من الأئمة والعلماء.

ووافقه عبدالله بن سعيد بن كلاب وداود الظاهري.

وسبب ذلك ما ابتلوا به من علم الكلام المذموم، فوافقوا الجهمية في حقيقة قولهم.

ولما كان الإمام أحمد قد خبر باطل القوم، وعرف مداخله، لم يتردد في تضليلهم، وتبديعهم وتجهيمهم، ونقل عنه الثقات من أصحابه من ذلك ما فيه الكفاية والمقنع لمن نور الله قلبه بنور الهداية، وجنبه سبل الغواية.

فجاء من بعده أقوام غلطوا في معرفة حقيقة قوله، وذلك إما لحفاء نصوصه الصريحة عنهم وإما لهوى وبدعة فيهم، وإن وقع انتساب الكثير منهم للعلم والسنة.

فرايت من الضرورة - وقد خضت غمار هذا الموضوع - أن أوضح - بما يسر الله تعالى - ما وقع من اللبس في هذه القضية، ولولا ما وقع بسببها من البلاء لكان في ترك الكلام فيها غنية.

والله المستعان، ولا حول ولا قوة إلا به.



(١) كتاب «الحجة» ق ٩٢/ب.

الفصل الأول

تفسير الألفاظ المجملة التي وقع بسببها الاشكال

وفيه مبحثان:

- = المبحث الأول: بيان هل اللفظ هو المفهوم؟ أم غيره؟
- = المبحث الثاني: تبين المراد بقوله تعالى: إنه لقول رسول كريم .

المبحث الأول

بيان هل اللفظ هو الملفوظ؟ أم غيره؟

وقوعُ الإجمالِ في إطلاقِ القولِ : اللَّفْظُ هو المَلْفُوظُ، أو غيرهُ، وكذلك : القراءةُ هي المقروءُ، أو غيرهُ، وكذلك : التَّلَاوَةُ هي المتلَّوُ، أو غيره، أعظمُ مواردِ اللَّبسِ في هذه القضية.

وبيانُ ذلك كما يأتي :

(اللفظُ، القراءةُ، التَّلَاوَةُ) أَلْفَاظٌ تُطْلَقُ عَلَى الْمَصْدَرِ الَّذِي هُوَ فِعْلٌ اللَّافِظُ، والقَارِءُ، والتَّالِي، وَكَسْبُهُ الَّذِي يَكُونُ بِآلَاتِهِ وَجَوَارِحِهِ، وَمِنْهُ صَوْتُهُ وَحَرَكَةُ شَفَتَيْهِ.

وَتُطْلَقُ عَلَى الْمَفْعُولِ، الَّذِي وَقَعَ عَلَيْهِ فِعْلُ الْقَارِءِ، وَهُوَ الْمَلْفُوظُ، المقروءُ، المتلَّوُ.

والأغلبُ استعمالُها في الْمَصَادِرِ فِي لُغَةِ الْعَرَبِ، لَكِنَّهُمْ يَسْتَعْمِلُونَ الْمَصْدَرَ بِمَعْنَى الْمَفْعُولِ.

قال إمامُ العربيةِ سَيِّبُوته - رحمه الله - : «وقد يَجِيءُ الْمَصْدَرُ عَلَى الْمَفْعُولِ، وَذَلِكَ قَوْلُكَ : (لَبَنٌ حَلَبٌ) إِنَّمَا تَرِيدُ : مَحْلُوبٌ، وَكَقَوْلِهِمْ :

(الخلق) إنما يريدون: المخلوق، ويقولون للدّهرهم: (ضربُ الأمين) وإنما يريدون: مضروب الأمين.

قال: «وربّما وقع على الجميع»^(٢).

قلت: ومثاله قوله تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِنْ بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] فالخلق هنا المصدر، وهو فعله تعالى، وقوله: ﴿وَلَا مَرْنَهُمْ فَلْيَغَيِّرُنَّ خَلْقَ اللَّهِ﴾ [النساء: ١١٩] فالخلق هنا المخلوق، الذي هو مفعول الربّ تعالى.

قال ابن قُتَيْبَةَ رحمه الله: «القراءة قد تكون قرآناً، لأن السامع يسمع القراءة، وسامع القراءة سامع القرآن، وقال الله عزّ وجلّ: ﴿فَاسْتَمِعُوا لَهُ﴾ [الأعراف: ٢٠٤]، وقال: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦].

قال: «والعربُ تُسمي القراءة قرآناً، قال الشاعرُ في عثمان بن عفّان رضي الله عنه:

صَحَّوْا بِأَشْمَطَ عَنَوَانِ السُّجُودِ بِهِ يُقَطِّعُ اللَّيْلَ تَسْبِيحاً وَقُرْآنًا
أي: تسبيحاً وقراءةً.

وقال أبو عبيد: يقال قرأتُ قراءةً، وقرّناً، بمعنى واحدٍ.

فجعلها مصدرين للقرأت.

وقال الله تعالى: ﴿وَقُرْآنَ الْفَجْرِ إِنَّ قُرْآنَ الْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] أي: قراءة الفجر»^(٣).

(٢) «الكتاب» ٤/ ٤٣، ٤٤.

(٣) «الاختلاف في اللفظ» ص: ٢٤٥ - ضمن عقائد السلف -.

وفي هذا جميعاً كانت القراءة هي المقروء.

وكذلك فإن القراءة عَمَلٌ، يُثَابُ عليها فاعلُها، وكذا يَقَعُ المَذْحُ لقراءة قارئٍ، والذَّمُّ لقراءةٍ آخر، والمُفاضلةُ بين قِراءةٍ قارئٍ وآخر، وفي هذا كانت القراءة فعلُ القارئ.

فلما كانت هذه الألفاظُ تأتي بالمعنيين، بمعنى فعلِ اللفظ، والقارئ والتالي، وما وَقَعَ عليه فعلُهُ، وهو الملفوظُ المقروءُ المتلو، منع الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ من أئمةِ السُّنةِ من إطلاقِ كَلَا اللَّفْظَيْنِ في كَلَامِ الله تعالى - كما سيأتي - فلا يقالُ: اللَّفْظُ هو الملفوظُ، ولا يقالُ: غيره، وكذلك القراءةُ والتلاوةُ، لما في الإطلاقِ من إيهامٍ معانٍ فاسِدةٍ.

فلو أطلقَ القولُ: (لَفْظِي بالقرآن مخلوق) دَخَلَ في الإطلاقِ فعلُ اللفظ، وحركتهُ، وصوتهُ، وهو حَقٌّ، ودخلَ الملفوظُ الذي هو كلامُ الله المؤلفُ من الحُرُوفِ المَنطوقَةِ المَسْمُوعَةِ المَفْهُومَةِ، وهو باطلٌ.

وهذا هو مُرادُ من أطلقَ ذلك، لأنَّ أوَّلَ من أطلقه الجَهميَّةُ القائلون بأنَّ القرآنَ مخلوقٌ^(٤).

وإنَّ أطلقَ القولُ: (لَفْظِي بالقرآن غيرُ مخلوق) دَخَلَ في الإطلاقِ أيضاً فعلُ اللفظ، وهو باطلٌ، فإنَّ أفعالَ العبادِ جميعاً مخلوقةٌ لله تعالى، كما قال الله تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] ودخلَ الملفوظُ الذي هو كلامُ الله، وهو حَقٌّ، فإنَّ كلامَ الله تعالى غيرُ مخلوقٍ، حُرُوفُهُ ومعانيه.

(٤) كما قالَ ذلك شيخ الإسلام، «مجموع الفتاوى» ٤٠٧/٨.

قال شيخ الإسلام: «واللفظ في الأصل: مصدر (لَفَظَ، يَلْفِظُ، لَفْظًا) وكذلك: التلاوة، والقراءة، لكن شاع استعمال ذلك في نفس الكلام المملووظ المقرء المتلو، وهو المراد باللفظ في إطلاقهم، فإذا قيل: (لفظي، أو: اللفظ بالقرآن مخلوق) أشعر أن هذا القرآن الذي يقرؤه ويلفظ به مخلوق، وإذا قيل: (لفظي غير مخلوق) أشعر أن شيئاً مما يضاف إليه غير مخلوق، وصوته وحركته مخلوقان، لكن كلام الله الذي يقرؤه غير مخلوق، والتلاوة قد يراد بها نفس الكلام الذي يتلى، وقد يراد بها نفس حركة العبد، وقد يراد بها مجموعهما، فإذا أريد بها الكلام نفسه الذي يتلى فالتلاوة هي المتلو، وإذا أريد بها حركة العبد فالتلاوة ليست هي المتلو، وإذا أريد بها المجموع فهي متناولة للفعل والكلام، فلا يطلق عليها أنها المتلو، ولا أنها غيره»^(٥).

قلت: ولذا قال الإمام أحمد رحمه الله: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق فهو جهمي، ومن قال: غير مخلوق، فهو مبتدع، لا يكلم»^(٦). وقال عبد الله ابنه: وكان أبي رحمه الله يكره أن يتكلم في اللفظ بشيء، أو يقال: مخلوق، أو غير مخلوق^(٧).

(٥) «مجموع الفتاوى» ١٢/٣٠٦-٣٠٧.

(٦) رواه الخلال في «السنة» - كما في «مجموع الفتاوى» ١٢/٣٢٥ - بسند صحيح عن أحمد.

وكذا رواه ابن جرير في «صريح السنة» رقم (٣٢) - وعنه: اللالكائي في «السنة» ٢/٣٥٥ - عن جماعة عن أحمد نحوه.

(٧) «السنة» لعبد الله رقم (١٨٦).

وسياتي شرح قول الطائفتين : النافية ، والمثبتة .
والمقصود هنا بيان عدم صحة إطلاق القول بخلق اللفظ وعدمه في
كلام الله تعالى .



المبحث الثاني

تعيين المراد بقوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ﴾

قول الله تعالى هذا جاء في موضعين من كتابه:

الموضع الأول: في سورة الحاقة [آية: ٤٠].

والموضع الثاني: في سورة التكويد [آية: ١٩].

والمُرَادُ بالرُّسُولِ في آية الحاقَّة نبيُّنا ﷺ، وفي آية التكويد جبريلُ عليه السَّلام، فأحدُهُما الرُّسُولُ البَشَرِيُّ، والأخرُ الرُّسُولُ المَلَكِيُّ.

قال تعالى: ﴿اللَّهُ يَصْطَفِي مِنَ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا وَمِنَ النَّاسِ﴾ [الحج: ٧٥] وقال سبحانه: ﴿جَاعِلِ الْمَلَائِكَةِ رُسُلًا أُولِي أَجْنِحَةٍ مَّثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ﴾ [فاطر: ١].

وأما الدليلُ على تعيين المراد في الموضع الأولِ أَنَّهُ مُحَمَّدٌ ﷺ فَمِنْ وَجْهِ دَلِّ عَلَيْهَا سِياقُ الْآيَاتِ.

قال تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ كَرِيمٍ . وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَاعِرٍ قَلِيلًا مَّا تُؤْمِنُونَ . وَلَا بِقَوْلِ كَاهِنٍ قَلِيلًا مَّا تَذْكُرُونَ . تَنْزِيلُ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ . وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا بَعْضُ الْأَقَاوِيلِ . لَأَخَذْنَا مِنْهُ بِالْيَمِينِ . ثُمَّ لَقَطَعْنَا مِنْهُ الْوَتِينَ .

فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ . وَإِنَّهُ لَتَذِكْرَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿الآيات [الحاقة : ٤٠ - ٤٨] .

فالوجه الأول : دلَّ السياق على أنَّ المراد تنزيه كون هذا القول الذي هو القرآن قولَ شاعرٍ أو كاهنٍ .

والذي وصفه الكفار بالشعر والكهانة هو رسول الله ﷺ ، كما قال تعالى : ﴿بَلْ قَالُوا أَضْغَاثُ أَحْلَامٍ بَلْ افْتَرَاهُ بَلْ هُوَ شَاعِرٌ﴾ [الأنبياء : ٥] وكما قال تعالى : ﴿وَيَقُولُونَ أَأَنَّا لَتَارِكُو آلِهَتِنَا لِشَاعِرٍ مَّجْنُونٍ﴾ [الصفافات : ٣٦] فأبطل الله تعالى وصفهم إيَّاه بذلك بإثبات أنه قولُ رسولٍ كريمٍ ، اجتمعت فيه معاني الكرم ، والتي منها طهارته ونزاهته وصدقته وأمانته ، التي تمنعه من التَّقول والافتراء ، والشعر والكهانة ، إذ أنها جميعاً معاني باطلة لا تليق بمقامه ، لأنه الكريم في خلقه وطبعه وأصله .

والوجه الثاني : قوله : ﴿وَلَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا﴾ أضمرَ الفاعل للعلم به ، وهو المذكور آنفاً بوصفه الرسول الكريم ، وهذا ظاهرٌ ، فلو لم يكن محمداً ﷺ فَمَنْ يَكُونُ إِذَا؟

أجاب عن هذا بعضُ المُبتدعة فقال : هو جبريلُ عليه السَّلام ، بقرينة آية التكوين .

قلنا : يرده ظاهرُ الخطاب ، قال تعالى : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ وهذا خطابٌ لقريشٍ ، فلو كان جبريلُ عليه السَّلام هو المفترض تقوُّله ، فلا معنى إذاً لتحدي قريشٍ بقوله : ﴿فَمَا مِنْكُمْ مِنْ أَحَدٍ عَنْهُ حَاجِزِينَ﴾ لأنَّ حمايتهم وحفظهم لجبريلَ غيرُ مقدورٍ لهم ، فلا فائدة

من تحديهم فيه .

والوجه الثالث : أن هذا قولُ عامة المفسرين ، إلا مَنْ شذَّ لبدةٍ أو
عَدَمَ أمانة ، كالكلبي ومقاتل^(٨) .

والدليل على تعيين المراد في الموضع الثاني ، وأنه جبريل عليه
السلام ، فمن وجوه أيضاً :

الأول : وصفه بقوله : ﴿ ذِي قُوَّةٍ عِنْدَ ذِي الْعَرْشِ مَكِينٍ ﴾ كقوله في
النجم : ﴿ شَدِيدُ الْقُوَى . ذُو مِرَّةٍ ﴾ ومعلوم هناك أنه جبريل .

والثاني : قوله : ﴿ وَمَا صَاحِبُكُمْ بِمَجْنُونٍ . وَلَقَدْ رَآهُ بِالْأُفُقِ الْمُبِينِ ﴾
الهاء في قوله : ﴿ رَآهُ ﴾ عائدة على الرسول الكريم ، والذي رآه صاحبنا
محمد ﷺ بالأفق المبين إنما هو جبريل عليه السلام كما صرح به الخبر عن
النبي ﷺ ، وقد سُقناه في الباب الأول^(٩) .

والثالث : قوله : ﴿ وَمَا هُوَ بِقَوْلِ شَيْطَانٍ رَجِيمٍ ﴾ ردُّ على الكفارِ
القائلين : إنما يأتي محمداً شيطاناً يعلمه ، وهو نظيرُ قوله تعالى : ﴿ وَمَا
تَنْزَلَتْ بِهِ الشَّيَاطِينُ . وَمَا يَنْبَغِي لَهُمْ وَمَا يَسْتَطِيعُونَ . إِنَّهُمْ عَنِ السَّمْعِ
لَمَعَزُولُونَ ﴾ [الشعراء : ٢١٠ - ٢١٢] ، وكان هذا بعدَ قوله : ﴿ وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ

(٨) « زاد المسير » ٣٥٤ / ٨ .

والكلبي هو محمد بن السائب مفسر مشهور ، وكان كذاباً معروفاً بالكذب ،
ليس بثقة ولا مأمون ، وكان صاحب ضلالة ، يؤمنُ برَجعة علي ، وأما مقاتل فهو ابن
سليمان مفسر مشهور أيضاً ، ولم يكن ثقة ولا مأموناً واتهم بالكذب ، وكان مجسماً
مشبهاً للرب تعالى بخلقه .

(٩) ص ١٠٤ .

رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنذِرِينَ .
بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ ﴿ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥] ، وهذا ظاهرٌ في كونه جبريلَ
عليه السَّلام .

والرابع : اتَّفَقَ الْمُفَسِّرِينَ عَلَى أَنَّهُ جَبْرِيلُ .

فهذه الوجوه التي سَقَطَتْهَا كَافِيَةُ لِلدَّلَالَةِ عَلَى تَعْيِينِ الْمُرَادِ بِالرَّسُولِ فِي
كِلَا الْمَوْضِعَيْنِ لِمَنْ هَدَاهُ اللَّهُ تَعَالَى وَبَصَّرَهُ ، مَعَ أَنِّي أَرَى الْفَرْقَ بَيْنَهُمَا
ظَاهراً بَادِئاً تَأْمُلُ .

● معنى إضافة القول إلى جبريل ومحمد عليهما الصلاة والسلام :

الْمُرَادُ بِالْقَوْلِ ظَاهِرٌ فِي أَنَّهُ الْقُرْآنُ الْمُنَزَّلُ بِهَذَا اللِّسَانِ الْعَرَبِيِّ
الْمُبِينِ ، الَّذِي هُوَ تَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَإِضَافَتُهُ إِلَى الرَّسُولَيْنِ لِأَجْلِ أَنَّ
كُلًّا مِنْهُمَا بَلَّغَهُ وَأَدَّاهُ ، فَهُوَ قَوْلُهُ مِنْ هَذِهِ الْجِهَةِ ، وَلَيْسَ قَوْلُهُ بِمَعْنَى أَنَّهُ أَنْشَأَهُ
وَابْتَدَأَهُ لِامْتِنَاعِ ذَلِكَ ، إِذْ أَنَّهُ لَوْ كَانَ مِنْ إِنْشَاءِ أَحَدِهِمَا وَنَظْمِهِ لَمَا صَحَّتْ
إِضَافَتُهُ إِلَى أَحَدِهِمَا دُونَ الْآخَرِ ، لِأَنَّ كُلًّا مِنْهُمَا يَكُونُ قَدْ أَنْشَأَهُ وَقَالَهُ ، وَهُوَ
بَاطِلٌ .

وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ بِالْفَاظَةِ وَمَعَانِيهِ جَمِيعاً ، أَلْقَاهُ إِلَى جَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ،
فَبَلَّغَهُ جَبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ ، فَبَلَّغَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ إِلَى أُمَّتِهِ ، وَلَيْسَ لَجَبْرِيلَ
عَلَيْهِ السَّلَامُ وَلَا لِمُحَمَّدٍ ﷺ إِلَّا التَّبْلِيغُ وَالْأَدَاءُ .

والدليل عليه من وجوه :

الأول : أَنَّهُ قَالَ : ﴿ لَقَوْلُ رَسُولٍ ﴾ وَلَمْ يَقُلْ : لَقَوْلُ مَلَكٍ ، أَوْ : نَبِيِّ ،

والرسولُ يَقْتَضِي مُرْسِلًا وَمُرْسَلًا بِهِ، والمُرْسِلُ هو الله تعالى، والمرسلُ به كلامه ووحْيُهُ، لا معنى للرسالة إلا هذا.

قال ابن قتيبة رحمه الله: «لم يُرد أنه قول الرسول، وإنما أراد أنه قول رسولٍ عن الله جلَّ وعزَّ، وفي الرسول ما دلَّ على ذلك، فاكتفى به من أن يقول: عن الله»^(١٠).

والثاني: أنه لو كان الرسول قد أنشأ لما كان أميناً على رسالته، لأنَّ المُرْسِلَ ائتمنه على تبليغ كلامه على وجهه بالفاظه ومعانيه - لأنَّ الكلام لا يكون إلا كذلك كما سبق تقريره في الباب الأول - فأنشأ له الرسول نظماً آخر، وهذا خيانة للأمانة.

والثالث: أنه لو كان من إنشاء أحد الرُّسُولين لامتنع أن يكون من إنشاء الآخر - كما سبق قريباً -

والرابع: أن الله تعالى قال عقب إضافة القول إلى الرسول الكريم في سورة الحاقة، وبعد أن نزهه عن أن يكون قول شاعرٍ أو كاهنٍ: ﴿تَنْزِيلٌ مِنْ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ فجعل ابتداءه منه لا من محمدٍ ﷺ، ولا من جبريل عليه السلام، يُجَلِّيه ويوضحه قوله في الشعراء: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ . نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ . عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ . بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ فبين أن المنزل بلسانٍ عربيٍّ مُبِينٍ - واللِّسانُ: اللُّغة - هو الذي نزل به الروح الأمين جبريل من عند ربِّ العالمين تعالى، فبان بهذا أنه قوله تعالى وكلامه ووحْيُهُ.

(١٠) «تفسير غريب القرآن» ص: ٤٨٤.

والخامس : أنه تعالى توعد بسقر من زعم أنه قول البشر، كما قال عن الوحيد : ﴿ إِنَّهُ فَكَّرَ وَقَدَّرَ . فَقَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ قَتَلَ كَيْفَ قَدَّرَ . ثُمَّ نَظَرَ . ثُمَّ عَبَسَ وَبَسَرَ . ثُمَّ أَدْبَرَ وَاسْتَكْبَرَ . فَقَالَ إِنْ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْتَرُ . إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ . سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر : ١٨ - ٢٦] .

ولا يخفى أنه لا فرق بين أن يدعى أنه قول البشر، أو أنه قول ملك، أو جني .

والسادس : أن الله تعالى خاطب به العرب بلسانهم، وتحذاهم أن يأتوا بمثله، أو بمثل عشر سور مثله، بل تحذاهم أن يأتوا بسورة مثله، كما قال : ﴿ قُلْ لِّئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ [الإسراء : ٨٨] وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُورٍ مِثْلِهِ مُفْتَرِيَاتٍ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ . فَإِنْ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَكُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّمَا أُنْزِلَ بِعِلْمِ اللَّهِ وَأَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ فَهَلْ أَنْتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾ [هود : ١٣ - ١٤] وقال : ﴿ أَمْ يَقُولُونَ افْتَرَاهُ قُلْ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ وَادْعُوا مَنْ اسْتَطَعْتُمْ مِنْ دُونِ اللَّهِ إِنْ كُنْتُمْ صَادِقِينَ ﴾ [يونس : ٣٨] ، ولم يكن ليتحذاهم بغير مقدور لهم، فلمّا أعجزهم الإتيان بمثله أو بشيء من مثله دلّ على أنه ليس بكلام البشر، ولا ككلام الجن، وإنما هو كلام ربّ الإنس والجن .

واستقصاء الوجه لما ذكرنا يطول، وفيما ذكرنا كفاية لمن استهدى .

وقد سبق تقرير العقيدة السلفية في أن القرآن العربي وغيره من كلام الله، من الله بدأ وإليه يعود، وذكرت لذلك من الأدلة ما فيه الكفاية، وإنما

المقصودُ هُنا إزالةُ الاشتباهِ الذي أوردَهُ بعضُ أهلِ البدعِ حولَ إضافةِ القولِ
إلى الرسولِ في سورتي الحاقةِ والتكويرِ، وأنَّ القرآنَ كلامُ الله تعالى ألفاظه
ومعانيه، غيرُ مخلوقٍ بألفاظه - التي هي حروفه العربية المنظومة - ومعانيه .



الفصل الثاني

مسألة اللفظ وموقف أهل السنة

وفيه خمسة مباحث:

= المبحث الأول: جملة اختلاف الناس في مسألة اللفظ.

= المبحث الثاني: اللفظية النافية جهمية.

= المبحث الثالث: إقامة الحجة على بطلان اعتقاد اللفظية النافية.

= المبحث الرابع: بيان خطأ اللفظية النافية على الأوامين أحمد والبخاري.

= المبحث الخامس: اللفظية المثبتة مبتدعة.

المبحث الأول

جملة اختلاف الناس في مسألة اللفظ

حينَ ابتَدَعَ الجَهْمِيَّةُ - قَاتَلَهُمُ اللهُ - القَوْلَ بأنَّ أَلْفَاظَ العِبَادِ بِالْقُرْآنِ مخلوقةٌ، أَوْقَعَ ذَلِكَ لُبْسًا، جَرَّ بَعْضَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ وَالْحَدِيثِ إِلَى الْوُقُوعِ فِي بَعْضِ الْمَحَازِيرِ، بَلْ جَرَّ آخَرِينَ إِلَى مُوَافَقَةِ الْجَهْمِيَّةِ فِي حَقِيقَةِ قَوْلِهِمْ وَمُرَادِهِمْ، وَكَانَتْ مَسْأَلَةُ اللَّفْظِ سِتْرًا يَسْتَتِرُ بِهِ الْمَنَافِقُونَ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، لِمَا يَخْشَوْنَ مِنْ فَضِيحَةِ أَهْلِ الْحَقِّ لَهُمْ حِينَ يَصْرِّحُونَ بِاعْتِقَادِهِمْ، فيقولونَ: القرآنُ مخلوقٌ.

وكان الناس قد افترقوا حينَ ظَهَرَتْ هَذِهِ الْبِدْعَةُ إِلَى أَرْبَعِ فِرَقٍ:

الأولى: الجَهْمِيَّةُ الْقَائِلِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، تَسْتَرُوا بِالْقَوْلِ: أَلْفَاظُنَا بِالْقُرْآنِ مخلوقةٌ، وَمُرَادُهُمْ: أَنَّ كَلَامَ اللهِ مَخْلُوقٌ اعْتِقَادًا أَسْلَافَهُمْ.

والثانية: طَائِفَةٌ شَابَهَتِ الْجَهْمِيَّةَ فِي بَعْضِ قَوْلِهِمْ، وَهِيَ الْكَلَابِيَّةُ - أَتْبَاعُ عَبْدِ اللهِ بْنِ كَلَّابٍ - فَأُطْلِقُوا الْقَوْلَ كَالْجَهْمِيَّةِ: أَلْفَاظُنَا بِالْقُرْآنِ مخلوقةٌ، وَمُرَادُهُمْ: أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جِبْرِيلُ، الَّذِي هُوَ الْأَلْفَاظُ الْمُؤَلَّفَةُ مِنَ الْحُرُوفِ كَالْأَلْفِ وَالْبَاءِ وَالنَّاءِ، مَخْلُوقٌ، وَأَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يَتَكَلَّمْ بِالْحُرُوفِ، إِنَّمَا كَلَامُهُ مَعْنَى مُجَرَّدٌ عَنِ الْأَلْفَاظِ وَهَذَا قَدِيمٌ غَيْرُ

مخلوق، وهؤلاء هم المُسَمَّون بـ «اللفظية النافية».

والثالثة: طائفة من أهل الحديث، كأبي حاتم الرازي الحافظ، وأبي سعيد الأشج^(١١)، وغيرهما، لما رأوا تضمّن قول الجهمية والكلائية معنى باطلاً، أرادوا الردّ عليهم، فأطلقوا القول بضدّ مقالّتهم، فقالوا: ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة.

ومرادهم: أن الألفاظ المؤلّفة من الحروف، والتي هي القرآن العربي الذي نزل به جبريل عليه السلام من ربّ العالمين غير مخلوقة، لكن لما كان إطلاقهم مؤمهاً إدخال فعل العبد فيه والذي بيناه فيما مضى، وقع المحذور، فتبعته طائفة على مقالّتهم وأدخلوا في إطلاقها صوت العبد بالقرآن وفعله، وربما توقّف بعضهم في ذلك، وهؤلاء هم المُسَمَّون بـ (اللفظية المُثبتة).

والرابعة: طائفة الأئمة الرّبانين من أهل السّنة والاتباع - كالإمامين أحمد والبُخاري وأتباعهما - منعوا إطلاق القولين السابقين: اللفظ بالقرآن مخلوق، وغير مخلوق، وقالوا: القرآن كلام الله ووحيه وتنزيله، بالفاظه ومعانيه، ليس هو كلامه بالفاظه دون معانيه، ولا بمعانيه دون ألفاظه، وأفعال العباد وأصواتهم مخلوقة، والعبد يقرأ القرآن، فالصوت صوت القارئ، والكلام كلام الباري.

هذه جملة مذاهب الناس حين ظهرت بدعة اللفظ.

(١١) ذكره عنهما الحافظ أبو الشيخ الأصبهاني، فيما رواه عنه قوام السّنة إسماعيل بن الفضل في كتابه القيم «الحجة» ق ١١٢/ب - ١١٣/أ وأبو حاتم اسمه محمد بن إدريس، والأشج عبدالله بن سعيد.

المبحث الثاني اللفظية النافية جهمية

اللفظية النافية - كما سبق قريباً - هم القائلون: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) ويريدون: أن القرآن العربي مخلوق، وأن جبريل إنما نزل بقرآن مخلوق.

وهذا القول في الحقيقة هو قول الجهمية الذين أطلقوا أن القرآن مخلوق، فإن القرآن لا يُعرف إلا أنه اسم للنظم العربي، والجهمية أطلقت القول بخلقه، وهؤلاء وافقوهم في كون القرآن العربي مخلوق النظم، لأنه مؤلف من الحروف، وما تألف من الحروف فهو مخلوق، لأن الحروف مخلوقة، والله لم يتكلم بها، إلا أنهم خالفوهم خلافاً لفظياً في الحقيقة، وذلك أنهم ادَّعَوْا لله تعالى صفة الكلام، لكنهم قالوا: هو معنى أو معاني مجردة، ليست بحروف ولا أصوات، وهذا القول من أفسد المقالات، وسيأتي نقضه عليهم في الباب الثالث في الرد على الأشعرية.

وإنما وصفته بكونه (لفظياً) لأن القائلين به لم يثبتوا في الحقيقة لله تعالى صفة الكلام، وإنما افتروا صفة لا حقيقة لها، فنسبوها للرب تعالى، سموها صفة الكلام، وأبطلوا ما هو معلوم ضرورة في تفسير الكلام.

فلذا صَحَّ وصفُهُم بِالْجَهْمِيَّةِ .

وقَدْ قَالَ الإمام أحمدُ رحمه الله - فيما رواه ابنه صالح عنه - :
« افترقت الجَهْمِيَّةُ على ثلاثٍ (١٢) فِرْقٍ : فِرْقَةٌ قالوا : القرآنُ مخلوقٌ ، وفِرْقَةٌ
قالوا : كلامُ الله وتسكُتُ ، وفِرْقَةٌ قالوا : لفظُنا بالقرآنِ مخلوقٌ ، قالَ الله عزَّ
وجلَّ في كتابه : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] فجبريلُ سَمِعَهُ
من الله ، وسَمِعَهُ النبيُّ ﷺ من جبريلَ عليه السلام ، وسَمِعَهُ أَصْحَابُ النبيِّ
ﷺ من النبيِّ ، فالقرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ » (١٣) .

والنصوصُ عن الإمام أحمدَ في تبديعِهِم ، بل وبعضُها في تكفيرِهِم ،
متواترةٌ ، أسوقُ منها بعضَ ما فَتَحَ الله تعالى بِهِ ، وثَبَّتَ إِسْنَادُهُ .

وهو مَرُويٌّ عنه من وجوه :

١ - عبد الله ابنه عنه .

قال : سألت أبي رحمه الله ، قلتُ : ما تقولُ في رجلٍ قال : التَّلَاوَةُ
مَخْلُوقَةٌ ، وَالْفَاطِنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عزَّ وجلَّ وليسَ
بِمَخْلُوقٍ ؟ وما ترى في مُجَانِبَتِهِ ؟ وهل يُسَمَّى مُبْتَدِعاً ؟ فقال : « هذا يُجَانِبُ ،
وهو قولُ المُبْتَدِعِ ، وهذا كلامُ الجَهْمِيَّةِ ، ليسَ القرآنُ بمخلوقٍ ، قالتُ
عائشةُ رضي الله عنها : تلا رسولُ الله ﷺ : ﴿ هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ
مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ ﴾ (١٤) [آل عمران : ٧] فالقرآنُ ليسَ

(١٢) في الأصل المنقول عنه : ثلاثة .

(١٣) رواه صالح في « المحنة » ص : ٧٢ عن أبيه .

(١٤) أراد حديث عائشة في الذين يتبعون المتشابهة ، وسيأقُّه ، قالت : تلا =

بِمَخْلُوقٍ» (١٥).

وقال عبدالله: سَأَلْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ، قُلْتُ: إِنَّ قَوْمًا يَقُولُونَ: لَفْظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ؟ فَقَالَ: «هَمْ جَهْمِيَّةٌ، وَهَمْ أَشْرُ مِمَّنْ يَقِفُ» (١٦)، هَذَا قَوْلُ جَهْمٍ.

وَعَظَّمَ الْأَمْرَ عِنْدَهُ فِي هَذَا، وَقَالَ: «هَذَا كَلَامُ جَهْمٍ» (١٧).

وقال عبدالله: سَمِعْتُ أَبِي رَحِمَهُ اللَّهُ يَقُولُ:

«كُلُّ مَنْ يَقْصِدُ إِلَى الْقُرْآنِ بِلَفْظٍ، أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ، يُرِيدُ بِهِ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ» (١٨).

قُلْتُ: وَأَرَادَ بِقَوْلِهِ: «يُرِيدُ بِهِ...» إلخ، الاحتراز عن قول من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، وأراد فعل العبد القائم به الذي هو حركته وصوته، لا كلام الله تعالى المَسْطُورَ المكتوبَ المَلْفُوظَ، فَإِنَّ مَنْ قَالَ ذَلِكَ عَلَى هَذَا النَحْوِ فَقَوْلُهُ حَقٌّ عَلَى هَذَا الْمَعْنَى، لَكِنْ إِطْلَاقُهُ غَيْرُ جَائِزٍ لَمَّا يَوْقَعُ فِيهِ مِنَ الْمَحْذُورِ.

= رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ...﴾ - الآية إلى آخرها - قالت: قال رسول الله ﷺ: «إِذَا رَأَيْتُمُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ مَا تَشَابَهَ مِنْهُ، فَأُولَئِكَ الَّذِينَ سَمَّى اللَّهُ، فَاحْذَرُوهُمْ».

أخرجه البخاري ٢٠٩/٨ ومسلم رقم (٢٦٦٥) وغيرهما من حديث عائشة.

(١٥) رواه عبدالله في «السنة» رقم (١٧٨).

(١٦) أي: لا يقول مخلوق، ولا غير مخلوق.

(١٧) رواه عبدالله في «السنة» رقم (١٨٠) ب.

(١٨) رواه عبدالله في «السنة» رقم (١٨٣).

وقال عبد الله: سمعت أبي يقول: «مَنْ قال: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ،
هَذَا كَلَامٌ سُوءٌ رَدِيٌّ، وَهُوَ كَلَامُ الْجَهْمِيَّةِ».

قلتُ له: إِنَّ الْكَرَائِسِيَّ يَقُولُ هَذَا، فَقَالَ:
«كَذَبَ، هَتَكَهُ اللَّهُ، الْخَبِيثُ».

وقال: «قَدْ خَلَفَ هَذَا بَشَرًا الْمَرِيسِيَّ»^(١٩).

قلتُ: وَالْكَرَائِسِيُّ هُوَ الْحُسَيْنُ، مِنْ أَسْلَافِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمَاتُرِيدِيَّةِ
فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ، فَإِنَّ مَقَالَتَهُمْ نَفْسُ مَقَالَتِهِ مَعَ زِيَادَةٍ عَلَيْهِ، وَهُوَ أَحْسَنُ حَالًا
مِنْهُمْ بكَثِيرٍ.

وهذا الذي ذكرتُ بعضُ ما نَقَلَ عَبْدُ اللَّهِ عَنْ أَبِيهِ.

٢ - صالح ابنه عنه.

قال: قلتُ لأبي: مَنْ قال: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ يُكَلِّمُ؟ قال: «هَذَا
لَا يُكَلِّمُ، وَلَا يُصَلِّي خَلْفَهُ، وَإِنْ صَلَّى رَجُلٌ أَعَادَ»^(٢٠).

وسَبَقَ قَبْلَ قَلِيلٍ نَقَلُهُ عَنْ أَبِيهِ قَوْلُهُ فِي افْتِرَاقِ الْجَهْمِيَّةِ إِلَى ثَلَاثِ
فِرَقٍ، مِنْهَا اللَّفْظِيَّةُ.

٣ - يعقوب بن إبراهيم الدُّورَقِيُّ عنه.

قال له أحمد: «إِنَّ اللَّفْظِيَّةَ إِنَّمَا يَدُورُونَ عَلَى كَلَامِ جَهْمٍ، يَزْعُمُونَ
أَنَّ جَبْرِيلَ إِنَّمَا جَاءَ بِشَيْءٍ مَخْلُوقٍ» يعني: جَبْرِيلَ، مَخْلُوقٌ جَاءَ بِهِ إِلَى

(١٩) رواه عبد الله في «السنة» رقم (١٨٦).

(٢٠) رواه صالح في «المحنة» ص: ٧٠.

محمد ﷺ (٢١).

وقال صالح بن أحمد: سأل يعقوب بن إبراهيم الدورقي أبي عثمان قال: لفظه بالقرآن مخلوق، كيف يقول في هؤلاء؟ قال: «لا يُكَلِّمُ هؤلاء، ولا يُكَلِّمُ في هذا، القرآن كلام الله غير مخلوق على كل جهة، وعلى كل وجه، وعلى أي حال» (٢٢).

٤ - أحمد بن إبراهيم الدورقي عنه.

قال: سألت أحمد بن حنبل، قلت: هؤلاء الذين يقولون: إن ألفاظنا بالقرآن مخلوقة؟ قال: هم شر من قول الجهمية، من زعم هذا فقد زعم أن جبريل جاء بمخلوق، وأن النبي ﷺ تكلم بمخلوق» (٢٣).

٥ - أبو داود سليمان بن الأشعث عنه.

قال: سمعت أحمد يتكلم في اللفظية، ويذكر عليهم كلامهم (٢٤).
وقال: كتبت رُقعةً، وأرسلت بها إلى أبي عبد الله - وهو يومئذ متوارٍ - فأخرج إليَّ جوابه مكتوباً فيه:

قلت: رجل يقول: التلاوة مخلوقة، وألفاظنا بالقرآن مخلوقة، والقرآن ليس بمخلوق، وما ترى في مُجانبته؟ وهل يُسمَّى مبتدعاً؟ وعلى ما يكون عَقْدُ القلب في التلاوة والألفاظ؟ وكيف الجواب فيه؟

(٢١) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٧١ عنه.

(٢٢) رواه صالح في «المحنة» ص: ٧٠.

(٢٣) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٧١.

(٢٤) «المسائل» ص: ٢٦٤.

قال: «هذا يُجانبُ، وهو فوقُ المُبتدعِ، وما أراه إلا جَهْمِيًّا، وهذا كلامُ الجَهْمِيَّةِ، القرآن ليسَ بمخلوقٍ، قالت عائشة رضي الله عنها: قالَ رسول الله ﷺ: ﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ عَلَيْكَ الْكِتَابَ مِنْهُ آيَاتٌ مُحْكَمَاتٌ هُنَّ أُمُّ الْكِتَابِ وَأُخَرُ مُتَشَابِهَاتٌ...﴾ الآية، قالت: فقال رسول الله ﷺ: «إذا رأيتمُ الذين يتَّبِعُونَ ما تشابهَ منه فأحدِّروهم، فإنهم هم الذين عني الله» (٢٥). فالقرآن ليسَ بمخلوقٍ» (٢٦).

٦ - إسحاق بن إبراهيم بن هانيء النيسابوري عنه.

قال: سمعتُ أبا عبد الله - يعني أحمد - يقول:

«مَنْ زَعَمَ أَنَّ لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ».

وقال: «أرأيتَ جبريلَ عليه السَّلام حيث جاءَ إلى النَّبيِّ ﷺ فتلاَ عليه، تلاوةُ جبريلَ للنبيِّ ﷺ أَكَانَ مَخْلُوقًا؟ ما هو مَخْلُوقٌ» (٢٧).

وقال: وسألته عن الذي يقول: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ؟

قال: «هذا كلامُ جَهْمٍ، مَنْ كَانَ يُخَاصِمُ مِنْهُمْ فَلَا يُجَالِسُ، وَلَا يُكَلِّمُ، وَالْجَهْمِيُّ كَافِرٌ» (٢٨).

وقال: سئل - يعني أحمد - عَمَّنْ يَقُولُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، أَيُصَلِّيُ خَلْفَهُ؟

(٢٥) هو عين الحديث الذي سبق قريباً في التعليق رقم (١٤) من هذا الباب.

(٢٦) «المسائل» ص: ٢٦٥.

(٢٧) «مسائل ابن هانيء» ١٥٢/٢ - ١٥٣.

(٢٨) «مسائل ابن هانيء» ١٥٤/٢.

قال: «لا يُصَلَّى خلفه، ولا يُجَالَسُ، ولا يُكَلَّمُ، ولا يُسَلَّمُ عليه» (٢٩).

٧ - أبو إسماعيل محمد بن إسماعيل الترمذي عنه.

قال: سمعتُ أبا عبد الله أحمد بن حنبل يقول: «اللفظية جهمية، يقول الله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ مِمَّنْ يَسْمَعُ؟» (٣٠).

٨ - أبو بكر محمد بن عبد الملك بن زنجويه عنه.

قال: سمعتُ أحمد بن حنبل يقول: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ» (٣١).

فهذه بعض النصوص الصحيحة الثابتة عن الإمام أحمد، وهي عن الأثبات من أصحابه عنه، دالة دلالة صريحة على أن اللفظية جهمية، وهم بمنزلة المصريحين بخلق القرآن.

وقد حكى الإمام أبو عثمان الصابوني في «عقيدته» ما حكاه ابن جرير رحمه الله عن الإمام أحمد في تجهيم اللفظية، ثم قال: «والذي حكاه عن أحمد رضي الله عنه وأرضاه: أن اللفظية جهمية، فصحيح عنه، وإنما قال ذلك لأن جهماً وأصحابه صرحوا بخلق القرآن،

(٢٩) «مسائل ابن هانئ» ١٥٢/٢.

(٣٠) رواه ابن جرير في «صريح السنة» رقم (٣١) ومن طريقه ابن الطبري في «السنة» ١٨٥/١، ٣٥٥/٢ وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» ٢٧٩/١ - ٢٨٠ وهو صحيح عنه.

(٣١) رواه الخلال في «السنة» - كما في «مجموع الفتاوى» ٣٢٥/١٢ - عن أبي بكر به.

والذين قالوا باللفظ تَدْرَجُوا به إلى القولِ بخلق القرآن، وخافوا أهل السنة في ذلك الزمان من التصريح بخلق القرآن، فأذرجوه في هذا القول ذي اللبس، لئلا يُعدّوا في زمرة جهم الذين هم شياطين الإنس يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غروراً، فذكروا هذا اللفظ وأرادوا به أن القرآن بلفظنا مخلوق، فلذلك سمّاهم أحمد رحمه الله جهميّة، وحكي عنه أيضاً أنه قال: اللفظية شر من الجهمية» (٣٢).

قلت: صرحت نصوص الإمام أحمد السابقة بتجهيم اللفظية، لأجل أنهم يعدّون القرآن العربي، المسموع المقرء الملفوظ، المؤلف من الحروف والكلمات، والسور والآيات، مخلوقاً، وقد بين أحمد رحمه الله ذلك بقوله: «يزعمون أن جبريل، إنما جاء بشيء مخلوق» وهذا هو الفصل في مراد أحمد بتجهيم اللفظية.

ولم يُجهّم الإمام أحمد من أراد باللفظ فعل القارئ وصوته الذي هو مخلوق، ولذا أبان عن ذلك بقوله الذي رواه عنه ابنه عبد الله: «كل من يقصد إلى القرآن بلفظ، أو غير ذلك، يُريد به مخلوق، فهو جهمي» وأبين منه قوله: «من قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريد به القرآن، فهو كافر» (٣٣) فاحترز بقوله: «يريد به القرآن» عن تكفير من قال: «لفظي بالقرآن مخلوق» ويُريد به حركته وصوته به، لا نفس الكلام الملفوظ المقرء، مع أن إطلاق هذا اللفظ فيه إيهام القول بخلق الملفوظ الذي هو كلام الله، فوجب

(٣٢) «عقيدة السلف» فقرة (١٦).

(٣٣) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٦٦ و«الاعتقاد» ص:

١١٠ عن عبد الله، وإسناده صحيح.

الكَفِّ عنه كَلِيَّةٌ لِأَجْلِ ذَلِكَ .

وقد غَلِطَ أقوامٌ على الإمام أحمد في هذه المسألة ، فقالوا عليه ما لم يُقُلْ ، وافترَوْا عليه القولَ بِخَلْقِ القرآنِ العربيِّ المنظومِ من الحروفِ العربيةِ الذي نَزَلَ به جبريلُ على نبيِّنا ﷺ ، وقد خَصَّصْتُ مبحثاً في هذا الفصل لتبرئته ممَّا نُسِبَ إليه ، وإقامةِ الحُجَجِ القَواطِعِ من النقولِ الصحيحةِ عنه على بطلانِ هذه النسبةِ إليه .

وقَدْ وافقَ الإمامَ أحمدَ غيره من أئمةِ السُّنةِ في زمانه وبعده ، في إنكارِ بدعةِ اللفظيةِ النافيةِ ، فمنهم :

١ - إسحاق بن إبراهيم بن راهُوتهِ الإمام العَلَم .

قال أبو داود السَّجِسْتَانِي : سمعتُ إسحاق بن إبراهيم سَأَلَ عن اللفظيةِ ؟ فبدَّعَهم (٣٤) .

٢ - أبو جعفر أحمد بن صالح المِصْرِيّ الحافظ .

قال أبو داود : سمعتُ أحمد بن صالح ذَكَرَ اللفظيةَ فقال : «هؤلاءُ أصحابُ بدْعةٍ ، ويدخلُ عليهم أكثرُ من البدعةِ» (٣٥) .

٣ - أبو مصعب أحمد بن أبي بكر الزُّهْرِيّ الفَقِيه القاضِي .

أتاه قومٌ فسألوه : إِنَّ قِبَلَنَا ببغدادَ رجلاً يقولُ : لَفْظُهُ بالقرآنِ مخلوقٌ ؟ فقال : «يا أهلَ العراقِ ، ما يأتينا منكم هَنا ، ما يَنْبَغِي أن نتلقى

(٣٤) «المسائل» لأبي داود ص : ٢٧١ .

(٣٥) «المسائل» لأبي داود ص : ٢٧١ .

وجوهكم إلا بالسيف، هذا كلامٌ نَبَطِيٌّ خَبِيثٌ» (٣٦).

٤، ٥ - أبو زُرْعَةَ عُبَيْدُ اللَّهِ بن عبد الكريم، وأبو حَاتِمٍ مُحَمَّد بن إدريس الرازيان إماما الجرح والتعديل:

قالا: «مَنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِي، أَوِ الْقُرْآنُ بِلَفْظِي مَخْلُوقٌ، فَهُوَ جَهْمِي» (٣٧).

٦ - حَرْب بن إِسْمَاعِيلَ الْكِرْمَانِي (فَقِيهٌ ثَبَتٌ، مِنْ خِيَارِ تَلَامِيذِ أَحْمَدَ).

قال: «إِنَّ الْحَقَّ وَالصُّوَابَ الْوَاضِحَ الْمُسْتَقِيمَ الَّذِي أَدْرَكْنَا عَلَيْهِ أَهْلَ الْعِلْمِ: أَنَّ مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْفَاطِنَةَ بِالْقُرْآنِ وَتِلَاوَتِنَا، مَخْلُوقَةٌ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ مُبْتَدِعٌ خَبِيثٌ» (٣٨).

وَسَاقَ الْإِمَامُ أَبُو الْقَاسِمِ هَبَةُ اللَّهِ بن الْحَسَنِ اللَّالِكَايِي أَكْثَرَ مِنْ خَمْسِينَ نَفْسًا مِتْقَارِي الطَّبَقَةِ، فِيهِمْ جَمْعٌ مِنَ الْأُئِمَّةِ الْمُقْتَدِي بِهِمْ (٣٩) أَنَّهُمْ

(٣٦) رَوَاهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ - كَمَا فِي «السُّنَّةِ» لِابْنِ الطَّبْرِيِّ ٣٥٧/٢ - بِسَنَدٍ جَيِّدٍ عَنْهُ.

(٣٧) رَوَاهُ ابْنُ الطَّبْرِيِّ فِي «السُّنَّةِ» ١٧٩/١ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ عَنْهُمَا.

(٣٨) ذَكَرَهُ ابْنُ أَبِي حَاتِمٍ عَنْهُ - كَمَا فِي «السُّنَّةِ» لِابْنِ الطَّبْرِيِّ ٣٥٣/٢.

(٣٩) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «وَهَذَا مُحْفُوظٌ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، وَإِسْحَاقَ، وَأَبِي

عُبَيْدٍ، وَأَبِي مَصْعَبٍ الزَّهْرِيِّ، وَأَبِي ثَوْرٍ، وَأَبِي الْوَلِيدِ الْجَارُودِيِّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ بَشَّارٍ، وَيَعْقُوبَ بْنَ إِبْرَاهِيمَ الدُّورِيِّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى بْنَ أَبِي عَمْرِو الْعَدْنِيِّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى الدُّهْلِيَّ، وَمُحَمَّدَ بْنَ أَسْلَمَ الطُّوسِيَّ، وَعَدِيدٌ كَثِيرٌ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ مِنْ أُمَّةِ الْإِسْلَامِ وَهْدَاتِهِ» (مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى: ٤٢١/١٢).

قالوا: من قال لفظي بالقرآن مخلوق فهو بمنزلة من قال: القرآن مخلوق، وقالوا: هذه مقالتنا، وديننا الذي ندين الله به^(٤٠).

ثم ساق نصوص بعض الأئمة، ثم قال:

«فرجع كلام هؤلاء الأئمة رضي الله عنهم في أن القرآن مسموع من الله على الحقيقة، وحين يقرأه القارئ فلا يكون من لفظ القارئ القرآن ككلام الأدميين حين يلفظ به فيكون مخلوقاً، وكلام الله لا يشبه كلامهم لأنه غير مخلوق، فكذاك يخالفه في القراءة»^(٤١).

قلت: وقد روي إنكار اعتقاد اللفظية عن إمام السنة محمد بن إدريس الشافعي، لكن بإسناد فيه نظر، ولا أحسب ذلك كان إلا في طبقة تلامذته، كالإمام أحمد وأقرانه من الأئمة، فأنكروه وشددوا فيه.

ولذا قال الإمام محمد بن جرير الطبري: «وأما القول في ألفاظ العباد بالقرآن، فلا أثر نعلمه عن أصحابي مضي، ولا عن تابعي قفا، إلا عمن في قوله الشفا والغناء، وفي اتباعه الرشد والهدى، ومن يقوم لدينا مقام الأئمة الأولى، أبي عبدالله أحمد بن محمد بن حنبل».

= وذكر ذلك الإمام قوام السنة إسماعيل بن الفضل عن جمع كبير من الأئمة ابتداءً بأحمد بن حنبل وانتهاءً بأبي عبدالله بن منده، وقال عقب ذلك: «فمذهبهم ومذهب أهل السنة جميعاً أن القرآن كلام الله آية آية، وكلمة كلمة، وحرفاً حرفاً، في جميع أحواله، حيث قرئ، وكتب، وسمع» (الحجة: ٩٢/ب - ٩٣/أ).

(٤٠) كتاب «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ٢/٣٤٩ - ٣٥١.

(٤١) «السنة» ٢/٣٥٣ - ٣٥٤.

ثُمَّ سَأَلَ قَوْلَهُ الَّذِي ذَكَرْتُهُ آنِفًا بِرَقْم (٧) وَقَوْلًا آخَرَ بِمَعْنَاهُ، ثُمَّ قَالَ: «وَلَا قَوْلَ عِنْدَنَا فِي ذَلِكَ يَجُوزُ أَنْ نَقُولَهُ غَيْرُ قَوْلِهِ، إِذْ لَمْ يَكُنْ لَنَا إِمَامٌ نَأْتُمُّ بِهِ سِوَاهُ، وَفِيهِ الْكَفَايَةُ وَالْمَقْنَعُ، وَهُوَ الْإِمَامُ الْمُتَّبِعُ» (٤٢).

قُلْتُ: وَقَدْ سُئِلْتُ مِنْ نُصُوصِهِ مَا فِيهِ الْكَفَايَةُ وَالْهِدَايَةُ لِذَوِي الْبَصَائِرِ. قَالَ الْحَافِظُ أَبُو بَكْرٍ الْأَجْرِيُّ: «احْذَرُوا رَحِمَكُمُ اللَّهُ تَعَالَى هَؤُلَاءِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ، هَذَا عِنْدَ أَحْمَدَ بْنِ حَنْبَلٍ وَمَنْ كَانَ عَلَى طَرِيقَتِهِ مِنْكَرٌ عَظِيمٌ، وَقَائِلٌ هَذَا مُبْتَدِعٌ، يُجْتَنَّبُ، وَلَا يُكَلَّمُ، وَلَا يُجَالَسُ، وَيُحَذَرُ مِنْهُ النَّاسُ» (٤٣).

وَقَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «أَنْكَرَ بَذْعَةَ اللَّفْظِيَةِ الَّذِينَ يَقُولُونَ: إِنَّ تِلَاوَةَ الْقُرْآنِ وَقِرَاءَتَهُ وَاللَّفْظَ بِهِ مَخْلُوقٌ، أَثَمَّةُ زَمَانِهِمْ، جَعَلُوهُمْ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ، وَبَيَّنَّا أَنَّ قَوْلَهُمْ يَقْتَضِي الْقَوْلَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ، وَفِي كَثِيرٍ مِنْ كَلَامِهِمْ تَكْفِيرُهُمْ» (٤٤).



(٤٢) رواه ابن الطبري ١/ ١٨٥، ٢/ ٣٥٥ بسند صحيح عنه، وهو في

«صريح السنة» له رقم (٣٠ - ٣٣).

(٤٣) «الشرعية» ص: ٨٩.

(٤٤) «مجموع الفتاوى» ١٢/ ٤٢١.

المبحث الثالث

إقامة الحجة على بطلان اعتقاد اللفظية النافية

تَبَيَّنَ لَكَ مِمَّا سَبَقَ تَوْجِيهُ وَصْفِ الْأَثْمَةِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ لِلْفُظْيَةِ النَّافِيَةِ الْقَائِلِينَ: أَلْفَظُنَا بِالْقُرْآنِ، وَتَلَاوُنَا لَهُ مَخْلُوقَةٌ.

وَذَلِكَ أَنَّهُمْ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَالْمَقْرُوءِ، وَالتَّلَاوَةِ وَالْمَتْلُوِّ، وَيُطْلِقُونَ ذَلِكَ، وَيَقُولُونَ: التَّلَاوَةُ وَالْقِرَاءَةُ مَخْلُوقَةٌ، وَلَيْسَ مُرَادُهُمْ فِعْلُ الْعَبْدِ وَحَرَكَتَهُ وَصَوْتَهُ، وَإِنَّمَا يُدْخِلُونَ فِي ذَلِكَ الْكَلَامَ الْعَرَبِيَّ الْمُؤَلَّفَ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْكَلِمَاتِ، وَالسُّورِ وَالآيَاتِ، فَهُوَ عِنْدَهُمْ مَخْلُوقٌ، وَجَبْرِيلُ أَتَى بِشَيْءٍ مَخْلُوقٍ، وَالْمَقْرُوءُ وَالْمَتْلُو عِنْدَهُمْ هُوَ الْمَعْنَى الْمُعَبَّرُ عَنْهُ بِهَذِهِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ، وَهَذِهِ الْحُرُوفُ مَخْلُوقَةٌ، وَاخْتَلَفُوا أَيْنَ خُلِقَتْ - كَمَا سَيَأْتِي فِي الرَّدِّ عَلَى الْأَشْعَرِيَّةِ فِي الْبَابِ الثَّالِثِ -.

فَعِنْدَهُمْ هَذَا الْقُرْآنُ الَّذِي يَتْلُوهُ النَّاسُ بِالسَّنَتِهِمْ وَأَصْوَاتِهِمْ مَخْلُوقٌ، لَيْسَ مُتَزَلًّا مِنَ اللَّهِ، وَلَيْسَ هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ.

وَهَذِهِ الْعَقِيدَةُ مُنَافِيَةٌ لِمَا قَرَّرْنَاهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ اعْتِقَادِ السَّلَفِ، وَهِيَ مُتَضَمِّنَةٌ لِلتَّكْذِيبِ بِمَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، كَتَضَمُّنِ ذَلِكَ عَقِيدَةَ الْجَهْمِيَّةِ الْمُصَرِّحِينَ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ.

وإني ذاكرٌ بحَوْلِ الله وقُوَّتِهِ الحُجَّةِ الدَّامِغَةِ لقَوْلِ هؤلاءِ المُبْطِلِينَ،
فأقول:

قَدْ قَامَتِ الدَّلَائِلُ مِنْ كِتَابِ اللهِ الْمُعْصُومِ الَّذِي لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ
بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ، عَلَى أَنَّ اللهَ تَعَالَى تَكَلَّمَ بِهَذَا الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ، وَلَيْسَ
هُنَاكَ قُرْآنٌ سِوَاهُ، تَكَلَّمَ اللهُ تَعَالَى بِهِ بِلَفْظِهِ وَمَعْنَاهُ، وَسَمِعَهُ مِنْهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ
السَّلَامُ، وَبَلَّغَهُ كَمَا سَمِعَهُ إِلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، وَبَلَّغَهُ مُحَمَّدٌ ﷺ كَمَا سَمِعَهُ،
إِلَى أُمَّتِهِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ:

الوجه الأول: قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ فَاسْتَعِذْ بِاللَّهِ مِنَ
الشَّيْطَانِ الرَّجِيمِ . إِنَّهُ لَيْسَ لَهُ سُلْطَانٌ عَلَى الَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَى رَبِّهِمْ
يَتَوَكَّلُونَ . إِنَّمَا سُلْطَانُهُ عَلَى الَّذِينَ يَتَوَلَّوْنَهُ وَالَّذِينَ هُمْ بِهِ مُشْرِكُونَ . وَإِذَا بَدَّلْنَا
آيَةً مَكَانَ آيَةٍ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزَلُ قَالُوا إِنَّمَا أَنْتَ مُفْتَرٍ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ .
قُلْ نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ بِالْحَقِّ لِيُثَبِّتَ الَّذِينَ آمَنُوا وَهُدًى وَبُشْرَى
لِلْمُسْلِمِينَ . وَلَقَدْ نَعْلَمُ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ إِنَّمَا يُعَلِّمُهُ بَشَرٌ لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ
أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾ [النحل: ٩٨ - ١٠٣].

دَلَّتِ الْآيَاتُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ وَجْهِ:

الأول: قَوْلُهُ: ﴿فَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ﴾ الْقُرْآنُ: اسْمٌ لِلنَّظْمِ الْعَرَبِيِّ
الْمَسْطُورِ بَيْنَ الدَّفْتَيْنِ، الْمَوْعَى فِي قُلُوبِ الْحَفَاطِ، الْمَلْفُوظِ بِالسَّنَةِ
الْقُرْءِ، الْمَوْلَفِ مِنَ الْحُرُوفِ كَالْأَلْفِ وَالْبَاءِ وَالْجِيمِ، وَهَذَا مِمَّا لَا خِلَافَ
فِيهِ.

والثاني: الْقِرَاءَةُ إِنَّمَا تَقَعُ لِأَلْفَاظِهِ وَكَلِمَاتِهِ، لَا لِمَعَانٍ مَجْرَدَةٍ، فَإِنَّ

المعنى المجرد لا تتصور قراءته كما لا يخفى .

والثالث: الذي تبدل منه آية مكان آية هو القرآن، لأنه هو المؤلف من الآيات، وهذا يسلم به اللفظية.

والرابع: قوله: ﴿وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يُنْزِلُ﴾ أثبت منزلاً ومُنزلاً به، والمنزل هو الله كما هو ظاهر، وفعل التنزيل مضاف إليه كما هو صريح الآية، وقد مر بك أنه تعالى لم يضيف شيئاً من الإنزال إلى نفسه إلا كلامه، والمنزل به هو القرآن الذي تبدل منه آية مكان آية، وهذا لا يقدر اللفظي على إنكاره.

والخامس: قوله: ﴿نَزَّلَهُ رُوحُ الْقُدُسِ مِنْ رَبِّكَ﴾ الضمير في قوله: ﴿نَزَّلَهُ﴾ عائذ على قوله: ﴿بِمَا يُنْزِلُ﴾، وقد علمنا أنه القرآن، فاثبت أن روح القدس نزله من الله، فكان مسموعاً له منه، متلقى عنه، وروح القدس هو جبريل، وقد بيناه آنفاً.

فالذي نزل من الله تعالى هو الذي نزل به روح القدس، ولم يضيف إلى روح القدس شيئاً من فعله سوى التنزيل له من رب العالمين.

والسادس: المراد من هذا السياق للآيات إثبات أن هذا القرآن ليس من افتراء بشر، والرد على الكفار قولهم: ﴿يَعْلَمُهُ بَشَرٌ﴾، وأرادوا رجلاً أعجمياً، فكذب الله مقالهم، ودحض باطلهم، فقال: ﴿لِسَانُ الَّذِي يُلْحِدُونَ إِلَيْهِ أَعْجَمِيٌّ وَهَذَا لِسَانٌ عَرَبِيٌّ مُبِينٌ﴾، واللسان: اللغة، واللغة: إنما هي ألفاظ مركبة من الحروف، وهذا مما لا يختلف فيه، فأقام الله الحجة على الكفار وأبطل دعواهم، بأن صاحبهم الذي ادعوا أن رسول الله

﴿يَعْلَمُ مِنْهُ الْقُرْآنَ أَعْجَمِي﴾، وهذا كلامٌ عربيٌّ، فأني له أن يُعَلِّمَهُ
مَعَ عُجْمَتِهِ، ولو كان إنما تأتيهِ مَعَانٍ مُجَرَّدَةٌ لَأَمْكَنَ الأعْجَمِيَّ أن يُعَلِّمَهُ
المَعَانِي، ولكنه إنما كان يَأْتِيهِ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ.

وأشار بقوله: ﴿وَهَذَا لِسَانٌ﴾ إلى حَاضِرٍ، وهو الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ تَنْزِيلُهُ
الَّذِي نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ، فَأَقَامَ اللَّهُ الْحُجَّةَ عَلَى الْكُفَّارِ بِكَوْنِ هَذَا اللِّسَانِ
الْعَرَبِيِّ كَلَامَهُ، وَمُحَمَّدٌ ﷺ مُبَلِّغٌ، وَجَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ مُبَلِّغٌ، لَيْسَ لَهُمَا
وِظِيفَةٌ إِلَّا هَذِهِ.

والوجه الثاني: قوله تعالى: ﴿أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنْزَلَ
إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلًا وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِنْ رَبِّكَ
بِالْحَقِّ فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤].

دَلَّتِ الْآيَةُ عَلَى مَا ذَكَرْنَا مِنْ وُجُوهِ:

الأول: الْكِتَابُ الْمُفَصَّلُ هُوَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ بِلَا خِلَافٍ.

وفي وصفه بـ (الكتاب) دليلٌ قاطعٌ على أَنَّهُ الْقُرْآنُ الْمُؤَلَّفُ مِنْ
الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ، وَلَوْ كَانَ مَعَانِي مُجَرَّدَةً لَمَا صَحَّ وصفه بـ (الكتاب) لِأَنَّهُ
أَرَادَ بِالْكِتَابِ: الْمَكْتُوبَ (٤٥)، وَالْمَعْنَى الْمَجْرَدُ لَا يُكْتَبُ حَتَّى يُوَلَّفَ حُرُوفًا
مَنْظُومَةً، وَتَسْمِيَةُ الْقُرْآنِ كَلَامَ اللَّهِ بـ (الكتاب) جَاءَتْ فِي مَوَاضِعَ كَثِيرَةٍ مِنْ

(٤٥) وقد يراد بالكتاب ما يَكْتَبُ فِيهِ، كَقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي
كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٨] فَالْكِتَابُ هُنَا لَيْسَ هُوَ الْقُرْآنُ نَفْسَهُ، وَإِنَّمَا هُوَ مَا
كُتِبَ فِيهِ الْقُرْآنُ، وَحَيْثُ لَا يُرَادُ بِهِ الْكَلَامُ نَفْسَهُ، وَهَذَا تَوْضِيحُ الْقَرِينَةِ، وَمِثْلُهُ لَا
يَخْفَى.

القرآن، ولا فرق بين تسميته بـ (القرآن) أو بـ (الكتاب) وكل ذلك كلام الله تعالى وقوله، قال تعالى: ﴿وَإِذْ صَرَفْنَا إِلَيْكَ نَفَرًا مِّنَ الْجِنِّ يَسْتَمِعُونَ الْقُرْآنَ فَلَمَّا حَضَرُوهُ قَالُوا أَنصِتُوا فَلَمَّا قُضِيَ وَلَّوْا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ مُنْذِرِينَ . قَالُوا يَا قَوْمَنَا إِنَّا سَمِعْنَا كِتَابًا أُنزِلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ﴾ [الأحقاف: ٢٩ - ٣٠]، فسمَّاهُ قرآنًا وكتاباً، والذي يُسمَّع إنما هو القرآن الذي هو الكلام المؤلف من الحروف والمعاني .

قال شيخ الإسلام: «الكتابُ عند مَنْ يقولُ: إنَّ كلامَ الله هو المعنى دون الحروفِ اسمٌ للنَّظمِ العربيِّ، والكلامُ عنده اسمٌ للمعنى، والقرآنُ مُشْتَرَكٌ بينهما، فلفظُ (الكتاب) يتناولُ اللفظَ العربيَّ باتِّفاقِ النَّاسِ، فإذا أُخْبِرَ أنَّ ﴿تَنْزِيلُ الْكِتَابِ مِنَ اللَّهِ﴾ عُلِمَ أَنَّ النَّظْمَ العربيَّ مُنْزَلٌ مِنَ اللَّهِ، وَذَلِكَ يَدُلُّ عَلَى مَا قَالَ السَّلَفُ: إِنَّهُ مِنْهُ بَدَأَ، أَي: هُوَ الَّذِي تَكَلَّمَ بِهِ» (٤٦).

والثاني: جَعَلَ تعالى إنزالَ الكتابِ مَفْصُلاً فِعْلاً مُضَافاً إِلَى نَفْسِهِ .

والثالث: أَثْبَتَ أَنَّ تَنْزِيلَهُ مِنْهُ عَزَّ وَجَلَّ لَا مِنْ غَيْرِهِ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّ ابْتِدَاءَهُ مِنْهُ .

والرابع: أُخْبِرَ أَنَّ أَهْلَ الْكِتَابِ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ تَنْزِيلُهُ وَأَنَّ ابْتِدَاءَهُ مِنْهُ، وَالْعِلْمُ يَفِيدُ الْيَقِينَ الْمُنَافِيَّ لِلْجَهْلِ وَالظَّنَّ وَالشَّكَّ وَالرَّيْبَ، وَأَقْرَبُ تَعَالَى عِلْمُهُمْ هَذَا وَلَمْ يُنْكِرْهُ، بَلْ وَكَّدَهُ بِقَوْلِهِ: ﴿فَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ﴾ [الأنعام: ١١٤] فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ حَقٌّ، وَلَوْ كَانَ مَا عِلْمُوهُ بَاطِلاً، وَأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ غَيْرِهِ بَدَأَ لَا مِنْهُ، لَمَا أَقْرَهُمُ تَعَالَى عَلَى ذَلِكَ.

وأشارت الآية إلى أن أهل الكتاب الذين يعلمون أن هذا القرآن العربي مُنزل من الله تعالى لا من بعض خلقه خير وأفضل من اللفظية الذين يقولون: هذا الكتاب العربي مخلوق، كما أنهم أفضل من سائر الجهمية القائلين بخلق القرآن.

والوجه الثالث: حين سمّاه المشركون شعراً، لم يريدوا بهذه التسمية إلا هذا القرآن العربي المؤلف من الحروف العربية، فكذب الله تعالى دعواهم، كما قال تعالى: ﴿وَمَا عَلَّمْنَاهُ الشُّعْرَ وَمَا يَنْبَغِي لَهُ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ وَقُرْآنٌ مُبِينٌ﴾ [يس: ٦٩].

قال الإمام أبو محمد بن قدامة: «فلما نفى الله عنه أنه شعر وأثبت قرآناً لم يبق شبهة لذي لب في أن القرآن هو هذا الكتاب العربي الذي هو كلمات وحروف وآيات، لأن ما ليس كذلك لا يقول أحد: إنه شعر» (٤٧). قلت: وهذا هو القرآن الذي قال السلف: إنه غير مخلوق، وقالت الجهمية: إنه مخلوق.

والوجه الرابع: ما تقرّر في اعتقاد السلف الذي شرحناه في الباب الأول من كون هذا القرآن من الله بدأ وإليه يعود، وقد فصلناه بما يغني عن الإعادة.

والوجه الخامس: إضافة هذا القرآن إلى الرسول البشري تارة، وإلى الرسول الملكي تارة - كما سبق تقريره في الفصل السابق - وأن معنى ذلك أنهما أدياه وبلغاه، دليل على أنه قول المبلغ عنه وكلامه، وهو الله

(٤٧) «لمعة الاعتقاد» ص: ١٧.

تعالى .

والوجه السادس : قوله تعالى : ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة : ٦] أضاف الكلام إلى نفسه ، وأبان أنه هو الذي يسمعه الكافر المستجير ، والأصل أن الكلام على حقيقته المفهومة حال إطلاقه حتى ترد القرينة التي تصرفه عن المعنى المتبادر ، وكلام الله هنا هو القرآن لا غيره ، والكلام كما قررناه في الباب الأول اسم للفظ والمعنى جميعاً ، فدل هذا إذاً على أن الذي يسمعه المشرك المستجير هو كلام الله على الحقيقة ، وكلامه تعالى غير مخلوق .

والوجه السابع : إطباق جميع أهل الإسلام على أن القرآن العربي كلام الله تعالى لا كلام غيره ، منه بدأ بالفاظه وحروفه لا من غيره ، وأنه ليس لله قرآن سواه ، هو الذي بلغه رسول الله محمد ﷺ عن جبريل ، وجبريل عليه السلام عن ربه تعالى ، لم يتقول منه جبريل ولا محمد ﷺ حرفاً ولا كلمة ، كيف وهما أميناه على وحيه ، و ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾ [الأنعام : ١٢٤] .

والوجه الثامن : يلزم اللفظية ما لزم القائلين بخلق القرآن مطلقاً أنه لو كان القرآن العربي الملفوظ بالالفاظ العربية مخلوقاً ، فأين خلق ؟ إذ لا بد أن يكون مخلوقاً في محل ، كسائر المخلوقات ، فإذا يصير صفة للمحل الذي خلق فيه ، لا صفة لله ، ويكون حينئذ كلاماً للمحل الذي خلق فيه ، لا كلاماً لله تعالى ، وهذا كفر بين ، والعجيب أن يكون هذا الوجه مما يحتاج به اللفظية الجهمية .

فهذه بعض الوجوه المبطللة لاعتقاد اللفظية ، ويرد عليهم أكثر من

ذلك، ولكنَّ الحُجَّةَ تقومُ ببعضه.

فمن تأمل هذه الحقائق التي ذكَّرتُ وما يشبهها، بأنَّ له صِحَّةً وصفِ اللفظية القائِلين بأنَّ ألفاظنا بالقرآن مخلوقة، بالجهمية.

والسَّلَفُ والأئمةُ حينَ كفَّروا مَنْ قالَ بخلقِ القرآنِ، إنَّما كفَّروا مَنْ قالَ بخلقِ القرآنِ الذي بينَ دَفَتَي المَصْحَفِ، المَسْطُورِ فيه، المَلْفُوظِ باللسنةِ، المؤلَّفِ من الحُرُوفِ العربيَّةِ، ولا يَعْرِفُ السَّلَفُ والأئمةُ هذا التفریقَ المُبتَدَعَ الذي ظَهَرَ به اللفظيةُ النافيةُ، فليسَ عندهم القرآنُ سِوَى هذا القرآنِ العربيِّ، وهو كلامُ الله تكلَّم به على الحقيقةِ.

وهذه بعضُ النصوصِ البينةِ الموضحةِ لِمَا ذكَّرتُهُ عنهم:

١ — عبدالله بن المبارك (الإمام الحُجَّة).

إنَّه قرأ ثلاثينَ آيةً من (طه) فقال: «مَنْ زَعَمَ أنَّ هذا مخلوقٌ فهو كافرٌ» (٤٨).

قلتُ: وهذه عند اللفظية ألفاظُ مخلوقة.

٢ — إمام السُّنَّة أحمد بن حنبل.

قال أحمد بن سعيد الدارمي: قلتُ لأحمد بن حنبل: أقولُ لك قولِي، وإنَّ أنكرتَ منه شيئاً فقلْ: إني أنكرُهُ، قلتُ له: نحنُ نقولُ: القرآنُ كلامُ الله من أوَّلِهِ إلى آخِرِهِ، ليسَ منه شيءٌ مخلوقٌ، ومَنْ زَعَمَ أنَّ شيئاً منه

(٤٨) أخرجه ابن الطبري رقم (٤٢٧) بسند لا بأس به، ومعناه عند الأجرى

في «الشريعة» ص: ٧٩ من طريق أخرى عنه.

مخلوقٌ فهو كافرٌ، فما أنكرَ منه شيئاً ورضيه^(٤٩).

قلتُ: واللَّفْظِيَّةُ يقولونَ: كلامُ الله ليس له أوَّلٌ ولا آخِرٌ، ولا يَتَجَزَأُ، وهو غيرُ القرآنِ العربيِّ، والقرآنُ العربيُّ، إنما هو عبارةٌ عنه أو حِكَايَةٌ.

وقال الإمامُ أحمدُ: «نحنُ لا نحتاجُ أنْ نشكَّ في هذا القرآنِ عندنا، فيه أسماءُ الله، وهو من عِلْمِ الله، فَمَنْ قال لنا: إنَّه مخلوقٌ، فهو عندنا كافرٌ»^(٥٠).

قلتُ: وهذا النصُّ نقله أبو الحسن الأشعريُّ عنه في «الإبانة» وهو من الحُجَّةِ على الأشعرية من غير وَجْهِ، سأذكرها في الردِّ عليهم.

وقال الإمامُ أحمدُ: «على كُلِّ حالٍ من الأحوالِ القرآنُ كلامُ الله غير مخلوقٍ»^(٥١).

وهذا كقوله: «القرآنُ كلامُ الله حيثُ تَصَرَّفَ»^(٥٢).

قلتُ: يعني على كُلِّ حالٍ، مكتوباً، ومسموعاً، ومتلوّاً، ومَحفوظاً. والنقلُ عن أحمدَ في هذا المعنى يعسُرُ إحصاؤُهُ، وفي النصوصِ التي سَقَّتها عنه في هذا الباب والذي قبله كفايةٌ لِمَنْ أرادَ الهدايةَ.

٣ - إسحاق بن إبراهيم بن راهوَيْهِ الإمامُ الفقيه.

(٤٩) رواه ابن أبي حاتم - كما في «طبقات الحنابلة» ٤٦/١ - بسند صحيح عنه.

(٥٠) «الإبانة» للأشعري ص: ٧١.

(٥١) رواه ابن هانئ في «المسائل» ١٥٨/٢ عنه به.

(٥٢) سيأتي هذا النص قريباً في قصة أبي طالب في «المبحث الخامس» من هذا الفصل.

قال: «ليس بين أهل العلم اختلاف أن القرآن كلام الله ليس بمخلوق، فكيف يكون شيء خرج من الرب عز وجل مخلوقاً؟» (٥٣).
قلت: واللفظية يقولون: كلام الله ليس بخارج منه، والقرآن بدأ من غيره تعالى.

٤ - يحيى بن يحيى النيسابوري الثقة الثبت.

قال: «من زعم أن من القرآن من أوله إلى آخره آية مخلوقة فهو كافر» (٥٤).

قلت: واللفظية يقولون: ما تألف من الآيات هو النظم العربي، وهو مخلوق.

٥ - محمد بن أسلم الطوسي الثقة الحافظ.

قال: «القرآن كلام الله غير مخلوق، أينما تلي، وحيثما كتبت، لا يتغير، ولا يتحول، ولا يتبدل» (٥٥).

قلت: إنما يكتب وتُتلى هو القرآن العربي المجيد.

٦ - أبو جعفر محمد بن جرير الطبري الإمام المجهّد.

(٥٣) أخرجه ابن أبي حاتم - كما في «العلو» للذهبي ص ١٣٢ - بسند صحيح عنه.

(٥٤) أخرجه ابن أبي حاتم - كما في «العلو» للذهبي ص: ١٢٣ - بسند صحيح عنه.

(٥٥) أخرجه ابن أبي حاتم - كما في «العلو» للذهبي ص: ١٤٠ - بسند صحيح عنه.

قال في عقيدته: «أَوَّلُ مَا نَبْدَأُ بِالْقَوْلِ فِيهِ مِنْ ذَلِكَ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ وَتَنْزِيلُهُ، إِذَا كَانَ مِنْ مَعَانِي تَوْحِيدِهِ، وَالصُّوَابُ مِنَ الْقَوْلِ فِي ذَلِكَ عِنْدَنَا: أَنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَكَيْفَ كُتِبَ، وَكَيْفَ تُلِيَ، وَفِي أَيِّ مَوْضِعٍ قُرِئَ، فِي السَّمَاءِ وَجَدَّ، أَوْ فِي الْأَرْضِ حُفِظَ، فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ كَانَ مَكْتُوبًا، أَوْ فِي الْوَحْيِ صَبِيانَ الْكِتَابِ مَرْسُومًا، فِي حَجَرٍ نَقِشَ، أَوْ فِي رَقٍّ خُطَّ، فِي الْقَلْبِ حُفِظَ، أَوْ بِاللِّسَانِ لُفِظَ، فَمَنْ قَالَ غَيْرَ ذَلِكَ، أَوْ ادَّعَى أَنَّ قَرَأْنَا فِي الْأَرْضِ، أَوْ فِي السَّمَاءِ، غَيْرَ الَّذِي نَتْلُوهُ بِالْسِّتِّينَا، وَنَكْتُبُهُ فِي مَصَاحِفِنَا، أَوْ اعْتَقَدَ ذَلِكَ بِقَلْبِهِ، أَوْ أَضْمَرَهُ فِي نَفْسِهِ، أَوْ قَالَ بِلِسَانِهِ دَائِمًا بِهِ، فَهُوَ بِاللَّهِ كَافِرٌ، حَلَالُ الدِّمِّ، وَبِرِيءٌ مِنَ اللَّهِ، وَاللَّهُ بَرِيءٌ مِنْهُ، يَقُولُ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿بَلْ هُوَ قُرْآنٌ مَجِيدٌ . فِي لَوْحٍ مَحْفُوظٍ﴾ [البروج: ٢١] - [٢٢] وَقَالَ - وَقَوْلُهُ الْحَقُّ -: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ [التوبة: ٦] فَأَخْبَرَ اللَّهُ جَلَّ ثَنَاؤُهُ أَنَّهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَأَنَّهُ مِنْ لِسَانِ مُحَمَّدٍ ﷺ مَسْمُوعٌ، وَهُوَ قُرْآنٌ وَاحِدٌ، مِنْ مُحَمَّدٍ ﷺ مَسْمُوعٌ، وَفِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ مَكْتُوبٌ، وَكَذَلِكَ هُوَ فِي الصُّدُورِ مَحْفُوظٌ، وَبِالْسُّنَنِ الشُّيُوخِ وَالشُّبَّانِ مَتْلُوقٌ، فَمَنْ رَوَى عَلَيْنَا أَوْ حَكَى عَنَّا، أَوْ تَقَوَّلَ عَلَيْنَا، أَوْ ادَّعَى أَنَا قُلْنَا غَيْرَ ذَلِكَ، فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ وَغَضَبُهُ، وَلَعْنَةُ اللَّاعِنِينَ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ، لَا يَقْبَلُ اللَّهُ مِنْهُ صَرْفًا وَلَا عَدْلًا، وَهَتَكَ سِتْرَهُ، وَفَضَحَهُ عَلَى رُؤُوسِ الْأَشْهَادِ، يَوْمَ لَا تَنْفَعُ الظَّالِمِينَ مَعذِرَتُهُمْ وَلَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ» (٥٦).

(٥٦) أخرجه ابن الطبري في «السنة» ١/١٨٤، ٢/٣٥٩ - ٣٦٠ بسند صحيح عنه، وهو في «صريح السنة» له رقم (١٢ - ١٤).

٧ - القاضي الإمام أبو بكر أحمد بن كامل البغدادي (إمام حافظ متجرد، تلميذ ابن جرير).

روى عن وراق داود الأصبهاني إمام أهل الظاهر قول داود في القرآن، قال: سُئل عن القرآن؟ فقال: «القرآن الذي قال الله تعالى ﴿لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾» وقال: «فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ» غير مخلوق، وأما الذي بين أظهرنا يمسُّه الحائض والجُنُب فهو مخلوق».

فقال القاضي أحمد بن كامل: «هذا مذهب يذهب إليه الناشيء المتكلم^(٥٧)، وهو كُفْرٌ بالله، صَحَّ الخبرُ عن رسولِ الله ﷺ أَنَّهُ نَهَى أَنْ يُسَافَرَ بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ، مَخَافَةَ أَنْ يَنَالَهُ الْعَدُوُّ، فَجَعَلَ ﷺ مَا كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ وَالصُّحُفِ وَالْأَلْوَحِ وَغَيْرِهَا قِرَاءًا، وَالْقُرْآنَ عَلَى أَيْ وَجْهِ قُرِئَ، وَتَلِيَ فَهُوَ وَاحِدٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ»^(٥٨).

قلت: فتأمل رحمك الله هذا الحكم على قول داود، وداود أخف بكثير من اللفظية الكلامية والأشعرية، وذلك أنه كان يعتقد أن هناك قرآناً مكتوباً في اللوح غير مخلوق، والذين جاؤوا من بعده من اللفظية يقولون: ليس لله كلام إلا ما في نفسه، وهذا القرآن خلقه الله في اللوح المحفوظ أو في غيره، فجعلوا ما في اللوح مخلوقاً، وهذا أدهى من قول داود. وسيأتي مزيد في شرح اعتقادهم في الباب الثالث.

(٥٧) هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن شرشير، كان متكلماً من رؤوس الجهمية المعتزلة.

(٥٨) أخرجه ابن الطبري ٣٦٠/٢ - ٣٦١ والخطيب في «التاريخ» ٣٧٤/٨. بإسناد صحيح إلى أحمد بن كامل.

٨ - الحافظ الإمام عبدالله بن محمد بن جعفر أبو الشيخ

الأصبهاني :

قال : «إنَّ القرآنَ كلامُ الله تكلَّم به ، فيه أمرُهُ ونَهْيُهُ ووَعْدُهُ ووَعِيدُهُ ، وَذِكْرُ رَحْمَتِهِ وَنِقْمَتِهِ ، وَعَذَابِهِ وَسَخَطِهِ ، وَذِكْرُهُ النَّعِيمِ وَالْمِنَنِ ، وَالْأَهْوَالَ وَالشَّدَائِدَ ، فِي التَّرْغِيبِ وَالتَّرْهيبِ ، بِقَوْلِهِ الصَّادِقِ ، وَعِلْمِهِ النَّافِذِ ، وَمَشِيئَتِهِ السَّابِقَةِ ، وَحُجَّتِهِ الْبَالِغَةِ ، وَذِكْرُ سُلْطَانِهِ الدَّائِمِ ، وَلَيْسَ مِنْهَا شَيْءٌ مَخْلُوقٌ ، لِأَنَّهَا كُلُّهَا قَوْلُهُ مِنْ عِلْمِهِ الْأَزَلِيِّ ، مِنْ أَوَّلِهِ إِلَى آخِرِهِ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، فَالْمُنْكَرُ فِيهِ كَالشَّاكِّ ، وَالشُّكُّ وَالْإِنْكَارُ فِيهِ كُفْرٌ ، فَالْمُنْكَرُ الْجَهْمِيُّ ، وَالشَّاكُّ الْوَاقِفِيُّ ، وَهُوَ كَلَامُهُ فِي الْأَحْوَالِ كُلِّهَا ، حَيْثُ تُلَيِّ وتَصَرَّفُ ، فِي الدُّفْتَيْنِ ، وَبَيْنَ اللَّوْحَيْنِ ، وَفِي صُدُورِ الرِّجَالِ ، وَحَيْثُ مَا قُرِئَ فِي الْمَحَارِبِ وَغَيْرِهَا ، وَحَيْثُ مَا سُمِعَ ، أَوْ حُفِظَ ، أَوْ كُتِبَ ، أَوْ تُلِيَ ، مِنْهُ بَدَأُ وَإِلَيْهِ يَعُودُ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ أَوْ بَعْضَهُ ، أَوْ شَيْئاً مِنْهُ مَخْلُوقٌ ، فَلَا يُشَكُّ فِيهِ عِنْدَنَا ، وَعِنْدَ أَهْلِ الْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْفَضْلِ وَالِدِّينِ أَنَّهُ كَافِرٌ كُفْرًا يُنْقَلُ بِهِ عَنِ الْمِلَّةِ ، وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَقَفَ ، وَلَمْ يَقُلْ : غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، أَخْبَثُ قَوْلًا مِنَ الْأَوَّلِ وَشَرُّ مِنْهُ ، وَمَنْ قَالَ : لَا أَقُولُ : مَخْلُوقٌ ، وَلَا غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرٍ مَنْ قَالَ : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ ، بَعْدَ عِلْمِهِ ، وَبَعْدَ أَنْ سَمِعَ مِنَ الْعُلَمَاءِ الْمَرْضِيِّينَ ذَلِكَ ، فَهُوَ مِثْلُهُ ، وَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ اللَّفْظِ فَهُوَ وَاقِفِيٌّ ، وَمَنْ وَقَفَ عِنْدَ الْقُرْآنِ فَهُوَ جَهْمِيٌّ» (٥٩).

وقال رحمه الله : «فَجَبْرِيلُ سَمِعَهُ مِنَ اللَّهِ تَعَالَى ، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَمِعَهُ

(٥٩) أورده عنه قوام السنة إسماعيل بن الفضل في «الحجة» ق ٤٧/ب -

٤٨/أ بسند صحيح إليه .

من جبريل عليه السلام، وأصحاب النبي ﷺ ورضي عنهم سمعوا من النبي ﷺ، ثم الأول فالأول هلّم جراً إلى يومنا هذا، وبعدنا يكون كما كان قبلنا، وهو كلام الله غير مخلوق، ومن زعم أن القرآن أو بعضه مخلوق، أو شيء منه في حالة من الحالات بجهة من الجهات، فقد زعم أن جبريل سمع من الله مخلوقاً، وأدى إلى النبي ﷺ مخلوقاً وأدى النبي ﷺ إلى أمته مخلوقاً^(٦٠).

٩ - الإمام الحافظ أبو عثمان الصّابوني.

قال: «ويشهد أصحاب الحديث ويعتقدون أن القرآن كلام الله وكتاباه وخطابه ووحيه وتنزيله غير مخلوق، ومن قال بخلقه واعتقده فهو كافر عندهم، والقرآن الذي هو كلام الله ووحيه هو الذي ينزل به جبريل على الرسول ﷺ قرآناً عربياً لقوم يعلمون بشيراً ونذيراً، كما قال عز من قائل: ﴿وَإِنَّهُ لَتَنْزِيلُ رَبِّ الْعَالَمِينَ نَزَلَ بِهِ الرُّوحُ الْأَمِينُ عَلَى قَلْبِكَ لِتَكُونَ مِنَ الْمُنْذِرِينَ بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٢ - ١٩٥]، وهو الذي بلغه الرسول ﷺ أمته كما أمر به في قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الرُّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنْزِلَ إِلَيْكَ مِنْ رَبِّكَ﴾ [المائدة: ٦٧]، فكان الذي بلغه كلامه عز وجل، وفيه قال النبي ﷺ: «أتمنعوني أن أبلغ كلام ربي؟»^(٦١) وهو الذي تحفظه الصدور، وتتلوه الألسنة، ويكتب في المصاحف، كيف ما تصرف: بقراءة قارىء، ولفظ لافظ، وحفظ حافظ، وحيث تلي، وفي أي موضع قرئ، أو كتب، في مصاحف أهل الإسلام والواح صبيانهم، وغيرها، كلام الله جل

(٦٠) أورده عنه قوام السنة ق ٤٨/ب بسند صحيح إليه.

(٦١) سبق إيراد هذا الحديث في الباب الأول ص: ٨٥.

جلالته، وهو القرآن بعينه الذي نقول: غير مخلوق، فمن زعم أنه مخلوق فهو كافر بالله العظيم» (٦٢).

١٠ - الإمام أبو القاسم هبة الله بن الطبري.

قال: «سِياق ما دلّ من الآيات من كتاب الله تعالى، وما روي عن رسول الله ﷺ، والصّحابة والتابعين، على أن القرآن تكلم الله به على الحقيقة، وأنه أنزله على محمد ﷺ، وأمره أن يتحدّى به، وأن يدعو الناس إليه، وأنه القرآن على الحقيقة، متلو في المحارب، مكتوب في المصاحف، محفوظ في صدور الرجال، ليس بحكاية ولا عبارة عن قرآن، وهو قرآن واحد غير مخلوق، وغير مجعول ومربوب، بل هو صفة من صفات ذاته، لم يزل به متكلماً، ومن قال غير هذا فهو كافر ضالّ مضلّ مبتدع، مخالف لمذاهب السّنة والجماعة» (٦٣).

ثم شرع في سرد الأدلة.

قلت: فهذه هي العقيدة السّلفية قبل أن يعرف الناس بدعة اللفظ، ولا يعرف الناس القرآن الذي تكلم الله تعالى به إلا على هذا التفسير، حتى أدخلت الجهمية على الأمة بدعة اللفظ، ليظفئوا بها نور العقيدة المرضية التي كان عليها خير الناس من بعد رسول الله ﷺ، أصحابه فمن بعدهم من أئمة الهدى، حتى عهد إمام السّنة ورافع رأيها، وعدو البدعة وكاشف سواتها، الإمام أبي عبدالله أحمد بن حنبل رحمه الله تعالى، فكان لها

(٦٢) رسالته في «السّنة» أو «اعتقاد السلف» نص: ٦.

(٦٣) «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» ٢/ ٣٣٠.

وَإِخْوَانُهُ بِالْمِرْصَادِ، كَمَا وَقَفَ لَهُمْ حِينَ صَرَّحُوا بِخُلُقِ الْقُرْآنِ، فَبَدَّدَ ظِلَامَهَا
 بِنُورِ الْكِتَابِ وَهَدَى خَيْرَ الْأَنَامِ، فَعَقَلَ كَلَامَهُ مِنْ عَقْلِهِ فَتَفَعَّلَهُ اللَّهُ، وَكَانَ عَلَى
 هَدًى مُسْتَقِيمٍ، وَعَمِيَتْ بِصَائِرِ أَقْوَامٍ فَضَلُّوا عَنِ الْقَصْدِ، وَمَا فَقَهُوا مَقَالَهُ،
 فَتَمَكَّنَتْ مِنْهُمْ الْأَهْوَاءُ حَتَّى بَلَغَتْ مِنْهُمْ الْجَهْدَ، وَرُبَّمَا كَانَتْ فِيهِمْ رُؤُوسٌ
 تُنَظَرُ أَقْوَالُهُمْ، بِسَبَبِ مَا فِيهِمْ مِنَ الزُّهَادَةِ وَالْعِبَادَةِ، وَالْعِلْمِ بِالْفُرُوعِ وَكَثِيرٍ
 مِنَ الْأَصُولِ، وَلَكِنَّ الْهَدْيَ كُلَّ الْهَدْيِ أَنْ يُتَّبَعَ السَّلَفُ الْكَرَامَ، فَإِنَّ الْعَبْدَ
 إِنْ التَفَتَ إِلَى مَنْ بَعْدَهُمْ بَعْدَ دُخُولِ الْأَهْوَاءِ فِي الْأَصُولِ وَالْفُرُوعِ، فَإِنَّهُ
 لَا يَضْمَنُ السَّلَامَةَ فِي الدِّيَانَةِ، وَإِنَّمَا يُعْتَبَرُ الْعَالَمُ مِنَ الْخَلْفِ، بِمَقْدَارِ مَا
 يَقْتَدِي فِيهِ بِالسَّلَفِ.

وَكُلُّ خَيْرٍ فِي اتِّبَاعِ مَنْ سَلَفَ وَكُلُّ شَرٍّ فِي ابْتِدَاعِ مَنْ خَلَفَ
 وَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ إِلَّا بِاللَّهِ.



المبحث الرابع

بيان غلط اللفظية النافية على الامامين

أحمد والبخاري

● بيان غلطهم على الإمام أحمد بن حنبل رحمه الله:

لقد عَرَفْتُكَ حُكْمَ الإمام أحمد رحمه الله تعالى فيمن يقول: (لفظي بالقرآن مخلوق) وشرحتُ ذلك من وجوه كثيرة عنه، ممَّا لا يدعُ مجالاً للشكِّ في صحَّةِ قوله فيهم.

ولكن لما كان من أمره في الفتنة ما كان، ممَّا رفعَ الله به شأنه، صار الانتسابُ إلى عقيدته سلامةً، والحيدُ عنها بدعةً، وعلامةُ السُّني اتباعُ عقيدة أحمد، وعلامةُ المُبتدع تركها، لذا صارَ كلُّ من أتى بعده من طوائف أهل القبلة يفخرُ بالانتساب إليه في الاعتقاد، ويعتصمُ به، وكلُّ طائفةٍ صارت تُنسبُ إليه اعتقادها، وتقولُ: هو اعتقادُ أحمد بن حنبل، فيروجُ ذلك عند مَنْ لا تميزُ له ويقبلُه وينصرُه، ولكنَّ الإنصافَ في ذلك أن تُقيمَ كلُّ طائفةٍ حُجَّتَها على صحَّةِ دعواها، ولقد عَلِمْنَا من سُنَّةِ السُّلفِ الكرامِ رحمهم الله أن (الإسنادَ من الدين) فمن أسندَ فقد برىء، ومن لا فلا.

وليس يشكُّ الناظرُ في كلام الإمام أحمد، والمتبَّع لطريقته، أنه بريء من البدعِ وأهلها، فسائرُ هذه الطوائف التي تنتسبُ إليه تنصرُ

عقائدها بأحمد، إما:

١ - بالكذب الصريح عليه.

٢ - أو بنقول عنه لا تثبت أسانيدُها.

٣ - أو بنقول صحَّ عنه، ولكنها مجمَّلة، لم يُوفَّقوا للوصول إلى معرفة مراده منها.

سوى الطائفة المنصورة - إن شاء الله - أهل السُّنة والأثر، التي لا تعرف علم الكلام والبدع، المُتَنَزِّهة عن الصفات السَّابِقَةِ التي يتَّصفُ بها المُبتدعة، فلا تكذبُ عليه، ولا تحتجُّ عنه إلا بما صحَّ إسناده، وثبت، وظهرت الدَّلالة منه مفسَّرة لا لبس فيها ولا غُموض، وذلك بجمع مقالات الإمام إلى بعضها، والتوفيق بين ما أشكل منها، وضمُّها إلى أقوال أسلافه وإخوانه من الأئمة الذين لم يُعرفوا بالبدع، إن وُجدت، ليصحَّ لهم حينئذ القول: اعتقادنا هو اعتقاد أحمد بن حنبل، وهو اعتقاد السَّلف.

وهذا المنهج هو الذي سلكناه في كتابنا هذا - ولله الحمد والمِنَّة -.

والمقصود هنا: أنَّ اللفظية النافية انتسبوا إلى الإمام أحمد، ونقلوا عنه ما ظنُّوه مُوافقاً لعقيدتهم، وتأوَّلوا نصوصه الصَّريحة في إنكارِ مقالَتهم على ما يوافق أهواءهم، ونصَّروا ذلك من وجوه:

الأوَّل: رَوَوْا عنه أنَّه يقول: «لفظي بالقرآن مخلوق».

وهذا ذكره البيهقي في اعتقاد الإمام أحمد (٦٤).

والثاني: رَوَوْا إنكاره القول: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) في قصة أبي طالب وغيره.

وقد ساق البيهقي القصة من رواية فوران عن الإمام أحمد، وكذا قصة ابن شداد، ثم قال: «فهاتان الحكايتان تُصرَّحان بأن أبا عبد الله أحمد ابن حنبل رضي الله عنه بريء مما خالف مذهب المحققين من أصحابنا، إلا أنه كان يستحب قلة الكلام في ذلك، وترك الخوض فيه، مع إنكار ما خالف مذهب الجماعة»^(٦٥).

قلت: أراد مذهب اللفظية، فإنه احتج بإنكار أحمد على أبي طالب وابن شداد بأنه كان على ضد قولهما، وأن الصواب عنده أن اللفظ بالقرآن مخلوق، فإن هذا هو قول من سماهم المحققين من أصحابهم، أمثال أبي الحسن الأشعري ومن تبعه كابن الباقلاني وابن فورك وغيرهم.

والثالث: تأولوا ما تواتر عنه من إنكاره على من قال: (لفظي بالقرآن مخلوق) على ثلاثة معانٍ:

١ - لأنه قولٌ محدثٌ لم يتكلَّم به السلف.

٢ - أنه أراد به الجهميَّ المَحْضُ الذي يزعم أن القرآن الذي لم ينزل مخلوق.

وهذا قولُ البيهقي فيما حكاه عنه شيخ الإسلام^(٦٦).

٣ - أن اللفظَ معناه الطُّرْحُ والرُّقْمُ، ومنه قولك: (لفظتُ باللقمة) إذا

(٦٥) «الأسماء والصفات» ص: ٢٦٦.

(٦٦) «مجموع الفتاوى» ١٢/٣٦٤.

طرحتها وألقيت بها، وهذا المعنى لا تجوز إضافته إلى القرآن.

وهذا قول أبي الحسن الأشعري وغيره (٦٧).

والرابع: وربما احتج بعضهم بما رواه فوران قال: سألتني الأثرم وأبو عبد الله المعيطي أن أطلب من أبي عبد الله خلوة، فأسأله فيها عن أصحابنا الذين يفرقون بين اللفظ والمحكمي، فسأله؟ فقال: «القرآن كيف تصرف في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة» قلت: فاللفظية تعدّهم يا أبا عبد الله في جملة الجهمية؟ فقال: «لا، الجهمية الذين قالوا: القرآن مخلوق» (٦٨).

ونحن نجيب - بتوفيق الله تعالى - عن جميع هذه الظنون، فنقول:

* أمّا الوجه الأول فهو خطأ ظاهر، وإفك بين على الإمام أحمد، يكذّبه النقل المتواتر عنه من رواية خاصة أصحابه وأهل بيته، فيما سقناه آنفاً.

ولو كان ذلك من رواية ثقة معروف لكان خطأ بيناً، إذ إنه يلزم من قبوله ردّ الأخبار الصحيحة المتواترة عنه بضدّ ذلك، وهذا لا يقوله عالم، ولا عجب فإن الأهواء تصنع بأهلها ما هو أعجب من ذلك.

* وأمّا الوجه الثاني فقد أجبت عنه في المبحث الآتي بعد هذا، وبينت أن سبب إنكار الإمام أحمد لإطلاق (لفظي بالقرآن غير مخلوق) يرجع لسببين:

(٦٧) انظر: «مجموع الفتاوى» ٣٦٢/١٢.

(٦٨) رواه الحاكم - كما في «سير أعلام النبلاء» ٢٩١/١١ - بسند صحيح.

— أحدهما: كونه بدعةً محدثةً لم يتكلم بها السلف.

— والثاني: لما يوهّم من المعاني الباطلة، كإدخالِ فعلِ القارىءِ وصوته في ذلك.

ومذهبُ مُحَقِّقِهِمْ (!) لم يقلْ به الإمامُ أحمدٌ ولا ارتضاهُ، بل أنكره بأشدَّ ممَّا أنكرَ به قولَ أبي طالب الذي حكاهُ عنه، فإنَّ ما حكاهُ أبو طالب من كَوْنِ اللفظِ بالقرآنِ غيرَ مخلوقٍ عدّه أحمدٌ بدعةً يُهجّرُ أصحابُها، ولكنَّ قولَ من وصفهم البيهقيُّ بـ (المُحَقِّقِينَ) أنكره بأشدَّ منه، وجهمُ القائلينَ به، إذ مقتضاهُ أن جبريلَ إنما جاءَ بشيءٍ مخلوقٍ، لأنَّ كلامَ الله عندهم معنى قائمٌ به، ليسَ هو لغةٌ عربيّةٌ ولا غيرها، ولا هو حروفاً ولا كلماتٍ، وهذا اللَّفْظُ العربيُّ عندهم عبارةٌ عنه وهو مخلوقٌ، وجبريلُ عليه السَّلامُ لم يأتِ بقرآنٍ غيرِ هذا العربيِّ، فكانَ ما أتى به مخلوقاً إذاً على اعتقادِهِمْ، وارجعْ إلى نصوصِ الإمامِ أحمدَ في إنكارِ هذه الضَّلالةِ في المبحثِ الثاني من هذا الفصل، لتعلمَ أن هذه الطائفةَ التي حَمَلَتْ كلامَ أحمدَ على غيرِ محاملِهِ قد حُرِمَتِ التوفيقُ في فهمِ كلامِهِ.

❖ وأما الوجه الثالثُ فإنَّ جميعَ ما ذكره تأويلاتٌ فاسدةٌ.

— أمَّا أولاً فإنّه حقٌّ في نفسه، ولكن ليس هو المراد، لأنَّ مجردَ كَوْنِ القولِ به بدعةً محدثةً فإنّه لا يستدعي تكفيرَ القائلِ به، وهذا المعنى يتنزهُ عن مثله من دونِ الإمامِ أحمدَ علماً وفهماً ومعرفةً، فكيف تصلحُ إضافته إليه رحمه الله وهو من أنزه الناسَ لساناً، وأضوبهم مقالاً، بما آتاه الله من العلمِ والهدى؟

— وأما ثانياً فإنما أوقعهم في مثله اضطرابهم لتعليل ما وقعوا فيه من مخالفة عقيدة أحمد، وإلا فإن هذا التفسير يردّه ظاهر قول أحمد رحمه الله، فإنه قد سبقَت حكايتنا لقوله مفسرة لا يرد عليها مثل هذا الحمل الفاسد، من ذلك قوله: «هم شر من قول الجهمية، من زعم هذا فقد زعم أن جبريل جاء بمخلوق وأن النبي ﷺ تكلم بمخلوق» والذي جاء به جبريل وتكلم به محمد ﷺ هو هذا القرآن العربي المعلوم عند جميع المسلمين، لم يأت جبريل بقرآن سواه، ولم يتكلم الله بقرآن سواه، وأحمد رحمه الله إنما قال هذه المقالة وما يشبهها في الذين قالوا بخلق هذا القرآن العربي، لا فيمن قال: إن القرآن الذي لم ينزل مخلوق، فإنه ليس هناك قرآن لم ينزل، ولم تكن هناك جهمية يقولون: القرآن قرآنان، قرآن نزل، وآخر لم ينزل، وهما مخلوقان، ليحمل قول أحمد على أنه أرادهم، وإنما كانت الجهمية المحضة يقولون: ليس لله كلام، والله لا يتكلم، والقرآن مخلوق.

— وأما ثالثاً ففساده ظاهر، فإنه لا يساعد على مثله الفاظ الإمام في تجهيم اللفظية، ثم إن لفظ (اللفظ) إنما يراد به هنا النطق، لا لفظ اللقمة، وهو أبين من أن يخفى.

* وأما الوجه الرابع فإن (اللفظية) لفظ مجمل، يطلق على اللفظية النافية التي تقول: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) وعلى اللفظية المثبتة التي تقول: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) وتعيين المراد إنما يكون بالدليل، فتأملنا حال اللفظية النافية هل هم المرادون بذلك أم لا؟ فوجدناهم غير مرادين لما يأتي:

١ - أن وصفهم بالجهمية متواتر عن الإمام أحمد - كما سبقت حكايته - .

٢ - أن أصحاب أحمد ليس فيهم من كان يقول: (لفظي بالقرآن مخلوق) وإنما فيهم من قال: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) - كما سيأتي في المبحث الآتي في حكاية قصة أبي طالب وابن شداد - وقد أنكرها أحمد رحمه الله، وبدع أصحابها، ولم يُجهّمهم .

٣ - قال في الرواية: «القرآن كيف تصرف في أقواله وأفعاله فغير مخلوق، فأما أفعالنا فمخلوقة» واللفظية النافية عندهم القرآن غير المخلوق لا يتصرف في أقواله وأفعاله، وإنما هو معنى واحد قائم بذات الله، وأما القرآن الذي يتصرف في أقواله وأفعاله فهو مخلوق عندهم .

فبان بهذا أنه يعني اللفظية المثبتة القائلين: (لفظي بالقرآن غير مخلوق) فإنهم مع بدعتهم ليسوا جهمية .

● بيان غلطهم على الإمام البخاري رحمه الله:

البخاري ذاك الإمام الذي لا يُجهل فضله وقدره، أبو عبد الله محمد ابن إسماعيل صاحب «الصحيح» أعظم كتاب على الإطلاق في سنة رسول الله ﷺ، تلقته الأمة من بعده بالقبول، وعولت عليه قبل سواه لمعرفة ما جاء به الرسول، رفع الله تعالى به للبخاري المنزلة العالية، فلا تكاد ترى مسلماً يفهم لا يعلم فضل محمد بن إسماعيل بفضله «صحيحه» وكذلك هو الإمام المعتمد في الجرح والتعديل، ومعرفة الرجال والعِلل، وكيف لا يكون كذلك وبأحمد وابن المديني وإسحاق تخرج؟

ولقد كَانَ رحمه الله إمامَ أهلِ السُّنَّةِ ورأسَ أهلِ الحديثِ بعدَ أحمدَ ابنِ حنبلٍ، فَإِنَّهُ كَانَ عَلَى أثرِهِ وطريقَتِهِ، مَا حَادَّ عَنْهُ وَلَا زَادَ، وَمَنْ تَأَمَّلَ كِتَابَ «التَّوْحِيدِ» مِنْ «الصَّحِيحِ» وَ«خُلُقِ أَفْعَالِ الْعِبَادِ» قَامَتْ لَهُ الْحُجَّةُ عَلَى صِحَّةِ مَا قُلْنَا.

وَلَكِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَّا آتَاهُ اللَّهُ تَعَالَى مِنْ سَعَةِ الْعِلْمِ وَالْمَعْرِفَةِ مَا آتَاهُ مِمَّا فَاقَ بِهِ الْأَقْرَانَ، وَصَارَ الْمَشَارَإِلِيهِ بِالْبَنَانِ، حَمَلَ عَلَيْهِ بَعْضُ أَقْرَانِهِ بِسَبَبِ الْحَسَدِ الْمَمْقُوتِ، فَحَمَلُوا كَلَامَهُ مَا لَا يَحْتَمِلُ، وَادَّعَوْا عَلَيْهِ إِطْلَاقَ الْقَوْلِ: (أَلْفَاظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ) وَأَشَاعُوا ذَلِكَ وَأَذَاعُوهُ فِي نَيْسَابُورَ وَغَيْرِهَا، لِيُنْفَرَّ عَنْهُ وَعَنِ الْإِنْتِفَاعِ بِهِ.

وَكَانَ حَامِلٌ رَايَةَ الْمُنفَرِّينَ عَنْهُ الْإِمَامَ الْحَافِظَ مُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى الذَّهْلِيَّ، وَكَانَ مِنْ ثِقَاتِ الْمُحَدِّثِينَ وَحُفَاظِهِمْ، أَثْنَى عَلَيْهِ الْأَثَمَةَ وَعَدَّلُوهُ وَارْتَضَوْهُ، وَكَانَ صَاحِبَ سُنَّةٍ مُتَّبِعًا، رَحِمَهُ اللَّهُ، إِلَّا أَنَّهُ وَقَعَ فِي نَفْسِهِ عَلَى الْبُخَارِيِّ، وَزُورَتْ إِلَيْهِ الْمَقَالَةُ عَلَيْهِ فِي مَسْأَلَةِ اللَّفْظِ، فَشَدَّدَ عَلَى الْبُخَارِيِّ بِسَبَبِهَا، مَعَ أَنَّهُ ارْتَضَاهُ أَوَّلَ الْأَمْرِ.

قَالَ الْحَافِظُ أَبُو حَامِدٍ الْأَعْمَشِيُّ (وَكَانَ ثِقَةً ثَبَاتًا): رَأَيْتُ مُحَمَّدَ بْنَ إِسْمَاعِيلَ الْبُخَارِيَّ فِي جَنَازَةِ أَبِي عَثْمَانَ سَعِيدِ بْنِ مَرْوَانَ، وَمُحَمَّدَ بْنَ يَحْيَى يَسْأَلُهُ عَنِ الْأَسَامِيِّ وَالْكُنَى وَعِلَلِ الْحَدِيثِ، وَيَمُرُّ فِيهِ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ مِثْلَ السَّهْمِ كَأَنَّهُ يَقْرَأُ: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فَمَا أَتَى عَلَى هَذَا شَهْرٍ حَتَّى قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى: أَلَا مَنْ يَخْتَلِفُ إِلَى مَجْلِسِهِ لَا يَخْتَلِفُ إِلَيْنَا، فَإِنَّهُمْ كَتَبُوا إِلَيْنَا مِنْ بَغْدَادَ: أَنَّهُ تَكَلَّمَ فِي اللَّفْظِ، وَنَهَيْتَاهُ فَلَمْ يَتَّه. فَلَا تَقْرَبُوهُ، وَمَنْ يَقْرَأْهُ؛ فَلَا يَقْرَأْنَا. فَأَقَامَ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْمَاعِيلَ هَا هُنَا مَدَّةً، وَخَرَجَ إِلَى

بُخَارِي (٦٩).

قُلْتُ: كَانَ الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ يَرَى أَنَّ هَذَا مِمَّا أَوْقَعَ فِيهِ مُحَمَّدٌ بْنُ يَحْيَى الْحَسَدُ فِي الْعِلْمِ، وَذَلِكَ أَنَّ اللَّهَ فَتَحَ عَلَيْهِ وَآتَاهُ مَا لَمْ يَوْتِ الذُّهْلِيُّ.

قَالَ مُحَمَّدُ بْنُ شَادِلٍ - وَكَانَ مُحَدِّثًا ثَبَتًا -: لَمَّا وَقَعَ بَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى وَالْبُخَارِيِّ دَخَلْتُ عَلَى الْبُخَارِيِّ فَقُلْتُ: يَا أَبَا عَبْدِ اللَّهِ، أَيُّسِرُ الْحِيلَةُ لَنَا فِيمَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ مُحَمَّدِ بْنِ يَحْيَى، كُلُّ مَنْ يَخْتَلِفُ إِلَيْكَ يُطْرَدُ؟

فَقَالَ: «كَمْ يَغْتَرِي مُحَمَّدُ بْنُ يَحْيَى الْحَسَدُ فِي الْعِلْمِ، وَالْعِلْمُ رِزْقُ اللَّهِ يُعْطِيهِ مَنْ يَشَاءُ» فَقُلْتُ: هَذِهِ الْمَسْأَلَةُ الَّتِي تُحْكِي عَنْكَ؟ قَالَ: «يَا بَنِي، هَذِهِ مَسْأَلَةٌ مَشْؤُومَةٌ، رَأَيْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ وَمَا نَالَ فِي هَذِهِ الْمَسْأَلَةِ، وَجَعَلْتُ عَلَى نَفْسِي أَنْ لَا أَتَكَلَّمَ فِيهَا» (٧٠).

قُلْتُ: الْبُخَارِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ نَزِيهُ اللِّسَانِ، لَا يَرْمِي قَرِينَهُ بِدَاءِ الْحَسَدِ بِمُجَرَّدِ الظَّنِّ مِنْ غَيْرِ أَنْ تَحَقُّقُهُ الْقَرَائِنُ، وَلَكِنِّي أَرَى مَعَ ذَلِكَ أَنَّ يَكُونُ النُّقْلُ الَّذِي بَلَغَ الذُّهْلِيُّ عَنْ الْبُخَارِيِّ هُوَ السَّبَبُ الدَّاعِي لِلتَّنْفِيرِ مِنْهُ، وَكَانَ الْأَجْدَرُ بِالْإِمَامِ الذُّهْلِيِّ أَنْ يَسْتَشَبَّتَ مِنَ الْبُخَارِيِّ نَفْسِهِ، وَلَكِنْ أَبِي اللَّهِ أَنْ يَكُونَ إِلَّا مَا أَرَادَ.

وَالْتَحَقِيقُ الَّذِي يَرْتَضِيهِ كُلُّ مُنْصَفٍ هُوَ أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمْ يَقُلْ بِقَوْلِ اللَّفْظِيَّةِ، وَلَمْ يَنْطِقْ بِذَلِكَ لِسَانُهُ، وَإِنَّمَا كَانَ يَقُولُ أَلْفَاظًا يَرُدُّ بِسَبَبِهَا

(٦٩) رواه الخطيب في «تاريخ بغداد» ٣١/٢ بسند صحيح.

(٧٠) أخرجه الحاكم - كما في «سير أعلام النبلاء» ٤٥٦/١٢ - ٤٥٧ - وسنده

جيد.

بعض الإيهام واللبس، ولكن من تأملها ثبت له صحة ما قلنا، فالماخذ عليه في هذه القضية أربعة:

الأول: وقفه عن التصريح بتجهيم أو تبديع اللفظية القائلين: (لفظي بالقرآن مخلوق).

والثاني: جاء عنه قوله - وقد سُئل عن اللفظ بالقرآن؟ -: «أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا» ففهم بعض من حضر مجلسه أنه يقول: «لفظي بالقرآن مخلوق» وأبى ذلك آخرون^(٧).

والثالث: ما أشاعه عنه الذُّهلي من القول: «ألفاظنا بالقرآن مخلوقة».

والرابع: إطلاقه الفرق بين التلاوة والمُتْلَوْ، والقراءة والمَقْرُوء.

فاستغل القائلون: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) ممن جاء بعده من الأشعرية وغيرهم هذه الأمور فقالوا: قول البخاري هو قولنا، فإننا نفرق بين التلاوة والمُتْلَوْ، فالتلاوة هذه الألفاظ العربية، والمُتْلَوْ ما دلت عليه التلاوة، وهو عندهم كلام الله القائم بذاته الذي هو معنى مجرد.

وهذا من الزور والبُهتان الذي لم يقل البخاري بشيء منه، وهو بريء منه بحمد الله، وإنني ناقض بحول الله تعالى وقوته ما حرفوه من المعاني بسبب ما ذكرنا من المأخذ على البخاري.

* أمَّا المأخذ الأول فهو غير قائم، لأن وقفه حين وقف لم يكن عن شك في بدعتهم، أو تردد في بطلان مذهبيهم، وإنما كان ذلك اتقاء لما

(٧١) «سير أعلام النبلاء» ١٢/٤٥٨ و«هدي الساري» ص: ٤٩٠.

يُحْتَمَل وقوعه من الفتنة بسببها، ألا تراه احتج بأحمد رحمه الله؟ قال: «هذه مسألة مشرومة، رأيت أحمد بن حنبل وما ناله في هذه المسألة، وجعلت على نفسي أن لا أتكلّم فيها».

واكتفى ببيان الفرق بين أفعال العباد وكلام الله تعالى، وقال: إن أفعال العباد مخلوقة، وكلام الله القرآن وغيره غير مخلوق، وأبان عن هذا أحسن الإبانة في كتابه «خلق أفعال العباد».

* وأما المأخذ الثاني فإنه إيراد مُشْتَبَه، ونحن قد شَرَحْنَا فيما سبق أن (اللفظ) مُطلقاً، قد يُرادُ به فعلُ العبد الذي هو حركته وصوته بالقرآن فهو حينئذ مخلوق، وقد يُرادُ به كلامُ الله تعالى المسطورُ المقروء الذي هو الحروفُ العربيّةُ فهو حينئذ غيرُ مخلوق.

والأئمة منَعوا إطلاقَ اللفظ: (لفظي بالقرآن مخلوق) من غير تبين المُراد، لأنّ الجهميّة ابتدَعوا ذلك لِيُموّهوا على الناس، ولم تكن حينئذ قد ظَهَرَتْ بدعةُ القائلين: (لفظي بالقرآن مخلوق) وهم يُريدونَ خَلْقَ القرآنِ العربيّ المؤلّف من الحُرُوفِ العربيّة، من الأشعرية وغيرهم.

فالبخاري رحمه الله في هذه المقالة أبان عن حقيقة قوله، بقوله: «أفعالنا مخلوقة، وألفاظنا من أفعالنا» عن مفارقتها لاعتقاد الجهمية الباطل، وموافقته لأهل السنة، فإنه فسّر ههنا مراده باللفظ وأنه إنما أراد فعل العبد، وهو مخلوق قطعاً، وقد سبقَت حكايتنا قول الإمام أحمد: «مَن قال: لفظي بالقرآن مخلوق، يريدُ به القرآن، فهو كافرٌ» والبخاري رحمه الله لم يُرد باللفظ القرآن، وإنما أراد فعل العبد، فغلط أناس في فهم مراده فافتروا عليه.

مع أن الأولى والأخرى بالبخاري رحمه الله ترك هذه اللفظة جملةً،
لأنها مما ترك السلف الكلام فيها، واكتفوا بالبيان: «أن أفعال العباد
مخلوقة، والقرآن كلام الله غير مخلوق حيث تصرف».

ولكن المقصود هنا بيان أن البخاري رحمه الله لم يكن اعتقاده في
اللفظ هو اعتقاد اللفظية الذين يعتقدون أن جبريل عليه السلام إنما جاء
بكلام مخلوق، وهو هذا القرآن المؤلف من الحروف العربية، وأن الله
تعالى لم يتكلم بالحروف.

* وأما المأخذ الثالث فهو مبني على خطأ على البخاري، عضده ما
وقع في النفوس من الحسد في العلم - كما بينا -.

* وأما المأخذ الرابع فإن البخاري حين فرق بين التلاوة والمتلو،
يعتقد أن التلاوة فعل العبد فقط، ولا يدخل فيها الكلام المؤلف من
الحروف، والمتلو هو هذا القرآن العربي المبين الذي نزل به جبريل عليه
السلام على محمد ﷺ، خلافاً لما يعتقده اللفظية الذين اعتصموا بقوله
- من الأشعرية وغيرهم - فإن هؤلاء يدخلون القرآن العربي المفتوح
بalfاتحة، والمختتم بالناس في التلاوة، والمتلو عندهم هو المعنى الذي
وصفوه بالنفسي، القائم بذات الله تعالى، وشتان ما بين المعنيين.

هذا مع أننا قد شرخنا فيما سلف أول هذا الباب عدم صحة إطلاق
الفرق بين التلاوة والمتلو، أو التسوية بينهما، لأن كلا من الإطالقين يجزئ
إلى محاذير مرفوضة شرعاً، وبينا أن تمييز القول في هذه القضية هو
الجواب عن جميع ما أورد عليها من الإشكال.

فتبين إذا بهذا البيان براءة البخاري رحمه الله مما نسب إليه اللفظية النافية من الاعتقاد الباطل ، وإني أورد عليهم قول البخاري نفسه في ذلك ليمحق باطلهم ، قال رحمه الله بعد أن أسند عن يحيى بن سعيد قوله : « ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون : إن أفعال العباد مخلوقة » قال البخاري : « حركاتهم ، وأصواتهم ، واكتسابهم ، وكتابتهم ، مخلوقة ، فأما القرآن المتلو المبين ، المثبت في المصحف ، المسطور ، المكتوب ، الموعى في القلوب ، فهو كلام الله ، ليس بخلق » (٧٢) .

وقال رحمه الله : « وقال الله عز وجل : ﴿ لَئِنْ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيرًا ﴾ ولكنه كلام الله تَلَفُظُ به العباد والملائكة » (٧٣) .

قلت : ولا يجهل مسلم يفهم أن المراد بالقرآن في هذه الآية هو القرآن العربي المعجز الذي أعجز الإنس والجن عن الإتيان بمثله ، وهو نفسه الذي وصفه البخاري بأنه كلام الله ، وهو نفسه الذي تَلَفُظُ به العباد ، والملائكة ، فما أثبت للعباد والملائكة - وهم عامة من يعقل من خلق الله - إلا تَلَفُظُهم به الذي هو فعلهم : نطق السنتهم ، وحركة شفاههم ، أما القرآن المعجز فغير مقدور لهم أن يأتوا بمثله ، وهذا كله خلاف دين اللفظية النافية ، فإن هذا القرآن العربي المعجز في نظمه مخلوق النظم عندهم .

وقد أثبت البخاري رحمه الله في كتابه « خلق أفعال العباد » أن القرآن

(٧٢) « خلق أفعال العباد » ص : ٤٢ .

(٧٣) « خلق أفعال العباد » ص : ٨٧ .

منزَّلٌ غيرُ مخلوق، وأنه من الله بدأ وإليه يعودُ، وأنَّ الله تعالى يتكلَّمُ بصَوْتٍ، إلى غير ذلك ممَّا هو مُعتَقَدُ أهلِ الحقِّ الذي فصلناه في الباب الأوَّل، ممَّا تُرْعَمُ به أنوفُ اللفظيةِ الأشعريةِ وغيرهم الذين يقولُ قائلهم من غير حياءٍ ولا وَدَعٍ: «كَانَ الْبَخَارِيُّ مِمَّنْ قَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مخلوق».

وممَّا يَجْدُرُ التَّنْبِيهُ عَلَيْهِ أَنَّهُ رُوِيَ عَنِ الْبَخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّهُ قَالَ لِلْحَافِظِ أَبِي عَمْرٍو أَحْمَدَ بْنِ نَصْرِ الْخَفَّافِ: «يَا أَبَا عَمْرٍو، احْفَظْ مَا أَقُولُ لَكَ: مَنْ زَعَمَ مِنْ أَهْلِ نَيْسَابُورَ، وَقُومَسَ، وَالرِّيِّ، وَهَمْدَانَ، وَحُلُوانَ، وَبَغْدَادَ، وَالْكُوفَةَ، وَالْمَدِينَةَ، وَمَكَّةَ، وَالْبَصْرَةَ، أَنِّي قُلْتُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مخلوقٌ فهو كَذَّابٌ، فَإِنِّي لَمْ أَقُلْ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، إِلَّا أَنِّي قُلْتُ: أَفْعَالُ الْعِبَادِ مخلوقة» (٧٤).

قُلْتُ: لَكُنِّي أَعْرَضْتُ عَنِ الْاِحْتِجَاجِ بِهَا صَفْحاً لَعَدَمِ ثُبُوتِ إِسْنَادِهَا، وَإِنْ كَانَتْ قَدْ اِحْتَجَّ بِهَا جَمَاعَةٌ مِنَ الْأَثَمَةِ، وَفِيمَا حَقَّقْنَاهُ كِفَايَةً لِمَنْ رَزَقَهُ اللَّهُ التَّجَرُّدَ لِلْحَقِّ.



(٧٤) رواه ابن الطبري في «السنة» ٣٥٨/٢ والخطيب في «التاريخ» ٣٢/٢ وابن أبي يعلى في «طبقات الحنابلة» ٢٧٧/١ وهي قصة ضعيفة الإسناد جداً من أجل أبي صالح خلف بن محمد بن إسماعيل وهو الخيام البخاري، ضعيف جداً.

المبحث الخامس اللفظية المثبتة ومتدعة

اللفظية المثبتة - كما سبق في المبحث الأول - هم القائلون :
(ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) ويريدون بهذا الإطلاق اللفظ الذي هو كلام
الله المؤلف من الحروف العربية، ويريدون به أيضاً الردّ على اللفظية النافية
القائلين : (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة).

ولكنهم حين أطلقوا هذه المقالة - مع صحة مُرادهم - جاء من
بعدهم أقوام وافقوهم في إطلاق اللفظ، وأدخلوا في ذلك فعل العبد وحركته
وصوته، ومما أوقعهم في ذلك إطلاقهم القول : إن التلاوة هي المتلو،
والقراءة هي المقروء، وقد بيّنا فيما سلف فساد هذا الإطلاق.

فمنع الإمام أحمد رحمه الله إطلاق هذا اللفظ : (ألفاظنا بالقرآن غير
مخلوقة) لأمرين :

الأول : أنه لفظ مُبتدع، لم يتكلّم فيه السلف.

والثاني : لما يجزّ من الوقوع في المحذور، كما جرّ بعض من جاء
بعد من أتباع هذه المقالة، فمنهم من توقّف : هل يدخل في اللفظ صوت
العبد وحركته؟ أم لا؟ وتجراً آخرون فأدخلوا فعل العبد وحركته وصوته.

وهذا سياق لبعض ما تيسر الوقوف عليه من كلام إمام السنة أبي
عبدالله أحمد بن حنبل في شأن هذه الطائفة.

١ - قَدْ سَبَقَ عَنْهُ أَنَّهُ كَانَ يَكْرَهُ الْكَلَامَ فِي اللَّفْظِ بِإِثْبَاتٍ أَوْ نَفْيٍ .

٢ - وَقَالَ أَبُو بَكْرِ بْنُ زَنْجَوَيْهِ : سَمِعْتُ أَحْمَدَ بْنَ حَنْبَلٍ يَقُولُ : «مَنْ
قَالَ : لَفْظِي بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقٌ فَهُوَ جَهْمِيٌّ ، وَمَنْ قَالَ : غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، فَهُوَ مُبْتَدِعٌ
لَا يُكَلِّمُ» (٧٥) .

وحكى نحو هذا الحافظ الإمام محمد بن جرير الطبري عن أحمد ،
وقال الإمام أبو عثمان الصابوني عقبه :

«وَأَمَّا مَا حَكَاهُ مُحَمَّدُ بْنُ جَرِيرٍ عَنْ أَحْمَدَ رَحِمَهُ اللَّهُ أَنَّ مَنْ قَالَ :
لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ فَهُوَ مُبْتَدِعٌ ، فَإِنَّمَا أَرَادَ بِهِ أَنَّ السَّلَفَ الصَّالِحِينَ
مَنْ أَهْلَ السُّنَّةِ لَمْ يَتَكَلَّمُوا فِي بَابِ اللَّفْظِ ، وَلَمْ يُخَوِّجْهُمْ الْحَالُ إِلَيْهِ ، وَإِنَّمَا
حَدَّثَ الْكَلَامَ فِي اللَّفْظِ مِنْ أَهْلِ التَّعَمُّقِ وَذَوِي الْحُمُقِ ، الَّذِينَ أَتَوْا
بِالْمُحَدَّثَاتِ ، وَبَحَثُوا عَمَّا نَهَوْا عَنْهُ مِنَ الضَّلَالَاتِ وَذَمِيمِ الْمَقَالَاتِ ،
وَخَاصُّوهُ فِيمَا لَمْ يَخُصْ فِيهِ السَّلَفُ مِنْ عُلَمَاءِ الْإِسْلَامِ ، فَقَالَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ :
هَذَا الْقَوْلُ فِي نَفْسِهِ بَدْعٌ ، وَمِنْ حَقِّ الْمَتَدِّينَ أَنْ يَدْعُوهُ وَكُلُّ بَدْعٍ مُبْتَدَعٌ ،
وَلَا يَتَفَوَّهُ بِهِ وَلَا بِمِثْلِهِ مِنَ الْبِدَعِ الْمُبْتَدَعَةِ ، وَيَقْتَصِرُ عَلَى مَا قَالَهُ السَّلَفُ
الْمُتَّبَعَةُ : إِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ ، وَلَا يَزِيدُ عَلَيْهِ إِلَّا تَكْفِيرٌ مَنْ يَقُولُ
بِخَلْقِهِ» (٧٦) .

(٧٥) رواه الخلال في «السنة» كما في «مجموع الفتاوى» ٣٢٥/١٢ بسند
صحيح عن أحمد .

(٧٦) رسالته في السنة نص (١٧) .

٣ - وقال الإمام أبو بكر المروزي رحمه الله: قال لي أبو عبد الله - يعني أحمد -: «قد غيَضَ قلبي على ابن شدَّاد» قلت: أي شيء حكى عنك؟ قال: «حكى عني في اللفظ» فبلغ ابن شدَّاد أن أبا عبد الله قد أنكر عليه، فجاءنا حمْدويه بن شدَّاد بالرفعة فيها مسائل، فأدخلتها على أبي عبد الله، فنظر، فرأى فيها: إن لفظي بالقرآن غير مخلوق - مع مسائل فيها - فقال أبو عبد الله: «فيها كلام ما تكلمتُ به» فقام من الدهليز فدخل، فأخرج المِخْبَرَةَ والقلم، وضربَ أبو عبد الله على موضع: لفظي بالقرآن غير مخلوق، وكتبَ أبو عبد الله بخطه بين السطرين: «القرآن حيثُ تصرفَ غيرُ مخلوق» وقال: «ما سمِعتُ أحداً تكلمَ في هذا بشيءٍ» وأنكرَ على مَنْ قال: لفظي بالقرآن غيرُ مخلوق^(٧٧).

قلت: حمْدُوْنِه بن شدَّاد هذا أحدُ أصحاب الإمام أحمد.

٤ - وقال صالح بن أحمد بن حنبل:

تَناهَى إِلَيَّ أَنَّ أبا طالب^(٧٨) يَحْكِي عن أبي أَنَّهُ يَقُولُ: لفظي بالقرآن غيرُ مخلوق، فأخبرتُ أبي بذلك، فقال: «مَنْ أَخْبَرَكَ؟» فقلت: فلان، قال: «أبعثْ إلى أبي طالب» فوجهتُ إليه، فجاء، وجاء فوران^(٧٩)، فقال

(٧٧) رواه الخلال في «السنة» عن المروزي به - كما في «مجموع الفتاوى» ٤٢٤/١٢ - ٤٢٥ - وروى هذه القصة أيضاً أبو محمد فوران صاحب الإمام أحمد بنحوها، أخرج ذلك البيهقي في «الأسماء» ص: ٢٦٥ بسند صحيح.

(٧٨) اسمه أحمد بن حميد أبو طالب المشكاني، كان من أجل أصحاب أحمد، وكان أحمد يُكرِّمُه ويعظِّمُه، مات سنة (٢٤٤).

(٧٩) اسمه عبد الله بن محمد بن المهاجر، كان من خاصة الإمام أحمد، مات سنة (٢٥٦).

له أبي: «أنا قلت [لك]: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟» وغضب، وجعل يرعد، فقال له: قرأت عليك: ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ فقلت لي: «هذا ليس بمخلوق» قال: «[فلم حكيت عني] أني قلت لك: لفظي بالقرآن غير مخلوق؟ وبلغني أنك وضعت ذلك في كتابك، وكتبت به إلى قوم، فإن كان في كتابك فامحه أشد المحو، واكتب إلى القوم الذين كتبت إليهم: أني لم أقل لك هذا» وغضب، وأقبل عليه فقال: «تحكي عني ما لم أقل لك؟» فجعل فوران يعتذر إليه، وانصرف من عنده وهو مرعوب، فعاد أبو طالب فذكر أنه قد حك ذلك من كتابه، وأنه كتب إلى القوم يخبرهم أنه وهم على أبي عبدالله في الحكاية^(٨٠).

قلت: وهذه القصة صحيحة مشهورة عن الإمام أحمد، رواها عنه ابنه صالح، وأبو بكر المروزي، وفوران بن محمد، والثلاثة من خواص أصحابه، وكلهم شهدوا القصة.

رواية أبي بكر المروزي:

قال رحمه الله: بلغ أبا عبدالله عن أبي طالب أنه كتب إلى أهل نصيبين^(٨١): أن لفظي بالقرآن غير مخلوق.

قال أبو بكر: فجاءنا صالح بن أحمد، فقال: قوموا إلى أبي، فجبنا،

(٨٠) رواها صالح في «المحنة» ص: ٧٠-٧١ ومن طريقه ابن الجوزي في «المناقب» ص: ١٥٥، وذكرها شيخ الإسلام عن كتاب «المحنة» - كما في «مجموع الفتاوى» ١٢/٤٢٣ - ٤٢٤ - .

(٨١) اسم مدينة معروفة، كانت عامرة، على جادة القوافل بين الموصل

والشام.

فدخلنا على أبي عبدالله، فإذا هو غضبانٌ شديدُ الغضب، قد تبينَ الغضبُ في وجهه، فقال: «اذْهَبْ فَجِئْنِي بِأَبِي طَالِبٍ» فجئتُ به، فقعدَ بين يَدَي أبي عبدالله وهو يرْعُدُ، فقال: «كُتِبَتْ إِلَى أَهْلِ أَهْلِ نَصِيْبِيْنَ تَخْبِرُهُمْ عَنِّي أَنِّي قُلْتُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟» فقال: «إِنَّمَا حَكَيْتُ عَنْ نَفْسِي، قَالَ: «فَلَا يَحِلُّ هَذَا عَنْكَ وَلَا عَنْ نَفْسِي، فَمَا سَمِعْتَ عَالِمًا قَالَ هَذَا».

قال أبو عبدالله: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ كَيْفَ تَصْرُفُ».

فَقِيلَ لِأَبِي طَالِبٍ: اخْرُجْ وَأَخْبِرْ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَدْ نَهَى أَنْ يُقَالَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَخَرَجَ أَبُو طَالِبٍ فَلَقِيَ جَمَاعَةً مِنَ الْمُحَدِّثِينَ فَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ نَهَاهُ أَنْ يَقُولَ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ (٨٢).

روايةُ فُورَانَ بْنِ مُحَمَّدٍ:

قال رحمه الله: جَاءَنِي صَالِحٌ - وَأَبُو بَكْرٍ الْمَرْوُذِيُّ عِنْدِي - فَدَعَانِي إِلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، وَقَالَ: إِنَّهُ قَدْ بَلَغَ أَبِي أَنَّ أَبَا طَالِبٍ قَدْ حَكَى عَنْهُ أَنَّهُ يَقُولُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَقُمْتُ إِلَيْهِ، فَتَبَعَنِي صَالِحٌ، فَدَارَ صَالِحٌ مِنْ بَابِهِ، فَدَخَلْنَا عَلَى أَبِي عَبْدِ اللَّهِ، فَإِذَا أَبُو عَبْدِ اللَّهِ غَضْبَانٌ شَدِيدُ الْغَضَبِ، بَيْنَ الْغَضَبِ فِي وَجْهِهِ، فَقَالَ لِأَبِي بَكْرٍ: اذْهَبْ فَجِئْنِي بِأَبِي طَالِبٍ، فَجَاءَ أَبُو طَالِبٍ، وَجَعَلْتُ أَسْكُنُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ قَبْلَ مَجِيءِ أَبِي طَالِبٍ، وَأَقُولُ: لَهُ حُرْمَةٌ، فَقَعَدَ بَيْنَ يَدَيْهِ - وَهُوَ مُتَغَيِّرُ اللَّوْنِ - فَقَالَ لَهُ أَبُو عَبْدِ اللَّهِ: «حَكَيْتَ عَنِّي أَنِّي قُلْتُ: لَفْظِي بِالْقُرْآنِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ؟» فَقَالَ: «إِنَّمَا حَكَيْتُ عَنْ

(٨٢) رواها الخلال في «السنة» عن المروزي به - كما في «مجموع الفتاوى»

نفسى، فقال: «لا تحك هذا عنك ولا عني، فما سمعتُ عالماً يقولُ هذا»
- أو العلماء، شكُّ فوران - وقال له: «القرآنُ كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ حيثُ
تصرف».

فقلتُ لأبي طالب - وأبو عبدالله يسمعُ -: إن كنتَ حكيتَ هذا لأحدٍ
فاذهبْ حتى تُخبره أن أبا عبدالله نهى عن هذا، فخرجَ أبو طالب فأخبرَ غيرَ
واحدٍ بنهي أبي عبدالله، منهم: أبو بكر بن زنجويه، والفضل بن زياد
القطان، وحمدان بن علي الوراق، وأبو عبيد، وأبو عامر، وكتبَ أبو طالب
بخطه إلى أهل نصيبين بعدَ موت أبي عبدالله يُخبرهم أن أبا عبدالله نهى
أن يقال: لفظي بالقرآن غيرُ مخلوق، وجاءني أبو طالب بكتابه وقد ضربَ
على المسألة من كتابه.

قال زكريا بن الفرج - راوي القصة عن فوران -:

فمضيتُ إلى عبدالوهاب الوراق، فأخذَ الرقعةَ فقرأها، فقال لي: مَنْ
أخبرك بهذا عن أحمد؟ فقلتُ له: فوران بن محمد، فقال: الثقةُ المأمونُ
على أحمد.

قال زكريا: وكانَ قبلَ ذلك قد أخبرَ أبو بكر المروزي عبدالوهاب،
فصارَ عند عبدالوهاب شاهدان (٨٣).

(٨٣) أخرج هذا السياق الخلال في «السنة» - كما في «مجموع الفتاوى»
٤٢٥/١٢ - ٤٢٦ - وزكريا بن الفرج هذا لم أعرفه، إلا أن البيهقي أخرج القصة في
«الاسماء» ص: ٢٦٥ - ٢٦٦ من طريق أخرى عن فوران بإسناد صحيح، فرال ما
يخشى.

قلت: فهذه الحكاية الصحيحة قاطعة في عدم قول الإمام أحمد بهذه المقالة، بل هي صريحة في كونه لم يتفوه بها، وإنما كان ما نقل عنه أبو طالب خطأ تأوله، فعنفه أحمد ونهاه عنه.

فكل ما ورد عنه من القول بها فإن هذه الحكاية تكذبه.

٥ - وقال البخاري رحمه الله:

«وقع عندي عن أحمد بن حنبل على اثنين وعشرين وجهاً، كلها يخالف بعضها بعضاً، والصحيح عندي أنه قال: ما سمعتُ عالماً يقول: لفظي بالقرآن غير مخلوق»^(٨٤).

قلت: فهذه النصوص التي ذكرت عن الإمام أحمد كافية في بيان اعتقاده في هذه القضية، فكما أنه أنكر بدعة اللفظية النافية أنكر كذلك بدعة اللفظية المثبتة، ولم يوافق آياً من الطائفتين على بدعتهم، وأولئك النافية جهمهم، وهؤلاء المثبتة بدعهم وأمر بهجرهم.

● بيان خطأ من أخطأ على الإمام أحمد في هذه المسألة:

ولكن أقواماً من أهل السنة والحديث أرادوا رد بدعة اللفظية النافية القائلين: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) فقابلوهم بإطلاق الضد، فقالوا: (ألفاظنا بالقرآن غير مخلوقة) ولم يكن مرادهم إلا إثبات أن هذا القرآن

(٨٤) ذكر هذا شيخ الإسلام، قال: ورأيت بخط القاضي أبي يعلى رحمه الله على ظهر كتاب «العدة» بخطه قال: نقلت من آخر كتاب «الرسالة» للبخاري في أن القراءة غير المقروء، فذكره.

العربي كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، لكنَّهم لم يتفطنوا لخطورةِ هذا الإطلاقِ، وكانَ حرباً بهم أن يسلكوا مسلكَ الإمام أحمدَ في المنعِ من ذلك، وعدمِ ردِّ البدعةِ ببدعةٍ.

فلما وقعَ ذلكَ منهم، وفيهم أئمةٌ أعلامٌ، مثلُ: الحافظِ الإمام أبي حاتم الرازي، تبعَهم عليه طائفةٌ من أهلِ السُّنةِ المعروفينَ بالانتسابِ إلى عقيدةِ الإمام أحمدَ، مثلُ: أبي عبد الله بن حامد، وأبي نصرٍ السَّجَريِّ، وأبي عبد الله بن منده، وآخرينَ سواهم، وظنوا أنَّ هذا هو مذهبُ أحمدَ واعتقادهُ، بل إنَّ منهم من كان يقطعُ بأنَّه اعتقادُ أحمدَ وقولهُ المحققُ الذي رَجَعَ إليه، واعتمدوا على نقولٍ عنه في ذلك، وادَّعى بعضهم أنَّ حكايةَ أبي طالبِ السابقةِ مكذوبةٌ عليه^(٨٥).

قال شيخ الإسلام: «وليس الأمرُ كما قاله هؤلاء، فإنَّ أعلمَ الناسِ بأحمدَ وأخصَّ الناسِ وأصدقَ الناسِ في النُّقلِ عنه هم الذين رَوَوْا ذلكَ عنه، ولكنَّ أهلَ خراسانَ لم يكن لهم من العِلْمِ بأقوالِ أحمدَ ما لأهلِ العراقِ الذين هم أخصُّ به»^(٨٦).

وقال فيما احتجَّوا به من رواياتٍ عن أحمدَ أنَّه قال ذلك: «وهي رواياتٌ ضعيفةٌ بأسانيدٍ مجهولةٍ، لا تُعارضُ ما تواترَ عنه عندَ خواصِّ أصحابه وأهلِ بيته والعُلَماءِ الثِّقاتِ، لا سيَّما وقد عُلِمَ أنَّه في حياته خطأً أبا طالبٍ في النُّقلِ عنه، حتى ردَّه أحمدُ عن ذلكَ وغَضِبَ عليه غَضَباً

(٨٥) «مجموع الفتاوى» ١٢/٢٠٧-٢٠٨، ٣٦١.

(٨٦) «مجموع الفتاوى» ١٢/٢٠٨.

● ذكر ما جر إليه إطلاق هذا القول من البدع:

الألفاظ المُبتدعة لو كَانَ المقصودُ منها حسناً فإنَّها لا تَخْلُو من مَفْسَدَةٍ شَرْعِيَّةٍ، ولو لَمْ يَقَعْ بسببِها إِلَّا الإحداثُ المذمومُ لكانت حُرِيَّةً بَأَن تُنْبَذَ وتُتْرَكَ، فكيفَ إذا كانت باباً لِبَدْعٍ أعظمَ منها، ولمفاسِدَ أكبرَ منها، شأنُ هذه البدعة، فإنَّه كَانَ من مقصودِ مُبتدِعِها الرَّدُّ على اللَّفظيةِ الجَهميةِ الذين أَطْلَقُوا القولَ: (ألفاظنا بالقرآن مخلوقة) فقابلوا باطلهم بباطلٍ، وبدعتهم ببدعةٍ، ولقد كَانَ يكفِيهم ما كفى غيرَهم من أئمةِ الهدى كالإمام أحمد وغيره، فيُطِيلُوا البدعةَ بدلائلِ القرآن، ويكشِفُوا زيفَها بواضحِ البيان، مَعَ الاستغناءِ عن الألفاظِ المُحدثة، وَلَكِنَّهَا زَلَّةٌ كَانَتْ، فالله المستعان.

وقد حَدَّثَتْ بسببِها بدعتانِ شَنِيعَتانِ، وَقَعَتَا من بعضِ الجَهلَةِ لا مِمنْ ذَكَرْنَا من الأئمةِ:

البدعة الأولى: القول بأنَّ فَعَلَ القارىءِ الذي هو صَوْتُهُ وحركتُهُ بالقراءةِ غيرُ مخلوق.

فجعلوا ذَلِكَ من كلامِ الله، وصَوْتُ القارىءِ هو صَوْتُ الله، وهذا ضَلَالٌ مُبِينٌ، وَزَيْغٌ عن الصِّراطِ المستقيم، وهو باطلٌ من وجوه كثيرة:

١ - أنَّ أفعالَ العبادِ جميعاً مخلوقةٌ، وهي عقيدةُ السَّلَفِ الكِرَامِ.

قالَ اللهُ تعالى: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصفافات: ٩٦].

(٨٧) «مجموع الفتاوى» ٣٦١/١٢ وانظر: ٦٥٩/٧ و«درء التعارض»

وعن حذيفة رضي الله عنه قال: قال النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يَصْنَعُ كُلَّ صَانِعٍ وَصَنَعَتَهُ» وتلا بعض الرواة عند ذلك: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ (٨٨).

قال إمام المحدثين الحجة الحافظ يحيى بن سعيد القطان رحمه الله: «ما زلت أسمع من أصحابنا يقولون: إن أفعال العباد مخلوقة» (٨٩).

قال البخاري رحمه الله: «حركاتهم وأصواتهم واكتسابهم وكتابتهم مخلوقة، فأما القرآن المتلو المبين، المثبت في المصحف، المسطور، المكتوب، الموعى في القلوب، فهو كلام الله، ليس بخلق، قال الله: ﴿بَلْ هُوَ آيَاتٌ بَيِّنَاتٌ فِي صُدُورِ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ﴾ [العنكبوت: ٤٩]» (٩٠).

وقال الإمام أبو عثمان الصابوني: «ومن قول أهل السنة والجماعة في أكساب العباد أنها مخلوقة لله تعالى، لا يمترون فيه، ولا يعدون من

(٨٨) حديث صحيح.

أخرجه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١١٧) وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٣٥٧، ٣٥٨) واليزار رقم (٢١٦٠ - كشف الأستار) والحاكم ٣١/١، ٣٢ وابن الطبري ٣/٥٣٨، ٥٣٩ والبيهقي في «الاعتقاد» ص: ١٤٤ و«الأسماء والصفات» ص: ٢٦، ٢٦٠، ٣٨٨ من طرق عن أبي مالك الأشجعي عن ربيعي بن حراش عن حذيفة.

قال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم» وأقره الذهبي، قلت: إسناده

صحيح.

(٨٩) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (١٢٥) بسند صحيح عنه.

(٩٠) «خلق أفعال العباد» رقم (١٢٦).

أهل الهدى ودين الحق مَنْ يُنْكِرُ هَذَا الْقَوْلَ وَيُنْفِيهِ» (٩١).

٢ - أَنَّ النَّبِيَّ ﷺ أَضَافَ صَوْتَ الْقَارِءِ وَتَحْسِينَهُ لَهُ إِلَيْهِ دُونَ الْقُرْآنِ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، وَذَلِكَ فِي غَيْرِ مَا حَدِيثٍ عَنْهُ ، مِنْ ذَلِكَ قَوْلُهُ ﷺ : «زَيَّنُوا الْقُرْآنَ بِأَصْوَاتِكُمْ» (٩٢) وَقَوْلُهُ ﷺ : «مَا أَذِنَ اللَّهُ لشيءٍ ، مَا أَذِنَ لِنَبِيِّ حَسَنِ الصَّوْتِ ، يَتَغَنَّى بِالْقُرْآنِ يَجْهَرُ بِهِ» (٩٣) فَفَرَّقَ النَّبِيُّ ﷺ بَيْنَ صَوْتِ الْقَارِءِ وَالْقُرْآنِ الْمَتْلُو الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ ، فَأَضَافَ الصَّوْتَ إِلَى الْقَارِءِ ، لِأَنَّهُ مِنْ كَسْبِهِ وَعَمَلِهِ .

٣ - الْقَارِءُ إِنَّمَا يُبْلَغُ الْقُرْآنَ بِصَوْتِهِ وَحَرَكَةِ نَفْسِهِ ، فَالْكَلَامُ الْبَارِي ، وَالصَّوْتُ صَوْتُ الْقَارِءِ ، وَهَذَا الْمَعْنَى مُتَّصِرٌ مَعْقُولٌ فِي كُلِّ كَلَامٍ ، فَلِمَ لَا يُتَّصَرُّ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ؟ فَإِنَّ الْمَحْدَثَ إِذَا حَدَّثَ بِحَدِيثِ النَّبِيِّ ﷺ : «مَنْ كَذَبَ عَلَيَّ مُتَعَمِّدًا فَلْيَتَّبِعُوا مَقْعَدَهُ مِنَ النَّارِ» (٩٤) ، فَإِنَّ الْكَلَامَ كَلَامُ النَّبِيِّ ﷺ بَلَا شَكٍّ وَلَا رَيْبٍ ، وَالْمَحْدَثُ إِنَّمَا بَلَّغَهُ بِصَوْتِ نَفْسِهِ ، وَحَرَكَةِ لِسَانِهِ ، وَلَا يَقَالُ : إِنَّ الصَّوْتَ الْمَسْمُوعَ مِنَ الْمَحْدَثِ هُوَ صَوْتُ النَّبِيِّ ﷺ ، وَلَوْ قَالَ ذَلِكَ قَائِلٌ لَمَا كَانَ مَعْدُوداً فِي عَقْلَاءِ بَنِي آدَمَ ، فَإِذَا كَانَ هَذَا ظَاهِراً فِي كَلَامِ الْمَخْلُوقِ ، فَأَوْلَى وَأَحْرَى أَنْ يَكُونَ أَظْهَرَ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى ، ذَلِكَ لِأَنَّ صِفَةَ الْمَخْلُوقِ تَشْبَهُ صِفَةً مِثْلِهِ وَمَعَ ذَلِكَ أَمَكْنَ التَّمْيِيزُ

(٩١) رسالته في السنة نص/ ١١٨ .

(٩٢) حديث صحيح ، سبق تخريجه ص : ١٧٤ .

(٩٣) حديث صحيح .

متفق عليه من حديث أبي هريرة .

(٩٤) حديث متواتر .

فيها، وصِفَّةُ الله لا تُشَبِّهُ صِفَّةَ المَخْلُوقِ فَلِمَ عَسَرَ التَّمْيِيزُ فيها؟

ولقد أنكر الأئمة رحمهم الله هذه البدعة حين ظهرت، كالبخاري رحمه الله تعالى وغيره، وقد أخذ الإمام أبو بكر المروزي - أخص أصحاب الإمام أحمد به - أجوبة أئمة الإسلام وعلمائه في وقته، من أهل بغداد، والبصرة، والكوفة، والحرمين، والشام، وخراسان، وغيرهم من الأئمة في ذلك (٩٥).

وقد ساق شيخ الإسلام منهم جماعة، منهم:

أبو بكر الأثرم، ومحمد بن بشار بُندار، ويعقوب بن إبراهيم الدورقي، ومحمد بن عبد الله المخرمي، والعباس بن محمد الدورقي، وعبد الكريم بن الهيثم العاقولي، وأحمد بن سنان الواسطي، وعلي بن حرب الموصلي.

قلت: وهؤلاء جميعاً من ثقات المحدثين وحفاظهم.

قال شيخ الإسلام: «ومن شاء الله تعالى من أئمة أهل السنة وأهل الحديث، من أصحاب الإمام أحمد بن حنبل وغيرهم، يُنكرون على مَنْ يَجْعَلُ لَفْظَ العبد بالقرآن، أو صوته به، أو غير ذلك من صفات العباد المتعلقة بالقرآن غير مخلوقة، ويأْمُرُونَ بعقوبته بالهَجْر وغيره» (٩٦).

والبدعة الثانية: أن أقواماً جعلوا كلام الله مجرد الحروف والأصوات، والمعاني ليست داخله في ذلك.

(٩٥) «مجموع الفتاوى» ٤٢٢/١٢.

(٩٦) «مجموع الفتاوى» ٤٢٢/١٢.

وهذه البدعة ظاهرة الفساد، وقد بيّنت في الباب الأول ما فيه كفاية لإثبات كون الكلام اسماً للفظ والمعنى جميعاً، ليس اسماً لواحد منهما دون الآخر.

وربّما نسب خصوم هذه الطائفة إليها أنها تقول بأن المِداد الذي يُكْتَبُ به كلامُ الله، والورق أو الجِلْد الذي يُكْتَبُ فيه، أو ما في معنى هذا ليس مخلوقاً، وهذا في الحقيقة قول لم يقل به أحد له مُسَكَّةٌ من عقلٍ، وربّما وقع فيه بعض الجهال المتطرفين^(٩٧)، وفساده أظهر من أن يُستدلّ له. والله أعلم، ولا حول ولا قوة إلا بالله.



(٩٧) انظر: «مجموع الفتاوى» ٣٨١/١٢، ٣٨٣.

الباب الثالث

عقائد الطوائف المبتدعة في كلام الله تعالى وكشف أباطيلها

وفيه تمهيد وثلاثة فصول:

= الفصل الأول: ذكر جملة من أقوال طوائف أهل البدع في كلام الله تعالى.

= الفصل الثاني: كشف تلبيس الجهمية الممتزلة في كلام الله تعالى وحكم السلف والأئمة فيهم.

= الفصل الثالث: كشف تلبيس الأشعرية في إثبات صفة الكلام لله تعالى.

تمهيد

لقد بعث الله تعالى رسوله محمداً بالهدى ودين الحق، وأنزل معه الكتاب نوراً وهدى للناس، فرتب أصحابه بصغار العلم وكباره، فأمنوا بما جاء به وصدقوه، وأتبعوا النور الذي أنزل معه، وكانوا على هديه ونهجه وسنته، فقاموا بذلك وأخذوا الكتاب بقوة. وتبعهم على ذلك خيار الأمة بعدهم.

حتى خلف من بعدهم خلف أعرضوا عن الكتاب، واتخذوه وراءهم ظهرياً، فشرعوا الشرائع دونه بظنون وأوهام حسبوا حجة وبراهين، فعزز لهم الشيطان ذلك، فحكموا به على الكتاب المعصوم، وظنوا بذلك أنهم بلغوا غاية العلوم، فظهر الجعد بن درهم بفساد المقالة، استفادها من فاسد المعقول الذي هو في الحقيقة عين الجهالة، فأعلن بدعته وباطله إعلاناً، فصرح بتكذيب القرآن، وقال: لم يكلم الله موسى تكليماً، ولم يتخذ إبراهيم خليلاً، فأبطل بهواه ما جاء به الرسول ﷺ، ونفى أن يكون لله كلام، فشبّه بالأبكم، وأبطل صلته تعالى بالعباد، فلا رسول مرسّل، ولا كتاب منزل.

فجاء من بعده رأس الضلالة الجهم بن صفوان، فزاد على سلفه
إضلالاً للعباد، وأدخل عليهم من الشبه ما عم به الفساد، فقرت به عين
إبليس اللعين وتحققت له البغية والمراد.

قاتل الله جهماً، كم جرّ على هذه الأمة من الكفر والضلال؟ فنفي
عن الله صفات كماله، فشبهه بالعدم، بل هو في الحقيقة عنده وعند أوليائه
عدم محض، لا يتصف بصفة، ومن المحال إثبات ذات مجردة عن
الصفات، فكذب جهّم الرسول والقرآن، وجاء بما تقشعر من ذكره أبدان
أهل الإيمان، وحسبك قول الإمام الحجة عبد الله بن المبارك: «إنّا لنحكي
كلام اليهود والنصارى، ولا نستطيع أن نحكي كلام الجهمية»^(١).

فتذكّر ما وصفت به اليهود والنصارى ربهم تعالى من النقائص، وما
نفت عنه من صفات كماله مما قصّ الله تعالى في كتابه، وما جاء عن نبيه
ﷺ، واعلم أن الجهمية جاؤوا بما هو أعظم، فإن اليهود والنصارى لم
يصفوا الله بالعدم، ولم يقولوا: هو في كل مكان قول الجهمية، ولم يقولوا:
إن كلامه مخلوق قول الجهمية.

فعمل جهّم على بثّ سُمومه بين المسلمين فكان للشرّ رأساً.
ذكر عند أبي نعيم الفضل بن دكين من يقول: القرآن مخلوق، فقال:
«والله ما سمعتُ شيئاً من هذا حتى خرج ذاك الخبيث جهّم»^(٢).

(١) أخرجه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٩ وعثمان الدارمي في «الرد على
الجهمية» رقم (٢٤، ٣٩٤) و«الرد على المريسي» ص: ٤ وعبد الله بن أحمد في
«السنة» رقم (٢٣) بسند صحيح.

(٢) رواه عبد الله في «السنة» رقم (٢٠٧) بسند صحيح.

فتبعه على ذلك أقوام، حتى حملَ الرايةَ بشرُّ بنِ غياثِ المِريسيِّ ورؤوس الاعترالِ، فاحتضنت دعوتهم الحكومةُ والسُّلطانُ، فعملت القوةُ في الناسَ عملَها ووقعت المِحنةُ.

ولقد كانت مسألة القرآن من أبرز ما ظهر به جهنم من الكُفر والبدعة، وقد كان ينبغي أن يكونَ لله كلامٌ، على نهج سلفه الجعدي بن دِرهم، ولكنه من بعدُ خاف سطوة أهل الحق وظهورهم فحاباهم، فأثبت لله كلاماً، لكنه عنده ما خلقه الله في غيره، وهذا هو الذي تلقته عنه المعتزلة، ودعوا إليه الناسَ، وعززتهم عليه قوة السُّلطان، وهم في الحقيقة على أصلهم الجهمي في نفي الكلام، لكنهم ادَّعوا إثباته في الظاهر على معنى فاسدٍ باطلٍ، كما سيأتي شرحه ونقضه.

والى هذا العهد، وهو على وجه التحديد عهد الإمام أحمد بن حنبل وطبقته، لم يكن ظهر في كلام الله من البدع سوى هذه البدعة، فاضل أهل الحق من أجل دحضها وإبطالها.

قال شيخ الإسلام: «لما أظهروا هذه البدعة اشتد نكير السلف والأئمة لها، وعرفوا أن حقيقتها أن الله لا يتكلم ولا يأمر ولا ينهى، إذ الكلام وسائر الصفات إنما يعود حكمها إلى من قامت به» (٣).

ثم لما وقعت المحنة في القرآن: هل هو مخلوق، أو غير مخلوق، وانكشفت بضمود أهل الحق وثباتهم على أن القرآن كلام الله غير مخلوق، وظهورهم على الجهمية المعتزلة القائلين: بأن القرآن كلام الله مخلوق،

(٣) «مجموع الفتاوى» ٥١٨/٦.

وَحَقُّ اللَّهِ بِذَلِكَ الْحَقِّ وَنَصَرَ أَهْلَهُ، عِنْدُكَ مَكَرَتِ الْجَهْمِيَّةُ مَكْرًا جَدِيدًا
لِتَدْخُلَ عَلَى النَّاسِ مِنْ طَرِيقٍ أُخْرَى مِنْ طُرُقِ التَّلْبِيسِ وَالتَّمْوِيهِ، فَظَهَرُوا
بِدْعَةَ اللَّفْظِ الَّتِي شَرَحْتُهَا فِي الْبَابِ السَّابِقِ، وَآخِرُونَ مِنْهُمْ ثَبَتُوا عَلَى التَّقِيَّةِ
لِأَهْلِ الْحَقِّ، فَوَقَفُوا، وَلَمْ يَكُنْ وَقُوفًا عَنْ وَرَعٍ وَدِيَانَةٍ، وَإِنَّمَا كَانَ عَنْ خَوْفٍ
وَمَهَابَةٍ، أَوْ عَنْ شَكٍّ وَتَرَدُّدٍ، كَمَا قَدْ شَرَحْتَهُ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ.

فَتَلَقَّفَ بِدْعَةَ اللَّفْظِ طَائِفَةٌ مِنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى السُّنَّةِ، الذَّابِّينَ بِزَعْمِهِمْ
عَنْهَا، وَحَسِبُوهَا هِيَ الْمَقَالَةُ الْوَسْطَى، وَمِنْ خِلَالِهَا حَاولُوا الرَّدَّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ
الْمَعْتَزِلَةِ مَعَ اتِّفَاقِهِمْ مَعَهُمْ فِي حَقِيقَةِ مَذْهَبِهِمْ، وَكَانَ مِنْ حَامِلِي رَايَةِ هَؤُلَاءِ
ذَلِكَ الْمَدْعُو عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدِ بْنِ كَلَّابٍ أَبُو مُحَمَّدٍ الْقَطَّانُ الْبَصْرِيُّ، الَّذِي
تَنَسَّبَ لَهُ طَائِفَةٌ (الْكَلَّابِيَّةُ) وَكَانَ رَجُلًا يُذَكَّرُ بِالْجَدَلِ وَالْمُنَاطَرَةِ، وَلَمْ يَكُنْ
مَعْدُودًا فِي أَهْلِ الرِّوَايَةِ وَالْأَثَرِ مَعَ قَدَمِ عَهْدِهِ، وَهَذَا مِنْ عِلَالَةِ الْخُذْلَانِ^(٤)،
وَكَانَ مِنْ حَسَنَتِهِ إِثْبَاتُ الصِّفَاتِ، وَرَبَّمَا كَانَ بَعْضُ ذَلِكَ عَلَى مَعَانِي مُحَرَّفَةٍ
مَبْتَدَعَةٍ، وَقَدْ رُدَّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ الْمَعْتَزِلَةِ مِنْ بَعْضِ الْوُجُوهِ الَّتِي جَعَلْتُ بَعْضَ

(٤) وَإِنِّي لِأَعْجَبُ مِمَّنْ يَصِفُهُ بِـ «إِمَامِ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي عَصْرِهِ، وَإِلَيْهِ مَرْجِعُهَا»
مِنْ بَعْضِ مُحَقِّقِي الْكُتُبِ، سَبْحَانَ رَبِّي! بِمَاذَا اسْتَحَقَّ هَذَا اللَّقَبُ؟ أَيْنَ ذَهَبَ أَثْمَةُ
السُّنَّةِ فِي زَمَانِهِ؟ أَيْنَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ؟ وَأَيْنَ إِسْحَاقُ بْنُ رَاهُوَيْهٍ؟ وَأَيْنَ مَنْ كَانَ فِي تِلْكَ
الطَّبَقَةِ مِنْ أَعْلَامِ الْهَدْيِ؟ لِيَكُونَ ابْنُ كَلَّابٍ مَرْجِعَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَإِمَامَهُمْ؟ وَكَيْفَ يَسْتَحَقُّ
هَذَا الْوَصْفَ مَنْ كَانَتْ بَضَاعَتُهُ الْكَلَامَ وَالْجَدَلَ، وَمَنْ كَانَ خِلْوًا مِنَ السُّنَنِ وَالْأَثَرِ،
سَبْحَانَ اللَّهِ! كَمْ انْعَكَسَتْ الْحَقَائِقُ فِي زَمَانِنَا وَانْقَلَبَتِ الْمَوَازِينُ؟ وَإِنِّي لَا أَحْسِبُ
صَاحِبَ هَذِهِ الْمَقَالَةِ إِلَّا أَحَدَ رَجُلَيْنِ: صَاحِبَ بِدْعَةٍ يَتَسَتَّرُ بِتَحْقِيقِ كُتُبِ عُلَمَاءِ السُّنَّةِ
لِيُدَسَّ فِي حَوَاشِيهَا سُمُومُهُ، أَوْ جَاهِلًا غَلَبَ عَلَيْهِ جَهْلُهُ - كَأَكْثَرِ الْمَدْعِينَ لِلْعِلْمِ مِنْ أَهْلِ
زَمَانِنَا - لَا يَفَرِّقُ بَيْنَ أَهْلِ الْحَقِّ وَأَهْلِ الْبَاطِلِ.

أهل العلم والسنة يعدّونها محامد له .

ولكنه في مسألة القرآن أحدث ما لم يُسبق إليه ، ووافق الجهمية المعتزلة في بعض أصولهم ، بل إن تحقيق قوله يرجع إلى قولهم ، ووافقهم في ردّ دلائل القرآن والسنة الموافقة لاعتقاد السلف .

وكان له أتباع وافقوه على مقالته وتبعوه عليها ، حتى جاء الأشعري^(٥)

(٥) هو أبو الحسن علي بن إسماعيل بن أبي بشر الأشعري ، الذي تنسب إليه طائفة (الأشعرية) ، وقد كان صاحب نظر وكلام ، ذكياً فطناً ، إلا أن تربيته في أحضان المعتزلة حرّمت الانتفاع بذكائه وفطنته ، فنشأ على أصولهم واعتقادهم ، قيل : أربعين سنة ، ثم نزع عن ذلك وتاب منه ، وأخذ يردّ عليهم ، وصنّف المصنّفات في ذلك ، ووافق أهل السنة والسلف في أكثر مسائل الأصول ، لكن مع ذلك بقيت فيه بقية من خلاصة العمر الذي قضاه في الاعتزال ، ولم يتوجّه بعد توبته لتلقي السنن والآثار . كما كان يفعل أهل السنة في زمانه . إلا قليلاً ، فطغى فكره القديم على طريقته ، فأخذ يردّ على المعتزلة بنفس قواعدهم ، وربما زاد عليها قليلاً من الأثر ، وكانت هذه طريقة ابن كلاب وأتباعه ، فكان أقرب إلى طريقته منه إلى أهل السنة والسلف ، فإنه وافقه وسلك طريقته في مسألة القرآن والصفات .

فرجع الأشعري عن بدعة الاعتزال إلى بدعة ابن كلاب ، ومن حسنة رجوعه إثبات الصفات والرؤية وغير ذلك من عقيدة أهل السنة ، ووافق الحق في غالب ما رجع إليه ، وجانبه في بعضه ، ومن ذلك مسألة القرآن ، وهي أعظم المسائل خطورة ، فقد وافق فيها ابن كلاب ، وقد علمت أن ابن كلاب كان مبتدعاً فيها بدعة لم يسبق إليها ، وأن تحقيق قوله يرجع إلى موافقة المعتزلة وإن خالفهم في الظاهر .

ولقد اغترّ كثير من إخواننا السلفيين بكتاب «الإبانة» لأبي الحسن الأشعري ، ورفعوا به من شأنه إلى حدّ عده إمام أهل السنة والجماعة . قول أتباعه الأشعرية . بل إنني رأيت لبعض المسوّدين لحواشي الكتب عدّ اعتقاد الأشعري هو اعتقاد الإمام =

= أحمد في كل شيء، وقال غير واحد من هؤلاء: إن الأشعري كان له تحولان:

التحول الأول: من الاعتزال إلى اعتقاد ابن كلاب.

والثاني: من اعتقاد ابن كلاب إلى اعتقاد أحمد بن حنبل، وهو الذي ضمّنه

كتابه «الإبانة» وهو آخر كتبه، كذا قالوا!

وفي هذا نظر من وجوه يطول شرحها، غير أنني أذكر من ذلك ما أرجو أن يدفع

هذا الإيهام والتلبس:

أولاً: ادّعاء أن «الإبانة» آخر تصانيفه تحكّم لم يقيموا عليه الحجة البيّنة.

ثانياً: أن أبا الحسن حين رجع عن الاعتزال صنّف في الردّ عليه، فهلاً فعل

مثل ذلك في عقيدة ابن كلاب التي صنّف فيها ودعا إليها إن صحّ رجوعه عنها؟ ولقد

ضمّن «الإبانة» بعض الردّ على المعتزلة فهلاً فعل مثل ذلك في اعتقاد ابن كلاب لو

صحّ رجوعه عنه؟

ثالثاً: إن ما ذكره في «الإبانة» في بعض المسائل، وفي مسألة القرآن خاصّة،

مجمّل، يوافق في إجماله اعتقاد أحمد واعتقاد ابن كلاب جميعاً، فنظرنا في كلام

الأشعري في القرآن في غير «الإبانة» فوجدناه وافق ابن كلاب في تحقيق المسألة،

ولم يوافق اعتقاد أحمد، وما فُسّر من كلامه قاضٍ على ما أجمل.

وشيخ الإسلام ابن تيمية إمام رضى نتفق على ذلك نحن وأنتم، ونتفق على

كونه من أعرف الناس بأقوال أهل القبلة، اسمعوه وهو يقول في الأشعري وهو يذكر

اختلاف الناس في شأنه: «بل هو انتصر للمسائل المشهورة عند أهل السنة التي

خالقهم فيها المعتزلة، كمسألة الرؤية، والكلام، وإثبات الصفات، ونحو ذلك، لكن

كانت خبرته بالكلام خبرة مفصّلة، وخبرته بالسنة خبرة مجملّة، فلذلك وافق المعتزلة

في بعض أصولهم التي التزموا لأجلها خلاف السنة، واعتقد أنه يمكنه الجمع بين تلك

الأصول وبين الانتصار للسنة، كما فعل في مسألة الرؤية، والكلام، والصفات

الخبرية، وغير ذلك».

حتى قال: «فلما كان في كلامه شوب من هذا، وشوب من هذا - يعني من =

وقد كَانَ معتزلياً منافحاً عن الاعتزال أربعين سنة - كما يَقُولُهُ أتباعُهُ وغيرهم - وصنّف في الدّعوة إلى اعتقادهم، ثمّ تَابَ عنه ورجع، فسلكَ طريقةَ ابنِ كُلابٍ وارتضاها، وإنّما خالفَهُ في يَسِيرٍ من ذلك، وربّما ذَكَرَ بعضُ أهلِ العلمِ والسُّنة أن ابنَ كُلابٍ خيرٌ منه على ما فيه.

وسَيُظْهِرُ لك في الفصلِ الآتي تَوافقُ الكُلابيّةِ والأشعريةِ في مسألةِ القرآن.

وكذا جاءَ بعدَ ابنِ كُلابٍ مَنْ وافقَهُ في بعضِ قَوْلِهِ وخالفَهُ في بعضِهِ، ومنْ أولئك مَنْ كَانَ له أتباعٌ: أبو الحسنِ أحمدُ بنُ مُحَمَّدٍ بنِ سالمِ البَصْرِي، وكانَ يُذَكِّرُ بِعبادةِ وَهْدٍ، وأتباعُهُ يُقالُ لَهُمْ: (السَّالِمِيَّة) ومنْ أشهرِهِم ذاكِ الصُّوفيّ المشهورُ أبو طالبٍ المَكِّيُّ صاحبُ «قوتِ القلوب».

وقابلَ هؤلاء طائفةٌ أخرى كانَ لها صِيَتٌ وذُيُوعٌ وكثرةٌ بخراسانَ، وهم (الكرامية) أتباعُ مُحَمَّدٍ بنِ كَرَامِ السَّجِسْتَانِي، وكانَ مبتدِعاً مشهوراً، خالفَ أهلَ السُّنة والسُّلفِ في كثيرٍ من أصولِهِم في مسألةِ الإيمانِ، والقرآنِ،

= كلامُ أهلِ السُّنة، ومن كلامِ المعتزلة - صارَ يَقولُ من يَقولُ: إنَّ فيه نوعاً من التَّجْهَم، وأما من قالَ: إنَّ قَوْلَهُ قولُ جَهَنَّمَ فَقَدْ قالَ الباطلُ، وَمَنْ قالَ: إنَّهُ ليسَ فيه شيءٌ من قولِ جَهَنَّمَ فَقَدْ قالَ الباطلُ، واللهِ يَحِبُّ الكلامَ بعلمٍ وعَدْلٍ، وإعطاءَ كُلِّ ذي حقٍّ حَقَّهُ، وتنزِيلَ الناسِ منازلَهُمْ» «مجموعُ الفتاوى» ٢٠٥/١٢.

وذَكَرَ في بعضِ المواضعِ أَنَّهُ وابنُ كُلابٍ، ومن على طريقتِهِما في قولِهِم شيءٌ من أصولِ الجهمية.

و«الإبانة» لم يكن خافياً على شيخِ الإسلام، بل إنَّهُ ذَكَرَهُ في مواضعٍ كثيرةٍ من كُتُبِهِ ونَقَلَ عَنْهُ، فتأملْ ذلك، ولا تكن من الغافلين.

والصِّفَاتِ، وَعِصْمَةِ الْأَنْبِيَاءِ، وَغَيْرِ ذَلِكَ، وَكَانَ فِي أَتْبَاعِهِ مُجَسِّمَةٌ مُشَبَّهَةٌ.

فَهَؤُلَاءِ مُشَاهِيرُ أَهْلِ الْبِدْعِ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَهُنَاكَ طَوَائِفُ سِوَاهُمْ
أَخَمَدَ اللَّهُ ذَكَرَهُمْ، سِوَى الْمُتَفَلِّسَةِ الْمُنْسَوِيَّةِ إِلَى الْإِسْلَامِ - وَهُوَ بَرِيءٌ
مِنْهُمْ - فَهَؤُلَاءِ لَهُمْ قَوْلٌ تَضْمَنَ قَوْلَ الْجَهْمِيَّةِ وَزِيَادَةً، كَمَا سَيَأْتِي ذِكْرُهُ، وَكَانَ
مِنْ أَقْطَابِ الْقَائِلِينَ بِهِ: ابْنُ سِينَا، ذَاكَ الزُّنْدِيقُ الْقُرْمُطِيُّ الْمَحْسُوبُ عَلَى
الْإِسْلَامِ، وَابْنُ عَرَبِيِّ الطَّائِفِيِّ صَاحِبُ «الْفَتْوحَاتِ» وَ«الْفُصُوصِ» رَأْسُ
الْقَائِلِينَ بِالْإِتِّحَادِ، بَلْ رَأْسُ أَهْلِ الْإِلْحَادِ، الْمَعْدُودِ فِي الْأَوْلِيَاءِ، زُورًا
وَبَهْتَانًا، وَظُلْمًا وَعُدْوَانًا، وَأَشْبَاهُهُمَا مِنَ الْمَارْقِينَ عَنْ دِينِ الْمُسْلِمِينَ.

وَلَمَّا ذَاكَرْتُ فِي هَذَا الْبَابِ اعْتِقَادَاتٍ جَمِيعَ هَذِهِ الطَّوَائِفِ فِي الْقُرْآنِ
الْعَظِيمِ، وَعَامَّةِ كَلَامِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَنَاقِضُ ذَلِكَ عَلَيْهِمُ بِالْحُجَجِ
وَالْبَرَاهِينِ، وَاخْتَصَصْتُ بِالتَّفْصِيلِ مِنْهُمْ الْمُعْتَزِّلَةَ وَالْأَشْعَرِيَّةَ، فَأَفْرَدْتُ لِكُلِّ
طَائِفَةٍ فَضْلًا، لِعُمُومِ الْبَلْوَى بِاعْتِقَادِ كُلِّ مِنْهُمَا، وَخَاصَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ الَّذِينَ
ضَلُّوا بِاعْتِقَادِهِمُ الْخَاصُّ وَالْعَامُّ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ لِلْعِلْمِ وَطَلَبِهِ، وَغَيْرِهِمْ، إِلَّا
قَلِيلًا مِنَ الْغُرَبَاءِ بِالسُّنَّةِ، وَلَبَّسَ عَلَى كَثِيرٍ مِنَ الْمُنْتَسِبِينَ إِلَى السُّنَّةِ مِنْ عُلَمَاءِ
هَذَا الزَّمَانِ فَلَمْ يُمَيِّزُوا بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، وَحَسِبُوهُمْ مِنْهُمْ،
وَلَمَّا وَقَعَ هَذَا اللَّبْسُ لِأَسْبَابٍ سَأَشْرَحُهَا فِي خَاتِمَةِ كِتَابِنَا هَذَا.
فَاللَّهُ الْمُسْتَعَانُ، وَبِهِ الْإِعْتَصَامُ.



الفصل الأول

ذكر جملة أقوال طوائف أهل البدع في كلام الله تعالى

وفيه الطوائف التالية:

- = ١ = المتغالفة وبعض فلاة الصوفية.
- = ٢ = الجهمية من المعتزلة وفيرهم.
- = ٣ = الكلابية.
- = ٤ = الأشعرية.
- = ٥ = السامية ومن وافقهم من أهل الكلام والحديث.
- = ٦ = الكرامية.

ذكر جملة أقوال طوائف أهل البدع في كلام الله تعالى

● أولاً: المتفلسفة وبعض غلاة الصوفية:

يقولون: كلامُ الله لا وجودَ له خارجَ نفسِ الرسول، وإنما هو ما يفيضُ على النفوسِ من المعاني، أو هو ما يفيضُ من العقلِ الفعّالِ أو غيره.

وربّما قالوا: العقلُ الفعّالُ هو جبريلُ، وربّما قالوا: غيره.

ويقولون: كلامُ الله مُحدَثٌ في نفسِ النبي، والكلامُ الذي سَمِعَهُ موسى كان موجوداً في نفسه، لم يسمع موسى كلاماً خارجاً عن نفسه.

قلتُ: وهذه المقالة من أبين الكفر وأظهره، وهي من التحريف المكشوف لحقائق الشريعة، وذلك من وجوه، منها:

١ - تعطيلُ صفة الكلام لله ربّ العالمين على الحقيقة.

٢ - تكذيبُ المعلوم من دينِ المسلمين ضرورةً من كونِ القرآن مُنزلاً حقيقةً.

٣ - تكذيبُ المعلوم من دينِ المسلمين ضرورةً أن رسولَ ربّ العالمين الذي كان ينزل بالوحي هو جبريلُ عليه السلام، وهو ملكٌ من

ملائكة الله، ليس هو العقل الفَعَال ولا غير ذلك.

٤ - عَدُّهُمْ أَلْفَاظَ الْقُرْآنِ وَحُرُوفَهُ مِنْ إِنْشَاءِ النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّ الْعَقْلَ الْفَعَالَ فَاضٍ عَلَيْهِ بِالْمَعْنَانِي فَقَطْ.

٥ - مُوَافَقَتُهُمُ الْجَهْمِيَّةَ فِي كَوْنِهِ مَخْلُوقًا.

وجميعُ هذا، بل بعضُه متضمَّنٌ تعطيلِ صِفَةِ الْكَلَامِ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ.

لَكِنَّ هَؤُلَاءِ قَوْمٌ أَمَلَى عَلَيْهِمْ وَلِيَّهُمْ إِبْلِيسُ أَنَّهُمْ بَلَّغُوا فِي عِلْمِ الْحَقِيقَةِ (١) مَبْلَغًا لَمْ يَبْلُغْهُ نَبِيٌّ وَلَا رَسُولٌ، كَيْفَ وَقَائِلُهُمْ يَقُولُ: «خُضْنَا بَحْرًا وَقَفَّ الْأَنْبِيَاءُ بِسَاحِلِهِ»؟

وإِنَّا نَقُولُ لَهُمْ: صَدَقْتُمْ، إِنَّ الْأَنْبِيَاءَ لَمْ يَخُوضُوا فِي بَحَارِ الظُّلُمَاتِ، وَلَمْ يَجْرُوا عَلَى اللَّهِ جَرَاتِكُمْ، وَإِنَّمَا كَانَ الْقَائِلُ مِنْهُمْ يَقُولُ: ﴿إِنْ ضَلَلْتُ فَإِنَّمَا أَضِلُّ عَلَى نَفْسِي وَإِنْ اهْتَدَيْتُ فَبِمَا يُوحِي إِلَيَّ رَبِّي﴾ [سبا: ٥٠] لَا بِإِمْلَاءِ الشَّيْطَانِ وَتَرْبِيئِهِ، وَ﴿اللَّهُ أَعْلَمُ حَيْثُ يَجْعَلُ رِسَالَتَهُ﴾.

ونقول: كَذَبْتُمْ يَا هَؤُلَاءِ، فَإِنَّ الْأَنْبِيَاءَ عَلَيْهِمُ السَّلَامُ أَعْلَمُ الْخَلْقِ بِاللَّهِ وَأَعْرِفُهُمْ بِهِ.

وَلِيَكْفِكُمْ خِسَّةً وَدَنَاءَةً وَكُفْرًا أَنَّ إِلَهَكُمْ الَّذِي تَعْبُدُونَ فِي الْخُشُوشِ وَالنَّجَاسَاتِ، أَوْ هُوَ الْكَلْبُ وَالْخَنْزِيرُ.

وَأَمَّا نَحْنُ أَهْلُ الْإِسْلَامِ فَإِلَهَنَا اللَّهُ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ، فَوْقَ سَبْعِ سَمَاوَاتِهِ عَلَى عَرْشِهِ اسْتَوَى، وَيَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى.

وَلَقَدْ كُنْتُ ابْتِدَاءً حَذَفْتُ ذِكْرَ هَؤُلَاءِ مِنْ كِتَابِي هَذَا، وَلَكِنِّي رَأَيْتُ

علماءنا من أهل السنة يذكرونهم في جملة الطوائف الخارجة عن أهل الحق في مسألة كلام الله، فأثرت الاقتداء بهم.

وحين ذكر شيخ الإسلام قولهم قال: «وهذا القول أبعد عن الإسلام ممن يقول: القرآن مخلوق»^(٦).

● ثانيا: الجهمية من المعتزلة وغيرهم:

يقولون: إن الله تعالى لا يقوم به شيء من الصفات: لا حياة، ولا علم، ولا قدرة، ولا كلام، ولا غير ذلك، فلذا فإن كلامه مخلوق، خلقه في بعض الأجسام، وابتدأه من ذلك الجسم لا من الله، فلا يقوم بنفسه كلام لا معنى ولا حروف.

وفسروا المتكلم بأنه: من فعل الكلام، ولو في محل منفصل عنه^(٧).

وقد كشفت عن شبهاتهم وأباطيلهم في الفصل الآتي.

● ثالثا: الكلائية:

وهم أتباع عبد الله بن سعيد بن كلاب - كما سبق قريبا -.

يقولون: لم يزل الله تعالى متكلماً، وكلامه صفة له قائمة به، وهو الكلام النفسي، وهو قديم بقدمه تعالى، غير متعلق بمشيئته وقدرته، وقيام الكلام به كقيام الحياة والعلم، وليس هو بحروف، ولا يكون صوتاً، ولا

(٦) «مجموع الفتاوى» ١٢/١٦٣.

(٧) قال شيخ الإسلام: «فسروا المتكلم في اللغة، بمعنى لا يعرف في لغة

العرب ولا غيرهم لا حقيقة ولا مجازاً» «مجموع الفتاوى» ١٢/٢٩ - ٣٠.

يتجزأ ويتبعض، ولا يتغاير ويتفاضل.

وهو معنى واحد، يصير أمراً ونهياً عند وجود المأمور المنهَى.

فالأمر والنهي والخبر عندهم معاني محدثة.

ويقولون: الحروف المنظومة قراءة القرآن، وهي عبارة عن كلام الله، وهي مخلوقة.

والعبارات عن كلام الله تتغاير وتختلف، فيعبر عنه بالعربية كالقرآن، والعبرية كالتوراة، والسريانية كالإنجيل، وكله كلام واحد لا يتغاير، وإنما تغايرت العبارة.

وقول الله: ﴿حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ﴾ حتى يفهم كلام الله.

١ - فنقوا أن يكون القرآن العربي المُنزَل، المؤلف من الحروف المنظومة كلام الله، وإنما هو عبارة عنه مخلوقة.

٢ - وأنكروا أن يكون الرب تعالى لم يزل أمراً ناهياً مخبراً، وإنما هذه معاني محدثة.

٣ - وأثبتوا أن صفة الكلام الثابتة لله تعالى، إنما هي الكلام النفسي، وهو قائم به غير متعلق بمشيئته وقدرته، وهو معنى واحد.

● رابعا: الأشعرية:

وافقوا الكلامية في جميع قولهم، لكنهم خالفوهم في:

١ - أن كلام الله في الأزل أمر ونهي وخبر واستخبار، والله تعالى لم يزل أمراً ناهياً مخبراً، وأن هذه صفات للكلام لا أنواع له، وكلام الله

القائم بذاته (الكلام النفسي) هو الأمر بكل مأمور، والنهي عن كل منهي عنه، والخبر عن كل مخبر عنه.

٢ - في قول بعضهم: هو عِدَّةُ مَعَانٍ وليس معنى واحداً: الأمر، والنهي، والخبر، والاستخبار، والنداء، و... .

فلما توافق قول الكلابية مع الأشعرية في الغالب، لم أفردهم بالرد عليهم، اكتفاء بالرد على الأشعرية، وسيأتي مفصلاً في الفصل الثالث من هذا الباب.

وهناك طائفة أخرى وافقت الأشعرية في اعتقادها، وهم المعروفون بـ (الماتريدية) أتباع أبي منصور الماتريدي^(٨)، الذي يعدونه الإمام الثاني

(٨) هو أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي السمرقندي، كان معدوداً في فقهاء الحنفية، ولذا تجد أكثر المتسبين لعقيدته من الحنفية، وكان صاحب جدل وكلام، ولم يكن من أهل السنن والآثار، ولم يكن له أتباع يُذكرون في عهده وبعده بمدة طويلة، حتى جاء من بعد من أحيا مذهبه من الحنفية، وحققه وهذبه، وتمضي السنون فتظهر طائفة تدعى (الماتريدية) قد دانت باعتقاده، وفي الزمن المتأخر صار لها شأن وأتباع، وإنما وقع ذلك - فيما لا أرتاب فيه - بالبعد عن السنن والجهل بها وبأهلها، حتى وصل الحال إلى أن لا يُعرف للأمة - ولأهل السنة خاصة - إمام يُقتدى به في الاعتقاد سوى أبي الحسن الأشعري وأبي منصور الماتريدي. فهذه الجامعات والمعاهد الكبرى في أكثر بلاد المسلمين لا يُدرَس فيها إلا اعتقاد الأشعري واعتقاد الماتريدي، فترى الطلاب والشيخ، وتخرجوا علماء (!) وهم لا يعرفون إلا توحيد الأشعرية والماتريدية.

ولقد رأيت كتاباً للماتريدي اسمه «كتاب التوحيد» كذا سُمي! غفرانك اللهم! وهو أخرى بأن يُسمى بـ «الجدل والمنطق» فلقد أبان عن حقيقة الماتريدي، وكشف =

لأهل السُّنة، كذا زعموا!

فلَمَّا رأيتُهُم متوافقين معهم في الاعتقاد لَمْ أَرْ ضرورةً لإفرادهم بالكلام عنهم.

❦ خامساً: السالمية ومن وافقهم من أهل الكلام والحديث:

يقولون: لله تعالى صفةُ الكلام، وكلامُهُ حُرُوفٌ وأصواتٌ، وهي قديمةٌ أزليَّةٌ غيرُ مخلوقةٍ، ولها معانٍ تقومُ به، وكلامُهُ تعالى غيرُ متعلِّقٍ بمشيئتهِ وقدرتهِ.

وطائفةٌ منهم زادت فقالت: إِنَّ الصَّوْتَ القديمَ هو المسموعُ من القارئ إذا قرأ القرآن.

قلتُ: وهؤلاء وافقوا الأشعريةَ في عَدَمِ تعلُّقِ كلامِهِ تعالى بمشيئتهِ وقدرتهِ، وبهذا جانبوا اعتقادَ السَّلَفِ السَّديدِ القويمِ.

ولكنهم وافقوا السَّلَفَ في أَنَّ كلامَ الله غيرُ مخلوقٍ حروفُهُ ومعانيُهُ، وبهذا جانبوا اعتقادَ الجهميةِ والأشعريةِ، فقولهم جُمْلَةٌ خيرٌ من قولِ الأشعريةِ - على ما فيه -.

= عن حاله بأنه إمام جدلٍ ومنطوقٍ ولغوٍ كثيرٍ، لا إمام علمٍ وسُنَّةٍ - وإن كان قد تضمَّن بعضَ الحقِّ، لكنه مشوبٌ بجدلٍ وفلسفةٍ - فيماذا تُرى استحقَّ وصفَ «مصحح عقائد المسلمين» كما يصفه بهذا اللكنويُّ وغيره؟ فإلى الله المُستَكى من تلبس الملبسين، وتضليل المضللين.

والإنصاف يقتضي أن نقول: له مجهودٌ - كالأشعري - في الانتصار للسنَّة - لكن بطرق مُبتدعة - والردُّ على الجهمية وغيرهم - لكن بأصول مخترعة -.

أما الطائفة التي غَلَتْ منهم فزَعَمَتْ أَنَّ الصَّوْتَ القديمَ هو المسموعُ من القارىء، فهو قولٌ ظاهرُ الفسادِ، كما بيَّنته في أواخر الباب السابق، وهو يُفْضِي بالقائلين به إلى القول بالحُلُولِ، أي: أَنَّ صِفَةَ الخالقِ التي هي صَوْتُهُ بكلامِهِ قد حَلَّتْ بالمَخْلُوقِ، وربما أَفْضَى في الآخر إلى القول بِقِدَمِ سائرِ كلامِ المخلوقِ وصَوْتِهِ، وفسادُ هذا أَبَيَّنُّ مِنْ أَنَّ يُسْتَدَلُّ لَهُ، ومنافاته للكتابِ والسُّنَّةِ واعتقادِ السُّلَفِ أَظْهَرُ مِنْ أَنَّ يُتَكَلَّفَ لِلجَوَابِ عنه.

● سادسًا: الكرامية:

يقولون: كلامُ الله غيرُ مخلوقٍ، وهو معَ ذلك حادثٌ، وهو حروفٌ وأصواتٌ قائمةٌ بذاتِ الله تعالى، متعلِّقٌ بمشيئتهِ وقُدْرتهِ بعدَ أَنْ كَانَ الكلامُ مُمْتَنِعاً عليه.

ويقولون: لم يَزَلِ الله متكلمًا، بمعنى: أَنَّهُ قادِرٌ على الكلامِ. ويقولون: ليسَ لله كلامٌ في الأزل، أي لم يكن مُتَصِفاً به، لعدمِ وجودِ الحادثِ.

قلت: فوافق هؤلاء السُّلَفَ في إثباتِ تعلُّقِ الكلامِ بالمَشِيئَةِ والقُدْرَةِ، وَأَنَّهُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، وَلَكِنْ ناقضوهم في سَلْبِ الرَّبِّ تعالى صِفَةَ الكلامِ في الأزل، وإثباتِ عَجْزِهِ تعالى عنه، وهو تحكُّمٌ باطلٌ، وَرَجْمٌ بالغَيْبِ، مُتَضَمِّنٌ وَصْفَ الرَّبِّ تعالى بالنَّقْصِ، وسَلْبَ صفاتِ كمالِهِ، والسُّلَفُ على أَنَّ كلامَ الله صِفَةٌ ثابتَةٌ له تعالى في الأزل، ويتكلَّمُ بمشيئتهِ وقُدْرتهِ، ويتكلَّمُ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، وأقمنا الحُجَّةَ على ذلك في الباب الأول بما يُعْني ويكفي.

والكرامية أصحاب زُنعٍ وضلالٍ في أكثر الاعتقاد، وهي طائفة مائلة
عن القصد، وإنما المقصود هنا ذكر اعتقادهم في كلام الله تعالى،
ومناقضته لاعتقاد السلف.

ولقد أحمَدَ الله تعالى بدعة هذه الطائفة في الزمان المتأخر، بعد ما
كان لها من بُعد الصيت وكثرة الأتباع، فله الحمد والمِنَّة.



الفصل الثاني

كشف تلبيس الجهمية المعتزلة في كلام الله تعالى وحكم السلف والأئمة فيهم

وفيه ثلاثة مباحث:

- = المبحث الأول: ذكر شبه المعتزلة ونقضها.
- = المبحث الثاني: ذكر ما حرقت المعتزلة من معاني التنزيل لإبطال صفة الكلام.
- = المبحث الثالث: المعتزلة في ميزان أئمة السلف.

المبحث الأول ذكر شبه المعتزلة ونقضها

لقد ذكرتُ لك اعتقادَ المعتزلةِ في كلامِ الله تعالى جُمْلَةً، وأنه اعتقادُ الجهمية، إذ المعتزلةُ جَهْمِيَّةٌ في مسألةِ كلامِ الله وفي غيرها كالصِّفَاتِ والرُّؤْيَةِ وغير ذلك، واعتقادُهم مخالفٌ للكتابِ والسُّنة وإجماعِ السُّلف، كما يظهرُ لك ذلك من خلالِ مُقارنتِهِ بما شَرَحْنَاهُ في البابِ الأوَّلِ.

وإني ذاكرٌ هنا - بحولِ الله وقوته - ما شَبَّهْتُ به المعتزلةَ على من ضَعَفَ تحصيلُهُ، ومُجِيبٌ عن جميعِ ذلك بإيجازٍ غيرِ مُخِلٍّ إن شاء الله.

● الشبهة الأولى:

القرآنُ شَيْءٌ، وَقَدْ قَالَ اللهُ تَعَالَى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [الرعد: ١٦] ولفظ (كُلٌّ) للعموم، فالقرآنُ دَاخِلٌ فِي عُمُومِ مَا خَلَقَ اللهُ مِنَ الْأَشْيَاءِ.

جوابها:

لا أَحْسَبُ أَنَّ فَسَادَ هَذَا الْقَوْلِ خَافٍ عَلَى مَنْ قَالَ بِهِ، وَلَكِنَّهُمْ أَرَادُوا إِدْخَالَ الرَّبِّ وَالشُّكُّ عَلَى مَنْ لَا يَفْهَمُ، وَذَلِكَ أَنَّ صِيغَةَ (كُلٌّ) وَمَا يُشَبِّهُهَا مِنْ صِيغَةِ الْعُمُومِ، عُمُومٌ كُلٌّ مِنْهَا إِنَّمَا هُوَ بِحَسَبِهِ، قَالَ تَعَالَى فِي رِيحِ عَادٍ:

﴿تُدْمِرُ كُلَّ شَيْءٍ بِأَمْرِ رَبِّهَا﴾ [الأحقاف: ٢٥] فالتدمير إنما كان بأمره تعالى، وأمره تعالى كلامه، قال: ﴿فَأَصْبَحُوا لَا يَرَى إِلَّا مَسَاكِنَهُمْ﴾ فإبان أن مساكنهم لم تدمر، ومقتضى ذلك أنها لم تدمر الأرض ولا الجبال ولا غير ذلك من سوى أهلها، فدل ذلك على أن عموم (كل) إنما كان في حق الكفار المستحقين للعقيد، لا كل شيء حتى من سواهم من الجماد وغيره، وهذا معقول ظاهر.

وقال تعالى في حق بلقيس: ﴿وَأُوتِيَتْ مِنْ كُلِّ شَيْءٍ﴾ [النمل: ٢٣] ومعلوم أنها لم تؤت ملك سليمان، ولا غير أرضها من الأرض.

ولقد أثبت تعالى أن له نفساً، قال: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ﴾ [المائدة: ١١٦] وقال: ﴿وَاصْطَنَعْتُكَ لِنَفْسِي﴾ [طه: ٤١] وقال تعالى: ﴿كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ﴾ [آل عمران: ١٨٥]، الأنبياء: ٣٥] فهل يدخل الجهمي نفس الله تعالى في هذا العموم؟ إن النفس التي تموت إنما هي النفس المخلوقة، أما الخالق تعالى بصفته فهو حي لا يموت.

فدلّت هذه النصوص على أن عموم (كل) إنما هو بحسب الموضع الذي وردت فيه.

فكذلك قوله تعالى: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾.

فالله تعالى شيء، وصفته شيء، قال تعالى: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً قُلِ اللَّهُ﴾ [الأنعام: ١٩] والمخلوق شيء، والله هو الخالق، وليس بمخلوق، وصفاته تابعة لذاته، فليست بمخلوقة، والقرآن كلامه، وكلامه

صَفَتُهُ، وصفته غير مخلوقة، فالله شَيْءٌ غير مخلوق، وصفته شَيْءٌ غير مخلوق، والمخلوق مَنْ وَقَعَ عليه فِعْلُ الخَلْق، وهو كُلُّ شَيْءٍ سِوَى الله تعالى وصفته.

ولَكِنَّ الجَهْمِيَّةَ المعتزلة أَوْقَعَهُمْ فِي ذَلِكَ اعتقادَهُمْ أَنَّ الله تعالى لَا تَقُومُ بِهِ الصِّفَاتُ، فصفاة عندهم غيرُه، ونحن قَدْ قَرَّرْنَا فِي الباب الأول أَنَّ الصِّفَةَ إِنَّمَا تَقُومُ بالموصوفِ، والكلامُ إِنَّمَا يَقُومُ بالمتكلم، وَلَا تُعْقِلُ ذاتٌ مَجْرَدَةٌ عَنِ الصِّفَاتِ، وَهَذَا مِنَ الجَهْمِيَّةِ المعتزلة هُوَ التَّعْطِيلُ لصفات الخالق تعالى، لِأَنَّ الصِّفَةَ إِذَا قَامَتْ بِمَحَلٍّ كَانَتْ صِفَةً لِذَلِكَ المَحَلِّ، فباعْتقادَهُمْ تَبْطُلُ جَمِيعُ الصِّفَاتِ.

وسَبَّحَانِ مَنْ شَاءَ أَنْ يُظْهَرَ مَخْبِوَاهُمْ وَيُكْشَفَ مَسْتَوْرَهُمْ، فَإِنَّهُمْ أَدْخَلُوا صِفَةَ الله تعالى فِي عُمُومِ (كُلِّ) فِي هَذِهِ الآيَةِ، وَأَخْرَجُوا أَفْعَالَ الْعِبَادِ مِنْ هَذَا الْعُمُومِ، وَقَالُوا: أَفْعَالُ الْعِبَادِ غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ لِلَّهِ، فَكَذَّبُوا الْقُرْآنَ، مِنْ حَيْثُ أَنَّ الله تعالى قَالَ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: ٩٦] وَقَالَ: ﴿اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ فَكَذَّبُوا عَلَى اللَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ، وَالْحَدُوا فِي آيَاتِهِ، فَصَرَفُوا الآيَةَ عَمَّا هِيَ لَهُ، وَاحْتَجَّجُوا بِهَا عَلَى مَا لَيْسَتْ لَهُ.

● الشبهة الثانية:

الْقُرْآنُ مَجْعُولٌ، قَالَ تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ [الزخرف: ٣] وَالْجَعْلُ: الخَلْقُ.

جوابها:

لفظ (جَعَلَ) يَأْتِي بِمَعْنَى (خَلَقَ) وَبِغَيْرِهِ.

والقاعدة فيه : أنه لا يأتي بمعنى (خلق) إلا إذا تعدى إلى مفعول واحد.

ومنه قوله تعالى : ﴿الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَجَعَلَ الظُّلُمَاتِ وَالنُّورَ﴾ [الأنعام : ١] وقوله : ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَجَعَلَ مِنْهَا زَوْجَهَا لِيَسْكُنَ إِلَيْهَا﴾ [الأعراف : ١٨٩].

وربما تعدى إلى مفعول واحد ولم يكن بمعنى (خلق) كقوله تعالى : ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ [الأنعام : ١٠٠ ، والرعد : ٣٣] وقوله : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ [الفيل : ٥].

أما إذا تعدى إلى مفعولين فلا يكون بمعنى (خلق) بأي حال .
ومن ذلك قوله تعالى : ﴿فَجَعَلْنَاهَا نَكَالًا لِمَا بَيْنَ يَدَيْهَا وَمَا خَلْفَهَا﴾ [البقرة : ٦٦] وقوله : ﴿وَجَعَلْنَاهُمْ أُمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا﴾ [الأنبياء : ٧٣].
وكذلك منه قوله تعالى : ﴿إِنَّا جَعَلْنَاهُ قُرْآنًا عَرَبِيًّا﴾ فالمفعول الأول الضمير والثاني ﴿قُرْآنًا﴾ والمعنى : قلناه قرآنًا عربيًا ، أو بيناه .
فبطل تمويه المعتزلة بفضل الله .

وقد أجاب الإمام أحمد رحمه الله المعتزلي حين احتج عليه بهذه الآية بقوله : «فقد قال الله تعالى : ﴿فَجَعَلَهُمْ كَعَصْفٍ مَأْكُولٍ﴾ أَفَخَلَقَهُمْ؟» (٩).

● الشبهة الثالثة:

القرآن مُحدثٌ ، كما قال الله : ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحدثٍ

(٩) رواه صالح في «المحنة» ص : ٥٣ عن أبيه به .

إِلَّا اسْتَمَعُوهُ وَهُمْ يَلْعَبُونَ ﴿[الأنبياء: ٢]﴾ وكما قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ الرَّحْمَنِ مُحَدَّثٍ إِلَّا كَانُوا عَنْهُ مَعْرِضِينَ﴾ [الشعراء: ٥] والمُحَدَّث: المخلوق.

جوابها:

قوله (مُحَدَّث) في الأصل من (الْحُدُوثِ) وهو كون الشيء بعد أن لم يكن، والقرآن العظيم حين كان ينزل، كان كُلُّما نَزَلَ منه شيء كان جديداً على الناس، لم يكونوا عَلموه مِن قَبْلُ، فهو مُحَدَّثٌ بالنسبة إلى الناس، ألا تراه قال: ﴿وَمَا يَأْتِيهِمْ﴾؟ فهو مُحَدَّثٌ إليهم حين يأتِيهم، ومنه قول النبي ﷺ: «إِنَّ اللَّهَ يُحَدِّثُ لِنَبِيِّهِ مَا شَاءَ، وَإِنَّ مِمَّا أَحَدَثَ لِنَبِيِّهِ: أَنْ لَا تَكَلَّمُوا فِي الصَّلَاةِ»^(١٠) وأمر الله: قوله وكلامه، وهو غير مخلوق، مُحَدَّثٌ بالنسبة إلى العباد، أي: جديداً عليهم، فليس المُحَدَّثُ هنا هو المخلوق.

وهذا الجواب أحسن ما قيل في ذلك.

قال أبو عبيد القاسم إمام العربية: ﴿مُحَدَّثٌ﴾ حَدَّثَ عِنْدَ النَّبِيِّ ﷺ وَأَصْحَابِهِ لَمَّا عَلَّمَ اللَّهُ مَا لَمْ يَكُنْ يُعْلَمُ»^(١١).

وقال ابن قتيبة: «المُحَدَّثُ لَيْسَ هُوَ فِي مَوْضِعٍ بِمَعْنَى: مَخْلُوقٌ، فَإِنْ أَنْكَرُوا ذَلِكَ فليقولوا في قول الله: ﴿لَعَلَّ اللَّهَ يُحْدِثُ بَعْدَ ذَلِكَ أُمُراً﴾ [الطلاق: ١] أَنَّهُ يَخْلُقُ، وَكَذَلِكَ: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ أَوْ يُحْدِثُ لَهُمْ ذِكْراً﴾ [طه: ١١٣] أي: يُحْدِثُ لَهُمُ الْقُرْآنَ ذِكْراً، والمعنى: يُجَدِّدُ عِنْدَهُمْ مَا لَمْ

(١٠) سبق تخريجه ص ٦٠.

(١١) «خلق أفعال العباد» ص: ٣٧.

يكن، وكذلك قوله: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ أي: ذكرٌ حَدَّثَ عندهم لم يكن قبل ذلك» (١٢).

وقال شيخ الإسلام: «المحدث في الآية ليس هو المخلوق الذي يقوله الجهمي، ولكنه الذي أنزل جديداً، فإن الله كان ينزل القرآن شيئاً بعد شيء، فالمُنزل أولاً هو قديم بالنسبة إلى المنزل آخر، وكل ما تقدّم على غيره فهو قديم في لغة العرب» (١٣).

وربما أجاب بعض الأئمة بغير هذا، لكن هذا أصح وأظهر.

● الشبهة الرابعة:

جعل الله أمره مقدوراً فقال: ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ [الأحزاب: ٣٨] وأمر الله: كلامه، والمقدور: المخلوق.

جوابها:

إن لفظ: (الأمر) إذا أضيف إلى الله تعالى يأتي على تفسيرين:
الأول: يُراد به المصدّر، كقوله تعالى: ﴿لَهُ الْخَلْقُ وَالْأَمْرُ﴾ [الأعراف: ٥٤] وهو غير مخلوق - كما ذكرناه في الباب الأول في الاحتجاج لهذه المسألة -.

وهذا يُجمع على: (أوامر).

والثاني: يُراد به المفعول الذي هو المأمور المقدور، كقوله تعالى:

(١٢) «الاختلاف في اللفظ» ص: ٢٣٤ - ٢٣٥ - «عقائد السلف» -.

(١٣) «مجموع الفتاوى» ١٢/٥٢٢.

﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ فالأمرُ ههنا هو المأمورُ، وهذا يُجْمَع على : (أمر) وهو مخلوق .

وسبق أن ذكَّرتُ في الباب السابق أن صيغة المَصْدَر قد تَرَدَّدتُ بمعنى المفعول في كلام العرب .

قال شيخ الإسلام : «ففي قوله : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَقْدُورًا﴾ المراد به المأمورُ به المقدورُ، وهذا مخلوقٌ، وأمَّا في قوله : ﴿ذَلِكَ أَمْرُ اللَّهِ أَنْزَلَهُ إِلَيْكُمْ﴾ [الطلاق : ٥] فأمره كلامه، إذ لَمْ يُنْزَلْ إلينا الأفعال التي أمرنا بها، وإنما أنزل القرآن، وهذا كقوله : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَنْ تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا﴾ [النساء : ٥٨] فهذا الأمرُ هو كلامه» (١٤) .

قلتُ : ونظيره لفظُ (الخلق) فإنه يأتي مَصْدَرًا فهو حينئذٍ فِعْلُ الرَّبِّ تعالى وصفته، ويأتي مفعولاً فهو حينئذٍ المخلوقُ الذي وقع عليه فِعْلُ الخلق .

فليس لفظُ (الأمر) إذاً على ما قالت الجهمية المعتزلة من اختصاصه بالمفعول المقدور .

● الشبهة الخامسة:

سمَّى الله تعالى عيسى (كلمته) فقال : ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أَلْقَاهَا إِلَى مَرْيَمَ﴾ [النساء : ١٧١] وقال : ﴿يَا مَرْيَمُ إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكِ بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ﴾ [آل عمران : ٤٥] وعيسى مخلوقٌ، فالكلمة مخلوقة .

(١٤) «مجموع الفتاوى» ٤١٢/٨ .

جوابها:

إِنَّ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ مَخْلُوقٌ، خَلَقَهُ اللَّهُ بِأَمْرِهِ حِينَ قَالَ لَهُ: ﴿كُنْ﴾
كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قَالَتْ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي وَلَدٌ وَلَمْ يَمَسِّنِي بَشَرٌ قَالَ كَذَلِكَ
اللَّهُ يَخْلُقُ مَا يَشَاءُ إِذَا قَضَى أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران:
٤٧] وقال: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَى عِنْدَ اللَّهِ كَمَثَلِ آدَمَ خَلَقَهُ مِنْ تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُ
كُنْ فَيَكُونُ﴾ [آل عمران: ٥٩] فَكَانَ عِيسَى بِكَلِمَةِ اللَّهِ تَعَالَى وَقَوْلِهِ (كُنْ).

فَالكَلِمَةُ (كُنْ) لَا عَيْنٌ عِيسَى، وَالْمُكُونُ بِهَا هُوَ عِيسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ.
وبهذا أَجَابَ غَيْرُ وَاحِدٍ مِنَ الْأُثْمَةِ.

قال قتادة - وهو من أئمة التابعين في التفسير وغيره - قوله: ﴿بِكَلِمَةٍ
مِنْهُ﴾ قال: «قوله (كن) فسمَّاهُ الله عزَّ وجلَّ كلمته، لأنَّه كَانَ عَنْ كَلِمَتِهِ كَمَا
يُقَالُ لِمَا قَدَّرَ اللَّهُ مِنْ شَيْءٍ: هَذَا قَدَّرَ اللَّهُ وَقَضَّاهُ، يَعْنِي بِهِ: هَذَا عَنْ قَدَرِ
اللَّهِ وَقَضَائِهِ حَدَّثَ» (١٥).

● الشبهة السادسة:

الْقُرْآنُ تَرَدَّدَ عَلَيْهِ سِمَاتُ الْحُدُوثِ وَالْخَلْقِ، وَذَلِكَ مِنْ وَجْهِ عِدَّةٍ:

١ - قال تعالى: ﴿وَإِذَا بَدَّلْنَا آيَةً مَكَانَ آيَةٍ﴾ [النحل: ١٠١] فَأَخْبَرَ
عَنْ وَقُوعِ النَّسْخِ فِيهِ.

٢ - هُوَ حُرُوفٌ مُتَعَابِقَةٌ، يَسْبِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا.

٣ - لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَشِيئَةٍ وَاخْتِيَارٍ، فَيَلْزَمُ مِنْهُ أَنْ تَسْبِقَهُ الْحَوَادِثُ،

(١٥) رواه ابن جرير ٢٦٩/٣ بسند صحيح.

ويتأخر عنها.

٤ - له ابتداء وانتهاء، وأول وآخر.

٥ - هو متبعض متجزى.

٦ - مُنزَل، والنزول لا يكون إلا بحركة وانتقال وتحول.

٧ - مكتوب في اللوح والمصاحف، وما حُدَّ وحُصِرَ فهو مخلوق.

وهذه الوجوه وما يشبهها صفات للمخلوق المُحدث.

جوابها:

هذه المعاني جميعاً مبنية على أصلهم الذي ابتدعه لإثبات خلق العالم وقدم الصانع، وهو الاستدلال على حدوث العالم بطريقة الحركات، فقالوا: لا يمكن معرفة الصانع إلا بإثبات حدوث العالم، ولا يمكن إثبات حدوث العالم إلا بإثبات حدوث الأجسام، والاستدلال على حدوث الأجسام إنما هو بحدوث الأغراض القائمة بها كالحركة والسكون. فهذا الأصل المبتدع هو الذي جرهم إلى القول بخلق القرآن ونفي الصفات والأفعال لله تعالى (١٦).

ولو أنهم سلموا لنصوص الكتاب والسنة لكفتهم في ذلك، ولا تشلتهم من ورطة التغطيل، فإن هذه أمور لا يتوصل إليها بمجرد العقل، والله تعالى قد أثبت أزليته وخلق العالم بأحسن البراهين وأقوى الحجج: ﴿فَبِأَيِّ حَدِيثٍ بَعْدَهُ يُؤْمِنُونَ﴾؟

(١٦) انظر: «درء التعارض» ٩٩/٢.

ونحنُ لا نُنَظَرُ المَعْتَزَلَةَ في دَفْعِ هَذِهِ الأَبَاطِيلِ بِمُحَدَّثَاتٍ مِنَ الأَقْوَالِ والأَصُولِ، وَلَا نُسَلِّمُ لَهُمْ قَوْلَهُمْ وَدَعْوَاهُمْ، وَإِنَّمَا نَرَفُضُ ذَلِكَ أَشَدَّ الرَّفْضِ، وَنَقُولُ: هُوَ بَدْعٌ ضَلَالَةٌ لِمَا جَرَّتْ إِلَيْهِ مِنَ الكُفْرِ والبَاطِلِ - شَأْنِ سَائِرِ البَدْعِ - وَلَا نَسْلُكُ مَسْلَكَ أَهْلِ البَدْعِ فِي الرَّدِّ عَلَيْهِمْ وَمَنَاظَرَتِهِمْ شَأْنَ الأَشْعَرِيَّةِ وَالمَاتَرِيدِيَّةِ أَتْبَاعِ ابْنِ كُلابٍ والأَشْعَرِيِّ وَالمَاتَرِيدِيِّ، فَإِنَّ هَؤُلَاءِ أَرَادُوا نَقْضَ ضَلَالَاتِ المَعْتَزَلَةِ بِنَفْسِ طَرِيقَتِهِمْ، فَتَرَاهُمْ تَابِعُوهُمْ فِي هَذَا الأَصْلِ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْهُمْ، فَتَسَلَّطَتْ عَلَيْهِمْ بِهِ المَعْتَزَلَةُ وَأَظْهَرَتْ تَنَاقُضَهُمْ.

وَصَدَّقَ فِيهِمْ شَيْخُ الإِسْلَامِ حِينَ قَالَ: «فَهُمْ قَصَدُوا نَصَرَ الإِسْلَامِ بِمَا يُنَافِي دِينَ الإِسْلَامِ» (١٧).

وَأَصْلُ المَعْتَزَلَةِ الَّذِي ابْتَدَعُوهُ أَوْقَعَهُمْ فِي قِيَاسِ صِفَةِ الخَالِقِ عَلَى المَخْلُوقِ وَصِفَتِهِ، فَإِنَّهُمْ إِنَّمَا بَنَوْا أَصْلَهُمْ عَلَى مَا عَهَدُوهُ فِي المَخْلُوقِ مِنْ أَحْوَالٍ وَصِفَاتٍ، فَحَسِبُوا أَنَّ ذَلِكَ يَلْحَقُ صِفَةً مِّنْ ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾ فَقَاسُوا مَا لَمْ يُحِيطُوا بِهِ عِلْمًا عَلَى مَا حَصَلُوهُ مِنَ الظُّنُونِ والأَوْهَامِ الَّتِي حَسَبُوهَا غَايَةَ العُلُومِ.

وَهَذَا مِنْ أَعْظَمِ مَا أَدْخَلَهُ الشَّيْطَانُ - لَعْنَهُ اللَّهُ - مِنَ التَّلْبِيسِ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنْ زَيَّنَ لَهُمْ ابْتِدَاعَ أَصُولٍ لَمْ تَرِدْ فِي كِتَابٍ وَلَا سُنَّةٍ، فَالتَّزَمَوْهَا، وَالتَّزَمُوا بِسَبَبِهَا خِلَافَ الشَّرِيعَةِ، فَجَعَلُوهَا الحَاكِمَ عَلَى الكِتَابِ وَالسُّنَّةِ، وَمِنْ تِلْكَ الأَصُولِ الفَاسِدَةِ هَذِهِ الدَّعَاوَى المَجْرَدَةُ عَنِ البُرْهَانِ مِمَّا هُوَ مَحْضُ العُقُولِ الزَّائِفَةِ، القَفَرِ مِنْ نُورِ الوَحْيِ.

فكُلُّ ما أوردوه مِمَّا سَمَّوْهُ (معقولاً) لَيْسَتْ دَلِيلًا بِهِ عَلَى خَلْقِ الْقُرْآنِ هُوَ
مِنْ قِيَاسِ صِفَةِ الْخَالِقِ عَلَى صِفَةِ الْمَخْلُوقِ، وَهُوَ كُفْرٌ بِاللَّهِ تَعَالَى، فَإِنَّهُ
كَمَا لَا شُبُهَةَ لَهُ فِي ذَاتِهِ فَلَا شُبُهَةَ لَهُ فِي صِفَاتِهِ، وَهَذَا مُقَرَّرٌ فِي مَوْضِعِهِ.

فَهَذِهِ أَظْهَرُ مَا اسْتَدَلَّ بِهِ الْجَهْمِيَّةُ الْمَعْتَزِلَةُ مِنَ الْحُجَجِ (!) وَأَبْيَنُهَا
وَأَقْوَاهَا عِنْدَهُمْ، وَقَدْ بَانَ لَكَ زَيْفُهَا وَيُطْلَأُ نَهَا، وَقَارِنْهَا بِمَا سَبَقَ ذِكْرُهُ مِنْ
الْأَدْلَةِ لِعَقْدِ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، يَجُلُّ لَكَ الْحَقُّ بِذَلِكَ وَتَعْلَمُ اسْتِقَامَةَ
مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ، وَاتَّبَاعِ أَهْلِ الْبِدْعِ لِلْأَهْوَاءِ وَالظُّنُونِ.

وَصَدَّقَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ - وَهُوَ بِهِمْ خَبِيرٌ - فِي قَوْلِهِ: «وَلَيْسَ مَعَ هَؤُلَاءِ
عَنِ الْأَنْبِيَاءِ قَوْلٌ يُوَافِقُ قَوْلَهُمْ، بَلْ لَهُمْ شُبُهَةٌ عَقْلِيَّةٌ فَاسِدَةٌ» (١٨).



(١٨) «مجموع الفتاوى» ٤٨/١٢.

المبحث الثاني

ذكر ما حرفت المعتزلة من معاني التنزيل لابطال صفة الكلام

● أولاً: تكليم الله تعالى لموسى عليه السلام:

قالوا: إِنَّ اللَّهَ خَلَقَ كَلَاماً فِي الشَّجَرَةِ الَّتِي أَتَاهَا مُوسَى فَسَمِعَهُ

موسى .

واستدلّوا بقوله تعالى: ﴿نُودِيَ مِنْ شَاطِئِ الْوَادِ الْأَيْمَنِ فِي الْبُقْعَةِ
الْمُبَارَكَةِ مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ [القصص: ٣٠] على أَنَّ ابتداء الكلام كان من
الشَّجَرَةِ.

فحرفوا التنزيل، لِيُثْبِتُوا التَّعْطِيلَ، بِتَقْرِيرِ أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ، وَنَفْيِ صِفَةِ
اللَّهِ تَعَالَى .

والرد عليهم من وجوه:

الأوّل: أَنَّ الْكَلَامَ هُوَ مَا قَامَ بِالْمَتَكَلَّمِ لَا مَا قَامَ بغيره، وقيامُ الصفة
إنّما يكونُ بالموصوف بها لا بغيره، والصفةُ إذا قَامَتْ بِمَحَلٍّ كَانَتْ صِفَةً لَهُ
لَا صِفَةً لغيره - كما فصلتُ القولَ فيه في الباب الأوّل - فما خلقه الله تعالى
من الصفاتِ في الأشياءِ ليسَ مِنْ ذَلِكَ شَيْءٌ صِفَةً لَهُ، إنّما هي صفاتُ

لِمَخْلُوقَاتِهِ، فهو تعالى قد أنطق سائر الأشياء نطقاً معتاداً أو غير معتاد،
فأنطق الإنسان والجان وغير ذلك من خلقه نطقاً معتاداً، وأنطق السماوات
والأرض وما بينهما نطقاً غير معتاد، كما قال تعالى: ﴿وَإِنْ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا
يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِنْ لَا تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ﴾ [الإسراء: ٤٤] وقال في غير
موضع ﴿يُسَبِّحُ لِلَّهِ مَا فِي السَّمَاوَاتِ وَمَا فِي الْأَرْضِ﴾ وأنطق الطير
لسليمان، وأنطق النملة، وأسمع نبيه ﷺ تسبيح الحصى (١٩)، وفي الآخرة
تنطق الجنة والنار، وتحدث الأرض بأخبارها، وتشهد الجلود على أهلها
حين تبلى السرائر: ﴿وَقَالُوا لِحُلُودِهِمْ لِمَ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي
أَنْطَقَ كُلَّ شَيْءٍ﴾ [فصلت: ٢١] فكل هذا الإنطاق من خلق الله في
الأشياء، فنطقها صفات لها، ولا يقول أحد: إن نطق الأشياء صفة لله، إلا
حلولي مارق يعتقد أن صفة الله تحل في المخلوق، أو اتحادي يرى اتحاد
المخلوق في الخالق، فنطق المخلوق وصوته وكلامه هو بعينه صفة الرب
تعالى، كما قال قائلهم:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره ونظامه
وهذا غاية الكفر والإلحاد، إذ مقتضاه أن ما ينطق به المخلوق من
الخير والشر وفحش القول، بل وحتى أصوات البهائم وسائر الحيوانات،
كل ذلك صفة للرب تعالى وتقدس وتنزه عن صفات خلقه.

فلو أخلصت المعتزلة النية لله وسألوه التوفيق لاهتدوا إلى فحش ما

(١٩) كما ورد ذلك بإسناد صحيح، خرجته وفصلت القول فيه في تعليقي على

«مناظرة ابن قدامة».

أَقْدَمُوا عَلَيْهِ، وَلَكِنَّهُمْ حُرِّمُوا ذَلِكَ فَهُمْ عَنِ الصِّرَاطِ لَنَّاكِبُونَ، فَحَسِبُوا أَنَّ الصَّوْتَ الَّذِي سَمِعَهُ مُوسَى صَوْتُ مَخْلُوقٍ فِي الشَّجَرَةِ، كَنَحْوِ صَفِيرٍ وَدَقِّهَا إِذَا عَصَفَتِ الرِّيحُ، وَمَا عَقَلُوا أَنَّ مَعْنَى هَذَا أَنَّ الشَّجَرَةَ هِيَ الْقَائِلَةُ لِمُوسَى: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي وَأَقِمِ الصَّلَاةَ لِذِكْرِي﴾ [طه: ١٤] وَهِيَ الْقَائِلَةُ: ﴿يَا مُوسَى إِنِّي أَنَا اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [القصص: ٣٠] وَلَا فَرْقَ حِينَئِذٍ بَيْنَ دَعْوَى الشَّجَرَةِ وَدَعْوَى فِرْعَوْنَ، فَكُلُّ ادَّعَى الرُّبُوبِيَّةَ، فَصَدَّقَ مُوسَى الشَّجَرَةَ وَكَذَّبَ فِرْعَوْنَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى حِينَ أَخْبَرَ عَنْ تَكْلِيمِهِ لِمُوسَى قَالَ: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ فَأَكَّدَهُ بِالْمَصْدَرِ ﴿تَكْلِيمًا﴾ وَقَدْ قَالَ جَمَاعَةٌ مِنْ أَهْلِ التَّحْقِيقِ فِي الْعَرَبِيَّةِ: «إِنَّ التَّوَكِيدَ بِالْمَصْدَرِ يَنْفِي الْمَجَازَ».

وَالثَّلَاثُ: قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ رَحِمَهُ اللَّهُ: «خَرَجُوا بِهَذَا التَّأْوِيلِ مِنَ اللُّغَةِ وَمِنَ الْمَعْقُولِ، لِأَنَّ مَعْنَى (تَكَلَّمَ اللَّهُ) أَتَى بِالْكَلَامِ مِنْ عِنْدِهِ، وَ(تَرَحَّمَ اللَّهُ) أَتَى بِالرَّحْمَةِ مِنْ عِنْدِهِ، كَمَا يُقَالُ: (تَخَشَّعَ فُلَانٌ) أَتَى بِالْخُشُوعِ مِنْ نَفْسِهِ، وَ(تَشَجَّعَ) أَتَى بِالشَّجَاعَةِ مِنْ نَفْسِهِ، وَ(تَبَتَّلَ) أَتَى بِالتَّبَتُّلِ مِنْ نَفْسِهِ، وَ(تَحَلَّمَ) أَتَى بِالْحَلْمِ مِنْ نَفْسِهِ، وَلَوْ كَانَ الْمُرَادُ: أَوْجَدَ كَلَامًا، لَمْ يَجُزْ أَنْ يُقَالَ: (تَكَلَّمَ) وَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يُقَالَ: (أَكَلَمَ) كَمَا يُقَالُ: (أَقْبَحَ الرَّجُلُ) أَتَى بِالْقَبَاحَةِ، وَ(أَطَابَ) أَتَى بِالطَّيِّبِ، وَ(أَخَسَّ) أَتَى بِالْخَسَاسَةِ، وَأَنْ يُقَالَ: (أَكَلَمَ اللَّهُ مُوسَى إِكْلَامًا) كَمَا يُقَالُ: (أَقْبَرَ اللَّهُ الرَّجُلَ) أَيِ جَعَلَ لَهُ قَبْرًا، أَوْ (أَرعى اللَّهُ الْمَاشِيَةَ) جَعَلَهَا تَرعى، فِي أَشْبَاهِ لِهَذَا كَثِيرَةٍ لَا تَخْفَى عَلَى أَهْلِ اللُّغَةِ» (٢٠).

(٢٠) «الاختلاف في اللفظ» ص: ٢٣٣ - ٢٣٤ - «عقائد السلف» -.

والرابع : أن تكليم الله تعالى لموسى كان خصيصةً فضَّلَ بها على غيره مِمَّنْ لَمْ يُوْتْ مثل ما أُوتِيَ من الرُّسل ، وقد قال تعالى : ﴿وَمَا كَانَ لِنَبِيٍّ أَنْ يَكُلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى : ٥١] فَإِنْ كَانَ التَّكْلِيمُ لموسى حَصَلَ بِوَاسِطَةِ الشَّجَرَةِ لَمْ يَكُنْ لَهُ عَلَى مَنْ سِوَاهُ مِمَّنْ يُوحَى إِلَيْهِ بِوَاسِطَةِ الرَّسُولِ فَضْلٌ ، وَلَمْ تَكُنْ مُنْزَلَةُ التَّكْلِيمِ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ حَاصِلَةً لِأَحَدٍ مِنْ رُسُلِ اللَّهِ ، وَهَذَا تَكْذِيبٌ لِلْقُرْآنِ ، وَإِبْطَالٌ لَوَاضِحِ الْبُرْهَانِ ، فَجَازَى اللَّهُ تَعَالَى الْجَهْمِيَّةَ الْمَعْتَزِلَةَ عَلَى مَا أَرَادُوا بِهِ إِفْسَادَ دِينِ الْمُسْلِمِينَ بِمَا هُمْ أَهْلُهُ .

والخامس : أن قوله : ﴿مِنَ الشَّجَرَةِ﴾ لا ابتداءً الغاية نحو قولك : رأيتُ الهلالَ مِنْ داري (و سمعتُ كلامَ زيدٍ مِنَ البيت) فليس الهلالُ في الدارِ ، ولا البيتُ هو المتكلمُ .

● **ثانياً: إضافة الكلام إلى الله سبحانه وتعالى في مثل قوله:**
(حتى يسمع كلام الله):

قالوا: هي إضافةٌ خَلْقٍ وتشريفٍ لا إضافةٌ صفةٍ ، كـ (بيت الله) و (ناقة الله) و (رسول الله) .

وهذا نوعٌ آخرٌ من تَمْوِيهِهِمْ وتَلْيِيسِهِمْ لِيَفْهَرُوا مِنْ الْحَقِّ وَيُنْفَرُوا الْخَلْقَ .

والردُّ عليهم في هذا التشويش يطولُ شرحُهُ ، ولكن أذكرُها هنا قاعدةً ذكرها شيخُ الإسلام رحمه الله في هذه المسألة تغني اللبيب عن التفصيل .

قال رحمه الله: «كُلُّ مَا يُضَافُ إِلَى اللَّهِ إِنْ كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا فهو مُلْكٌ لَهُ، وَإِنْ كَانَ صِفَةً قَائِمَةً بغيرِهَا لَيْسَ لَهَا مَحَلٌّ تَقُومُ بِهِ فَهُوَ صِفَةٌ لِلَّهِ» (٢١).

ومثَّلَ لِمَا كَانَ عَيْنًا قَائِمَةً بِنَفْسِهَا بِقَوْلِهِ تَعَالَى: ﴿نَاقَةَ اللَّهِ وَسُقْيَاهَا﴾ [الشمس: ١٣] وقوله: ﴿فَأَرْسَلْنَا إِلَيْهَا رُوحَنَا﴾ [مريم: ١٧] قال: «وهو جبريل».

فهذا خَلَقَ لَهُ وَمُلْكٌ لَهُ، ومثله: (رسول الله) و(عباد الله) و(قِبلَة الله) ونحو ذلك.

ومثَّلَ لِمَا كَانَ صِفَةً قَائِمَةً بغيرِهَا بـ (علم الله، كلام الله، قدرة الله، حياة الله، أمر الله).

فهذه إِذَا أُضِيفَتْ إِلَى اللَّهِ تَعَالَى كَانَتْ صِفَاتٍ لَهُ.

قال: «لَكِنْ قَدْ يُعْبَرُ بِلَفْظِ الْمَصْدَرِ عَنِ الْمَفْعُولِ بِهِ، فَيُسَمَّى الْمَعْلُومُ عِلْمًا، وَالْمَقْدُورُ قُدْرَةً، وَالْمَأْمُورُ بِهِ أَمْرًا، وَالْمَخْلُوقُ بِالْكَلِمَةِ كَلِمَةً، فَيَكُونُ ذَلِكَ مَخْلُوقًا، كَقَوْلِهِ: ﴿أَتَى أَمْرُ اللَّهِ فَلَا تَسْتَعْجِلُوهُ﴾ [النحل: ١] وقوله: ﴿إِنَّ اللَّهَ يُبَشِّرُكَ^(٢٢) بِكَلِمَةٍ مِنْهُ اسْمُهُ الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ وَجِيهًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ﴾ [آل عمران: ٤٥] وقوله: ﴿إِنَّمَا الْمَسِيحُ عِيسَى ابْنُ مَرْيَمَ رَسُولُ اللَّهِ وَكَلِمَتُهُ أُلْقِيَتْهَا إِلَى مَرْيَمَ وَقَدْ رُوحٌ مِنْهُ﴾ [النساء: ١٧١]» (٢٣).

(٢١) «مجموع الفتاوى» ٢٩٠/٩.

(٢٢) فِي الْأَصْلِ الْمَنْقُولُ عَنْهُ: (إِنَّا نَبَشِّرُكَ بِكَلِمَةٍ) وَهُوَ خَطَأً.

(٢٣) «مجموع الفتاوى» ٢٩١/٩.

قلتُ: وإنما يُصارُ إلى هذا المعنى بالقرائن، أمّا بمجرد إضافة
الصفة إلى الله فإنها حينئذ صفة له.



المبحث الثالث المعتزلة في الميدان

شَرَحْتُ لك اعتقاد المعتزلة الجهمية في كلام الله ، وما شَبَّهوا به على الناس ، ضَرَبُوا نصوصَ القرآن بعضها ببيعٍ ، وحرَّفوا معاني التنزيل ، ووصفوا ربَّهم تعالى بالعيوب والنِّقائص ، وحكَّموا على دينه بالأهواء والطُّنون ، وحَمَلُوا الناسَ على ذلك رغبةً ورهبةً ، وصَدُّوهم عن الهدى إلَّا مَنْ ثَبَّتَهُ الله تعالى ، وتركوا فِتْنَتَهُمْ وَقَدْ فُتِّحَتْ بها على الأُمَّة أبوابُ من الشرِّ والبدعة لم تُغلق إلى يومنا هذا .

وكان من مقصودِ دَعْوَةِ القَوْمِ إبطالَ دين المسلمين ، إذ معنى إبطال كونِ الرِّبِّ تعالى متكلِّماً إبطالُ جميعِ الشُّرائع ، وما أنزلَ الله تعالى على رُسُلِهِ ، لأنَّ الرُّسُلَ إِنَّمَا بُعِثُوا لتبليغِ وحيِ الله وتشريعِهِ الذي هو كلامُهُ وتنزيلُهُ .

بل إنَّ في ذلك إبطالَ التَّوْحِيدِ ، لأنَّ مَنْ لا يتكلَّم ولا يَقُومُ به علمٌ ولا حياة فهو كالأموات ، وَمَنْ لا يَقُومُ به الصِّفَاتُ فهو عَدَمٌ مُحَضَّرٌ .

فلَمَّا فَهِمَ أئمَّةُ هذه الأُمَّةِ وعلماءُها مقصودَ القَوْمِ ، جاهدوهم بالبينات ، حتَّى أحقَّ الله بهم الحقَّ وأوضحَ السَّبِيلَ ، فأبطلَ شُبُهَاتِهِمْ وأظهرَ

فضائِحهم، وكشَفَ سَوَاتِيهم، وَاتَّفَقَ أَهْلُ الْحَقِّ مِنْ سَلَفِ الْأُمَّةِ وَأَثْمَتِهَا عَلَى أَنَّ هَؤُلَاءِ مِنْ شَرِّ طَوَائِفِ أَهْلِ الْبِدْعِ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «حَتَّى أَخْرَجَهُمْ كَثِيرٌ عَنِ الثَّانِيْنِ وَالسَّبْعِيْنَ فِرْقَةً» (٢٤).

قُلْتُ: وَهَذَا مَعْنَاهُ إِخْرَاجُهُمْ مِنْ أُمَّةٍ مُحَمَّدٍ ﷺ.

وَقَدْ تَوَاتَرَتِ النُّصُوصُ عَنِ الْأَثْمَةِ الْأَعْلَامِ فِي تَكْفِيرِهِمْ، وَمُجَابَبَتِهِمْ، وَعَدَمِ مُوَالَاتِهِمْ، وَقَدْ نَبَّهْتُ عَلَى بَعْضِهَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَأَسُوقُ إِلَيْكَ هُنَا نَبْذًا مِنْهَا تَحْقِيقًا لِبَرَاءَةِ الذِّمَّةِ وَإِقَامَةِ الْحُجَّةِ بِذِكْرِ أَسْمَاءِ بَعْضِ أَعْلَامِ أُمَّةِ السَّلَفِ وَمَقَالَاتِهِمْ:

١ - سَلِيمَانُ بْنُ طَرْخَانَ التَّيْمِيُّ (تَابِعِيُّ إِمَامٍ ثَبَتَ).

قَالَ: «لَيْسَ قَوْمٌ أَشَدَّ نَقْضًا لِلْإِسْلَامِ مِنَ الْجَهْمِيَّةِ وَالْقَدْرِيَّةِ، فَأَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَقَدْ بَارَزُوا اللَّهَ تَعَالَى، وَأَمَّا الْقَدْرِيَّةُ فَإِنَّهُمْ قَالُوا فِي اللَّهِ عِزٌّ وَجَلٌّ» (٢٥).

٢ - سَفْيَانُ بْنُ سَعِيدٍ الثَّوْرِيُّ (أَمِيرُ الْمُؤْمِنِينَ فِي الْحَدِيثِ).

قَالَ: «مَنْ قَالَ: إِنَّ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾. اللَّهُ الصَّمَدُ ﴿مَخْلُوقٌ﴾، فَهُوَ كَافِرٌ» (٢٦).

٣ - سَلَامُ بْنُ أَبِي مُطِيعٍ (عَاقِلٌ، صَاحِبُ سُنَّةٍ، لَا بَأْسَ بِهِ فِي

(٢٤) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» ١٢/٥٢٤.

(٢٥) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي «السُّنَّةِ» رَقْمُ (٨) بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

(٢٦) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ رَقْمُ (١٣) بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

الحديث).

قال: «الْجَهْمِيَّةُ كُفَّارٌ، لَا يُصَلَّى خَلْفَهُمْ» (٢٧).

٤ - مالك بن أنس (إمام دار الهجرة):

قال عبدالله بن نافع - صاحبه -: كان مالك بن أنس رحمه الله يقول: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، يَوْجَعُ ضَرْبًا، وَيُخَبَسُ حَتَّى يَمُوتَ» (٢٨).

وقال ابن نافع أيضاً: قال مالك: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ يُؤَدَّبُ وَيُخَبَسُ حَتَّى تُعْلَمَ مِنْهُ التَّوْبَةُ» (٢٩).

وقال رحمه الله: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ يُسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ» (٣٠).

٥ - عبدالله بن المبارك (الإمام العَلَم).

(٢٧) رواه عبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (٩) والدارمي في «الرد على الجهمية» رقم (٣٧٢) و«النقض على الميرسي» ص: ١١٩ وأبوداود في «المسائل» ص: ٢٦٨ وابن الطبري في «السنة» رقم (٥١٧) بسند صحيح.

(٢٨) رواه عبدالله في «السنة» رقم (١١) والأجري في «الشرعية» ص: ٧٩

بسند جيد.

ورواه صالح في «المحنة» ص: ٦٦ بنحوه، لكن قال: «حتى يتوب» وهو موافق للنص الآتي.

(٢٩) رواه عبدالله رقم (٢١٣) وابن الطبري رقم (٤٩٧، ٤٩٨) بسند

صحيح.

(٣٠) رواه ابن أبي حاتم - كما في «السنة» لابن الطبري رقم (٤٩٥) - بسند

صالح.

كَانَ يَقُولُ: «الْجَهْمِيَّةُ كَفَّارٌ» (٣١).

وقال محمد بن أعين (ثقة صدوق): سمعت النضر بن محمد يقول: مَنْ قَالَ: ﴿إِنِّي أَنَا اللَّهُ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنَا فَأَعْبُدْنِي﴾ [طه: ١٤] مخلوق، فهو كافر.

قال: فَأَتَيْتُ ابْنَ الْمُبَارَكِ فَقُلْتُ لَهُ: أَلَا تَعْجَبُ مِنْ أَبِي مُحَمَّدٍ قَالَ كَذَا وَكَذَا؟

قال: «وَهَلْ الْأَمْرُ إِلَّا ذَاكَ، وَهَلْ يَجِدُ بُدْأً مَنْ أَنْ يَقُولَ هَذَا؟» (٣٢). وفي رواية:

«صَدَقَ أَبُو مُحَمَّدٍ عَافَاهُ اللَّهُ، مَا كَانَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ يَأْمُرُ أَنْ نَعْبُدَ مَخْلُوقًا» (٣٣).

٦ - أَبُو يُوسُفَ يَعْقُوبُ بْنُ إِبْرَاهِيمَ الْقَاضِي صَاحِبُ أَبِي خَنِيْفَةَ (الثقة الصدوق الفقيه).

قال: «جِئْتُنِي بِشَاهِدَيْنِ يَشْهَدَانِ عَلَى الْمَرْيَسِيِّ، وَاللَّهُ لَأَمْلَأَنَّ ظَهْرَهُ وَبَطْنَهُ بِالسِّيَاطِ، يَقُولُ فِي الْقُرْآنِ» يعني: مخلوق (٣٤).

قُلْتُ: وَنُصُوصُ الْأُئِمَّةِ فِي تَكْفِيرِ الْمَرْيَسِيِّ - وَهُوَ بَشَرٌ بَنُ غِيَاثَ،

(٣١) رواه عبدالله رقم (١٥) بسند صحيح.

(٣٢) رواه عبدالله رقم (١٩) بسند جيد.

(٣٣) رواه عبدالله رقم (٢٠) وأبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٧ والبيهقي في

«الأسماء والصفات» ص: ٢٤٨ وابن الطبري رقم (٤٢٨) بسند جيد.

(٣٤) رواه عبدالله رقم (٥٣) بسند صحيح.

رأس من رؤوس المعتزلة الجهمية - كثيرة.

٧ - معتمر بن سليمان، حماد بن زيد، يزيد بن زريع (محدثون ثقات أصحاب سنة).

قال فطر بن حماد (شيخ صدوق):

سألت معتمر بن سليمان، فقلت: يا أبا محمد، إمام لقوم يقول: القرآن مخلوق، أصلي خلفه؟ فقال: «ينبغي أن تُضربَ عنقه».

قال فطر: وسألت حماد بن زيد فقلت: يا أبا إسماعيل، لنا إمام يقول: القرآن مخلوق، أصلي خلفه؟ قال: «صل خلف مسلم أحب إلي».

وسألت يزيد بن زريع فقلت: يا أبا معاوية، إمام لقوم يقول: القرآن مخلوق، أصلي خلفه؟ قال: «لا، ولا كرامة» (٣٥).

٨ - عبدالله بن إدريس الأودي (من أئمة المسلمين، ثقة عابد).

قال يحيى بن يوسف الزمّي (وكان ثقة عدلاً):

كنا عند عبدالله بن إدريس، فجاءه رجل فقال: يا أبا محمد، ما تقول في قوم يقولون: القرآن مخلوق؟ فقال: «أمن اليهود؟» قال: لا، قال: «فمن النصارى؟» قال: لا، قال: «فمن المجوس؟» قال: لا، قال:

(٣٥) رواه عبدالله في «السنة» رقم (٤٢) بسند حسن.

«فَمِمَّنْ؟» قال: من أهل التَّوْحِيدِ، قال:

«ليس هؤلاء من أهل التَّوْحِيدِ، هؤلاء الزُّنَادِقَةُ، مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مخلوقٌ فقد زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ مخلوقٌ، يقول الله: ﴿بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ﴾ فالله لا يكون مخلوقاً، والرحمن لا يكون مخلوقاً، وهذا أصلُ الزُّنَادِقَةِ، مَنْ قَالَ هَذَا فَعَلَيْهِ لَعْنَةُ اللَّهِ، لَا تُجَالِسُوهُمْ، وَلَا تُنَاجِحُوهُمْ» (٣٦).

٩ - أبو بكر بن عيَّاش (إمامٌ عدلٌ، مُحدِّثٌ مُكثِرٌ).

قال حمزة بن سعيد المروزي (ثقةٌ مأمونٌ):

سألت أبا بكر بن عيَّاش قلت: يا أبا بكر، قد بلغك ما كان من أمر ابنِ عُليَّة في القرآن، فما تقول؟ فقال: «اسْمَعْ إِلَيَّ وَبَلَغَكَ مَا كَانَ مِنْ زَعَمِ لَكَ أَنَّ الْقُرْآنَ مخلوقٌ فهو عندنا كافِرٌ زنديقٌ عدوُّ الله، لَا تُجَالِسْهُ، وَلَا تُكَلِّمْهُ» (٣٧).

١٠ - وكيع بن الجراح (ثقةٌ حافظٌ حجةٌ).

قال: «أَمَّا الْجَهْمِيُّ فَإِنِّي أَسْتَبِيهُ، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا قَتَلْتُهُ» (٣٨).

وقال أبو جعفر السُّوَيْدِيُّ (وكان ثقةً مُتَّبِعًا): سمعتُ وكيعاً وقيل له: إِنَّ فلاناً يقول: إِنَّ الْقُرْآنَ مُحدِّثٌ، فقال: «سُبْحَانَ اللَّهِ، هَذَا كُفْرٌ».

(٣٦) رواه البخاري في «خلق أفعال العباد» رقم (٥) وعبدالله بن أحمد في «السنة» رقم (٢٩) وابن الطبري رقم (٤٣٢) بسند صحيح، وكذا رواه الأجرى في «الشریعة» ص: ٧٨.

(٣٧) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٧ والأجرى ص: ٧٩ بسند

صحيح.

(٣٨) رواه عبدالله في «السنة» رقم (٣١) بسند صحيح.

قَالَ السُّوَيْدِيُّ : وَسَأَلْتُ وَكِيعاً عَنِ الصَّلَاةِ خَلْفَ الْجَهْمِيَّةِ ؟
فَقَالَ : « لَا يُصَلِّي خَلْفَهُمْ » (٣٩) .

وَقَالَ أَبُو خَيْثَمَةَ (زَهْرُ بْنُ حَرْبٍ) :

اِخْتَصَمْتُ أَنَا وَمُثْنَى ، فَقَالَ مُثْنَى : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ ، وَقُلْتُ أَنَا : كَلَامُ
اللَّهِ ، فَقَالَ وَكِيعٌ وَأَنَا أَسْمَعُ « هَذَا كُفْرٌ ، مَنْ قَالَ : إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ هَذَا كُفْرٌ »
فَقَالَ مُثْنَى : يَا أَبَا سَفْيَانَ ، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ : ﴿ مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرٍ مِنْ رَبِّهِمْ
مُحْدَثٌ ﴾ [الأنبياء : ٢] فَأَيُّ شَيْءٍ هَذَا ؟ فَقَالَ وَكِيعٌ : « مَنْ قَالَ : الْقُرْآنُ
مَخْلُوقٌ هَذَا كُفْرٌ » (٤٠) .

١١ - سَفْيَانَ بْنِ عُيَيْنَةَ الْهَلَالِيِّ (إِمَامٌ حُجَّةٌ فَقِيه) .

قَالَ : « الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ ، مَنْ قَالَ : مَخْلُوقٌ ، فَهُوَ كَافِرٌ ، وَمَنْ
شَكَّ فِي كُفْرِهِ فَهُوَ كَافِرٌ » (٤١) .

١٢ - أَبُو معاوية الضَّرِيرُ مُحَمَّدُ بْنُ خَازِمٍ (حَافِظٌ ثِقَةٌ) .

قَالَ : « الْكَلَامُ فِيهِ بَدْعَةٌ وَضَلَالَةٌ ، مَا تَكَلَّمَ فِيهِ النَّبِيُّ ﷺ ، وَلَا
الصُّحَابَةُ ، وَلَا التَّابِعُونَ وَالضَّالْحُونَ » يَعْنِي : الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ (٤٢) .

١٣ - عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ مَهْدِيٍّ (عَلَمٌ ، مِنْ أَثْبَتِ الْمُحَدِّثِينَ
وَأَحْفَظِهِمْ) .

(٣٩) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي «السُّنَّةِ» رَقْمَ (٣٣) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

(٤٠) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ فِي «السُّنَّةِ» رَقْمَ (٣٥) عَنْ أَبِي خَيْثَمَةَ بِهِ .

(٤١) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ رَقْمَ (٢٥) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

(٤٢) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ رَقْمَ (٢٠٨) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ .

قال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَمْ يُكَلِّمْ مُوسَى صَلَوَاتُ اللَّهِ عَلَيْهِ يُسْتَتَاب، فَإِنْ تَابَ وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ» (٤٣).

وقال: «لو كان لي من الأمر شيء لَقُمْتُ عَلَى الْجِسْرِ، فَلَا يَمُرُّ بِي أَحَدٌ إِلَّا سَأَلْتُهُ عَنِ الْقُرْآنِ، فَإِنْ قَالَ: إِنَّهُ مَخْلُوقٌ، ضَرَبْتُ رَأْسَهُ وَرَمَيْتُ بِهِ فِي الْمَاءِ» (٤٤).

وقيل له: إِنَّ الْجَهْمِيَّةَ يَقُولُونَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، فَقَالَ: «إِنَّ الْجَهْمِيَّةَ لَمْ يُرِيدُوا ذَا، وَإِنَّمَا أَرَادُوا أَنْ يَنْفُوا أَنْ يَكُونَ الرَّحْمَنُ عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى، وَأَرَادُوا أَنْ يَنْفُوا أَنْ يَكُونَ اللَّهُ تَعَالَى كَلَّمَ مُوسَى، وَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى: ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]، وَأَرَادُوا أَنْ يَنْفُوا أَنْ يَكُونَ الْقُرْآنُ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى، أَرَى أَنْ يُسْتَتَابُوا، فَإِنْ تَابُوا وَإِلَّا ضُرِبَتْ أَعْنَاقُهُمْ» (٤٥).

١٤ - أنس بن عياض أبو ضَمْرَةَ اللَّيْثِي (مُحَدَّثٌ ثِقَةٌ صَدُوقٌ).

قَالَ إِسْحَاقُ بْنُ الْبُهْلُولِ (ثِقَةٌ عَالِمٌ): قُلْتُ لِأَنْسِ بْنِ عِيَاضَ أَبِي ضَمْرَةَ: أَضَلَّنِي خَلْفَ الْجَهْمِيَّةِ؟

قَالَ: «لَا» ﴿وَمَنْ يَتَّبِعْ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَنْ يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ

(٤٣) رواه عبد الله رقم (٤٤، ٥٣١) وأبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٢ والبيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٤٩ وابن الطبري رقم (٥٠٥) بسند صحيح.
(٤٤) رواه عبد الله رقم (٤٦، ٢٠٦) وأبو داود ص: ٢٦٧ والأجري في «الشرعية» ص: ٨٠ وابن الطبري رقم (٥٠٤) بسند صحيح.
(٤٥) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٤٩ بسند صحيح.

مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴿[آل عمران: ٨٥]﴾ (٤٦).

١٥ - يزيد بن هارون (إمام في السُّنة، ثَبَتَ حُجَّةَ حَافِظٍ).

قال: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ» (٤٧).

وقال شاذَّ بن يحيى الواسطي (وكانَ خَيْرًا صَدُوقًا):

حَلَفَ لِي يَزِيدُ بْنُ هَارُونَ فِي بَيْتِهِ: «وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الرَّحْمَنُ الرَّحِيمُ، مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ زَنْدِيقٌ» (٤٨).

١٦ - أَبُو عُبَيْدٍ الْقَاسِمُ بْنُ سَلَامٍ (لُغَوِيٌّ الْمُحَدِّثِينَ، ثِقَةٌ فَقِيهٌ).

قال: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَقَدْ افْتَرَى عَلَى اللَّهِ عِزًّا وَجَلًّا، وَقَالَ عَلَيْهِ مَا لَمْ تَقُلْهُ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى» (٤٩).

وقال: «لَوْ أَنَّ خَمْسِينَ يُؤْمِنُونَ النَّاسَ يَوْمَ الْجُمُعَةِ، لَا يَقُولُونَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، يَأْمُرُ بَعْضُهُمْ بَعْضًا بِالْإِمَامَةِ، إِلَّا أَنَّ الرَّأْسَ الَّذِي يَأْمُرُهُمْ يَقُولُ هَذَا، رَأَيْتُ الْإِعَادَةَ، لِأَنَّ الْجُمُعَةَ إِنَّمَا تَثْبُتُ بِالرَّأْسِ» (٥٠).

قال عبد الله ابن الإمام أحمد: فأخبرتُ أبي رحمه الله بقول أبي

(٤٦) رواه عبد الله رقم (٧٢) عن إسحاق به.

(٤٧) رواه عبد الله في «السُّنة» رقم (٥٢) وأبو داود ص: ٢٦٨ بسند جيد.

(٤٨) رواه عبد الله رقم (٥٠) وأبو داود ص: ٢٦٨ بسند جيد.

(٤٩) رواه عبد الله رقم (٧١) والآجري في «الشريعة» ص: ٨٢ والبيهقي في

«الأسماء والصفات» ص: ٢٥٣ بسند صحيح.

(٥٠) رواه عبد الله في «السُّنة» رقم (٧٥) بسند صحيح.

عُبَيْد، فقال: «هَذَا يُضَيِّقُ عَلَى النَّاسِ، إِذَا كَانَ الَّذِي يُصَلِّي بِنَا لَا يَقُولُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا صَلَّيْتُ خَلْفَهُ، فَإِذَا كَانَ الَّذِي يُصَلِّي بِنَا يَقُولُ بِشَيْءٍ مِنْ هَذَا الْقَوْلُ أَعَدْتُ الصَّلَاةَ خَلْفَهُ» (٥١).

قُلْتُ: وَهَذَا أَقْوَمُ مِنْ قَوْلِ أَبِي عُبَيْدٍ، وَأَوْفَقُ لِلسُّنَّةِ، وَلَكِنْ دَلُّ قَوْلِ أَبِي عُبَيْدٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَى بَيَانِ فُحْشِ هَذَا الْإِعْتِقَادِ - إِعْتِقَادِ الْجَهْمِيَّةِ - وَأَنَّهُمْ كُفَّارٌ، وَإِلَّا لَمَا شَدَّدَ هَذَا التَّشْدِيدَ، وَضَيِّقَ هَذَا التَّضْيِيقَ.

١٧ - أَبُو الْوَلِيدِ هِشَامُ بْنُ عَبْدِ الْمَلِكِ الطَّيَالِسِيُّ (حَافِظُ حُجَّةٍ).

قال: «مَنْ لَمْ يَعْقِدْ قَلْبَهُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ لَيْسَ بِمَخْلُوقٍ، فَهُوَ خَارِجٌ مِنَ الْإِسْلَامِ» (٥٢).

١٨ - أَحْمَدُ بْنُ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ يُونُسَ (ثِقَةٌ ثَبَّتْ، صَاحِبُ سُنَّةٍ).

قال: «لَا يُصَلِّيْ خَلْفَ مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، هَؤُلَاءِ كُفَّارٌ» (٥٣).

١٩ - هَارُونُ بْنُ مَعْرُوفٍ الْمَرْوَزِيُّ (مُحَدِّثٌ، ثِقَةٌ، خَيْرٌ).

قال: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ يَعْبُدُ صَنَمًا» (٥٤).

وقال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ لَا يَتَكَلَّمُ، فَهُوَ يَعْبُدُ الْأَصْنَامَ» (٥٥).

٢٠ - يَوْسُفُ بْنُ يَحْيَى أَبُو يَعْقُوبَ الْبُؤَيْطِيُّ صَاحِبُ الشَّافِعِيِّ (ثِقَةٌ

(٥١) كِتَابُ «السُّنَّةِ» رَقْمُ (٧٥).

(٥٢) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ فِي «الْمَسَائِلِ» ص: ٢٦٦ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٥٣) رَوَاهُ أَبُو دَاوُدَ ص: ٢٦٨ عَنْهُ بِهِ.

(٥٤) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ رَقْمُ (٦٧) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٥٥) رَوَاهُ عَبْدُ اللَّهِ رَقْمُ (٢٠٩) بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

فَقِيَهُ صَاحِبُ سُنَّةٍ).

قال: «مَنْ قال: القرآن مخلوق، فهو كافر، قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ﴾ [النحل: ٤٠] فأخبر الله عزَّ وجلَّ أنه يَخْلُقُ الْخَلْقَ بـ (كُن) فَمَنْ زَعَمَ أَنْ (كُن) مخلوق، فقد زَعَمَ أَنَّ الله تعالى يَخْلُقُ الْخَلْقَ بِخَلْقٍ» (٥٦).

٢١ - يحيى بن معين (العَلَم، إمام أهل الحديث).

قال: «مَنْ قال: القرآن مخلوق، فهو كافر» (٥٧).

وقال أحمد بن إبراهيم الدُّورَقِيُّ (ثِقَّةٌ حَافِظٌ): أخبرني يحيى بن معين أنه يعيدُ صلاةَ الجمعة مُذْ أَظْهَرَ عبد الله بن هارون المأمونُ ما أَظْهَرَ، يعني: القرآن مخلوق (٥٨).

وقال أحمد بن زُهَيْرٍ (ابن أبي خَيْثَمَةَ): سمعتُ أبي - وسأل يحيى بن معين - فقال: إنهم يقولون: إِنَّكَ تقول: القرآن كلامُ الله وتسكُتُ، ولا تقول: مخلوق، ولا غير مخلوق، قال: «لا» فعاودته، فقال: «معاذ الله: القرآن كلام الله غيرُ مخلوق، وَمَنْ قالَ غيرَ هذا فعليه لعنةُ الله» (٥٩).

٢٢ - إمام أهل السُّنَّة أحمد بن حنبل.

-
- (٥٦) رواه البيهقي في «الأسماء والصفات» ص: ٢٥٢ بسند صحيح.
وروى أبو داود الجملة الأولى منه في «المسائل» ص: ٢٦٨ بسند صحيح.
(٥٧) رواه عبد الله في «السنة» رقم (٦٨) بسند جيد.
(٥٨) رواه عبد الله رقم (٧٦) عن الدورقي به.
(٥٩) رواه ابن الطبري رقم (٤٥٥) بسند صحيح.

والتَّغْلُّ عَنْهُ فِي تَكْفِيرِهِمْ، وَمُجَانِبَتِهِمْ، وَتَرْكُ الصَّلَاةِ خَلْفَهُمْ،
وَالْكَشْفُ عَنْ مَسَاوِيهِمْ، لَا يَدْخُلُ تَحْتَ الْحَضَرِ، فَمِنْ ذَلِكَ:

قال أبو داود: قلتُ لأحمدَ: مَنْ قالَ: القرآنُ مخلوقٌ، أهو كافرٌ؟
قال: «أقولُ: هو كافرٌ» (٦٠).

وقال حنبل: سمعتُ أبا عبدِ اللهِ أحمدَ بنَ حنبلٍ - وسأله يعقوبُ
الدُّورقي عَمَّن قال: القرآنُ مخلوقٌ؟ - فقال: «مَنْ زَعَمَ أَنَّ عِلْمَ اللهِ تَعَالَى
وَأَسْمَاءَهُ مَخْلُوقَةٌ، فَقَدْ كَفَرَ بِقَوْلِ اللهِ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ
مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١] أَفليس هو القرآن؟ وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ عِلْمَ
اللهِ تَعَالَى وَأَسْمَاءَهُ وَصِفَاتِهِ مَخْلُوقَةٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، لَا شَكَّ فِي ذَلِكَ، إِذَا اعْتَقَدَ
ذَلِكَ، وَكَانَ رَأْيُهُ وَمَذْهَبُهُ دِينًا يَتَدَيَّنُ بِهِ، كَانَ عِنْدَنَا كَافِرًا» (٦١).

وقال عبد الله ابنه: سمعتُ أبي رحمه الله يقول: «مَنْ قالَ ذَلِكَ الْقَوْلُ
لَا يُصَلِّي خَلْفَهُ الْجُمُعَةَ وَلَا غَيْرَهَا، إِلَّا أَنَا لَا نَدْعُ إِتْيَانَهَا، فَإِنْ صَلَّى رَجُلٌ
أَعَادَ الصَّلَاةَ» يعني: خَلَفَ مِنْ قال: القرآنُ مخلوقٌ (٦٢).

وقال عبد الله: سمعتُ أبي رحمه الله يقول: «إِذَا كَانَ الْقَاضِي
جَهْمِيًّا فَلَا تَشْهَدُ عِنْدَهُ» (٦٣).

وقال محمد بن يوسف بن الطَّبَّاع (وكان ثِقَةً): سمعتُ رجلاً سألَ

(٦٠) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٢ ومن طريقه: الأجرى في
«الشرعة» ص: ٨١.

(٦١) رواه الأجرى ص: ٨٠ بسند صحيح.

(٦٢) رواه عبد الله رقم (٤) ومن طريقه: البيهقي في «الأسماء» ص: ٢٥٨.

(٦٣) رواه عبد الله رقم (٦).

أحمد بن حنبل، فقال: يا أبا عبد الله، أصلي خلف من يشرب المسكر؟
فقال: «لا».

قال: فأصلي خلف من يقول: القرآن مخلوق؟
فقال: «سبحان الله، أنهاك عن مُسلم، وتساألني عن كافر؟» (٦٤).
وقال صالح ابنه عنه: «من زعم أن القرآن مخلوق فقد كفر، ومن زعم
أن أسماء الله مخلوقة كفر، لا يصلي خلف من قال: القرآن مخلوق، فإن
صلى رجل أعاد» (٦٥).

٢٣ - أحمد بن صالح المصري (إمام ثبت حافظ).
قال أبو داود: سألت أحمد بن صالح عن قال: القرآن مخلوق؟
فقال: «كافر» (٦٦).

٢٤ - هارون بن موسى الفروي (شيخ ثقة، صاحب سنة).
قال: «لم أسمع أحداً من أهل العلم بالمدينة وأهل السنن إلا وهم
ينكرون على من قال: القرآن مخلوق، ويكفرونه».
قال هارون: «وأنا أقول بهذه السنة» (٦٧).

٢٥ - محمد بن إسماعيل البخاري (العالم، صاحب الصحيح).

(٦٤) رواه الأجرى في «الشرعة» ص: ٨١ بسند صحيح.
(٦٥) رواه صالح بن أحمد في «المحنة» ص: ٦٦ - ٦٧.
(٦٦) رواه أبو داود في «المسائل» ص: ٢٦٨.
(٦٧) رواه الأجرى في «الشرعة» ص: ٧٨ - ٨٩ بسند صحيح.

قال: «نَظَرْتُ فِي كَلَامِ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى وَالْمَجُوسِ، فَمَا رَأَيْتُ أَضَلَّ فِي كُفْرِهِمْ مِنْهُمْ - يَعْنِي الْجَهْمِيَّةَ - وَإِنِّي لَأَسْتَجْهِلُ مَنْ لَا يَكْفُرُهُمْ إِلَّا مَنْ لَا يَعْرِفُ كُفْرَهُمْ» (٦٨).

وقال: «مَا أَبَالِي، صَلَّيْتُ خَلْفَ الْجَهْمِيِّ وَالرَّافِضِيِّ، أَمْ صَلَّيْتُ خَلْفَ الْيَهُودِ وَالنَّصَارَى، وَلَا يُسَلَّمُ عَلَيْهِمْ، وَلَا يُعَادَوْنَ، وَلَا يُنَاكَحُونَ، وَلَا يُشْهَدُونَ، وَلَا تُؤْكَلُ ذَبَائِحُهُمْ» (٦٩).

٢٦ - أَبُو حَاتِمٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِدْرِيسَ، وَأَبُو زُرْعَةَ عُبَيْدُ اللَّهِ بْنُ عَبْدِ الْكَرِيمِ الرَّازِيَانِ (إِمَامَا الْجَرَحِ وَالتَّعْدِيلِ).

قالا: «وَمَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ كُفْرًا يُنْقَلُ عَنْ الْمِلَّةِ، وَمَنْ شَكَّ فِي كُفْرِهِ مِمَّنْ يَفْهَمُ فَهُوَ كَافِرٌ» (٧٠).

٢٧ - أَبُو بَكْرٍ مُحَمَّدُ بْنُ إِسْحَاقَ بْنِ خُرَيْمَةَ (إِمَامُ الْأَثَمَةِ).

قال: «الْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ: فَمَنْ قَالَ: إِنَّ الْقُرْآنَ مَخْلُوقٌ فَهُوَ كَافِرٌ بِاللَّهِ الْعَظِيمِ، لَا تُقْبَلُ شَهَادَتُهُ، وَلَا يُعَادُ إِذَا مَرَضَ، وَلَا يُصَلَّى عَلَيْهِ إِذَا مَاتَ، وَلَا يُدْفَنُ فِي مَقَابِرِ الْمُسْلِمِينَ، وَيَسْتَتَابُ، فَإِنْ تَابَ، وَإِلَّا ضُرِبَتْ عُنُقُهُ» (٧١).

(٦٨) «خُلِقَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ» رَقْم (٣٥) وَمِنْ طَرِيقَةِ الْبَيْهَقِيِّ فِي «الْأَسْمَاءِ» ص:

٢٥٣.

(٦٩) «خُلِقَ أَفْعَالُ الْعِبَادِ» رَقْم (٥٣) وَمِنْ طَرِيقَةِ الْبَيْهَقِيِّ ص: ٢٥٤.

(٧٠) رَوَاهُ اللَّالِكَاثِيُّ فِي «السَّنَةِ» ١٧٨/١ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

(٧١) رَوَاهُ أَبُو عَثْمَانَ الصَّابُونِيُّ فِي «الرِّسَالَةِ» نَصْ ٧/ بِسَنَدٍ صَحِيحٍ.

٢٨ - محمد بن جرير أبو جعفر الطبري (الإمام الحافظ الفقيه الحجة).

قال القاضي أحمد بن كامل (وكان ثقة فاضلاً): سمعت أبا جعفر محمد بن جرير الطبري - ما لا أحصي - يقول: «مَنْ قال: القرآن مخلوق، معتقداً له، فهو كافرٌ حلالُ الدَّمِ والمال، لا يرثُهُ ورثته من المسلمين، يُستتاب، فإن تاب وإلاَّ ضربتُ عنقه».

فقلتُ له: عَمَّن لا يرثُهُ ورثته من المسلمين؟

قال: «عَنْ يحيى القطان، وعبد الرحمن بن مهدي» (٧٢).

قيل للقاضي ابن كامل: فِلَمَنْ يكونُ ماله؟ قال: فِتْنًا للمسلمين (٧٣).

فهذه بعضُ أحكامِ الأئمةِ الأعلامِ في حقِّ المعتزلةِ الجهمية، تُبَيِّنُ لك عن فُرْقَانٍ بين الحقِّ والباطلِ، والكُفْرِ والإيمانِ، وهؤلاء الأعلامُ من سَادَةِ أئمةِ السُّلَفِ الذين كانوا أسوةَ الناسِ، وفيهم السَّادَةُ الكبارُ الذين يَفْزَعُ إليهم الناسُ في كَشَفِ الشُّبُهَاتِ، وإبَانَةِ الحقِّ مِنْ دينهم.

ولقد وَقَعَ في كلامِ بعضِ الأئمةِ تكفيرُ بعضِ أعيانِ الجهمية، فكُفِّرَ جماعةٌ من السُّلَفِ الجَعْدِ بنِ دِرْهَمٍ - أصلُ هذه الفتنة - وآخرونَ جَهَمَ بنِ صَفْوان - رأسها - وآخرونَ بشراً المِريسي - المُنَافِخَ عنها - وكُفِّرَ الشَّافِعِي رحمه الله خَفْصاً الفَرْدَ - أَحَدَ دُعَاتِهِمْ - وَهَمَّ بِقَتْلِهِ.

ولقد رأيتُ أقواماً من أهلِ البِدْعِ، وربما اغترَّبَ بهم بعضُ أهلِ السُّنَّةِ،

(٧٢) أي: يَأْثُرُهُ عَنهُمَا.

(٧٣) رواه ابن الطبري في «السُّنَّة» رقم (٥١٤) بسند صحيح.

يهونون من شأن الجهمية، وربما استنكر بعضهم على الأئمة الذين كفروهم، مع أنه لم يرد عن عامة أئمة السلف إلا تكفيرهم - كما نقله عنهم ابن الطبري وغيره - وهؤلاء فيما أرى أحد رجلين:

إما مبتدع، مُحترق في التَّجَهَّم والاعتزال، يُصرُّ على أمرٍ عظيم، يهاب الحقَّ وسطوة أهله، فلا يُصرِّح، وإنما يُشير ويُلمح.

وإما جاهل، لم يفهم اعتقاد السلف في كلام الله تعالى، وخاف النظر في ذلك - ورعاً - يحسب أنه خوض في الكلام المذموم، فليس له إمام يقتدي به إلا الواقعة الذين أنكر الأئمة مذهبهم.

أما الأول فلا سلمه الله ولا عافاه، وكشف ستره، وأظهر سواته.

وأما الآخر فليتب الله وليتعلَّم، وليدع ما حسبه ورعاً، فوالله ما هو بالورع المشروع، فإن الباطل موجود وله دعاة، وبدعة الجهمية لم تنفك عن الناس، وليكفهِ الاقتداء بأعلام الأئمة، ورؤوس الأئمة، من بعد عصر الصحابة وكبار التابعين، الذين عافاهم الله من هذا البلاء، مثل: الثوري، ومالك، والشافعي، وأحمد، وابن معين، والبخاري.

وممن سبقت الإشارة إليهم صنف حملوا التكفير في النصوص السالفة عن الأئمة وما يشبهها على الكفر الأصغر الذي لا يفارق به الدين، وهذا أيضاً من تهوينهم لهذه القضية، وتمويههم على الناس، وإلا فإن الكثير من النصوص المذكورة وغيرها صريحة في إخراجهم من الإسلام، ويجب أن يُحمَل ما أُطلق من ألفاظ تكفيرهم على هذا المعنى الصريح، وأنا على يقين أن من فهم الاعتقاد السليم الذي شرحناه في الباب الأول،

وَفَهُمَ مَا شَبَّهَ بِهِ الْمَعْتَزِلَةُ الْجَهْمِيَّةُ عَلَى النَّاسِ ، فَإِنَّهُ لَا يَرْتَابُ فِي كُفْرِهِمُ
الْأَكْبَرِ الْمُخْرَجِ مِنَ الْإِسْلَامِ .

فَإِنْ قِيلَ : أَلَيْسُوا يَشْهَدُونَ أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا اللَّهُ ؟

قُلْنَا : بَلَى ، وَلَكِنَّهُمْ نَقَضُوهَا بِقَوْلِهِمْ : مَخْلُوقَةٌ ، وَنَقَضُوهَا بِتَكْذِيبِ
الْقُرْآنِ ، وَبِنَفْيِ صِفَاتِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ، وَوَصْفِهِ بِالْعَجْزِ وَالنَّقْصِ ، بَلْ وَصْفِهِ
بِالْعَدَمِ ، فَأَيُّ تَوْحِيدٍ بَعْدَ هَذَا ؟

فَإِنْ قِيلَ : هَذَا الْإِمَامُ أَحْمَدُ رَحِمَهُ اللَّهُ وَهُوَ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ فِي هَذِهِ
الْمَسْأَلَةِ ، وَلَقِيَ بِسَبَبِهَا مَا لَقِيَ ، لَمْ يَكْفُرِ الْمَأْمُونُ ، وَلَا الْمَعْتَصِمُ ، وَلَا
الْوَاتِقُ ، بَلْ رَبَّمَا دَعَا لِبَعْضِهِمْ ، وَأَقْرَبُ بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ ، وَكَانُوا حِمْلَةَ رَايَةِ الْفِتْنَةِ
بَخَلَقِ الْقُرْآنِ ، فَلَوْ كَانَ كُفْرًا مُخْرَجًا مِنَ الْإِسْلَامِ لَمَا دَعَا ، أَوْ عَفَا ، أَوْ أَقْرَبُ
بِأَمْرَةِ الْمُؤْمِنِينَ .

قُلْنَا : هَذَا جَهْلٌ مِنَ الْمَعْتَزِلِ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، فَإِنْ إِبْرَاهِيمُ التَّكْفِيرِ لَيْسَ
كَتَعْيِينِهِ ، إِذَا الْحُكْمُ بِهِ عَلَى الْمُعَيَّنِ قَدْ يَتَخَلَّفُ لِمَعْنَى ، كِتَاوِيلٍ ، أَوْ جَهْلٍ ،
أَوْ إِكْرَاهٍ ، فَإِنَّهُ يُقَالُ : مَنْ قَالَ كَذَا كَفَرَ ، وَمَنْ اعْتَقَدَ كَذَا فَهُوَ خَارِجٌ مِنَ
الْإِسْلَامِ ، وَلَيْسَ مَعْنَاهُ أَنَّا إِذَا وَجَدْنَا مُسْلِمًا وَقَعَ فِي ذَلِكَ اسْتِحْقَاقُ وَصْفِ
الْكُفْرِ بِهِ ، حَتَّى نَعْلَمَ يَقِينًا أَنَّ قَدْ بَلَغَتْهُ الْحُجَّةُ الشَّرْعِيَّةُ التَّامَّةُ الْوَاضِحَةُ ،
فَانْتَفَى جَهْلُهُ بِذَلِكَ ، وَلَمْ يَبْقَ فِي نَفْسِهِ نَوْعُ تَأْوِيلٍ ، وَهَذَا أَمْرٌ يَعْسُرُ فِي
الْغَالِبِ ، وَلِذَا لَمْ يَكُنْ مِنْ هَذِهِ السَّلَفِ تَكْفِيرُ الْمُعَيَّنِ حَتَّى يَوْجَدَ مُقْتَضَى
التَّكْفِيرِ ، وَتَنْتَفِي مَوَانِعُهُ ، أَلَسْتَ تَرَى تَكْفِيرَهُمْ لِلْجَعْدِ وَجَهْمِ الْبَرِّيْسِيِّ ؟
كَفَرُوهُمْ بِأَعْيَانِهِمْ لِانْتِفَاءِ الْجَهْلِ وَالتَّوِيلِ ، لِمَا تَضَمَّنَتْ أَقْوَالُهُمْ مِنْ صَرَاحَةٍ
الْكُفْرِ ، وَأَلَسْتَ تَرَى تَكْفِيرَ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ حَفْصًا الْفَرْدِ ؟ كَانَ بَعْدَ مَنَظَرَةٍ

وَيَان، فَقَامَتْ عَلَيْهِ الْحُجَّةُ، وَانْتَفَى أَنْ يَكُونَ لَهُ حُجَّةٌ، فَلَمْ يَقَعْ الشَّافِعِيُّ فِي حَرَجٍ مِنْ تَكْفِيرِهِ بَعِينَهُ.

وَلَمَّا لَمْ يَفْهَمْ بَعْضُ النَّاسِ هَذِهِ الْقَضِيَّةَ وَالْفَضْلَ فِيهَا، تَحَيَّرُوا فِي تَفْسِيرِ أَلْفَاظِ الْأُئِمَّةِ الْمُطْلَقَةِ فِي ذَلِكَ، فَحَمَلَهَا أَقْوَامٌ عَلَى الْكُفْرِ الْأَصْغَرِ، وَعَابَ بَعْضُهُمْ بَعْضَ الْأُئِمَّةِ فِي تِلْكَ الْإِطْلَاقَاتِ، كَمَا رَأَيْتُ ذَلِكَ لِبَعْضِهِمْ^(٧٤).

هَذَا مَعَ أَنَّهُ قَدْ ثَبَتَ عَنِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ أَنَّهُ قَالَ: «عُلَمَاءُ الْمُعْتَزِلَةِ زِنَادِقَةٌ»^(٧٥).

(٧٤) عُلِقَ مِنْ حَقِّ الْجُزْءِ الثَّانِي عَشَرَ مِنْ «سِيرِ أَعْلَامِ النَّبَلَاءِ» ص: ٤٥٦ عَلَى قَوْلِ الْبُخَارِيِّ الْمَذْكُورِ فِي النُّصُوصِ السَّابِقَةِ: «نَظَرْتُ فِي كَلَامِ الْيَهُودِ...» فَقَالَ: «وَهُوَ مِنَ الْغُلُوِّ وَالْإِفْرَاطِ الَّذِي لَا يُوَافِقُهُ عَلَيْهِ جَمْهُورُ الْعُلَمَاءِ سَلَفًا وَخَلْفًا، وَكَيْفَ يَحْكُمُ بِكُفْرِهِمْ، ثُمَّ يَرُوي عَنْهُمْ وَيُخْرِجُ أَحَادِيثَهُمْ فِي صَحِيحِهِ الَّذِي انْتَقَاهُ وَشَرَطَ فِيهِ الصَّحَّةَ» وَنَحْوُ هَذَا فِي تَعْلِيقِ الْمَشَارِإِ إِلَيْهِ عَلَى «شَرْحِ السُّنَنِ» لِلْبَغَوِيِّ ٢٢٨/١.

قُلْتُ: هَذَا جَهْلٌ عَلَى السَّلَفِ وَعَلَى الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ، فَإِنْ مُوَافَقِيهِ مِنْ أُئِمَّةِ السَّلَفِ كَثِيرٌ، بَلْ لَمْ يُنْقَلْ عَنْ أُئِمَّةِ السَّلَفِ إِلَّا تَكْفِيرُهُمْ، وَدَعَا أَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْ جَهْمِيَّةٍ وَرَوَّافُضٍ دَعَا فَاسِدَةً مُتَضَمِّنَةً تَلْبِيسًا وَتَمْوِيهًا، أَمَّا الْجَهْمِيَّةُ فَلَيْسَ فِي رِجَالِهِ مِنْ هُوَ كَذَلِكَ، وَقَدْ اتَّهَمَ بِذَلِكَ بَشْرُ بْنُ الشَّرِيِّ وَهُوَ كَذِبٌ عَلَيْهِ، بَرِيءٌ مِنْهُ، وَعَلِيُّ بْنُ الْجَعْدِ، وَهِيَ تَهْمَةٌ مُجَرَّدَةٌ، فَهَذَانِ ذُكِرَا بِرَأْيِ جَهْمٍ مِنْ رِجَالِهِ، فَهَلْ يَصِحُّ بِمِثْلِ هَذَا إِطْلَاقُ الْقَوْلِ بِأَنَّ الْبُخَارِيَّ رَوَى عَنْ جَهْمِيَّةٍ؟ وَلَوْ صَحَّ ذَلِكَ فَهُوَ عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ مِنْ عَدَمِ التَّعْيِينِ بِالتَّكْفِيرِ، فَتَنَبَّهُ، وَلَا تَغْرُنْكَ الْأَلْفَاظُ الْمَفْخَمَةُ، فَإِنِّي أَلَمَسُ مِنْ طَرِيقَةِ بَعْضِ النَّاسِ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا مِنَ الْمُتَسَبِّبِينَ إِلَى السُّنَنِ، تَهْوِينَ شَأْنَ الْبِدْعِ وَالْمُبْتَدِعَةِ، فإِلَى اللَّهِ الْمُسْتَكِي.

(٧٥) رَوَاهُ ابْنُ الْجَوْزِيِّ فِي «الْمَنَاقِبِ» ص: ١٥٨ بِسَنَدٍ جَيِّدٍ.

وهذا متضمنٌ أنَّ حالَ العارفِ العالمِ منهم غيرُ حالِ مَنْ يتَّبِعُهُمْ على
جَهْلٍ ، كالأُخلفاء - الذين لا يفقهون إلَّا حِفْظَ المَناصِب - وسائرِ العامَّةِ ،
الذين تلبَّسُ عليهم الحقائقُ بما تُثيره المبتدعةُ من الشُّبه .
والله المستعان ، ولا حولَ ولا قوةَ إلَّا بالله .



الفصل الثالث

كشف تلبيس الأشعرية في إثبات صفة الكلام لله تعالى

وفيه ستة مباحث

- = المبحث الأول: تعريف الكلام عند الأشعرية.
- = المبحث الثاني: إبطال كون كلام الله تعالى معنى مجرداً
- = المبحث الثالث: القرآن العربي عند الأشعرية.
- = المبحث الرابع: أسماء الله تعالى عند الأشعرية.
- = المبحث الخامس: وجه التوافق بين قولي المعتزلة والأشعرية في القرآن.
- = المبحث السادس: الأشعرية وأهل السنة في مسألة القرآن.

المبحث الأول

تعريف الكلام عند الأشعرية

الأشعرية - ومن وافقهم كالماتريدية - حين رأوا ما وَقَعَ من المعتزلة الجهمية مع أهل السنة من الفتنة، في الصفات عامة، وفي كلام الله تعالى خاصة، رأوا سلوك طريقة وسط - في زعمهم - بين معقول المعتزلة ومنقول أهل السنة، فأرادوا التوفيق بين المذهبين، لا على سبيل موافقة كل من الطائفتين: المعتزلة، وأهل السنة، وإنما على سبيل التوفيق بين صريح المعقول، وصحيح المنقول - كذا زعموا -.

ولكن القوم كانوا أعلم بالكلام والجدل الموروث عن الجهمية وغيرهم، أكثر من علمهم بالمنقول عن الله عز وجل والرَّسول ﷺ، وأكثر من علمهم بطريقة السلف، فمألوا إلى ما غلبَ عليهم من معقول الجهمية أكثر من ميلهم إلى طريقة السلف، مع أنهم ردّوا على الجهمية، ونقضوا عليهم كثيراً من أصولهم.

قال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى: «لكن الأصل العقلي الذي بنى عليه ابن كلاب^(١) قوله في كلام الله وصفاته هو أصل الجهمية والمعتزلة

(١) وهو رأسهم قبل الأشعري - كما بيّنته أول الباب -.

بعينه» (٢).

وقال الحافظ أبو نصر السَّجْزِيَّ فيهم: «وحاولوا الرَّدَّ على المعتزلة من طريق مُجَرَّدِ الْعَقْلِ، وهم لا يَخْبُرُونَ أَصُولَ السُّنَّةِ، ولا ما كان السَّلَفُ عليه، ولا يَحْتَجُّونَ بِالْأَخْبَارِ الْوَارِدَةِ فِي ذَلِكَ زَعْمًا مِنْهُمْ أَنَّهَا أَخْبَارُ أَحَادٍ لَا تُوجِبُ عِلْمًا» (٣).

وكان من أعظم ما مالوا فيه إلى طريقة الجَهْمِيَّةِ اعتقادهم في كلام الله تعالى، فإنَّهم أنكروا عليهم قولهم: (القرآن مخلوق) أشدَّ الإنكار، وصنَّفوا في ذلك المصنِّفات الكثيرة، ووقعت بينهم في ذلك مناظرات، وحَسِبُوا أَنَّهُمْ انتصروا عليهم، مع أَنَّهُمْ وافقوهم في أَصْلِ مَذْهَبِهِمْ، وفي كثير من أصولهم، وإنَّ رَفْضُوا التَّسْلِيمَ لِأَكْثَرِ ذَلِكَ.

فلَمَّا رَأَوْا ما أُلْزِمَتْ بِهِ الْجَهْمِيَّةُ الْمُعْتَزَلَةُ من معقولهم، التزموه، ولم يردَّوه باعتقاد السَّلَفِ النَّقِيِّ، وإنَّما لجؤوا إلى ابتداع أصولٍ فاسدةٍ لم يقلُّ بها السَّلَفُ، ولا الْمُعْتَزَلَةُ، ولا أَحَدٌ مِنَ الْأُمَّةِ، بل ولا الْأُمَّمُ قَبْلَهُمْ.

● الكلام عند الأشعرية:

فأَصْلُ تِلْكَ الْأَصُولِ أَنَّهُمْ عَرَفُوا الْكَلَامَ بِتَعْرِيفٍ لَا يُعْرَفُ فِي اللُّغَةِ وَلَا فِي الشَّرْعِ وَلَا فِي الْمَعْقُولِ، فَقَالُوا:

الْكَلَامُ: هو المعنى القائمُ بالنَّفْسِ - وَيُعْبَرُونَ عَنْهُ بِـ (الكلام النفسي) - وهو الكلام الحقيقيُّ، والألفاظُ مَوْضُوعَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ.

(٢) «حديث النزول» ص: ١٧٣.

(٣) «درء تعارض العقل والنقل» ٨٤/٢.

وعليه قالوا: الكلامُ ليس بحُرُوفٍ ولا أصواتٍ، والمتكلمُ: مَنْ قامَ به الكلامُ، لا مَنْ أوجَدَ الكلامَ.

وهذا عندهم عامٌّ في كلِّ كلامٍ.

وقد نَصَرُوهُ ببعضِ الشُّبُه حَسِبُوهَا أدلَّةً، فقالوا: دَلٌّ على صِحَّةِ ما قُلْنَا اللُّغَةُ وَالشَّرْعُ.

أَمَّا اللُّغَةُ، فَإِنَّ الْعَرَبِيَّ يَقُولُ: (كَانَ فِي نَفْسِي كَلَامٌ) وَ(كَانَ فِي نَفْسِي قَوْلٌ) وَ(كَانَ فِي نَفْسِي حَدِيثٌ).

وَقَالَ عُمَرُ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «زَوْرْتُ فِي نَفْسِي كَلَامًا فَأَتَى أَبُو بَكْرٍ فزَادَ عَلَيْهِ»^(٤).

فَسَمَى عُمَرُ مَا فِي نَفْسِهِ كَلَامًا.

وَقَالَ الْأَخْطَلُ:

لَا تَعْجِبَنَّكَ مِنْ أَثِيرِ خُطْبَةٍ حَتَّى يَكُونَ مَعَ الْكَلَامِ أَصِيلًا
إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفُؤَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللِّسَانُ عَلَى الْفُؤَادِ دَلِيلًا

(٤) وَرَدَ هَذَا فِي حَدِيثِ السَّقِيفَةِ.

أَخْرَجَهُ أَحْمَدُ رَقْمَ (٣٩١) وَالبخاري ١٢/١٤٤ - ١٤٥ مِنْ حَدِيثِ الزَّهْرِيِّ عَنْ عُبَيْدِ اللَّهِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بْنِ عَتَبَةَ عَنْ ابْنِ عَبَّاسٍ بِالقِصَّةِ مَطْوَلَةً، وَفِيهَا قَالَ عُمَرُ: وَكُنْتُ قَدْ زَوْرْتُ مَقَالَةً أَعْجَبَنِي أُرِيدُ أَنْ أَقْدِمَهَا بَيْنَ يَدَيَّ أَبِي بَكْرٍ. . .

وَأَخْرَجَهُ الْبُخَارِيُّ ٧/١٩ - ٢٠ مِنْ حَدِيثِ هِشَامِ بْنِ عُرْوَةَ عَنْ أَبِيهِ عَنْ عَائِشَةَ فِي الْقِصَّةِ نَفْسَهَا، وَفِيهِ: فَذَهَبَ عُمَرُ يَتَكَلَّمُ، فَأَسْكَنَهُ أَبُو بَكْرٍ، وَكَانَ عُمَرُ يَقُولُ: وَاللَّهِ مَا أَرَدْتُ بِذَلِكَ إِلَّا أَنِّي قَدْ هَيَّأْتُ كَلَامًا قَدْ أَعْجَبَنِي خَشِيتُ أَنْ لَا يَبْلُغَهُ أَبُو بَكْرٍ. . .

وَأَمَّا الشَّرْعُ، فقال تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ قَالُوا نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ اللَّهِ وَاللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ لَكَاذِبُونَ﴾ [المنافقون: ١].

فَاللَّهُ تعالى لَمْ يُكَذِّبِ الْمُنَافِقِينَ فِي أَلْفَاظِهِمْ، وَإِنَّمَا كَذَّبَهُمْ فِيمَا تُكِنُّهُ صُمَائِرُهُمْ وَسَرَائِرُهُمْ، فَدَلَّ عَلَى أَنَّهُ حَقِيقَةُ الْكَلَامِ وَالْقَوْلِ.
ومثله قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ﴾ [المجادلة: ٨].

فَالْقَوْلُ بِالنَّفْسِ قَائِمٌ وَإِنْ لَمْ يَنْطِقْ بِهِ اللِّسَانُ، وَالْقَوْلُ هُوَ الْكَلَامُ.
وقوله تعالى: ﴿إِلَّا مَنْ أَكْرَهَ وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ [النحل: ١٠٦].

فَأَسْقَطَ حُكْمَ الْكُفْرِ عَنِ الْمُكْرَهَةِ عَلَى كَلِمَةِ الْكُفْرِ، وَجَعَلَ الْحُكْمَ لَصِدْقِ الْكَلَامِ الْقَائِمِ بِالْقَلْبِ.
فهذه الآيات وما فِي مَعْنَاهَا دَالَّةٌ عَلَى أَنَّ حَقِيقَةَ الْكَلَامِ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالنَّفْسِ، لَا الْحُرُوفُ وَالْأَصْوَاتُ الَّتِي هِيَ أُمَارَاتٌ وَذَلَالَاتٌ عَلَى الْكَلَامِ الْحَقِيقِيِّ (٥).
وَمِنَ السُّنَّةِ:

قَوْلُهُ ﷺ: «يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلِسَانِهِ، وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ» (٦).

(٥) انظر: «الإنصاف» لأبي بكر الباقلاني ص: ١٠٩.

(٦) حديث صحيح، وهذا بعضه، وتتمته: «... لا تغتابوا المسلمين، ولا تتبعوا عوراتهم، فإنه من يتبع عوراتهم يتبع الله عورته، ومن يتبع الله عورته يفضحه =

= [وإن كان] في بيته .

وهو مروى عن جماعة من الصحابة عن النبي ﷺ ، وهم :

١ - أبو بَرَزَةَ الأسلمي .

أخرج حديثه : أحمد ٤/ ٤٢٠ - ٤٢١ ، ٤٢٤ وأبو داود رقم (٤٨٨٠) وابن أبي الدنيا في «الصمت» رقم (١٦٨ ، ١٦٩) والخرائطي في «مساوىء الأخلاق» ج ٢ ق ٢/ب من حديث الأعمش عن سعيد بن عبد الله بن جريج عن أبي بَرَزَةَ .
وأبهم شيخ الأعمش في موضع عند كل من أحمد وابن أبي الدنيا .
قلت : وإسناده حسن .

٢ - البراء بن عازب .

أخرج حديثه : أبو يعلى رقم (١٦٧٥) وابن أبي الدنيا في «الصمت» رقم (١٦٧) وأبو نعيم في «دلائل النبوة» رقم (٣٥٦) والبيهقي في «الدلائل» أيضاً ٦/ ٢٥٦ من طريق مصعب بن سلام عن حمزة بن حبيب الزيات عن أبي إسحاق السبيعي عن البراء .

قلت : وإسناده صالح في الشواهد .

٣ - عبد الله بن عمر .

أخرج حديثه : الترمذي رقم (٢٠٣٢) وابن حبان رقم (١٤٩٤ - موارد) وأبو بكر الإسماعيلي - كما في «تفسير ابن كثير» ٦/ ٣٨٢ - من طريق الفضل بن موسى حدثنا الحسين بن واقد عن أوفى بن دَلْهَم عن نافع عن ابن عمر .
قال الترمذي : «حديث حسن غريب» .

قلت : إسناده جيد .

٤ - بُرَيْدَةُ بن الحُصَيْب .

أخرج حديثه : الطبراني في «الكبير» ٥/ ٢ من طريق أبي ثُمَيْلَةَ يحيى بن واضح عن رُمَيْح بن هلال الطائي ثنا عبد الله بن بُرَيْدَةَ عن أبيه .

قلت : إسناده ضعيف لجهالة رُمَيْح بن هلال ، لكنه صالح في الشواهد . =

فأخبر أن الكلام الحقيقي هو الذي في القلب دون نطق اللسان، وأن الحكم للكلام الذي في القلب على الحقيقة، وأن قول اللسان مجاز قد يوافق القلب وقد يخالفه.

وقوله ﷺ: «النَّدَمُ تَوْبَةٌ»^(٧).

والنَّدَمُ معنى في القلب.

وقوله ﷺ: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني، إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي»^(٨).
فأثبت الذكر للنفس.

٥ - عبد الله بن عباس.

أخرج حديثه: الطبراني في «الكبير» ١٨٦/١١ والعقيلي في «الضعفاء» ٨٢/١ وابن عدي في «الكامل» ٢٠٧٤/٦ من طريق قدامة بن محمد ثنا إسماعيل ابن شيبه الطائفي عن ابن جريج عن عطاء عن ابن عباس.

أورده العقيلي في مناكير إسماعيل، وأورده ابن عدي في مناكير قدامة، والذي أراه أن روايته بهذا الإسناد من مناكير إسماعيل، فإنه أتى عن ابن جريج بأحاديث منكرة جداً لا يحتمل تفرده بها عنه، أما قدامة فإنه صدوق لا بأس به.

ولكن الحديث صحيح بطريقه السابقة صحة لا ريب فيها.

(٧) حديث صحيح.

ورد عن النبي ﷺ من عدة وجوه.

رواه عنه ابن مسعود، وأنس بن مالك، ووائل بن حُجر، وأبو سعد الأنصاري، وأبو هريرة، وعائشة.

وتفصيل الكلام عليه يطول، وله موضع آخر.

(٨) حديث صحيح، متفق عليه.

فالذِّكْرُ والقَوْلُ والكلامُ واحدٌ .

فَعَلِمَ أَنَّ حَقِيقَةَ الكلامِ : المعنى القائم في النفس^(٩) .

وكذا احتجُّوا بقوله تعالى : ﴿ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا ﴾ [آل عمران : ٤١] .

فأطلق اسمَ الكلامِ على غيرِ الألفاظِ .

قلتُ : فهذه جملةُ ما احتجُّوا به لِنُصْرَةِ بَدْعَتِهِمْ ، وأنا ذاكِرٌ بتوفيقِ الله تعالى نقضه عليهم .

● النقض على الأشعرية :

قبلَ الشُّروعِ في ذلك أذكُّركَ بما ذكرناه في الباب الأول من كونِ أهلِ السُّنَّةِ والجماعة يُقَرِّونَ بأنَّ حَدِيثَ النَّفْسِ قد يَسْمَى كلاماً وقولاً ، ولكن بقرينةٍ تبيِّنُ ذلك ، وأمَّا مُطْلَقُ الكلامِ والقَوْلُ فَإِنَّهُ يَعُمُّ الألفاظَ والمعانيَ مجتمعةً ، فالكلامُ - مثلاً - عِنْدَ النُّحَوِيِّينَ مُخْتَصَصٌ بالألفاظِ دونَ المعاني ، بقرينةٍ مباحثِ هذا العِلْمِ ، فَإِنَّهُ إِنَّمَا يَتَحَدَّثُ فِي الألفاظِ لا في المعاني ، كذلك قد يُرادُ به المعنى مجرّداً بالقرائنِ ، كما سَتَراه في الأجوبة الآتية .

أولاً : ذكر الجواب عما استدلُّوا به من اللغة :

أما قولُ العربيِّ : (كانَ في نَفْسِي كلامٌ) ونحو ذلك ، فَإِنَّا لا نُخَالِفُ في صَحَّتِهِ ، لكن ليسَ على مرادِكم - معشرَ الأشعرية - وإِنَّمَا على مُرادِنَا من كَوْنِ لفظِ (الكلام) إذا جاء مقيّداً ، كانَ التقييدُ قرينةً دالَّةً على إخراجِهِ من

(٩) انظر : « الإنصاف » للباقلاني ص : ١٠٩ - ١١٠ .

إطلاقه، ونحن نقرُّ أنه قد تُراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن، فلما قيده العربي ههنا بالنفس أخرجَه من مُطلق الكلام، فكيف يصحُّ لكم - معشر الأشعرية - أن تحتجوا بما هو مجاز على قواعدكم لتقرير ما هو الحقيقة؟ وذلك أنكم تقولون: ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو المجاز.

وأما قولُ عمر يوم السقيفة، فجوابنا عنه من وجهين:

الأول: أن (التزوين) كما يقول الأصمعي: «إصلاح الكلام وتهيئته»^(١٠) فمعناه إذاً: أنه قدَّر في نفسه كلاماً وهيأه لم يتكلَّم به بعد، فليس كلاماً حتى يتكلَّم به.

ومثاله: مَنْ يُقدِّر في نفسه أن يعمل عملاً كأنَّ يُصلي مثلاً، ثم لا يفعل، فهل يقال: إنه صلى في نفسه؟ مع أنَّ القلب له عمل، كما أنَّ للجوارح عملاً.

والثاني: لو صحَّ ما قالوه لكأنَّ موافقاً لمذهبنا لا لمذهبهم، فإنَّهم يعدُّون مطلق الكلام كلام النفس، أمَّا نحنُ فعندنا مطلق الكلام اللفظ والمعنى جميعاً، وقد يُراد أحدهما بقرينة، وهي موجودة في قول عمر المذكور، ألا وهي التقييد بالنفس، فكيف صحَّحتُم تعريف الكلام المُطلق بالكلام المقيد؟

وأما شعرُ الأخطل، فالجواب عنه من وجوه:

الأول: أنكر بعض العلماء كونه من شعره، وذلك أنهم فتشوا دواوينه فلم يجدوه فيه.

(١٠) «غريب الحديث» لأبي عبيد ٢٤٢/٣.

قال أبو محمد الخشاب نحوي العراق: «فتشت شعر الأخطل المدون كثيراً فما وجدت هذا البيت» (١١).

والثاني: أنه لم يثبت نقله عن قائله بإسناد، لا صحيح ولا ضعيف.

والثالث: لم يتلقه أهل العربية بالقبول.

والرابع: أورده بعضهم بلفظ:

إِنَّ الْبَيَانَ لَفِي الْفُؤَادِ

وهذا يُفسد المعنى الذي أرادوا - كما لا يخفى -.

والخامس: الأخطل شاعر مولد، لا يحتاج بشعره في اللغة، وهذا معلوم عند أهل التحقيق.

والسادس: أنه نصراني مثلك كافر، وقد ضلت النصارى في معنى كلام الله تعالى ومسماه، فجعلوا المسيح نفس كلمة الله.

والسابع: أكثر من يحتاج من أهل البدع بهذا الشعر يخفي البيت الأول، لأنه عند التحقيق حجة عليهم، وذلك أن الشاعر حين ذكر الكلام في البيت الأول ذكره مطلقاً، ليشمل اللفظ والمعنى، إذ الذي يسمع من الخطيب ألفاظه، فأبان الشاعر عن حقيقة الكلام المؤثر الذي يقع من النفوس موقعاً بأنه ما اشتمل على المعاني التي موضعها القلب، لا مجرد الألفاظ التي تسمع من المتكلم، ولم يرد تعريف الكلام ووضع حد له بكونه المعاني المجردة.

(١١) «العلو» للذهبي ص: ١٩٤.

والثامن: مُسَمَّى (الكلام) و (القول) ونحوهما ليسَ مِمَّا يُحْتَاجُ فِي تَفْسِيرِهِ إِلَى قَوْلِ شَاعِرٍ، بَلْ وَلَا أَلْفِ شَاعِرٍ، فَإِنَّهُ مِمَّا قَدْ عُلِمَ ضَرُورَةُ، إِذْ هُوَ مِمَّا تَكَلَّمُ بِهِ الْأَوَّلُونَ وَالْآخَرُونَ مِنْ أَهْلِ اللِّسَانِ، وَعَرَفُوا مَعْنَاهُ فِي لُغَتِهِمْ. وَاللُّغَةُ إِنَّمَا تُسْتَفَادُ مِنْ اسْتِعْمَالِ أَهْلِهَا لَهَا فِي كَلَامِهِمْ، لَا تُسْتَفَادُ مِمَّا يُذَكَّرُ مِنَ الْحُدُودِ وَالتَّعْرِيفَاتِ، بَأَن يُقَالَ: (الرَّأْسُ كَذَا... الْكَلَامُ كَذَا...) (١٢).

فَالْحَاصِلُ: أَنَّ الْاِحْتِجَاجَ بِهَذَا الشَّعْرِ ظَاهِرُ الْقَسَادِ، وَفَسَادُهُ أَتَيْنُ وَأَظْهَرُ مِنْ تَكَلُّفِ التَّفْصِيلِ لَهُ، وَالْقَوْمُ اسْتَبَدَلُوا الَّذِي هُوَ أَدْنَى بِالَّذِي هُوَ خَيْرٌ، فَتَرَكُوا نَصُوصَ الْوَحْيِ الصَّرِيحَةَ لِقَوْلِ نَصْرَانِيٍّ كَافِرٍ، لَمْ يُحَقِّقُوهُ صِحَّةً، لَا رِوَايَةً وَلَا دِرَايَةً.

قَالَ الْإِمَامُ أَبُو الْمَعَالِي أَسْعَدُ بْنُ الْمُنَجَّاجِ شَيْخُ الْحَنَابِلَةِ:

كَنتُ يَوْمًا عِنْدَ الشَّيْخِ أَبِي الْبَيَّانِ (نَبَأَ بِنَ مُحَمَّدَ بْنَ مَحْفُوظِ الْقُرَشِيِّ الشَّافِعِيِّ) رَحِمَهُ اللَّهُ تَعَالَى، فَجَاءَهُ ابْنُ تَمِيمٍ الَّذِي يُدْعَى الشَّيْخَ الْأَمِينُ، فَقَالَ لَهُ الشَّيْخُ بَعْدَ كَلَامٍ جَرَى بَيْنَهُمَا: «وَيْحَكَ، الْحَنَابِلَةُ إِذَا قِيلَ لَهُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ؟ قَالُوا: قَالَ اللَّهُ كَذَا، وَقَالَ رَسُولُهُ كَذَا - وَسَرَدَ الشَّيْخُ الْآيَاتِ وَالْأَخْبَارَ - وَأَنْتُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمْ: مَا الدَّلِيلُ عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ مَعْنَى قَائِمٍ فِي النَّفْسِ؟ قُلْتُمْ: قَالَ الْأَخْطَلُ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ...

أَيْشَ هَذَا الْأَخْطَلُ؟ نَصْرَانِيٌّ خَبِيثٌ، بَنِيَتْهُمُ مَذْهَبُكُمْ عَلَى بَيْتِ شَعْرٍ

(١٢) انظر: كتاب «الإيمان» لشيخ الإسلام ص: ١٣٢ - ١٣٤.

من قوله، وتركتكم الكتاب والسنة؟» (١٣).

وقال شيخ الإسلام: «كَانَ مِمَّا يُشْنَعُ بِهِ عَلَى هَؤُلَاءِ أَنَّهُمْ احْتَجَّوْا فِي أَصْلِ دِينِهِمْ وَمَعْرِفَةِ حَقِيقَةِ الْكَلَامِ - كَلَامِ اللَّهِ، وَكَلَامِ جَمِيعِ الْخَلْقِ - بِقَوْلِ شَاعِرٍ نَصْرَانِيٍّ يُقَالُ لَهُ: الْأَخْطَلُ:

إِنَّ الْكَلَامَ لَفِي الْفَوَادِ وَإِنَّمَا جُعِلَ اللَّسَانُ عَلَى الْفَوَادِ دَلِيلًا
وَقَدْ قَالَ طَائِفَةٌ: إِنَّ هَذَا لَيْسَ مِنْ شِعْرِهِ، وَبِتَقْدِيرِ أَنْ يَكُونَ مِنْ شِعْرِهِ
فَالْحَقَائِقُ الْعَقْلِيَّةُ، أَوْ مَسْمَى لَفْظِ (الْكَلَامِ) الَّذِي يَتَكَلَّمُ بِهِ جَمِيعُ بَنِي آدَمَ،
لَا يُرْجَعُ فِيهِ إِلَى قَوْلِ أَلْفِ شَاعِرٍ فَاضِلٍ، دَعَا أَنْ يَكُونَ شَاعِرًا نَصْرَانِيًّا اسْمُهُ:
الْأَخْطَلُ، وَالنَّصَارَى قَدْ عُرِفَ أَنَّهُمْ يَتَكَلَّمُونَ فِي كَلِمَةِ اللَّهِ بِمَا هُوَ بَاطِلٌ،
وَالْخَطْلُ فِي اللَّغَةِ: هُوَ الْخَطَأُ فِي الْكَلَامِ.

وَقَدْ أُنْشِدَ فِيهِمُ الْمُنْشِدُ:

قُبْحًا لِمَنْ نَبَذَ الْقُرْآنَ وَرَاءَهُ فَإِذَا اسْتَدَلَّ يَقُولُ: قَالَ الْأَخْطَلُ (١٤)

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «ولو احتجَّ مُحْتَجٌّ فِي مَسْأَلَةٍ بِحَدِيثٍ
أَخْرَجَاهُ فِي الصُّحُوحِ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ لَقَالُوا: هَذَا خَبَرٌ وَاحِدٌ، وَيَكُونُ مِمَّا
اتَّفَقَ الْعُلَمَاءُ عَلَى تَصْدِيقِهِ وَتَلْقِيهِ بِالْقَبُولِ، وَهَذَا الْبَيْتُ لَمْ يَثْبُتْ نَقْلُهُ عَنْ
قَائِلِهِ بِإِسْنَادٍ صَحِيحٍ لَا وَاحِدٍ وَلَا أَكْثَرَ مِنْ وَاحِدٍ، وَلَا تَلْقَاهُ أَهْلُ الْعَرَبِيَّةِ
بِالْقَبُولِ، فَكَيْفَ يَثْبُتُ بِهِ أَدْنَى شَيْءٍ مِنْ اللُّغَةِ فَضْلاً عَنْ مَسْمَى

(١٣) رواه الذهبي في «العلو» ص: ١٩٣ - ١٩٤ بسند صحيح، وفي المتن

تحريف في المطبوعة، انظر «مختصره» ص: ٢٨٤ - ٢٨٥.

(١٤) «مجموع الفتاوى» ٦/ ٢٩٦ - ٢٩٧.

الكلام» (١٥).

ثانياً: ذكر الجواب عما استدلوا به من الكتاب والسنة:

إن ما احتجوا به من ذلك قد حُرِّموا التوفيق في فهمه، فقالوا على الله غير الحق.

فقوله تعالى: ﴿إِذَا جَاءَكَ الْمُنَافِقُونَ...﴾ الآية.

نقول للأشعرية: أقررتُم بأنه تعالى لم يُكذِّب المنافقين في ألفاظهم، وقد سَمَّاهُ تعالى قولاً، فقال: ﴿قَالُوا نَشْهَدُ﴾.

ولمَّا كانت الألفاظ المجردة غير كافية لإثبات إيمانهم وصدقهم فيه، وإنما يجب أن يقارنَها إيمان القلب، واستقرار معنى ما قالوه فيه، لأجل ذلك كَذَّبَهُمْ في دَعْوَاهُمْ، فالذي كَذَّبَهُم الله تعالى فيه إنما هو الدَّعْوَى المجردة، وعَدَمُ صِحَّةِ ذَلِكَ مِنْهُمْ، ولم يُكذِّبَهُمْ في صِحَّةِ كَوْنِ مَا نَطَقُوا بِهِ قولاً وكلاماً، بل أقرَّ ذلك وثبته، وليس الخلاف بيننا في صدق القول أو كذبه، وإنما في ماهيته وحقيقته.

ونظيرُ هذه الآية قولُ النَّبِيِّ ﷺ: «يا معشرَ مَنْ آمَنَ بلسانِهِ...»

الحديث.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ...﴾ الآية.

فهو كسابقه في فساد الاحتجاج به، وذلك من وجهين:

الأول: يُحْتَمَلُ أَنَّهُمْ قالوه بالسنتهم سراً، يُحَدِّثُ بَعْضُهُمْ بَعْضاً

بذلك، وهو قول بعض أهل التفسير.

والثاني: أن لفظ (القول) ورد في الآية مرتين، مرةً مقيداً بالنفس، والثانية مطلقاً، ولا ريب أن المطلق هو تناجيهم بالإثم والعدوان، ومعصية الرسول ﷺ، وتحيتهم له بغير ما حيّاه به الله، وكل ذلك أقوال، هي ألفاظ ومعاني، فأطلقه للعلم به، وقيد القول الأول بالنفس ليكون خاصاً بالمعنى دون اللفظ، هذا على تسليم كونه حديث نفس.

فلو كان مطلق القول إنما يراد به حديث النفس لم تكن هناك حاجة إلى تقييده بها، ولكان التناجي والتحية معاني مجردة، تحدث القلوب بعضها بعضاً بها من غير نطق ولا لفظ، وهذا لا يتصوره عاقل.

ومثل هذه الآية احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعاً وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ﴾ [الأعراف: ٢٠٥] فهذا هو الذكر باللسان سرّاً، فلم يخرج عن كونه ألفاظاً ومعاني مجتمعة، ألا ترى قوله: ﴿وَدُونَ الْجَهْرِ﴾؟ والذي يلي مرتبة الجهر الذي هو الذكر برفع الصوت، مرتبة الأسرار التي هي الذكر بخفض الصوت، وكل ذلك قائم باللسان والقلب.

وأقول للأشعرية: بماذا تفسرون إذا قول أبي هريرة لمن سألته عن قراءة أم الكتاب وراء الإمام: «اقرأ بها في نفسك» (١٦)؟ هل هو عندكم المعنى القائم في القلب أيضاً؟

(١٦) حديث صحيح، وهذا جزء منه موقوف، وقد رواه مسلم وغيره.

وهو مخرج في كتابي «الإعلام بأحكام القراءة وراء الإمام».

إن قلتم: نعم، أبطلتم مذاهبكم، فإنكم تسلمون أن الخلاف في هذه المسألة إنما هو في نطق اللسان، لا في استحضار المقروء في القلب. وإن قلتم: لا، أفسدتم أصلكم أن الكلام الحقيقي ما قام في النفس من المعاني.

ونظير الآية المذكورة احتجاجهم بحديث: «يقول الله عز وجل: أنا عند ظن عبدي بي، وأنا معه حين يذكرني...» الحديث.

فإن الذكر في النفس هنا هو ذكر اللسان سراً، ألا تراه قال في تمة الحديث: «وإن ذكرني في ملاً ذكرته في ملاً خير منهم؟» فهما منزلتان. ونظيره أيضاً احتجاجهم بقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك: ١٣].

بل إن احتجاجهم بهذه الآية أظهر في الحجة عليهم، وذلك أنه تعالى أثبت لهم قولاً يسر به، وقولاً يجهر به، والمجهور إنما يكون برفع الصوت، وضده الذي يسر به، ويجمعهما نطق اللسان، يوضحه قوله تعالى: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾ [طه: ٧] فهذه ثلاث مراتب: الأولى: الجهر، والثانية: السر، والثالثة: ما هو أخفى من السر، وليس هو إلا حديث النفس، ولذلك قال في الآية: ﴿إنه عليم بذات الصدور﴾ تنبيهاً لهم على أنه إذا كان يعلم ما في الصدور، وهو المعبر عنه في الآية الأخرى بـ ﴿وأخفى﴾ فعلمه بالجهر بالقول والسر به أولى، ذكر نحو هذا شيخ الإسلام.

وأما احتجاجهم بقوله ﷺ: «النَّدَمُ تَوْنَةٌ» وما في معناه، ونحوه

احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿يَعْلَمُ مَا فِي أَنْفُسِكُمْ﴾ [البقرة: ٢٣٥] وما في معناه، فليس وارداً في محل النزاع، لأن الخلاف بيننا وبين الأشعرية إنما هو في مسمى القول والكلام، لا بقيام المعاني في القلب.

وأما احتجاجهم بآية الإكراه فشيء بهذا، فإنه لم يُسمَّ ما في القلب كلاماً، وإنما قال: ﴿وَقَلْبُهُ مُطْمَئِنٌّ بِالْإِيمَانِ﴾ لأنه موضعه ومحلّه في الأصل.

وتسمية ما في القلب من الإيمان كلاماً راجع إلى أصلهم في الإيمان بأنه التصديق القلبي، إذ هم فيه مرجئة جهمية، وهو عند أهل السنة من السلف والأئمة: تصديق القلب، وقول اللسان، وعمل الجوارح، حقيقة في هذا جميعاً، فرفع الله الحرج عن المكروه رفعاً مؤقتاً للضرورة، تيسيراً عليه وتخفيفاً، لا على أن الإيمان على الحقيقة هو تصديق القلب فقط، فإنه لو كان كذلك لما كان فرق بين حال الإكراه وعدمه، ففيم الرخصة إذا؟

وعلى تسليم كون إيمان المكروه كلاماً فإنه مقيّد بذكر القلب.

وأما احتجاجهم بقوله تعالى : ﴿آيَتِكَ إِلَّا تَكَلَّمَ النَّاسُ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ فلنا عنه جوابان:

الأول: أنه تعالى قال في سورة مريم [١٠]: ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ والقصة واحدة، فاستثنى في الموضع الأول ولم يستثن في الثاني، فدل على أنه استثناء منقطع لا متصل، فيكون المعنى: آيتك ألا تكلم الناس، لكن ترمز لهم رمزاً، وهو قوله: ﴿فَأَوْحَى إِلَيْهِمْ﴾ [مريم: ١١] هو الإيحاء بالرمز.

والثاني: إن لم يصح كونه استثناءً منقطعاً، كان كلاماً مقيداً بالرمز، فلا إشكال.

ذكر نحو هذا شيخ الإسلام.

فهذا جملة ما مؤهت به الأشعرية والماتريدية على الأمة ليلبسوا عليها دينها، ولا يخفأك ما يتسم به من التناقض والاضطراب.

يا هؤلاء نحن لا نختلف معكم في كلام مقيد، فإن القرائن تخرج اللفظ عن معناه إلى وجوه من المعاني، وإنما نختلف معكم في مطلق (الكلام) و(القول) وها أنتم قد عجزتم عن الإتيان ولو بحجة واحدة تثبتون بها صحة قولكم، وتعلقتم بما هو أوهى من بيت العنكبوت، لتنصروا ما حسبتم كونه حقاً، وليتكم تصوؤتم قولكم وأمكنكم صياغته بتعريف تفهموه أنتم قبل أن تفهموه خصومكم.

أي ضلال هذا الذي أدخله ابن كلاب وأتباعه على الأمة ليفسدوا به الضرورات؟ فلقد كان الناس في سلامة من ذلك، ومع ذلك فقد قابلوا باطل الجهمية حين ظهر بأحسن الرد وأبينه، ولم يحتاجوا إلى هذه الضلالات الكلابية والأشعرية.

قال شيخ الإسلام: «ولم يكن في مسمى الكلام نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان، وتابعيهم، لا من أهل السنة، ولا من أهل البدعة، بل أول من عرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط هو عبدالله بن سعيد بن كلاب، وهو متأخر في زمن محنة أحمد بن حنبل، وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة وعلماء البدعة، فيمتنع أن يكون الكلام الذي

هو أظهر صفات بني آدم، كما قال تعالى: ﴿فَوَرَبَّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلَ مَا أَنْكُمْ تَنْطِقُونَ﴾ [الذاريات: ٢٣] ولفظه لا تُحصى وجوهه كثرة، لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم، حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ولا غيرهم» (١٧).

وقال الحافظ أبو نصر السجزي: «ركبوا مكابرة العيان، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة: المسلم والكافر» (١٨) بل «ألجأهم الضيق مما دخل عليهم في مقالتهم إلى أن قالوا: الأخرس متكلم، وكذلك الساكت والنائم، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به، ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت والآفات المانعة من النطق ليست بأضداد الكلام» (١٩).

قال: «وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير رد عليه، ومن علم منه خرق إجماع الكافة، ومخالفة كل عقلي وسمعي قبله لم يناظر، بل يجانب ويقمع» (٢٠).

قلت: ولقد كانت هذه البدعة جديرة بالإعراض عنها لولا ما عم بها من فساد الاعتقاد، ولبس الحق بالباطل، فلا حول ولا قوة إلا بالله.

(١٧) كتاب «الإيمان» ص: ١٢٨.

(١٨) نقله عنه شيخ الإسلام في «درء التعارض» ٨٥/٢.

(١٩) نقله عنه شيخ الإسلام أيضاً في «درء التعارض» ٨٦/٢.

(٢٠) المصدر السابق ٨٦/٢.

● كلام الله تعالى عند الأشعرية:

على الأصل الذي ذكرناه عنهم في تعريف الكلام بنوا اعتقادهم في كلام الله تعالى .

فقالوا: كلام الله القديم هو الكلام النفسي، وهو معنى واحد، قائم بذاته، غير مخلوق، صفة من صفاته، غير بائن عنه، لم يزل موصوفاً به، ليس بحرف ولا صوت، وليس هو بلغة، ولا يتجزأ، ولا ينقسم، ولا يتفاضل، ولا يتعدّد، ولا يدخله النسخ، ولا يتعلق بمشيئة الله واختياره، وهو الأمر والنهي والخبر، يفهمه الله من شاء من عباده بعبارات مخلوقة تدل عليه، فعبرة القرآن بالعربية، والتوراة بالعبرية، والإنجيل بالسريانية، وهي عبارات عن الكلام النفسي الحقيقي ودلالات عليه، وهي جميعاً معنى واحد، فمعنى القرآن هو معنى التوراة والإنجيل وغير ذلك من كلام الله، وتكليم الله لمن كلمه من عباده إنما هو خلق إدراك ذلك المعنى لهم .

فالقرآن، والتوراة، والإنجيل، بألفاظها وحروفها مخلوقة، وهي دلالات على الكلام النفسي، خلقها الله في شيء .

قالوا في القرآن العربي: خلقه الله في اللوح المحفوظ - وهذا أشهر عند متأخريهم، وهو الذي يقوله صاحب «تحفة المريد» وغيره - .

ومنهم من قال: خلقه في الهواء، فأخذه جبريل عليه السلام .

ومنهم من قال: بل إن الله أفهم جبريل المعنى، فعبر عنه جبريل بقوله، فالقرآن قول جبريل عليه السلام - وهذا صرح به أكبر مُحققهم على الإطلاق بعد الأشعري: أبو بكر الباقلاني - .

ومنهم مَنْ قال : بل هو عبارةٌ مُحَمَّدٌ ﷺ - وهو قولٌ مرجوحٌ عند متأخريهم ، لكنه مذكورٌ مشهورٌ عندهم . -
فهذا جملةُ اعتقادهم في كلام الله تعالى ، وأنا ذاكرُ تفصيله عنهم ونقضه عليهم في المباحث الآتية بتوفيق الله وتيسيره .



المبحث الثاني

إبطال كون كلام الله تعالى معنى مجرداً

اتَّفَقُوا عَلَى كَوْنِ الْكَلَامِ الثَّابِتِ صِفَةً لِلَّهِ تَعَالَى هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ، وَهُوَ مَعْنَى وَاحِدٌ، وَبَعْضُهُمْ قَالَ: هُوَ عِدَّةُ مَعَانٍ، وَهُوَ الْأَمْرُ، وَهُوَ النَّهْيُ، وَهُوَ الْخَبَرُ، إِنَّ عُبْرَ عَنْهُ بِالْعَرَبِيَّةِ كَانَ قَرَأْنَا، أَوْ بِالْعِبْرَانِيَّةِ كَانَ تَوْرَةً، أَوْ بِالسَّرْيَانِيَّةِ كَانَ إِنْجِيلًا.

قال أبو بكر الباقلاني: «الكلام القديم القائم بالنفس شيء واحد لا يَخْتَلَفُ وَلَا يَتَغَيَّرُ» (٢١).

وقال الباجوري: «وكلامه تعالى صفة واحدة لا تعدد فيها، لكن لها أقسام اعتبارية» ثم ذكر أنها الأمر والنهي والخبر والوعد والوعيد (٢٢).

وهذه عندهم أقسام للكلام بالنظر إلى ما يُعْبَرُ عَنْ الْكَلَامِ، أَمَا فِي الْحَقِيقَةِ فَإِنَّهُمْ يَعِدُّونَهَا صِفَاتٍ لِلْكَلَامِ، لَا أَنْوَاعاً وَأَقْسَاماً، لِأَنَّهُ وَاحِدٌ لَا يَتَجَزَأُ وَلَا يَنْقَسِمُ.

(٢١) «الإنصاف» ص: ١٠٧.

(٢٢) شرح «الجوهرة» المسماة بـ «تحفة المريد» ص: ٧٢.

وقال البيهقي - وهو منهم -: «وكلام الله تعالى واحد، لا يختلف باختلاف العبارات، فبأي لسان قرىء كان قد قرىء كلام الله تعالى، إلا أنه إنما يسمّى توراة إذا قرىء بالعبرانية، وإنما يسمّى إنجيلاً إذا قرىء بالسريانية، وإنما يسمّى قرآناً إذا قرىء بالعربية، على اللغات السبع التي أذن صاحب الشرع في قراءته عليهنّ، لنزوله على لسان جبريل عليه الصلوة والسلام على تلك اللغات دون غيرهن، ولما في نظمه من الإعجاز» (٢٣).

ومما يؤكّد أنّ عين التوراة والإنجيل - عندهم - هما عين القرآن لو كانا بالعربية، قوله: «وإنما يجوز في هذه الشريعة قراءة ما سُمّي قرآناً دون ما سُمّي توراة وإنجيلاً، لأنّ الله تعالى كذب أهل التوراة والإنجيل الذين كانوا على عهد نبينا ﷺ، وأخبر عن خيانتهم وتحريفهم الكلام عن مواضعه، ووضعهم الكتاب، ثم يقولون: هذا من عند الله، وما هو من عند الله، ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون، فلا يأمن المسلم إذا قرأ شيئاً من كتبهم أن يكون ذلك من وضع اليهود والنصارى» (٢٤).

تأمل كيف جعل التوراة والإنجيل قبل التحريف عين القرآن، وأنّ الجميع كلام واحد، واللغات إنما هي عبارة عن هذا الواحد. وهذه بدعة شنيعة، وضلالة فظيعة، أدخلها ابن كلاب على الناس بعد أن كانوا عنها في غفلة.

(٢٣) «الأسماء والصفات» ص: ٢٧٠.

(٢٤) «شعب الإيمان» ١/ ١٣١ - طبع الهند..

وجمهورُ العقلاء من أهل السُّنة وأهل البدعة، اتَّفَقوا على فسادِ هذا القولِ، وأنَّ فسادهُ معلومٌ بالضرورةِ، وذلك من وجوهٍ متعدِّدةٍ:

الأوَّل: أنَّ نفسَ قائلِهِ لم يتصوَّروا ماهيَّتهُ، وعَجَزوا عن بيانهِ بتعريفٍ مُنضبطٍ.

قال شيخُ الإسلام: «الكلامُ القَدِيمُ النَّفْسَانِي الذي أثبتُّموه لم تُثبِتوا ما هو؟ بل ولا تصوَّرتُموه، وإثباتُ الشَّيْءِ فَرُغَ تصوُّرِهِ، فَمَنْ لم يتصوَّرْ ما يُثبِتُهُ كيفَ يجوزُ أنْ يثبته؟ ولهذا كانَ أبو سعيد بن كُلاب - رأسُ هذه الطائفة وإمامُها في هذه المسألة - لا يذكرُ في بيانها شيئاً يُعَقِّل، بل يقول: هو معنى يُناقِضُ السُّكُوتَ والخَرَسَ، والسُّكُوتُ والخَرَسُ إِنَّمَا يُتَصَوَّرَان إذا تُصَوِّرَ الكلامُ، فالسَّاكْتُ هو السَّاكْتُ عن الكلامِ، والأخرَسُ هو العاجزُ عنه، أو الذي حَصَلَتْ له آفةٌ في مَحَلِّ النُّطْقِ تَمْنَعُهُ عن الكلامِ، وحينئذٍ فلا يُعرَفُ السَّاكْتُ والأخرَسُ حتَّى يُعرَفَ الكلامُ، ولا يُعرَفَ الكلامُ حتَّى يُعرَفَ السَّاكْتُ والأخرَسُ، فبَيَّنَّ أَنَّهُمْ لم يتصوَّروا ما قالوه، ولم يُثبِتوه» (٢٥).

قلت: وقد أَفَحَشَ القَوْمُ فَذَكَرُوا فيما يَسْتَحِيلُ في حَقِّهِ تعالى الخَرَسُ والبَكَمُ، وقالوا: هو ضِدُّ الكلامِ، لَكِنَّ قولَهُم بالنَّفْسِي الْجَاهِمِ إِلَى القَوْلِ بأنَّ المُسْتَحِيلَ في حَقِّهِ تعالى هو الخَرَسُ النَّفْسِي (٢٦)، وهذا معناه أَنَّ الأخرَسَ الذي قَامَتْ في نَفْسِهِ المَعَانِي وعَجَزَ عن التَّعْبِيرِ عَنْهَا بلسانِهِ يَصِحُّ وصفُهُ بالمتكَلِّمِ، كما حَكَاهُ الحافظُ أَبُو نَصْرِ السُّجَرِيُّ رحمه الله فيما ذكرناه عنه آنفاً.

(٢٥) «مجموع الفتاوى» ٢٩٦/٦.

(٢٦) كما في «كفاية العوام وشرحها» ص: ١٢١ وغيرها من كتبهم.

وَيْلَكُمْ ! أَوْ يَصْدَقُ هَذَا صَبِيَانُ الْكِتَابِ ؟ !

والثاني : نَعْلَمُ جَمِيعاً أَنَّ الْأَخْرَسَ - الَّذِي هُوَ مُتَكَلِّمٌ فِي نَظَرِكُمْ مَعَشَرَ الْأَشْعَرِيَّةِ - إِنَّمَا مَنَعَتْهُ آفَةٌ فِي لِسَانِهِ عَنِ التَّعْبِيرِ عَمَّا فِي نَفْسِهِ ، فَعَجَزَ عَنِ الْبَيَانِ ، فَهُوَ يُفْهَمُ مَا قَامَ فِي نَفْسِهِ مِنَ الْمَعَانِي لِغَيْرِهِ ، فَيَعْبُرُ عَنْهَا ذَلِكَ الْغَيْرُ ، وَأَنْتُمْ قُلْتُمْ فِي رَبِّكُمْ ذَلِكَ : إِنَّهُ يُفْهَمُ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِنَفْسِهِ مَنْ شَاءَ مِنْ عِبَادِهِ ، كَمَا أَفْهَمَهُ لَجَبْرِيلَ عَلَيْهِ السَّلَامُ ، فَعَبَّرَ جَبْرِيلُ عَمَّا فِي نَفْسِهِ تَعَالَى .

أَيُّ إِفْكِ هَذَا الَّذِي جِئْتُمْ بِهِ أَيُّهَا الْمُعْطَلَّةُ ، وَأَيُّ نَقْصٍ جَوَزْتُمُوهُ عَلَى رَبِّكُمْ ؟ سَبَّهْتُمُوهُ بِالْأَخْرَسِ ، فَأَيُّ فَرْقٍ بَيْنَهُ وَبَيْنَ الْأَلْهَةِ الَّتِي لَا تُرْجَعُ إِلَى عَابِدِيهَا قَوْلًا ؟

سُبْحَانَكَ هَذَا بَهْتَانٌ عَظِيمٌ .

وَالْمُتَكَلِّمُ بِالْأَلْفَاظِ وَالْمَعْنَى أَكْمَلُ مِمَّنْ يَقُومُ الْمَعْنَى فِي نَفْسِهِ وَهُوَ لَا يَقْدِرُ عَلَى التَّعْبِيرِ عَنْهُ - وَهَذَا إِنْ وُجِدَ فِي الْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ كَانَ نَقْصًا بَيِّنًا - فَجَبْرِيلُ إِذَا يَكُونُ أَكْمَلُ مِنْ رَبِّكُمْ ، لِأَنَّهُ فَهَمَ الْمَعْنَى وَأَمَكَّنَهُ التَّعْبِيرُ عَنْهُ .

تَعَالَى اللَّهُ عَنْ قَوْلِكُمْ عُلُوًّا كَبِيرًا .

والثالث : كَوْنُ الْأَمْرِ هُوَ النَّهْيُ ، وَالنَّهْيُ هُوَ الْخَبَرُ ، مِمَّا لَا يَعْقِلُهُ عَاقِلٌ ، وَهِيَ عَلَى قَوْلِكُمْ : مَعْنَى وَاحِدٍ ، وَلَا يَعْقِلُ عَاقِلٌ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ لَوْ تُرْجِمَ إِلَى الْعِبْرَانِيَّةِ كَانَ هُوَ التَّوْرَةُ ، وَالتَّوْرَةُ لَوْ عُرِّبَتْ كَانَتْ هِيَ الْقُرْآنَ ، وَهِيَ عَلَى قَوْلِكُمْ مَعْنَى وَاحِدٍ .

وَعَلَى هَذَا التَّزَمُّتِ أَنَّ تَكُونَ آيَةُ الدِّينِ هِيَ آيَةُ الْكُرْسِيِّ ، وَتَبَيَّنَتْ يَدَا

أَبِي لَهَبٍ وَتَبٍّ هِيَ ﴿قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ﴾ والعِلْمُ هو القدرة، وسائر الصفات كذلك، بَلْ رُبَّمَا جَرَّكُمْ ذَلِكَ إِلَى مَا هُوَ أَشَدُّ مِنْ ذَلِكَ وَأَذَى .

قَالَ لَهُمْ جُمْهُورُ الْعُقَلَاءِ: إِذَا جَوَزْتُمْ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةُ الْخَبَرِ هِيَ حَقِيقَةُ الْأَمْرِ، وَحَقِيقَةُ النَّهْيِ عَنْ كُلِّ مَنْهِيٍّ عَنْهُ، وَالْأَمْرُ بِكُلِّ مَأْمُورٍ بِهِ، هُوَ حَقِيقَةُ الْخَبَرِ عَنْ كُلِّ مُخْبَرٍ عَنْهُ، فَجَوَّزُوا أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةُ الْعِلْمِ هِيَ حَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ، وَحَقِيقَةُ الْقُدْرَةِ هِيَ حَقِيقَةُ الْإِرَادَةِ (٢٧).

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «فَاعْتَرَفَ حَدَّاقُهُمْ بِأَنْ هَذَا لَا زِمَ لَهُمْ لَا مَحِيدَ لَهُمْ عَنْهُ» (٢٨).

وَقَالَ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «فَاعْتَرَفَ أَئِمَّةُ هَذَا الْقَوْلِ بِأَنْ هَذَا الْإِلْزَامُ لَيْسَ لَهُمْ عَنْهُ جَوَابٌ عَقْلِيٌّ» (٢٩).

قَالَ: «وَلَزِمَهُمْ إِمْكَانُ أَنْ تَكُونَ حَقِيقَةُ الذَّاتِ هِيَ حَقِيقَةُ الصُّفَاتِ، وَحَقِيقَةُ الْوُجُودِ الْوَاجِبِ هِيَ حَقِيقَةُ الْوُجُودِ الْمُمَكِّنِ، وَالتَّزَمَ ذَلِكَ طَائِفَةٌ مِنْهُمْ، فَقَالُوا: الْوُجُودُ وَاحِدٌ، وَعَيْنُ الْوُجُودِ الْوَاجِبِ الْقَدِيمِ الْخَالِقِ هُوَ عَيْنُ الْوُجُودِ الْمُمَكِّنِ الْمَخْلُوقِ الْمُحَدَّثِ، وَهَذَا أَصْلُ الْقَائِلِينَ بِوَحْدَةِ الْوُجُودِ، كَابْنِ عَرَبِيٍّ الطَّائِفِيِّ، وَابْنِ سَبْعِينَ، وَاتَّبَاعُهُمَا» (٣٠).

قُلْتُ: وَمِمَّا يُفْسِدُ عَلَيْهِمْ بِدَعْتِهِمْ فِي اعْتِقَادِهِمْ أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ مَعْنَى

(٢٧) انظر: «مجموع الفتاوى» ٥٢٢/٦ - ٥٢٣، ٢٨٣/٩، ١٢٢/١٢،

١٦٦.

(٢٨) «مجموع الفتاوى» ٢٨٣/٩.

(٢٩) «مجموع الفتاوى» ١٢٢/١٢.

(٣٠) «مجموع الفتاوى» ٢٨٣/٩ - ٢٨٤.

واحد، حديث ابن عباس رضي الله عنهما قال: قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل؟ فقالوا: سلوه عن الروح، فسألوه؟ فنزلت: ﴿وَسَأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥] قالوا: أوتينا علماً كثيراً، أوتينا التوراة، ومن أوتي التوراة فقد أوتي خيراً كثيراً، قال: فأنزل الله عز وجل: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِدَاداً لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ﴾ إلى آخر الآية، [الإسراء: ١٠٩] (٣١).

فدل الحديث على كون التوراة بعض كلام الله لا كل كلامه، وبعض علم الله لا كل علمه، وأوتي نبياً ﷺ من العلم ما ليس في التوراة، ذلك لأن كلماته تعالى لا تنهاى.

وهذا لا يجري على قواعد الأشعرية وأصولهم، لأن معنى التوراة والقرآن معنى واحد، والاختلاف إنما هو في اللغة.

والرابع: تُقَرَّونَ - معشر الأشعرية - بأن موسى سَمِعَ كلام الله، وإن كنتم تختلفون في معنى السَّماع، فهل سَمِعَ موسى جميع المعنى أم بعضه؟

(٣١) حديث صحيح.

أخرجه أحمد رقم (٢٣٠٩) والترمذي رقم (٣١٤٠) والنسائي في «الكبرى» - كما في «تحفة الأشراف» ١٣٣/٥ - وابن أبي عاصم في «السنة» رقم (٥٩٥) والحاكم ٥٣١/٢ من طرق عن يحيى بن زكريا بن أبي زائدة عن داود بن أبي هند عن عكرمة عن ابن عباس به.

قال الترمذي: «حديث حسن صحيح غريب».

وقال الحاكم: «حديث صحيح الإسناد» وأقره الذهبي.

قلت: وهو كذلك.

إِنْ قُلْتُمْ: سَمِعَ جَمِيعَ الْمَعْنَى فَقَدْ قُلْتُمْ الْكُفْرَ، إِذْ ادَّعَيْتُمْ إِحَاطَةَ
مُوسَى بِعِلْمِ اللَّهِ وَكَلَامِهِ الَّذِي لَا نِهَايَةَ لَهُ، وَاللَّهُ تَعَالَى يَقُولُ: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ
بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ [البقرة: ٢٢٥].

وَإِنْ قُلْتُمْ: سَمِعَ بَعْضَهُ، فَقَدْ نَقَضْتُمْ أَصْلَكُمْ، لِأَنَّ الْكَلَامَ عِنْدَكُمْ
لَا يَتَّبَعُ.

وَهَذَا مِمَّا أَلْزَمَهُمْ بِهِ جَمَهُورُ الْعُقَلَاءِ (٣٢).

وَقَدْ رَأَيْتُ فِي هَذَا الْإِلْزَامِ مَنَاطِرَةً لَطِيفَةً جَرَتْ بَيْنَ الْحَافِظِ الْإِمَامِ أَبِي
نَصْرِ السُّجْزِيِّ وَبَعْضِ الْأَشْعَرِيَّةِ، يَحْسُنُ سِيَاقُهَا لِمَا تَضَمَّنَتْ مِنَ الْفَائِدَةِ.

قَالَ فِيهَا الْحَافِظُ أَبُو نَصْرِ: «... فَقُلْتُ لِمُخَاطَبِي الْأَشْعَرِيِّ، قَدْ
عَلِمْنَا جَمِيعاً أَنَّ حَقِيقَةَ السَّمَاعِ لِكَلَامِ اللَّهِ مِنْهُ عَلَى أَصْلِكُمْ مُحَالٌ، وَلَيْسَ
هَهُنَا مَنْ تَتَّقِيهِ وَتَخْشَى تَشْنِيعَهُ، وَإِنَّمَا مَذْهَبُكَ أَنَّ اللَّهَ يُفْهِمُ مَنْ شَاءَ كَلَامَهُ
بِلَطِيفَةٍ مِنْهُ، حَتَّى يَصِيرَ عَالِماً مُتَقِناً بِأَنَّ الَّذِي فَهِمَهُ كَلَامُ اللَّهِ، وَالَّذِي أَرِيدُ
أَنْ أَلْزَمَكَ وَارِدٌ عَلَى الْفَهْمِ وَرُودُهُ عَلَى السَّمَاعِ، فَدَعِ التَّمْوِيَةَ، وَدَعِ
الْمُصَانَعَةَ، مَا تَقُولُ فِي مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ حَيْثُ كَلَّمَهُ اللَّهُ؟ أَفَهُمَ كَلَامَ اللَّهِ
مُطْلَقاً أَمْ مُقَيِّداً؟

فَتَلَكَّأَ قَلِيلاً، ثُمَّ قَالَ: مَا تُرِيدُ بِهَذَا؟

فَقُلْتُ: دَعِ إِرَادَتِي، وَأَجِبْ بِمَا عِنْدَكَ.

فَأَبَى، وَقَالَ: مَا تُرِيدُ بِهَذَا؟

فَقُلْتُ: أَرِيدُ أَنَّكَ إِنْ قُلْتَ: إِنَّهُ عَلَيْهِ السَّلَامُ فَهِمَ كَلَامَ اللَّهِ مُطْلَقاً،

(٣٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ٢٨٣/٩ و ٤٩/١٢ - ٥٠.

اقتضى أن لا يكون لله كلامٌ من الأزل إلى الأبد، إلا وقد فهمه موسى، وهذا يؤول إلى الكُفر، فإن الله تعالى يقول: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيْءٍ مِنْ عِلْمِهِ إِلَّا بِمَا شَاءَ﴾ ولو جاز ذلك لصارَ مَنْ فهمَ كلامَ الله عالِماً بالغيبِ وبما في نفسِ الله تعالى، وقد نفى الله تعالى ذلك بما أخبر به عن عيسى عليه السلام أنه يقول: ﴿تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ إِنَّكَ أَنْتَ عَلَّامُ الْغُيُوبِ﴾ [المائدة: ١١٦].

وإذا لَمْ يَجْزُ إطلاقه، وألجئت إلى أن تقول: أفهمه الله ما شاء من كلامه، دخلت في التبعض الذي هربت منه، وكفرت من قال به، ويكون مخالفاً أسعد منك، لأنه قال بما اقتضاه النصُّ الوارد من قبل الله عز وجل، ومن قبل رسول الله ﷺ، وأنت أبيت أن تقبل ذلك، وأدعيت أن الواجب المصير إلى حكم العقل في هذا الباب، وقد ردك العقل إلى موافقة النصِّ خاسئاً.

فقال: هذا يحتاج إلى تأملٍ، وقطع الكلام» (٣٣).

والخامس: المعنى المجرد لا يُسمع باتفاق العقلاء.

قال شيخ الإسلام: «والمعنى المجرد لا يُسمع، ومن قال: إنه يُسمع، فهو مُكابِر» (٣٤).

وموسى عليه السلام سَمِعَ كلامَ الله، وكذلك سَمِعَ نداءه، والنداء

(٣٣) «درء تعارض العقل والنقل» ٢/ ٩٠ - ٩٢ عن أبي نصر به.

(٣٤) «مجموع الفتاوى» ١٢/ ١٣٠ وانظر: «طبقات الشافعية الكبرى»

للسبكي ١٠/ ٢٩٤.

لا يكون إلا صوتاً مسموعاً، قال شيخ الإسلام: «ولا يُعْقَلُ في لغة العرب لفظ النداء بغير صوتٍ مسموع، لا حقيقة ولا مجازاً»^(٣٥) وهذا قرّناه في الباب الأول.

ولكن جمهور الأشعرية أبوا التسليم لكون موسى سمع كلام الله على الحقيقة، فقالوا: إنما سمع العبارة عن كلام الله.

قال أبو بكر بن فورك - أحد رؤوسهم -: «ومعنى تكليم الله عز وجل خلقه: إفهامه إياهم كلامه على ما يريد، إما بإسماع عبارة تدل على مراده، أو بابتداء فهم يخلقه في قلبه يفهم به ما يريد أن يفهمه به، وكل ذلك سائغ جائز، وهو معنى ما يكلم الله تعالى به العبد عند المحاسبة»^(٣٦).

وربما أطلق بعضهم أن موسى عليه السلام سمع كلام الله، وسكت، وهذا يصرُّ على أمر عظيم، ليموء ويلبس على الناس الجاهلين بمذهبهم.

وربما صرح بعضهم بأنه لا يُسمع بحال، إنما يُسمع المعنى، كما يقوله الباقلاني^(٣٧)، وهذا مكابرة ظاهرة، وعجبا لمن يدعي الغوص في المعقول والتبحر فيه وهو يأتي بمثل هذه الجهليات!

والسادس: لقد فرق الله تعالى بين مراتب التكليم لرُسله، فقال:

(٣٥) «مجموع الفتاوى» ١٢/١٣٠.

(٣٦) «مشكل الحديث» ص: ٩٣ وانظر: ص: ١٧٠ و«مقالات الإسلاميين»

٢/٢٣٣ وكتاب «التوحيد» للماتريدي ص: ٥٩ و«فتح الباري» ١٣/٤٥٥.

(٣٧) «درء التعارض» ٢/١١٤ وانظر: «مجموع الفتاوى» ١٢/٤٠٣.

﴿وَمَا كَانَ لِبَشَرٍ أَنْ يُكَلِّمَهُ اللَّهُ إِلَّا وَحْيًا أَوْ مِنْ وَرَاءِ حِجَابٍ أَوْ يُرْسِلَ رَسُولًا فَيُوحِيَ بِإِذْنِهِ مَا يَشَاءُ﴾ [الشورى: ٥١].

فإذا كان معنى واحداً فلا فرق إذا بين تكليم الله لموسى وإيحائه لغيره، ولا بين التكليم من وراء حجاب والتكليم إيحاء، لأن إفهام المعنى المجرد يشترك فيه جميع الأنبياء عليهم السلام، ففي عد ذلك جميعاً معنى واحداً رد للقرآن (٣٨).

والسابع: في قولهم: إنه معنى، إبطال دين المسلمين في أن هذا القرآن العربي بالفاظه ومعانيه كلام الله تعالى على الحقيقة، وهم يصرّحون بهذا فيقولون: القرآن العربي عبارة عن كلام الله ودال عليه، وليس هو كلام الله على الحقيقة، لأن كلامه تعالى غير بائن منه، وهذا القرآن بائن منه، كذا قالوا، وسيأتي بيان ذلك.

فهذه الجملة من وجوه النقض كافية لليب لإبطال هذا المعتقد الفاسد المناقض للمعقول والمنقول، وإجماع العقلاء قبل ابن كلاب.

قال شيخ الإسلام: «والفضلاء من أصحاب الأشعري يعترفون بضغف لوازم هذا القول مع نصرهم لكثير من أقواله الضعيفة» (٣٩).

وقد نشأ عن هذا الأصل الفاسد بدعتان شيعتان:

● البدعة الأولى: كلام الله ليس بحرف ولا صوت:

حين ذهب الأشعرية إلى كون الكلام معنى مجرداً، إنما قرأوا من

(٣٨) انظر: «مجموع الفتاوى» ٥٠/١٢.

(٣٩) «درء تعارض العقل والنقل» ١١٥/٤.

وَصِفِهِ بِالْحَرْفِ وَالصُّوْتِ ، لِأَنَّ الْحُرُوفَ وَالْأَصْوَاتَ لَا تَكُونُ إِلَّا مَخْلُوقَةً عِنْدَهُمْ ، فَنَزَّهُوا كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى أَنْ يَكُونَ بِحَرْفٍ أَوْ صَوْتٍ - بَزْغَمِهِمْ - فَقَالُوا : هُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِي ، وَالْحُرُوفُ إِنَّمَا خُلِقَتْ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ ، وَالصُّوْتُ خُلِقَ لِلْإِعْلَامِ وَالْإِفْهَامِ .

قال مُحَقِّقُهُمُ الْبَاقِلَانِيُّ : «وَيَجِبُ أَنْ يُعْلَمَ أَنَّ اللَّهَ تَعَالَى لَا يَتَّصِفُ بِكَلَامِهِ الْقَدِيمِ بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ ، وَلَا شَيْءٍ مِنْ صِفَاتِ الْخَلْقِ» (٤٠) .

وقال ابن قُورْك : «وكلامُ الباري ليس بحروفٍ ، وإنما هو معنى موجودٌ قائمٌ بذاته ، يُسْمَعُ وَتُفْهَمُ مَعَانِيهِ بِهِ ، وَالْحُرُوفُ تَكُونُ أَدَلَّةً عَلَيْهِ ، كَمَا تَكُونُ الْكِتَابَةُ أَمَارَاتِ الْكَلَامِ وَدَلَالَاتٍ عَلَيْهِ ، وَكَمَا نَعْقِلُ مُتَكَلِّمًا لَا مَخَارِجَ لَهُ وَلَا أَدَوَاتَ ، كَذَلِكَ نَعْقِلُ لَهُ كَلَامًا لَيْسَ بِحُرُوفٍ وَلَا أَصْوَاتٍ» (٤١) .

وقال الغَزَالِيُّ - وَلَا يَخْفَى قَدْرُهُ فِيهِمْ - فِي شَرْحِ صِفَةِ الْكَلَامِ : «وَأَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ ، أَمْرٌ ، نَاهٍ ، وَاعِدٌ ، مُتَوَعِّدٌ ، بِكَلَامٍ أَرْزَلِي قَدِيمٍ ، قَائِمٍ بِذَاتِهِ ، لَا يَشْبَهُ كَلَامَ الْخَلْقِ ، فَلَيْسَ بِصَوْتٍ يَحْدُثُ مِنْ انْسِلَالِ هَوَاءٍ ، وَاصْطِكَاكِ أَجْرَامٍ ، وَلَا بِحَرْفٍ يَنْقَطِعُ بِإِطْبَاقِ شَفَةِ ، أَوْ تَحْرِيكِ لِسَانٍ» (٤٢) .

وقال صَاحِبُ «كِفَايَةِ الْعَوَامِّ» : «الْكَلَامُ : وَهِيَ صِفَةٌ قَدِيمَةٌ ، قَائِمَةٌ بِذَاتِهِ تَعَالَى ، لَيْسَتْ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ ، مَنْزَهَةٌ عَنِ التَّقْدُمِ وَالتَّأَخُّرِ

(٤٠) «الإنصاف» ص : ٩٩ .

(٤١) «شعب الإيمان» ١/ ١٢٤ وكانت كلمة (نعقل) في الموضعين : (يعقل) ورأيت الأصح ما أثبتته .

(٤٢) نقله ابن عساكر في «تبیین کذب المفتری» ص : ٣٠٢ عن «قواعد العقائد» لأبي حامد الغزالي .

والإعراب والبناء، بخلاف كلام الحوادث» (٤٣).

ونحو هذا قول صاحب «شرح الجوهرة» (٤٤).

وهم يرجعون القول بتنزيه كَوْنِ كَلَامِ اللَّهِ حَرْفًا وَصَوْتًا إِلَى وَجْهِهِ حَسِبُوهَا مِنَ الْمَعْقُولِ، مَبْنِيَّةٌ عَلَى أَصُولِ الْجَهْمِيَّةِ، هِيَ عِنْدَهُمْ عِلَامَاتُ الْحَدَثِ وَالْخَلْقِ لِلْحَرْفِ وَالصَّوْتِ، فَأَرَادُوا تَنْزِيهَ الرَّبِّ تَعَالَى عَنْ مُشَابَهَةِ صِفَةِ الْخَلْقِ، فَالْجَاهُ ذَلِكَ إِلَى مُوَافَقَةِ الْجَهْمِيَّةِ فِي حَقِيقَةِ مَقَالَتِهِمْ.

وأهم تلك الوجوه:

الأول: أَنَّ الحُرُوفَ مُتَعَابِقَةٌ مُتَوَالِيَةٌ، يَسْبِقُ بَعْضُهَا بَعْضًا، وَيَلِي بَعْضُهَا بَعْضًا (٤٥).

والثاني: أَنَّهَا لَا تَكُونُ إِلَّا بِمَخَارِجٍ مِنْ لِسَانٍ وَشَفَتَيْنِ وَحَلْقٍ وَجَوْفٍ (٤٦).

قال البيهقي - وهو معهم على جلالته في الفقه والحديث -: «إِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ ذَا مَخَارِجٍ سَمِعَ كَلَامَهُ ذَا حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ، وَإِنْ كَانَ الْمُتَكَلِّمُ غَيْرَ ذِي مَخَارِجٍ سَمِعَ كَلَامَهُ غَيْرَ ذِي حُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ، وَالْبَارِي جَلُّ ثَنَائِهِ لَيْسَ بِذِي مَخَارِجٍ، وَكَلَامُهُ لَيْسَ بِحَرْفٍ وَلَا صَوْتٍ، فَإِذَا فَهِمْنَاهُ ثُمَّ تَلَوْنَاهُ، تَلَوْنَاهُ

(٤٣) «كفاية العوام» ص: ١٠٢.

(٤٤) «شرح الجوهرة» ص: ٧١.

(٤٥) «مشكل الحديث» لابن فورك ص: ٢٠٢ و«الإنصاف» للباقلاني ص:

(٤٦) «الإنصاف» ص: ٧٩، ١٠٣.

بُحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ» (٤٧).

والثالث: أَنَّ الحُرُوفَ والأَصْوَاتَ من صِفَةِ قِرَاءَةِ القَارِءِ، لا من صِفَةِ كَلَامِ البَارِي.

والدَّلِيلُ عليه حَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ فِي صِفَةِ قِرَاءَةِ النَّبِيِّ ﷺ: . . . يَقْطَعُ قِرَاءَتَهُ آيَةً آيَةً، وَلَوْ شَاءَ الْعَادُّ أَنْ يَعُدَّهَا أَحْصَاها (٤٨).

فَالْعَدُّ وَالْحَصْرُ إِنَّمَا يَقَعُ لِمَا هُوَ مَخْلُوقٌ، لَا لِصِفَةِ الْخَالِقِ.

والرَّابِعُ: أَنَّهَا مَتْنَاهِيَةٌ مَحْدُودَةٌ، لَهَا بَدَايَةٌ وَنَهَايَةٌ، وَأَوَّلٌ وَآخِرٌ، وَكَلَامُ اللَّهِ الْقَدِيمُ لَيْسَ كَذَلِكَ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿قُلْ لَوْ كَانَ الْبَحْرُ مِذَادًا لِكَلِمَاتِ رَبِّي لَنَفِدَ الْبَحْرُ قَبْلَ أَنْ تَنْفَدَ كَلِمَاتُ رَبِّي﴾ [الكهف: ١٠٩] وَجَمْعُ الْكَلِمَاتِ هُنَا لَيْسَ لِلتَّعَدُّدِ وَالتَّكْثِيرِ وَإِنَّمَا هُوَ لِلتَّعْظِيمِ.

والخَامِسُ: أَنَّ هَذِهِ الْحُرُوفَ وَاحِدَةٌ بِالْوَضْعِ، فَالْأَلِفُ هُوَ الْأَلِفُ، وَالسِّينُ هُوَ السِّينُ، فَالْحُرُوفُ الَّتِي يُعَبَّرُ بِهَا عَنْ كَلَامِ اللَّهِ هِيَ نَفْسُ الْحُرُوفِ الَّتِي يَتَكَلَّمُ بِهَا الْخَلْقُ، فَإِنْ قُلْنَا: إِنَّهَا غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، قُلْنَا بِقَدَمِ جَمِيعِ كَلَامِ الْخَلْقِ.

والسَّادِسُ: أَنَّ الصَّوْتَ يَسْتَحِيلُ بِقَاوُضِهِ كَمَا يَسْتَحِيلُ بَقَاءُ الْحَرَكَةِ، وَمَا اِمْتَنَعَ بِقَاوُضِهِ اِمْتَنَعَ قِدَمُ عَيْنِهِ.

هَذِهِ الْوُجُوهُ أَهَمُّ مَا تَعَلَّقَتْ بِهِ الْكَلَابِيَّةُ وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَالْمَاتَرِيْدِيَّةُ لِإِبْطَالِ

(٤٧) «الأسماء والصفات» ص: ٢٧٢ - ٢٧٣.

(٤٨) حَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ هَذَا حَدِيثٌ صَحِيحٌ، خَرَجَتْهُ فِي كِتَابِي فِي «الْبَسْمَلَةِ» لَكِنِّي لَمْ أَقِفْ عَلَى قَوْلِهَا: وَلَوْ شَاءَ الْعَادُّ. . . إلخ.

كَوْنِ كَلَامِ اللَّهِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ، فَرَدُّوا بِذَلِكَ الْكِتَابَ وَالسُّنَّةَ وَاعْتِقَادَ السَّلَفِ
وَالْأُثْمَةَ، وَخَرَقُوا إِجْمَاعَ الْعُقَلَاءِ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ وَغَيْرِهِمْ، فَحِينَ أُلْزِمَتْهُمْ
الْمَعْتَزِلَةُ بِأَنَّ الْإِتِّفَاقَ حَاصِلٌ عَلَى أَنَّ الْكَلَامَ حَرْفٌ وَصَوْتُ، وَبَدَخْلُهُ
التَّعَاقُبُ وَالتَّأْلِيفُ، وَذَلِكَ لَا يَوْجَدُ فِي الشَّاهِدِ إِلَّا بِحَرَكَةٍ وَسُكُونٍ، وَلَا بَدْءٍ
أَنْ يَكُونَ ذَا أِبْعَاضٍ وَأَجْزَاءٍ، وَقَالُوا: هَذِهِ الصِّفَةُ لَا يَجُوزُ أَنْ تَكُونَ صِفَةً
لذَاتِ اللَّهِ تَعَالَى، فَصَاقَ السَّبِيلُ بِالشَّعَرِيَّةِ عِنْدَ هَذَا الْإِلْزَامِ، فَالْتَزَمُوهُ،
لِلْجَهْلِ بِالسُّنَنِ، وَالتَّسْلِيمِ لِمَجْرَدِ الْعَقْلِ، الَّذِي لَوْ فُرِّغَ مِنَ الْأَهْوَاءِ
وَالظُّنُونِ، وَحَكَمَهُ الْإِخْلَاصُ وَالتَّثَبُّتُ وَالْإِتِّبَاعُ، لَوَقَفَ بِهِمْ عَلَى سَاحِلِ
النَّجَاةِ، وَلَكِنَّهُمْ جَعَلُوهُ الْحُكْمَ عَلَى مَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ، فَأَرَادَهُمْ
وَأَبْعَدَهُمْ.

وَجَمِيعُ مَا مَوَّهُوا بِهِ اعْتِرَاضٌ عَلَى الْحَقِّ الْمُتَوَاتِرِ بِالظُّنُونِ الْعَقْلِيَّةِ الَّتِي
مَبْنَاهَا عَلَى الْقِيَاسِ عَلَى الْمَخْلُوقِ، فَإِنَّ الْقَوْمَ يُكْثِرُونَ مِنْ عَيْبِ الْمَعْتَزِلَةِ
بِهَذِهِ الْبِدْعَةِ، الَّتِي هِيَ تَشْبِيهُ فِي الْأَصْلِ أَفْضَى إِلَى التَّعْطِيلِ، وَهِيَ قِيَاسُ
الْغَائِبِ عَلَى الشَّاهِدِ، وَيُسْنَعُونَ عَلَيْهِمْ بِذَلِكَ، مَعَ أَنَّهُمْ سَلَمُوا لَهُمْ هُنَا
ظُنُونَهُمْ وَأَهْوَاءَهُم الَّتِي حَسَبُوهَا عَقْلِيَّاتٍ، وَهِيَ فِي الْحَقِيقَةِ جَهْلِيَّاتٍ، لِمَا
تَضَمَّنَتْ مِنَ الشُّنَاعَةِ وَالْقَوْلِ عَلَى اللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ، وَقِيَاسِ الْخَالِقِ عَلَى
الْمَخْلُوقِ، فَابْطَلُوا حَقِيقَةَ كَوْنِ الْكَلَامِ بِحُرُوفٍ وَأَصْوَاتٍ، وَأَلَّ بِهِمُ الْحَالُ
إِلَى إِنْكَارِ أَنْ تَكُونَ هَذِهِ صِفَةً كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، وَخَالَفُوا بِهَذَا اعْتِقَادَ السَّلَفِ،
وَخَرَجُوا عَنْ مَنْهَجِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

وَهَذِهِ أَجُوبَةٌ مُوجِزَةٌ عَنْ هَذِهِ الشُّبُهَاتِ، تُبَيِّنُ عَنْ جَهْلِ الْقَوْمِ بِحَقَائِقِ
التَّوْحِيدِ:

أما الأول:

فكون التعاقب والتوالي في كلام الله دليلاً على الحدث إيراد عقلي فاسد، تبعوا فيه المعتزلة الجهمية، وأولئك لم يثبتوه عن أصل معصوم، وإنما هو الرأي الفاسد، وقد بينت بطلانه في معرض الرد على شبهات المعتزلة.

وأما الثاني:

فكون الحروف والأصوات لا تكون إلا بمخارج فمن أفسد اعتراضاتهم، وذلك من وجوه:

الأول: أنه قياس للرب تعالى على المخلوق، فإنهم تصوّروا كلام المخلوق بأنه لا يكون إلا بمخارج، فقالوا مثله في ربهم، وهذا نقض لقاعدة أهل السنة في التنزيه ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ﴾.

والثاني: يلزمهم قول المعتزلة في سائر الصفات، فإنهم يثبتون العلم والسمع والبصر ونحو ذلك من الصفات لله تعالى، والمخلوق يتصف بها أيضاً، وهي لا تكون منه إلا بآلة، فالعلم لا يحصل إلا بقلب، والبصر لا يكون إلا بحدقة، والسمع لا يقع إلا من انخراق، وقد ألزمتهم المعتزلة بهذا، فأجابوا: بأن هذا من قياس الغائب على الشاهد، وهو باطل، والله تعالى ليس كمثله شيء، فهلاً قالوا مثل هذا في صفة الكلام، وأنها بحرف وصوت، لا يشبه كلامه كلام خلقه، ولا صوته أصواتهم؟

والثالث: أن الله تعالى أنطق بعض مخلوقاته بغير مخارج، قال تعالى: ﴿وَقَالُوا لَجُلُودِهِمْ لَمْ شَهِدْتُمْ عَلَيْنَا قَالُوا أَنْطَقَنَا اللَّهُ الَّذِي أَنْطَقَ كُلَّ

شَيْءٌ ﴿ [فصلت: ٢١] وَسَمِعَ النَّبِيُّ ﷺ تَسْبِيحَ الْحَصَى ، مِمَّا هُوَ مَعْرُوفٌ مَشْهُورٌ ، فَبَطَلَ مَا قَعَدُوهُ مِنْ كَوْنِ الْكَلَامِ بِحَرْفٍ وَصَوْتٍ لَا يَكُونُ إِلَّا بِمَخَارِجٍ ، وَبُثِّتَ أَنَّهُ مَعْقُولٌ .

وأما الثالث :

فَكُونُ الْحُرُوفِ صِفَةً قِرَاءَةً الْقَارِئِ مَكَابَرَةٌ لِلْحَسِّ وَالْعَقْلِ ، فَإِنَّ الْقِرَاءَةَ تُطْلَقُ فِي الْغَالِبِ عَلَى الْمَصْدَرِ ، وَقَدْ يُرَادُ بِهَا الْمَفْعُولُ - كَمَا فَصَّلْتُهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي - وَالْأَشْعَرِيَّةُ يُفَرِّقُونَ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَالْمَقْرُوءِ مطلقاً ، فَالْقِرَاءَةُ فِعْلُ الْقَارِئِ ، وَالْمَقْرُوءُ الْمَفْعُولُ ، وَهَذَا يُوَافِقُهُمْ فِي إِطْلَاقِهِ بَعْضُ أَهْلِ السُّنَّةِ كَالْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ ، وَلَكِنْ مَرَادُهُمْ غَيْرُ مُرَادِهِ ، وَتَفْسِيرُهُمْ غَيْرُ تَفْسِيرِهِ ، فَإِنَّهُ رَحِمَهُ اللَّهُ كَانَ لِقَوْلِهِ قُوَّةٌ مِنْ جِهَةِ اللَّغَةِ ، وَعِلْمَاءُ السُّنَّةِ كَالْإِمَامِ أَحْمَدَ وَغَيْرِهِ أَنْكَرُوا الْإِطْلَاقَ لِدَفْعِ الْإِيهَامِ وَالْإِشْكَالِ الَّذِي تُؤْمَرُ بِهِ الْجَهْمِيَّةُ ، وَالْبُخَارِيُّ فَصَّلَ بَيْنَ الْقِرَاءَةِ وَالْمَقْرُوءِ ، فَخَصَّ الْقِرَاءَةَ بِفِعْلِ الْقَارِئِ وَهُوَ حَرَكَةُ شَفْتَيْهِ وَصَوْتُهُ بِالْقُرْآنِ ، وَالْمَقْرُوءُ : الَّذِي تَتَحَرَّكُ بِهِ الشَّفَتَانِ ، وَتَنْطِقُ بِهِ الْأَلْسِنَةُ ، وَتُصَوِّتُ بِهِ الْحَنَاجِرُ ، الَّذِي هُوَ الْقُرْآنُ الْعَرَبِيُّ الْمُؤَلَّفُ مِنَ الْحُرُوفِ وَالْمَعَانِي ، وَالَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ ، وَمَا أَرَادَهُ الْبُخَارِيُّ مِنَ الْمَعْنَى حَقٌّ وَصَوَابٌ ، وَقَدْ ذَكَرْتُهُ عَنْهُ فِي الْبَابِ الثَّانِي ، وَبَيَّنْتُ غَلَطَ اللَّفْظِيَّةِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَيْهِ فِيهِ .

وَالْأَشْعَرِيَّةُ عِنْدَهُمُ الْقِرَاءَةُ وَالتَّلَاوَةُ هِيَ فِعْلُ الْقَارِئِ وَالتَّالِي ، وَيَقُولُونَ : الْحُرُوفُ دَاخِلَةٌ فِي تِلَاوَةِ التَّالِي وَقِرَاءَةِ الْقَارِئِ ، وَهِيَ غَيْرُ الْمُتْلَوِ الْمَقْرُوءِ (٤٩) .

فَجَعَلُوا الْحُرُوفَ مِنْ صِفَةِ الْقِرَاءَةِ لَا مِنْ صِفَةِ الْمَقْرُوءِ ، لِأَنَّ الْمَقْرُوءَ
عِنْدَهُمْ قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ ، وَهُوَ الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ ، وَالْقِرَاءَةُ عِبَارَةٌ عَنْهُ ، وَهِيَ هَذِهِ
الْحُرُوفُ الْعَرَبِيَّةُ الَّتِي تَنْطِقُ بِهَا الْأَلْسُنَةُ ، وَتَحْفَظُهَا الْقُلُوبُ ، وَتَخْطُهَا الْأَيْدِي
فِي الْمَصَاحِفِ .

وَهَذَا مِنْ أَعْدَ شَيْءٍ عَنِ الْحَسَنِ السَّلِيمِ ، فَإِنَّ الْعَرَبَ وَكُلَّ أَحَدٍ لَا
يَعْرِفُ الْحُرُوفَ إِلَّا مِنْ صِفَةِ الْكَلَامِ ، لَا مِنْ صِفَةِ الْمُتَكَلِّمِ ، وَفِعْلُ الْمُتَكَلِّمِ
إِنَّمَا هُوَ النُّطْقُ بِهَا وَرَفْعُ صَوْتِهِ أَوْ خَفْضُهُ ، وَكِتَابَتُهَا ، وَحِفْظُهَا ، وَنَحْوُ ذَلِكَ مِمَّا
هُوَ فِعْلٌ نَفْسِيٌّ ، وَهَذِهِ الْمَعَانِي هِيَ الَّتِي تَوْصَفُ بِالْحُسْنِ وَالْقُبْحِ ، وَيَتَرْتَّبُ
عَلَيْهَا الثَّوَابُ أَوِ الْعِقَابُ .

أَمَّا الْحُرُوفُ الَّتِي قَرَأَ بِهَا النَّبِيُّ ﷺ وَبَلَّغَهَا أُمَّتَهُ فِيهِ وَحْيُ اللَّهِ وَتَنْزِيلُهُ
وَكَلَامُهُ الَّذِي نَزَلَ بِهِ جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِهِ تَعَالَى ، وَلَقَدْ نَزَلَ بِهَا جَبْرِيلُ مِنْ عِنْدِ
اللَّهِ تَعَالَى عَلَى سَبْعَةِ أَحْرَفٍ تَخْفِيفاً عَلَى الْأُمَّةِ وَتَيْسِيراً ، وَكُلَّ ذَلِكَ كَلَامُهُ
عَزَّ وَجَلَّ عَلَى الْحَقِيقَةِ .

وَلَقَدْ حَاوَلَ بَعْضُ مَنْ يَوْصَفُ بِالتَّحْقِيقِ مِنْ رُؤُوسِ الْأَشْعَرِيَّةِ الْإِكْتَارَ
مِنَ الْإِسْتِدْلَالِ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ عَلَى الْفَرْقِ بَيْنَ التَّلَاوَةِ وَالْمَتَلَوِّ ، وَلَكِنَّهَا
جَمِيعاً عَلَى مَذْهَبِ الْبُخَارِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ الَّذِي ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ ، أَمَّا عَلَى تَفْسِيرِ
الْأَشْعَرِيَّةِ أَنْفُسَهُمْ فِي عَدِّ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ مِنْ صِفَةِ الْقِرَاءَةِ لَا مِنْ صِفَةِ
الْمَقْرُوءِ ، فَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى الْإِتْيَانِ بِحُجَّةٍ وَاحِدَةٍ عَلَيْهِ يُعَوَّلُ عَلَيْهَا ، سِوَى
أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ الَّذِي أَبْطَلْنَاهُ فِيمَا سَمَّوْهُ بِهِ (الْكَلَامُ النَّفْسِيُّ) .

وَحَدِيثُ أُمِّ سَلَمَةَ الَّذِي ذَكَرُوهُ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ ، فَإِنَّ النُّطْقَ بِالْحُرُوفِ هُنَا
غَيْرُ الْحُرُوفِ ، فَقِرَاءَةُ النَّبِيِّ ﷺ الَّتِي تَحْكِيهَا أُمُّ سَلَمَةَ هُنَا هِيَ نَطْقُهُ

بالحُرُوفِ وأدأؤه لَهَا، وهو فَعَلُهُ عليه السَّلَامُ، وهو مخلوقٌ، أمَّا الحُرُوفُ
التي نَطَقَ بها وأدأها، والتي لو شاء العَادُ أن يَعُدَّها أحصاها، لَوُضُوح أدائه
لَهَا وبيانه، فهي حُرُوفُ كَلَامِ اللَّهِ العَرَبِيِّ المُنَزَّلِ مِنْ عِنْدِهِ، وهي غَيْرُ
مَخْلُوقَةٍ، وَهَذَا الفَصْلُ بَيْنَ الحُرُوفِ والنُّطْقِ بِهَا بَيِّنٌ لَا يَخْفَى.

ولكنَّ القَوْمَ ضَاقُوا ذَرْعاً بِقَوْلِ أُمِّ سَلَمَةَ: «لَوْ شَاءَ العَادُ أَنْ يَعُدَّهَا
أَحْصَاها» فَصَارُوا بَيْنَ أَمْرَيْنِ:

إِمَّا أَنْ يُشَبِّتُوا أَنَّ الَّذِي تَلَاهُ النَّبِيُّ ﷺ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ،
فَيُبْطَلُوا أَصْلَهُمْ، لِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عِنْدَهُمْ لَا يُحَدُّ وَلَا يُعَدُّ، وَلَيْسَ هُوَ آيَاتٍ
وَسُورًا.

وَأَمَّا أَنْ يَقُولُوا: الحُرُوفُ صِفَةُ قِرَاءَةِ الْقَارِئِ، وَرَأَوْا هَذِهِ أَوْفَقَ
لِمَذْهَبِهِمْ، فَكَابَرُوا وَقَالُوا: هِيَ صِفَةُ لِقَاءَةِ الْقَارِئِ، لَا صِفَةُ لِكَلَامِ
الْبَارِئِ.

وَأَمَّا وَصَفُ كَلَامِ اللَّهِ بِالصَّوْتِ، فَلَقَدْ عَمُوا عَنْ فِقْهِهِ، وَضَلُّوا عَنْ
مَعْرِفَتِهِ، فَحَسِبُوا أَنَّ قَوْلَ أَهْلِ السُّنَّةِ بِإِثْبَاتِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى بِصَوْتِ إِثْبَاتٍ
أَنَّ أَصْوَاتَ التَّالِينَ هِيَ صِفَةُ كَلَامِ اللَّهِ - كَمَا طَعَنُوا فِيهِ عَلَى أَهْلِ السُّنَّةِ،
وَنَبَزُوهُمْ بِالْأَلْقَابِ لِأَجْلِهِ - وَحَاوَلُوا لِأَجْلِ هَذَا الْفَهْمِ السَّقِيمِ أَنْ يَسْتَدِلُّوا بِأَدَلَّةٍ
إِضَافَةِ الصَّوْتِ إِلَى الْقَارِئِ، وَجَعَلِهِ مِنْ فِعْلِهِ، وَأَهْلُ السُّنَّةِ وَالْأَئِمَّةُ لَا
يُخَالِفُونَ فِي هَذَا الْمَعْنَى، فَإِنَّ أَصْوَاتَ الْقُرَّاءِ بِالْقُرْآنِ مِنْ أَعْمَالِهِمْ، وَهِيَ
مُضَافَةٌ إِلَيْهِمْ، وَأَعْمَالُهُمْ مَخْلُوقَةٌ، وَقَدْ شَرَحْتُ اعْتِقَادَ أَهْلِ السُّنَّةِ فِي ذَلِكَ
فِي أَوَاخِرِ الْبَابِ الثَّانِي بِمَا هَذَا حَاصِلُهُ.

وَالسَّلَفُ وَالْأَثْمَةُ لَا يَقُولُونَ: إِنَّ أَصْوَاتَ الْقُرْآنِ صِفَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ، وَمَنْ قَالَ ذَلِكَ وَنَقَلَهُ عَنْهُمْ فَقَدْ أَبْطَلَ فِي الْمَقَالِ.

وَلَكِنَّ الصَّوْتَ الَّذِي هُوَ صِفَةٌ لِكَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى هُوَ الَّذِي سَمِعَهُ مُوسَى حِينَ نَادَاهُ رَبُّهُ وَكَلَّمَهُ، وَسَمِعَهُ جَبْرِيلُ عَلَيْهِ السَّلَامُ حِينَ يُوحَى إِلَيْهِ بِالْوَحْيِ، وَسَمِعَهُ الْعِبَادُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ، وَهُوَ الَّذِي أَثْبَتْنَاهُ فِي اعْتِقَادِ السَّلَفِ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ مِنْ هَذَا الْكِتَابِ.

وَقَدْ فَهِمَ بَعْضُ الْأَشْعَرِيَّةِ هَذَا الْمَعْنَى الْأَخِيرَ - الَّذِي هُوَ اعْتِقَادُ السَّلَفِ وَالْأَثْمَةِ - فَرَأَوْا أَنَّهُ لَيْسَ عَلَى أَصْلِهِمْ فِي كَوْنِ كَلَامِ اللَّهِ مَعْنًى مُجَرِّدًا، فَنفَوْهُ، وَقَالُوا: كَلَامُ اللَّهِ لَا يَكُونُ بِصَوْتٍ، وَأَبْطَلُوا بِذَلِكَ دَلَائِلَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْمَعْقُولِ الصَّرِيحِ عَلَى صِحَّةِ هَذَا الْمَعْنَى، عَلَى مَا ذَكَرْنَاهُ آنِفًا فِي تَفْسِيرِهِمْ لِسَمَاعِ مُوسَى عَلَيْهِ السَّلَامُ كَلَامَ اللَّهِ.

وَلَا دَاعِي هُنَا لِسَرْدِ دَلَائِلِ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ وَالْعَقْلِ الصَّرِيحِ عَلَى إِثْبَاتِ كَوْنِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى حُرُوفًا، وَأَنَّهُ يَتَكَلَّمُ بِصَوْتٍ، اِكْتِفَاءً بِمَا سَقْنَاهُ لَذَلِكَ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ.

وَأَمَّا الرَّابِعُ:

فَكَوْنُ الْحُرُوفِ مَتْنَاهِيَّةً مَحْدُودَةً لَهَا بَدَايَةٌ وَنِهَايَةٌ وَأَوَّلٌ وَآخِرٌ يُورَدُونَهُ عَلَى مَعْنَيْنِ:

الْأَوَّلُ: عَلَى عَدَدِ الْحُرُوفِ الْعَرَبِيَّةِ الَّتِي هِيَ حُرُوفُ الْمُعْجَمِ.

وَالثَّانِي: عَلَى الْكَلَامِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي بَيْنَ دَفْتِي الْمُصْحَفِ الْمَبْدُوءِ بِالْفَاتِحَةِ وَالْمَخْتُومِ بِالنَّاسِ.

قالوا: وجميع هذا مَحْصُورٌ مَحْدُودٌ، وهذه علامةُ الْحَدَثِ .

قُلْنَا: كَلَّا، بَلْ كِلَا الْإِيرَادَيْنِ بَاطِلَانِ .

أَمَّا الْأَوَّلُ فَإِنَّهُ لَمْ يَقُلْ أَحَدٌ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حُرُوفٌ مُجَرَّدَةٌ: أ، بَ، تَ . . . وَإِنَّمَا هُوَ كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ مِنْهَا، وَهُوَ أَكْثَرُ مِنْ أَنْ يُحْصَرَ أَوْ يُحَدَّ، كَمَا لَا يَخْفَى .

فَإِنْ اعْتَرَضَ مُعْتَرِضٌ بِالْحُرُوفِ الَّتِي فِي أَوَائِلِ بَعْضِ السُّورِ، مِثْلَ ﴿الْم﴾ فَجَوَابُهُ: أَنَّ هَذِهِ لَا تُنْطَقُ حُرُوفًا، وَإِنَّمَا تُنْطَقُ أَسْمَاءً، فَتَقُولُ: (ألف، لام، ميم) وَهَذَا كَلَامٌ مُؤَلَّفٌ، وَقَدْ نَبَّهْتُ عَلَى هَذَا فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ، وَأَزَلْتُ عَنْهُ اللَّيْسَ بِفَضْلِ اللَّهِ .

وَأَمَّا الثَّانِي فَهُوَ مَبْنِيٌّ عَلَى بَدْعَةِ الْأَشْعَرِيَّةِ الثَّانِيَةِ النَّاتِجَةِ عَنْ أَصْلِهِمُ الْفَاسِدِ فِي الْكَلَامِ، وَهِيَ عَدَمُ تَعَلُّقِ كَلَامِهِ تَعَالَى بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، لِأَنَّهُ عِنْدَهُمْ لَا يَنْقَسِمُ وَلَا يَتَجَزَّى وَلَا يَتَبَعَّضُ، وَهُوَ خِلَافُ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَثَمَةِ، فَإِنَّهُ عِنْدَهُمْ مُتَعَلِّقٌ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ، يَتَكَلَّمُ إِذَا شَاءَ بِمَا شَاءَ، وَالْقُرْآنُ - مَثَلًا - الْمُفْتَتَحُ بِالْفَاتِحَةِ وَالْمَخْتَمُ بِالنَّاسِ بِعَظْمِ كَلَامِهِ الَّذِي لَا يَتَنَاهَى، لَا كُلُّ كَلَامِهِ .

وَسَيَأْتِي قَرِيبًا ذِكْرُ بَدْعَتِهِمْ هَذِهِ وَنَقْضُهَا .

وَأَمَّا الْخَامِسُ :

فَمِثْلُ مَا سَبَقَ فِي الْفَسَادِ وَالْبُطْلَانِ أَوْ أَشَدَّ، وَذَلِكَ أَنَّ الْقَوْمَ يُطْلَقُونَ الْقَوْلَ بِخَلْقِ حُرُوفِ الْمُعْجَمِ، فَلَمَّا رَأَوْا كَلَامَ اللَّهِ الْعَرَبِيَّ مُؤَلَّفًا مِنْهَا قَالُوا: لَا يَكُونُ إِلَّا مَخْلُوقًا، لِأَنَّ الْحُرُوفَ مَخْلُوقَةٌ .

وهذا الإطلاق ليس لديهم عليه حجة، ومثله يحتاج إلى توقيف، والدعوى المجردة لا يعول عليها في مواطن النزاع، فكيف يقوم على أساسها الاعتقاد؟

والفيصل في هذه القضية هو: أن الكلام إنما يضاف لمن قاله مُنشئاً مُبتدئاً، فكلام الله تعالى مُضاف إليه، وهو صِفَتُهُ، فهو غيرُ مخلوق، لأن صفاته تعالى غيرُ مخلوقة، وكلامُ المخلوق الذي يُنشئه من نفسه وبتدبيره مُضاف إليه، وهو مخلوق، لأن الصفة تابعة للموصوف، فحين كانت للخالق كانت غير مخلوقة، وحين كانت للمخلوق كانت مخلوقة، فإذا قال قائل: (محمدٌ رسولُ الله) فهذا كلامٌ، تكلم به الله تعالى، ويتكلم به المخلوق من نفسه لا يريد به القرآن، ففي الحالة الأولى غيرُ مخلوق، لأنه أراد به كلام الله، وفي الحالة الثانية مخلوق، لأنه أراد كلام نفسه.

يوضحه صفة العلم، فعلم المخلوق الذي يكتسبه - سوى وحي الله وتنزيله - مخلوق، وهو معلومٌ لله تعالى، حواه علمُ الله تعالى وأحاط به، فباعتبار إضافته للمخلوق فهو مخلوق، وباعتبار إضافته للخالق فغير مخلوق، والله تعالى ليس كمثله شيءٌ في ذاته، وصفاته، وأسمائه، فليس ككلامه كلامٌ، ولا كصوته صوتٌ، ولا كفعله فعلٌ.

قال شيخ الإسلام: «وأصل هذا أن ما يوصف الله به ويوصف به العباد، يوصف الله به على ما يليق به، ويوصف به العباد بما يليق بهم من ذلك، مثل الحياة والعلم والقُدرة والسمع والبصر والكلام، فإن الله له حياة وعلم وقُدرة وسمع وبصر وكلام، فكلامه يشتمل على حروف، وهو يتكلم بصوت نفسه، والعبد له حياة وعلم وقُدرة وسمع وبصر وكلام، وكلام

العبد يشتمل على حروف، وهو يتكلم بصوت نفسه.

فهذه الصفات لها ثلاث اعتبارات:

تارة تُعتبر مضافة إلى الرب.

وتارة تُعتبر مضافة إلى العبد.

وتارة تُعتبر مطلقة لا تختص بالرب ولا بالعبد.

فإذا قال العبد: حياة الله، وعلم الله، وقدرة الله، وكلام الله، ونحو ذلك، فهذا كله غير مخلوق، ولا يماثل صفات المخلوقين.

وإذا قال: علم العبد، وقدرة العبد، وكلام العبد، فهذا كله مخلوق، ولا يماثل صفات الرب.

وإذا قال: العلم، والقدرة، والكلام، فهذا مُجَمَّل مطلق لا يقال عليه كله: إنه مخلوق، ولا إنه غير مخلوق، بل ما اتصف به الرب من ذلك فهو غير مخلوق، وما اتصف به العبد من ذلك فهو مخلوق، فالصفة تتبع الموصوف، فإن كان الموصوف هو الخالق فصفاته غير مخلوقة، وإن كان الموصوف هو العبد المخلوق فصفاته مخلوقة» (٥٠).

وقد سبق إيرادنا لقول الإمام أحمد في ذلك، حين سأل الحافظ أحمد بن الحسن الترمذي، قال: قلت لأحمد بن حنبل: إن الناس قد وقعوا في أمر القرآن، فكيف أقول؟ قال: «أليس أنت مخلوقاً؟» قلت: نعم، قال: «فكلامك منك مخلوق؟» قلت: نعم، قال: «أوليس القرآن من كلام

الله؟» قلتُ: نَعَمْ. قَالَ: «وكلامُ الله؟» قلتُ: نَعَمْ، قَالَ: «فيكونُ من الله شيءٌ مخلوق؟!»^(٥١).

قلتُ: وهذا الفرقُ بينُ لا يخفى.

وأما السادس:

فهو قياسُ ظاهرٍ لصفةِ الخالقِ على صفةِ المخلوقِ، وتكييفُ لها، وهو مُنتَقَضٌ بالقاعدةِ السُّنِّيَّةِ السَّلَفِيَّةِ: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِ شَيْءٌ وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾.

فهذه الأجوبةُ المُدَحِّضَةُ لجملةِ هذه التَّشْكِيكاتِ والتَّلْبِيساتِ التي أوردَها الأشعريةُ وموافقوهم، وهي تُنبِئُك عن شِدَّةِ تَنَاقُضِ الْقَوْمِ.

ولهم في تفصيل ذلك من التَّنَاقُضِ شَيْءٌ كَثِيرٌ، ولكن مَرَجِعُ ذَلِكَ أَجْمَعُ إِلَى مَا بَيَّنَّاهُ.

● البدعة الثانية: أن الله تعالى لا يتكلم بمشيئته واختياره:

شَرَحْتُ في اعتقادِ السَّلَفِ والأئمَّةِ من أهلِ السُّنَّةِ اعتقادَهم في أنَّ الله تعالى يتكلَّمُ بمشيئتهِ واختيارهِ، أي متى شاء تكلم، ومتى شاء لم يتكلَّم، يتكلَّمُ بكلامٍ بعدَ كلامٍ، فهو متكلَّمٌ أزلًا وأبدًا، تكلمَ قبلَ خَلْقِ الخَلْقِ، وبعدَ خَلْقِهِمْ، وكلَّم من شاء من ملائكتِهِ ورُسُلِهِ في الدنيا، ويكلَّم من شاء من عبادِهِ في الآخرةِ، وصفةُ الكلامِ ثابتةٌ له أزلًا وأبدًا، وكلُّ ذلك واقعٌ على الحَقِيقَةِ لا على المَجَازِ.

(٥١) رواه الأَلَكائِي في «السُّنَّة» رقم (٤٥١) بسند صحيح.

وذلك أن الله تعالى له صفات الكمال، وكلُّ صفةٍ كمال لا نقص فيه فالله يتَّصفُ بها، والكلامُ صفةُ كمال، فإنَّ مَنْ يتكلَّمُ أكملُ ممَّن لا يتكلَّمُ، والذي يتكلَّمُ بمشيئته وقدرته أكملُ ممَّن لا يتكلَّمُ بمشيئته وقدرته، وهو إما أن يكون قادراً على الكلام أو غير قادرٍ، فإن لم يكن قادراً فهو الأخرس، وإن كان قادراً ولم يتكلَّم مُطلقاً إلا إذا مُكِّن أو استُنطق فهو لا يتكلَّم بمشيئته واختياره، وليست هذه ولا تلك صفةً لله (٥٢).

وهذا الاعتقاد لا تُقرُّ به الأشعرية، لأنَّ ما تعلَّقَ عندهم بالمشيئة والاختيار مخلوق، والله تعالى لا يقومُ به شيءٌ يتعلَّقُ بمشيئته وقدرته.

وهذا مما نتج عن أصلهم الفاسد في كون كلام الله تعالى معنى أزلياً واحداً، ومما وافقوا فيه الجهمية.

قال شيخ الإسلام: «وهؤلاء وافقوا الجهمية والمعتزلة في أصل قولهم: إنه متكلَّم بكلام لا يقوم بنفسه ومشيئته وقدرته، وإنه لا يقومُ به الأمور الاختيارية، وإنه لم يستو على عرشه بعد أن خلق السموات والأرض، ولا يأتي يوم القيامة، ولم يُنادِ موسى حين ناداه، ولا تُغضبُه المعاصي، ولا تُرضيه الطاعات، ولا تُفرِّحه توبة التائبين» (٥٣).

قلت: لأن الله عندهم لا يوصف بالرضا والغضب والفرح، ولا بالإتيان والمجيء، ولا بالاستواء على العرش بعد خلق السموات والأرض، وهو خلاف ما نطق به الكتاب العزيز من أنه كان بعد خلق

(٥٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ٢٩٤/٦ - ٢٩٥.

(٥٣) «مجموع الفتاوى» ٥٩٤/١٢.

السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ .

وهذا المعنى الذي ذكرناه عن الأشعرية من عَدَمِ تَعَلُّقِ كَلَامِهِ تَعَالَى بِمَشِيئَتِهِ وَقُدْرَتِهِ ، لَمْ يَتَصَوَّرُوهُ هُمْ أَنْفُسُهُمْ ، وَلَمْ يَقْدِرُوا عَلَى تَفْسِيرِهِ بِتَفْسِيرِ مَعْقُولٍ وَاضِحٍ ، إِلَّا عَلَى مَعْنَى إِبْطَالِ حَقِيقَةِ الْكَلَامِ .

وهذا كَلَامٌ بَعْضُ مُحَقِّقِهِمْ يُفَصِّحُ لَكَ عَنْ حَقِيقَةِ اعْتِقَادِهِمْ :

قَالَ ابْنُ فُورَكٍ : « كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى أَزْلِي قَدِيمٌ ، سَابِقٌ لْجُمْلَةِ الْحَوَادِثِ ، وَإِنَّمَا أَسْمَعَ وَأَفْهَمَ لِمَنْ أَرَادَ مِنْ خَلْقِهِ عَلَى مَا أَرَادَ فِي الْأَوْقَاتِ وَالْأَزْمَنَةِ ، لَا أَنْ [عَيْنَ] كَلَامِهِ يَتَعَلَّقُ وَجُودُهُ بِمُدَّةٍ وَزَمَانٍ » (٥٤) .

وَقَالَ : « نَقُولُ : إِنَّ اللَّهَ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا ، وَلَا يَزَالُ مُتَكَلِّمًا ، وَأَنَّهُ قَدْ أَحَاطَ كَلَامُهُ بِجَمِيعِ مَعَانِي الْأَمْرِ وَالنَّهْيِ وَالْخَبَرِ وَالِاسْتِخْبَارِ ، وَأَنَّ الْعِبَارَاتِ عَنْهُ وَالِدَّلَالَاتِ كَثِيرَةٌ تَتَجَدَّدُ وَتَتَزَايَدُ ، وَلَا يَزِيدُ بِتَزَايِدِ الْعِبَارَاتِ كَمَا أَنَّ الدَّلَالَاتِ عَلَى اللَّهِ عَزَّ ذِكْرُهُ تَتَجَدَّدُ وَتَتَزَايَدُ ، وَلَا يَقْتَضِي تَجَدُّدَ الْمَدْلُولِ وَتَزَايِدَهُ ، فَإِذَا حَصَلَتْ هَذَا الْأَصْلَ عِلِمَتٌ حَقِيقَةٌ مَا نَقُولُ » (٥٥) .

وَقَالَ : « إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ لَمْ يَزَلْ وَلَا يَزَالُ مُوجُودًا ، فَإِنَّهُ يُفْهَمُ خَلْقَهُ مَعَانِي كَلَامِهِ أَوَّلًا فَأَوَّلًا ، وَشَيْئًا فَشَيْئًا ، وَأَنَّ الَّذِي يَتَجَدَّدُ الْإِسْمَاعُ وَالْإِفْهَامُ دُونَ الْمَسْمُوعِ الْمَفْهُومِ » (٥٦) .

وَقَالَ حَوْزٌ مَا وَرَدَ مِنْ تَكْلِيمِ اللَّهِ لِعِبَادِهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ : « وَالصَّحِيحُ أَنَّ

(٥٤) «مشكل الحديث» ص : ١٣٣ - ١٣٤ .

(٥٥) «مشكل الحديث» ص : ٢٠٤ .

(٥٦) «مشكل الحديث» ص : ٢٣٢ .

يقال: إن كلام الله لم يزل ولا يزال، وإنه مُسمَعٌ مَنْ يَشَاءُ مِنْ خَلْقِهِ، ومُفْهِمٌ مَنْ أَرَادَ مِنْهُمْ إِفْهَامَهُ فِي الْوَقْتِ الَّذِي يُرِيدُ أَنْ يُسْمِعَهُ وَيُفْهِمَهُ مَا يُرِيدُ مِنْ ذَلِكَ، مِنْ غَيْرِ تَجْدِيدِ قَوْلٍ وَلَا كَلَامٍ، وإذا قِيلَ فِي الْفَاطِ هَذِهِ الْأَخْبَارُ: يَقُولُ اللَّهُ، وَيتَكَلَّمُ اللَّهُ، فَلَيْسَ الْمُرَادُ بِهِ تَجْدِيدُ الْقَوْلِ وَالْكَلَامِ، وَإِنَّمَا الْمُرَادُ تَجْدِيدُ الْإِسْمَاعِ وَالْإِفْهَامِ لِلْقَوْلِ الَّذِي لَمْ يَزَلْ» (٥٧).

وَصَرَّحَ بِإِنْكَارِ قَوْلٍ مَنْ يَقُولُ: إِنَّ اللَّهَ يَتَكَلَّمُ مَرَّةً بَعْدَ أُخْرَى، وَعَلَّلَ ذَلِكَ بِقَوْلِهِ: «لَأَنَّ ذَلِكَ يُوجِبُ حَدَثَ الْكَلَامِ» (٥٨).

وَقَالَ الْبَاجُورِيُّ فِي تَكْلِيمِ اللَّهِ لِمُوسَى: «وَلَيْسَ الْمُرَادُ أَنَّهُ تَعَالَى يَبْتَدِئُ كَلَامًا ثُمَّ يَسْكُتُ، لِأَنَّهُ لَمْ يَزَلْ مُتَكَلِّمًا أَزْلًا وَأَبَدًا» (٥٩).

قُلْتُ: وَفِي هَذَا الْكَلَامِ عِدَّةُ أُمُورَ:

الْأَوَّلُ: أَنَّ صِفَةَ الْكَلَامِ الثَّابِتَةَ لِلَّهِ تَعَالَى هِيَ الْمَعْنَى الْقَدِيمُ، لَا أَوَّلَ لَهَا وَلَا آخِرَ.

وَالثَّانِي: أَنَّ الَّذِي يُوحَى لِلرُّسُلِ، وَغَيْرِهِمْ مِمَّا يَتَعَلَّقُ بِالْأَزْمَنِ وَالْأَمَكَةِ هُوَ الْعِبَارَاتُ عَنْ هَذَا الْكَلَامِ، وَالذَّلَالَاتُ عَلَيْهِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ، كَالَّذِي سَمِعَ مُوسَى حِينَ أَتَى الشَّجَرَةَ.

وَالثَّالِثُ: أَنَّ قَوْلَ اللَّهِ لِمَا يُرِيدُ تَكْوِينَهُ (كُنْ) وَمَا يُوحَى إِلَى رُسُلِهِ مِنَ الْكَلَامِ الْمُعَبَّرِ عَنْهُ بِعِبَارَاتٍ كَالْقُرْآنِ وَالتَّوْرَةِ وَالْإِنْجِيلِ، كُلُّ ذَلِكَ مَعْنَى ثَابِتٌ

(٥٧) «مشكل الحديث» ص: ٢٣٥، وانظر ص: ٢٣٣.

(٥٨) «مشكل الحديث» ص: ٢٣٢ - ٢٣٣.

(٥٩) «شرح الجوهرة» ص: ٧٤.

في الأزل، ولا يزال، وإنما تكونُ الأشياءُ في الأوقات التي شاء الله فيها كونها، لا أنه يتجددُ قوله لما يُريدُ تكوينه (كُنْ) ويُنزَلُ على رُسُلِهِ العباراتِ عن كلامه، وهي المتجددةُ الموصوفةُ بالابتداءِ والانتهاهِ والتَّقدُّمِ والتَّأخُّرِ كالنُّورِ والإنجيلِ والقرآنِ، أمَّا الكلامُ القديمُ فثابتٌ لا يتجددُ.

وجُمْلَةُ هذه الأمورِ هي ما يُعبَّرُ عنه بأنَّ كلامَ الله غيرُ متعلِّقٍ بمَشِيئَتِهِ واختياره.

ولمَّ يَعْقِلِ القومُ أنَّ هذه صفةُ نَقْصٍ وَعَجْزٍ، لا تَلِيقُ بِالْمَخْلُوقِ الضَّعِيفِ فكيف جَعَلُوهَا لاثِقَةً بربِّهم تعالى وهو القُدُّوسُ السَّلامُ؟

وإنَّ مِمَّا اضْطَرَبُوا فِيهِ بِسَبَبِ هذه البدعةِ الأَمْرُ والنَّهْيُ، فقالوا: الأَمْرُ والنَّهْيُ وصفانِ للكلامِ، والله لم يَزَلْ أَمْرًا نَاهِيًا، ولا يَزَالُ أَمْرًا نَاهِيًا، كما أَنَّهُ لا يَزَالُ مَتَكَلِّمًا، وهذا يَقْتَضِي القولَ بِجَوَازِ خِطَابِ المَعْدُومِ، بمعنى أَنَّ الله خَاطَبَ العِبَادَ بالأَمْرِ والنَّهْيِ أزلًا قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ، أَمْرًا وَنَهْيًا لا أَوَّلَ لَهُ، فافترقوا إزاءَ هذا فريقيْن:

الأوَّلُ: قالوا بِجَوَازِ خِطَابِ المَعْدُومِ، فكلامُ الله لم يَزَلْ أَمْرًا وَنَهْيًا للمُكَلِّفِينَ الَّذِينَ خُلِقُوا بَعْدَ ذَلِكَ، بِشَرَطِ أَنْ يَفْعَلُوا مَا أَمَرُوا بِهِ بَعْدَ الوجودِ والبُلُوغِ ووفورِ العقلِ^(٦٠).

والثاني: قالوا بَعْدَمِ جَوَازِ خِطَابِ المَعْدُومِ قَبْلَ خَلْقِ الخَلْقِ، فهؤلاءُ منهم لا يَصِفُونَ الله بِكونِهِ أَمْرًا نَاهِيًا، وإنما يَقُولُونَ: صارَ كلامُهُ أَمْرًا وَنَهْيًا

(٦٠) «أصول الدين» لعبد القاهر ص: ١٠٨.

عند توجّه اللزوم على المكلف^(٦١).

وكلا المذهبين فاسدان.

أما الأول فيما نقضناه عليهم في قولهم: كلام الله معنى مجرد، وإقامة الأدلة على أن كلامه تعالى متعلق بمشيئته واختياره، يتكلم بأمره ونهيهِ وخبره تعالى إذا شاء، ومتى شاء.

وأما الثاني فمقتضاه القول بأن كلام الله مخلوق جميعاً، لأنه لا يعرف الكلام إلا ما كان خبراً أو إنشاءً، وعند هؤلاء ما لا يسبق الحوادث فهو حادث، والخبر والإنشاء لم يكونا إلا بعد وجود المكلف، فالمكلف سابق الوجود للأمر والنهي والخبر، فهي مخلوقة على أصلهم، وهل كلام الله إلا الأمر والنهي والخبر؟

وهذا القول مقتض أن يكون معنى كلام الله مخلوقاً أيضاً لا ألفاظه فحسب، وبهذا يبطل دين الأشعرية في إثبات صفة الكلام، فليس ثم معنى قديم، وهم أنفسهم لم يكونوا يتصورون معنى قديماً هو الأمر والنهي والخبر، فكيف يمكنهم تصور كلام هو معنى ليس بأمر ولا نهي ولا خبر؟

فمحصّل ما ذكرنا أن الأشعرية مضطربون كلّ الاضطراب في إثبات مذهبهم، وسبب ذلك عجزهم عن تصوّره وإدراكه، وإلا فكيف يمكن وقوع الكلام من موصوف به من غير أن يكون بقدرته ومشيئته؟

وهم ينزهون الله تعالى عن الخرس والسكوت، ومعنى هذا على

(٦١) «أصول الدين» ص: ١٠٨ و«الإرشاد» لأبي المعالي الجويني ص:

التَّحْقِيقُ أَنَّهُ مُتَكَلِّمٌ بِالْحُرُوفِ وَالْأَصْوَاتِ، لَأَنَّ الْخَرَسَ عَدَمُ الْقُدْرَةِ عَلَى الْكَلَامِ، وَالسُّكُوتُ عَدَمُ النُّطْقِ بِالْكَلَامِ، لَكِنَّ الْقَوْمَ فَرُّوا مِنْ هَذِهِ الْحَقِيقَةِ الَّتِي لَا يَعْقِلُ الْعَاقِلُ سِوَاهَا إِلَى خُرَافَةٍ لَا يَسْتَسِيغُهَا الصَّبِيانُ، فَضْلاً عَنْ الْعُقَلَاءِ الْعَارِفِينَ، فَقَالُوا: الْخَرَسُ وَالسُّكُوتُ نَفْسِيَانِ، فَالَّذِي يُنَزَّهُ اللَّهُ عَنْهُ عِنْدَهُمْ هُوَ الْخَرَسُ النَّفْسِيُّ وَالسُّكُوتُ النَّفْسِيُّ، أَرَأَيْتَ كَلَاماً أَشْبَهَ بِالسُّفْسَطَةِ مِنْ هَذَا؟!

فَتَأَمَّلْ رَحِمَكَ اللَّهُ اعْتِقَادَ السَّلَفِ وَالْأَثَمَةِ، وَاَنْظُرْ بَيَانَهُ وَظَهْوَرَهُ وَقُوَّةَ حُجَّتِهِ وَدَلِيلِهِ، وَقَارِنْهُ بِهَذِهِ السَّفَاهَاتِ الْأَشْعَرِيَّةِ وَغَيْرِهَا يَجُلُّ لَكَ الْحَقُّ وَيَنْقَطِعُ عَنْكَ الشُّكُّ وَالرَّيْبُ، فَإِنَّ اعْتِقَادَ السَّلَفِ لَا يَرُدُّ عَلَيْهِ بِفَضْلِ اللَّهِ شَيْءٌ مِنْ أَقْوَالِ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَقَدْ كَفَيْنَاكَ فِي الْبَابِ الْأَوَّلِ وَلِلَّهِ الْحَمْدُ.

وَأَمَّا مَا حَاوَلَ أَهْلُ الْبِدْعِ أَنْ يَمْوِّهُوا بِهِ فَهُوَ دَلِيلُ خَيْرَتِهِمْ، وَهُوَ حُجَّةٌ عَلَيْهِمْ لَوْ عَقَلُوهُ - كَمَا قَدْ رَأَيْتَ - وَلَوْ أَنَّهُمْ تَرَكَوا الْكَلَامَ الْمَذْمُومَ وَأَقْبَلُوا عَلَى الْوَحْيِ الْمَعْصُومِ لَسَلِمَ لَهُمْ دِينُهُمْ.



المبحث الثالث

القرآن العربي عند الأشعرية

بيّن في شرح اعتقاد السلف أنّ هذا القرآن العربيّ المؤلّف من الحروف العربيّة، المشتمل على المعاني من الأوامر والنواهي، والأخبار، وغير ذلك ممّا خاطب الله تعالى به العباد، وأنزله على رسوله محمّد ﷺ بواسطة الأمين جبريل عليه السلام، على الأحرف السبعة تسييراً على الأئمة، وهذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة بألفاظه ومعانيه، وبحروفه وكلماته وآياته وسوره، غير مخلوق، من أوّل الفاتحة إلى آخر الناس، لا قرآن سواه، وبسطت ذلك بالأدلة، وبيّنت في الباب الثاني في إقامة الحجّة على بطلان اعتقاد اللفظيّة، الذين يعتقدون خلق الألفاظ العربيّة، بالحجج القواطع من كتاب الله تعالى واعتقاد السلف، وسقت هناك من نصوص الأئمة ما فيه الكفاية والمقنع لمن طلب الهدى وقصده، ورام اتباع السلف وترك البدع.

ولكن الأشعرية - رأس القائلين بخلق الألفاظ - أبوا التسليم لهذا المعتقد السلفي، وقالوا فيه بقول الجهميّة الضلال: أنّه مخلوق، وليس هو كلام الله على الحقيقة، وإنّما هو عبارة عنه، لأنّ كلام الله عندهم هو

المعنى القائم بنفسه - كما شرّحناه عنهم - .

وهذا القول فاقوا فيه المعتزلة، لأن المعتزلة كانوا يُسمون هذا القرآن العربيّ كلامَ الله، ويصفونه بالخلق، أمّا هؤلاء فوافقوهم في وصفه بالخلق، لكنهم زادوا عليهم نفْي كونه كلامَ الله، وهذا وإن كان حقيقة قول المعتزلة، إلّا أنّهم لم يُصرّحوا به تصرّيح الأشعرية.

ويتلخّص اعتقادهم في القرآن العربيّ في الأمور الآتية:

- ١ - هو عبارة ودلالة على الكلام القديم، وليس هو الكلام القديم.
- ٢ - لا يُسمّى كلامَ الله على الحقيقة، إلّا على معنى أنّه خلقه في اللوح المحفوظ أو غيره.
- ٣ - يُسمّى كلامَ الله مجازاً من تسمية الدالّ باسم المدلول.
- ٤ - الأكثرون منهم على أنّه مخلوق في اللوح المحفوظ، ومنهم من قال: في غيره، ومنهم من قال: هو قول جبريل عليه السّلام، ومنهم من قال: هو قول محمد ﷺ.
- ٥ - لم ينزل إلى الأرض إلّا ما هو مخلوق.

وهذه بعض نصوصهم الصريحة تُثبت صحة ما ذكرته عنهم:

قال أبو بكر الباقلاني: «إنّ الكلام الحقيقي هو المعنى الموجود في النفس، لكن جعل عليه أمارات تدل عليه، فتارة تكون قولاً بلسان على حكم أهل ذلك اللسان وما اضطلحوا عليه وجرى عرفهم به وجعل لغة لهم، وقد بين تعالى ذلك بقوله: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] فأخبر تعالى أنّه أرسل موسى عليه السّلام إلى بني

إسرائيل بلسانٍ عبراني، فأفهمهم كلامَ الله القديم القائم بالنفسِ بالعبرانية،
وبعثَ عيسى عليه السَّلام بلسانٍ سرياني، فأفهمهم قومه كلامَ الله القديم
بلسانهم، وبعثَ نبيُّنا ﷺ بلسانِ العرب، فأفهمهم قومه كلامَ الله القديم
القائم بالنفسِ بكلامهم، فلغةُ العربِ غيرُ لغةِ العبرانية، ولغةُ السَّريانية
غيرهما، لكنَّ الكلامَ القديم القائم بالنفسِ شيءٌ واحدٌ لا يَخْتَلِفُ ولا
يَتَغَيَّرُ. . .» (٦٢).

حتى قال: «فصحَّ أنَّ الكلامَ الحقيقيَّ هو المعنى القائم بالنفسِ دونَ
غيره، وإنَّما الغيرُ دليلٌ عليه بحُكم التَّواضعِ والاصطلاح، ويجوزُ أن
يُسَمَّى كلاماً إذ هو دليلٌ على الكلام، لا أنَّه نفسُ الكلام الحقيقيِّ» (٦٣).

ويُفَصِّحُ عن مُنْشِئِ هَذَا الكلامِ العربيِّ فيقولُ: «والمَنزُولُ به هو
اللُّغَةُ العربيَّة التي تَلا بها جبريلُ، ونحنُ نتلو بها إلى يومِ القيامةِ، لقوله
تعالى: ﴿بِلِسَانٍ عَرَبِيٍّ مُبِينٍ﴾ [الشعراء: ١٩٥] والنَّازِلُ على الحَقِيقَةِ،
الْمُنْتَقِلُ مِنْ قُطْرٍ إِلَى قُطْرٍ قَوْلُ جبريلَ عليه السَّلام، يدلُّ على هَذَا قوله
تعالى: ﴿فَلَا أُقْسِمُ بِمَا تُبْصِرُونَ . وَمَا لَا تُبْصِرُونَ . إِنَّهُ لَقَوْلُ رَسُولٍ
كَرِيمٍ . . .﴾ وذكرَ الآياتِ، ثُمَّ ذَكَرَ آيَةَ التَّكْوِيرِ، ثُمَّ قَالَ: «وهَذَا إِنْجَارٌ مِنْ
اللهِ تعالى بأنَّ النِّظْمَ العربيَّ الَّذِي هو قِرَاءَةُ كلامِ الله تعالى هو قولُ جبريلَ،
لا قولَ شاعرٍ، ولا قولَ كاهنٍ. . .» (٦٤).

قُلْتُ: وقد بيَّنا الحقَّ في تفسيرِ آيتي الرُّسُولَيْنِ في البابِ الثَّانِي في

(٦٢) «الإنصاف» ص: ١٠٦ - ١٠٧.

(٦٣) «الإنصاف» ص: ١٠٧.

(٦٤) «الإنصاف» ص: ٩٧.

شَرَحَ مسألة اللفظ، بما يُبْطِلُ مذهبَ الباقلاني وَمَنْ تَابَعَهُ، فَارْجِعْ إِلَيْهِ.

وقال صاحب «كفاية العوام» - منهم - : «وليس المراد بكلامه تعالى الواجب له تعالى الألفاظ الشريفة المنزلة على النبي ﷺ، لأن هذه حادثة، والصفة القائمة بذاته تعالى قديمة، وهذه مشتملة على تقدم وتأخر وإعراب وسور وآيات، والصفة القديمة خالية عن جميع ذلك، فليس فيها آيات، ولا سور، ولا إعراب، لأن هذه تكون للكلام المشتمل على حروف وأصوات، والصفة القديمة منزّهة عن الحروف والأصوات» (٦٥).

حتى قال : «ويسمى كل من الصفة القديمة والألفاظ الشريفة : قرآناً، وكلام الله، إلا أن الألفاظ الشريفة مخلوقة، مكتوبة في اللوح المحفوظ، نزل بها جبريل عليه السلام على النبي ﷺ، بعد أن نزلت في ليلة القدر في بيت العزة : محل في سماء الدنيا» (٦٦).

وقال الباجوري : «مذهب أهل السنة - يريد الأشعرية - أن القرآن بمعنى الكلام النفسي ليس بمخلوق، وأما القرآن بمعنى اللفظ الذي نقرؤه فهو مخلوق» (٦٧).

وقال : «من أضيف له كلام لفظي دل عرفاً أن له كلاماً نفسياً، وقد أضيف له تعالى كلام لفظي، كالقرآن، فإنه كلام الله قطعاً، بمعنى أنه خلقه في اللوح المحفوظ، فدل التزاماً على أن له تعالى كلاماً نفسياً، وهذا

(٦٥) «كفاية العوام» ص : ١٠٢ - ١٠٣.

(٦٦) «كفاية العوام» ص : ١٠٤ - ١٠٥.

(٦٧) «شرح الجوهرة» ص : ٩٤.

هو المراد بقولهم: القرآن حادثٌ، ومدلوله قديمٌ، فأرادوا بمدلوله الكلام النفسي، وتكفي الإضافة الإجمالية وإن لم يكن اللفظي قائماً بالذات» (٦٨).

وقال صاحب «الجوهرة»:

فكلُّ لَفْظٍ لِلْحُدُوثِ دَلَالَةٌ أَحْمِلُ عَلَى اللَّفْظِ الَّذِي قَدْ دَلَّ

فقال الباجوري في «شرحِه»: «(على اللفظ) أي على القرآن، بمعنى: اللفظ المُنزَل على نبيِّنا ﷺ، المُتَعَبَّد بتلاوته المُتَحَدَّى بِأَقْصَرِ سورةٍ منه، والرَّاجِعُ أَنَّ المُنزَلَ اللَّفْظُ والمعنى، وقيل: المُنزَلَ المعنى، وعَبَّرَ عنه جبريلُ بِالْفَافِ من عنده، وقيل: المُنزَلَ المعنى، وعَبَّرَ عنه النبي ﷺ بِالْفَافِ من عنده، لكن التحقيق الأول، لأنَّ الله خَلَقَهُ أَوَّلًا فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، ثُمَّ أَنْزَلَهُ فِي صَحَائِفَ إِلَى سَمَاءِ الدُّنْيَا، فِي مَحَلٍّ يُقَالُ لَهُ: بَيْتُ الْعِزَّةِ، فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ، كَمَا قَالَ تَعَالَى: ﴿إِنَّا أَنْزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةِ الْقَدْرِ﴾ ثُمَّ أَنْزَلَهُ عَلَى النَّبِيِّ ﷺ مُفَرَّقًا بِحَسَبِ الْوَقَائِعِ».

حتى قال: «والحاصلُ أَنَّ كُلَّ ظَاهِرٍ مِنَ الْكِتَابِ وَالسُّنَّةِ دَلٌّ عَلَى حَدُوثِ الْقُرْآنِ فَهُوَ مَحْمُولٌ عَلَى اللَّفْظِ الْمَقْرُوءِ، لَا عَلَى الْكَلَامِ النَّفْسِيِّ» (٦٩).

قلت: يَعْنُون بِهَذَا قَوْلَهُ تَعَالَى: ﴿مَا يَأْتِيهِمْ مِنْ ذِكْرِ مِنْ رَبِّهِمْ مُحَدَّثٌ﴾ وَمَا فِي مَعْنَاهُ مِمَّا ذَكَرْنَاهُ عَنْ أَسْلَافِهِمُ الْجَهْمِيَّةِ فِي الْفَصْلِ

(٦٨) «شرح الجوهرة» ص: ٧٣.

(٦٩) «شرح الجوهرة» ص: ٩٥.

السابق ، وأظهرنا زيفهم فيه .

فهذه نصوصُ بعض مُحَقِّقِي الأشعرية ، وهي أُبَيِّنُ مِنْ أَنْ تُشْرَحَ ،
وأُصْرَحَ مِنْ أَنْ تُوضَّحَ ، مُصَرِّحَةً بِخُلُقِ هَذَا الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الَّذِي يَقُولُ اللَّهُ
تَعَالَى فِيهِ : ﴿ وَمَا كَانَ هَذَا الْقُرْآنُ أَنْ يُفْتَرَى مِنْ دُونِ اللَّهِ ﴾ [يونس : ٣٧]
والذي تحدَّى الخلقَ أَنْ يَأْتُوا بِسُورَةٍ مِثْلِهِ ، فَوَافَقُوا الْجَهْمِيَّةَ فِي قَوْلِهِمْ ،
وَنَبَذُوا مَذْهَبَ السَّلَفِ وَأَهْلِ السُّنَّةِ وَاعْتَقَادَهُمْ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ ، وَكَابَرُوا ،
فَتَظَاهَرُوا بِالرَّدِّ عَلَى الْجَهْمِيَّةِ ، وَالِانْتِسَابِ لِأَهْلِ السُّنَّةِ ، وَسَأَذْكُرُ لَكَ قَرِيباً
مَقَالَةً أَحَدٍ فُحُولِهِمْ فِي أَنَّهُمْ مُوَافِقُونَ لِلْمُعْتَزِلَةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ ، تُبَيِّنُكَ عَنْ
بَرَاءَتِهِمْ مِنْ اعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ مِنَ السَّلَفِ وَالْأَثَمَةِ فِي مَسْأَلَةِ كَلَامِ اللَّهِ
تَعَالَى .

ولقد أبطلتُ قَوْلَ هَؤُلَاءِ اللَّفْظِيَّةِ فِي الْبَابِ السَّابِقِ ، بِمَا فِيهِ غُبِيَّةٌ إِنَّ
شَاءَ اللَّهُ .

وأقولُ هُنَا إِلْزَاماً وَإِفْحَاماً : لَقَدْ صرَّحْتُمْ - معشرَ الأشعرية - فِي غَيْرِ
مَوْضِعٍ مِنْ كُتُبِكُمْ فِي صَدَدِ الرَّدِّ عَلَى الْمُعْتَزِلَةِ ، بِأَنْ كَلَامَ اللَّهِ لَوْ كَانَ مَخْلُوقاً
لَكَانَ مَخْلُوقاً فِي مَحَلٍّ ، وَلَكَانَ صِفَةً لَذَلِكَ الْمَحَلِّ الَّذِي خُلِقَ فِيهِ ، لَا صِفَةً
لِلَّهِ تَعَالَى .

وقولُكُمْ هَذَا صَوَابٌ وَمَعْقُولٌ مُوَافِقٌ لِلْمَنْقُولِ ، فَإِنَّهُ إِذَا خَلَقَ اللَّهُ تَعَالَى
حَرَكَةً أَوْ وَصْفاً فِي مَحَلٍّ كَانَ ذَلِكَ الْمَحَلُّ هُوَ الْمُتَحَرِّكُ الْمَوْصُوفَ بِذَلِكَ
الْوَصْفِ ، لَا الْخَالِقُ تَعَالَى ، فَإِنَّهُ لَا يُوصَفُ بِخُلُقِهِ ، فَكَلَامُهُ تَعَالَى الْمُضَافُ
إِلَيْهِ صِفَتُهُ ، فَإِنْ قِيلَ : مَخْلُوقَةٌ ، وَجَبَ أَنْ تَكُونَ قَائِمَةً بِمَخْلُوقٍ لَا بِاللَّهِ
تَعَالَى ، وَأَنْتُمْ تُقَرُّونَ بِهَذَا ، فَإِذَا كَانَتْ قَائِمَةً بِمَخْلُوقٍ لَمْ تَجُزْ إِضَافَتُهَا لِلَّهِ

تعالى على أنها صفة له ، وهذا موافق لإلزامكم للمعتزلة .

وهذا القرآن العربيُّ معلومُ الإضافةِ إلى الله تعالى بالضرورة ، فإنَّ الأُمَّةَ مُتَّفَقَةٌ على ذلك ، وقد تَلَقَّتْ ذلكَ عن رسولِ الله ﷺ على أنَّه كلامُ الله لا كلامُ غيره ، ففي نفي إضافتهِ إلى الله تكذيبُ للرَّسولِ ﷺ بما جاء به ، وتجهيلُ للصَّحابةِ رضي الله عنهم ، وهم أَجَلُ مَنْ أَنْ يَجْهَلُوا أنَّه لو كان مخلوقاً لكان مخلوقاً في محلٍّ ، فيكون بهذا صفةٌ لذلك المَحَلِّ لا لله تعالى .

وأنتم - معشرَ الأشعرية - قُلْتُمْ : إِنَّ اللهَ خَلَقَهُ ، قال أكثرُكم : في اللُّوحِ المَحْفُوظِ ، وقال آخرون : في غيره .

وهذا يُلْزِمُكُمْ على أصليكم الذي ألزمتُم به المعتزلة أن يكونَ كلامُ اللُّوحِ ، لا كلامُ الله ، فلا يَحْسُنُ منكم إضافتهِ إلى الله بحالٍ من الأحوالِ ، ولكنَّكم أَرَدْتُمْ التَّشْبِيهَ على الأُمَّةِ والتَّلبِيسَ عليها ، وسَترَ مقالَتِكُم السُّنِيعَةَ التي هي في الحَقِيقَةِ مَقالَةُ الجَهمِيَّةِ ، فَكَسَوُوهَا زوراً بِكِساءِ أَهْلِ السُّنَّةِ ، لِيَتَخَفُوا حَقِيقَةَ أَمْرِكُم .

فكذبتُم الرَّسولَ ﷺ في أنَّه كلامُ الله ، وجَهِلْتُم أَصْحابَه والتَّابِعِينَ لَهُمْ بِإِحْسَانٍ ، الَّذِينَ لَمْ يَكُونُوا يَعْرِفُونَ هَذَا الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ إِلَّا أنَّه كلامُ الله وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ .

بل تَبَجَّحَ بَعْضُكُمْ فافْتَرَى ، وَزَادَ إِفْكَاً أَنَّهُ قَوْلُ جَبْرِيلَ ، وَلَبَسَ عَلَى النَّاسِ بِمَا لَمْ يَفْهَمُوهُ هُوَ مِنَ الْقُرْآنِ ، وَأَضَلُّ مِنْهُ وَأَكْفَرُ مَنْ قَالَ مِنْكُمْ : إِنَّهُ مِنْ إِنْشَاءِ النَّبِيِّ ﷺ ، وَأَنْتُمْ أَتَيْتُمُ الْمَسَاكِينَ تُورِدُونَ خِلَافَ أَصْحَابِكُمْ فِي كونهِ

مَخْلُوقاً فِي اللَّوْحِ، أَوْ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ فِي جِبْرِيلَ، أَوْ مُحَمَّدٍ ﷺ، مَوْرَدَ مَسَائِلِ
الْفُرُوعِ الْخِلَافِيَةِ.

وَأَمَّا قَوْلُ إِمَامِكُمُ الْجَوْنِيِّ وَمَنْ تَبِعَهُ : إِنَّ إِطْلَاقَ كَلَامِ اللَّهِ عَلَى الْكَلَامِ
النَّفْسِيِّ، وَالنُّظْمِ الْعَرَبِيِّ، حَقِيقَةٌ فِيهِمَا جَمِيعاً^(٧٠)، فَهُوَ أَبْعَدُ شَيْءٍ عَنِ
الْمَعْقُولِ الَّذِي تَدَّعُونَهُ، فَإِنَّهُ إِنْ كَانَ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ عَلَى هَذِهِ
الْمَقَالَةِ، بَطُلَ أَنْ يَكُونَ مَخْلُوقاً، سَوَاءَ كَانَ مَا سَمَّيْتُمُوهُ بِالْكَلَامِ النَّفْسِيِّ، أَوْ
النُّظْمِ الْعَرَبِيِّ، وَهَذَا يُسْطَلُّ أَصْلَكُمْ، وَلَكِنَّ الْأَمْرَ يَنْطَوِي عَلَى سِرٍّ لَا
تُظْهِرُونَهُ عَلَى كُلِّ حَالٍ خَشِيَةَ أَنْ تَبْدُو سَوَآتُكُمْ، وَتَنْكَشِفَ عَوْرَاتُكُمْ، وَهُوَ
الَّذِي صَرَّحَ بِهِ شَارِحُ الْجَوْهَرَةِ حِينَ قَالَ : «إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ قَطْعاً، بِمَعْنَى أَنَّهُ
خَلَقَهُ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ» فَهَذِهِ الْحَقِيقَةُ الْمُرَادَةُ عِنْدَكُمْ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ ابْنُ تَيْمِيَّةٍ : «إِنْ قِيلَ : إِنَّهُ كُلُّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَكَلَّمَ بِهِ،
وَبَلَغَهُ عَنْهُ جِبْرِيلُ إِلَى مُحَمَّدٍ - كَمَا هُوَ الْمَعْلُومُ مِنْ دِينِ الْمُرْسَلِينَ - كَانَ هَذَا
صَرِيحاً بِأَنَّهُ لَا فَرْقَ بَيْنَ الْحُرُوفِ وَالْمَعَانِي، وَأَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، كَمَا
أَنَّ هَذَا مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، وَإِنْ قِيلَ : إِنَّهُ خُلِقَ فِي غَيْرِهِ حُرُوفاً مَنْظُومَةً دَلَّتْ عَلَى
مَعْنَى قَائِمٍ بِذَاتِهِ، فَقَدْ صَرَّحَ بِأَنَّ تِلْكَ الْحُرُوفَ الْمُؤَلَّفَةَ لَيْسَتْ كَلَامَهُ، وَأَنَّهُ
لَمْ يَتَكَلَّمْ بِهَا بِحَالٍ، وَإِذَا قِيلَ : إِنَّ تِلْكَ تُسَمَّى كَلَاماً حَقِيقَةً، وَقَدْ خُلِقَتْ
فِي غَيْرِهِ، لَزِمَ أَنْ تَكُونَ كَلَاماً لِذَلِكَ الْغَيْرِ، فَلَا يَكُونُ كَلَامَ اللَّهِ، وَهُوَ خِلَافُ
الْمَعْلُومِ مِنْ دِينِ الْإِسْلَامِ، وَإِنْ قِيلَ : لَا يُسَمَّى كَلَاماً حَقِيقَةً كَانَ خِلَافُ
الْمَعْلُومِ مِنَ اللُّغَةِ وَالشَّرِيعَةِ ضَرُورَةً»^(٧١).

(٧٠) انظر: «الإرشاد» للجويني ص: ١٠٨.

(٧١) «مجموع الفتاوى» ٥٣٥/٦.

فالتَّحْقِيقُ الَّذِي لَا مِرَّةَ فِيهِ أَنَّ الْأَشْعَرِيَّةَ يَعْتَقِدُونَ أَنَّ الْقُرْآنَ الْعَرَبِيَّ
مَخْلُوقٌ، وَهَذَا عَيْنُ قَوْلِ الْمُعْتَزِلَةِ الْجَهْمِيَّةِ.

شبهة :

وَمَعَ التَّحْقِيقِ الَّذِي ذَكَرْنَا فِي اعْتِقَادِهِمْ، فَإِنَّهُمْ نَصُّوا عَلَى أَنَّ الْقُرْآنَ
الَّذِي نَتْلُوهُ كَلَامُ اللَّهِ، مَتَلَّوْا بِالْسِّنِّ عَلَى الْحَقِيقَةِ، مَكْتُوبٌ فِي مَصَاحِفِنَا
عَلَى الْحَقِيقَةِ، مَحْفُوظٌ فِي صُدُورِنَا عَلَى الْحَقِيقَةِ، مَسْمُوعٌ بِأَسْمَاعِنَا عَلَى
الْحَقِيقَةِ.

وَهَذِهِ شُبْهَةٌ التَّبَسُّتِ حَقِيقَتُهَا عَلَى كَثِيرٍ مِنَ النَّاسِ، وَخَاصَّةً مِنْ
بَعْضِ إِخْوَانِنَا السَّلَفِيِّينَ، فَإِنَّهُمْ لَمَّا رَأَوْا ذَلِكَ فِي «الْإِبَانَةِ» لِلْأَشْعَرِيِّ، وَغَيْرِهِ
مِنْ أَتْبَاعِهِ، حَسِبُوهَا مُوَافَقَةً مِنْهُمْ لَاعْتِقَادِ أَهْلِ السُّنَّةِ.

وَلَيْسَ الْأَمْرُ كَذَلِكَ، فَإِنَّ الْقَوْمَ حِينَ فَصَّلُوا اعْتِقَادَهُمْ بَانَ حَقِيقَةُ
الْمَعْنَى الَّذِي أَرَادُوا وَرَاءَ هَذِهِ الْأَلْفَافِ الْمُجْمَلَةِ، بَلْ إِنَّهُمْ فَسَّرُوهَا فِي غَيْرِ
مَوْضِعٍ.

قَالَ أَبُو الْقَاسِمِ الْقَشِيرِيُّ - وَهُوَ مِنْ كِبَارِ مُحَقِّقِيهِمْ - فِي «شِكَايَةِ أَهْلِ
السُّنَّةِ» وَهُوَ يَذُبُّ عَنِ الْأَشْعَرِيِّ: «بَلِ الْقُرْآنُ مَكْتُوبٌ فِي الْمُصْحَفِ عَلَى
الْحَقِيقَةِ، وَالْقُرْآنُ كَلَامُ اللَّهِ، وَهُوَ قَدِيمٌ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، لَمْ يَزَلْ اللَّهُ بِهِ
مَتَكَلِّمًا، وَلَا يَزَالُ بِهِ قَائِلًا، وَلَا يَجُوزُ انفصالُ الْقُرْآنِ عَنِ ذَاتِ الْقَدِيمِ
سُبْحَانَهُ، وَلَا الْحُلُولُ فِي الْمَحَالِّ، وَكَوْنُ الْكَلَامِ مَكْتُوبًا عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي
أَبْوَابٍ لَا يَقْتَضِي حُلُولَهُ فِيهِ، وَلَا انفصالَهُ عَنِ ذَاتِ الْمُتَكَلِّمِ، قَالَ اللَّهُ
تَعَالَى: ﴿النَّبِيُّ الْأُمِّيُّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِنْدَهُمْ فِي التَّوْرَةِ﴾ [الأعراف:

١٥٧] فالنَّبِيُّ ﷺ على الحَقِيقَةِ مَكْتُوبٌ فِي التَّوْرَةِ، فَكَذَلِكَ الْقُرْآنُ عَلَى الْحَقِيقَةِ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، مَحْفُوظٌ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ، مَقْرُوءٌ مَتْلُوءٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالسَّنَةِ الْقَارِئِينَ مِنَ الْمُسْلِمِينَ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ عَلَى الْحَقِيقَةِ لَا عَلَى الْمَجَازِ مَعْبُودٌ فِي مَسَاجِدِنَا، مَعْلُومٌ فِي قُلُوبِنَا، مَذْكُورٌ بِالسِّنِّينَا» (٧٢).

قُلْتُ: فَأَفْصَحَ بِالْمَثَلِ الَّذِي ضَرَبَهُ عَنْ حَقِيقَةِ هَذِهِ الْمَقَالَةِ، فَإِنَّ الَّذِي فِي التَّوْرَةِ هُوَ ذِكْرُ النَّبِيِّ ﷺ، لَا عَيْنُهُ، وَهَذَا مِمَّا لَا يَشُكُّ فِيهِ أَحَدٌ، فَالْمَكْتُوبُ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي التَّوْرَةِ هُوَ ذِكْرُهُ ﷺ، كَمَا أَنَّ الْمَذْكُورَ بِالسَّنَةِ عَلَى الْحَقِيقَةِ هُوَ اسْمُهُ تَعَالَى، فَلَيْسَ مُرَادُ الْقَوْمِ أَنَّ الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ عِنْدَهُمْ لَا النِّظْمَ الْعَرَبِيَّ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، بِمَعْنَى أَنَّ عَيْنَ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، أَوْ عَيْنَ كَلَامِهِ مَحْفُوظٌ فِي الصُّدُورِ، أَوْ عَيْنَ كَلَامِهِ مَسْمُوعٌ بِالْأَذَانِ، وَإِنَّمَا كِتَابَةُ ذَلِكَ وَقِرَاءَتُهُ وَتِلَاوَتُهُ، وَهَذِهِ جَمِيعًا مَعَانِي مَخْلُوقَةٌ عِنْدَهُمْ، إِذْ هِيَ الْعِبَارَاتُ عَنِ الْكَلَامِ الْقَدِيمِ.

وَأَفْصَحَ عَنْ ذَلِكَ ابْنُ فُورَكٍ، فَقَالَ: «كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى مَحْفُوظٌ فِي الْقُلُوبِ، مَتْلُوءٌ بِالسَّنَةِ، مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ، كَمَا أَنَّ اللَّهَ جَلَّ ذِكْرُهُ مَذْكُورٌ بِالسَّنَةِ، مَعْبُودٌ بِالْجَوَارِحِ، وَلَا يَجُوزُ أَنْ يَكُونَ فِي شَيْءٍ مِنْ ذَلِكَ حَالًا، وَمِثْلُ هَذَا قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿وَأُشْرِبُوا فِي قُلُوبِهِمُ الْعِجْلَ﴾ [البقرة: ٩٣] وَالْمُرَادُ حُبُّ الْعِجْلِ، لِأَنَّ الْعِجْلَ لَمْ يَحُلْ فِي قُلُوبِهِمْ، وَاعْلَمْ أَنَّا لَا نَأْبَى أَنَّ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى مَحْفُوظٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِحِفْظٍ فِي الْقُلُوبِ، مَكْتُوبٌ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي الْمَصَاحِفِ كِتَابَةً حَالَةً فِيهَا، مَتْلُوءٌ بِالسَّنَةِ بِتِلَاوَةٍ فِيهَا، مَسْمُوعٌ

في الأسماعِ ، غيرُ حالٍ في شَيْءٍ مِنْ هَذِهِ المَخْلُوقَاتِ ، وَلَا نُجَاوِزُ^(٧٣) .

وَقَالَ عَبْدُ الْقَاهِرِ : «وَنَقُولُ : كَلَامُ اللَّهِ فِي الْمُصْحَفِ مَكْتُوبٌ ، وَفِي الْقَلْبِ مَحْفُوظٌ ، وَبِاللِّسَانِ مَتْلُوٌّ ، وَلَا يُقَالُ : إِنَّهُ فِي الْمَصَاحِفِ مُطْلَقًا ، وَلَا نَقُولُ عَلَى الْإِطْلَاقِ : إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ سُبْحَانَهُ فِي مَحَلٍّ ، وَلَكِنْ نَقُولُ عَلَى التَّقْيِيدِ : إِنَّهُ مَكْتُوبٌ فِي الْمَصَاحِفِ^(٧٤) .

فَهَذَا صَرِيحٌ مِنْهُمْ أَنَّ مَا بَيْنَ الدُّفْتَيْنِ كِتَابَةُ اللَّهِ الَّتِي هِيَ الْأَلْفَاظُ الْعَرَبِيَّةُ ، لَا كَلَامُ اللَّهِ ، وَمَا قَدْ شَرَحْنَاهُ عَنْهُمْ فِيمَا مَضَى كَافٍ فِي تَوْضِيحِ هَذَا الْمُرَادِ ، وَرَفَعَ الْإِشْكَالَ الْوَاردَ بِسَبَبِهِ .

وَقَدْ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ أَنَّهُمْ غَلَطُوا فِي التَّمْثِيلِ الَّذِي ذَكَرُوهُ غَلَطَيْنِ : غَلَطًا فِي تَصْوِيرِ مَذْهَبِهِمْ ، وَغَلَطًا فِي الشَّرِيعَةِ .

قَالَ رَحِمَهُ اللَّهُ : «أَمَّا الْغَلَطُ فِي تَصْوِيرِ مَذْهَبِهِمْ ، فَكَانَ الْوَاجِبُ أَنْ يَقُولُوا : إِنَّ الْقُرْآنَ فِي الْمُصْحَفِ مِثْلُ مَا إِنَّ الْعِلْمَ وَالْمَعَانِيَ فِي الْوَرَقِ ، فَكَمَا يُقَالُ : الْعِلْمُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، يُقَالُ : الْكَلَامُ فِي هَذَا الْكِتَابِ ، لِأَنَّ الْكَلَامَ عِنْدَهُمْ هُوَ الْمَعْنَى الْقَائِمُ بِالذَّاتِ ، فَيَصَوِّرُ لَهُ الْمَثَلُ بِالْعِلْمِ الْقَائِمَ بِالذَّاتِ ، لَا بِالذَّاتِ نَفْسِهَا .

وَأَمَّا الْغَلَطُ فِي الشَّرِيعَةِ ، فَيُقَالُ لَهُمْ : إِنَّ الْقُرْآنَ فِي الْمَصَاحِفِ مِثْلَمَا أَنَّ اسْمَ اللَّهِ فِي الْمَصَاحِفِ ، فَإِنَّ الْقُرْآنَ كَلَامٌ ، فَهُوَ مَحْفُوظٌ بِالْقُلُوبِ ، كَمَا يُحْفَظُ الْكَلَامُ بِالْقُلُوبِ ، وَهُوَ مَذْكُورٌ بِاللِّسَانَةِ كَمَا يُذَكَّرُ الْكَلَامُ بِاللِّسَانَةِ ، وَهُوَ

(٧٣) «مشكل الحديث» ص : ١٣٠ .

(٧٤) «أصول الدين» ص : ١٠٨ .

مكتوبٌ في المصاحف والأوراق، كما أن الكلام يُكتب في المصاحف والأوراق، والكلام الذي هو اللفظ يطابق المعنى ويدل عليه، والمعنى يطابق الحقائق الموجودة.

فمن قال: إن القرآن محفوظٌ كما أن الله معلومٌ، وهو متلوٌ كما أن الله مذكورٌ، ومكتوبٌ كما أن الرسول مكتوبٌ، فقد أخطأ القياس والتَّمثِيلَ بِدَرَجَتَيْنِ، فإنه جعل وجود الموجودات القائمة بأنفسها بمنزلة وجود العبارة الدالة على المعنى المطابق لها، والمسلمون يعلمون الفرق بين قوله تعالى: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٨] وبين قوله تعالى: ﴿وَإِنَّهُ لَفِي زُبُرِ الْأَوَّلِينَ﴾ [الشعراء: ١٩٦] فإن القرآن لم ينزل على أحدٍ قبل محمدٍ لا لفظه ولا جميع معانيه، ولكن أنزل الله ذكره، والخبر عنه، كما أنزل ذكر محمدٍ والخبر عنه.

فذكر القرآن في زُبرِ الأولين كما أن ذكر محمدٍ في زُبرِ الأولين، وهو مكتوبٌ عندهم في التوراة والإنجيل، فالله ورسوله معلومٌ بالقلوب، مذكورٌ باللسن، مكتوبٌ في المصحف، كما أن القرآن معلومٌ لمن قبلنا، مذكورٌ لهم، مكتوبٌ عندهم، وإنما ذاك ذكره والخبر عنه، وأما نحن فنفس القرآن أنزل إلينا، ونفس القرآن مكتوبٌ في مصاحفنا، كما أن نفس القرآن في الكتاب المكنون، وهو في الصحف المطهرة.

ولهذا يجبُ الفرقُ بين قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ فَعَلُوهُ فِي الزُّبُرِ﴾ [القمر: ٥٢] وبين قوله تعالى: ﴿وَكِتَابٍ مَسْطُورٍ . فِي رَقٍّ مَنشُورٍ﴾ [الطور: ٢ - ٣] فإن الأعمال في الزُّبرِ كالرسول. والقرآن في زُبرِ الأولين، وأما الكتابُ المسطورُ في الرِّقِّ المنشور، فهو كما يُكتبُ الكلامُ نفسه [في]

الصُّحُفَة ، فَأَيْنَ هَذَا مِنْ هَذَا؟» (٧٥) .

قلتُ : فتأمل - أرشدك الله - مدى تناقض القوم المتَّبَجِّحِينَ بِمَعْرِفَةِ
المَعْقُولِ ، المُجَانِبِينَ لِمَا جَاءَ بِهِ الرَّسُولُ ﷺ .

تنبيه :

تَرَى فِي بَعْضِ نُصُوصِ الْأَشْعَرِيَّةِ الْمَذْكُورَةِ قَرِيباً وَغَيْرِهَا ، تَزْيِيهِمُ
الْقُرْآنَ الَّذِي هُوَ كَلَامُ اللَّهِ عَنِ الْحُلُولِ فِي الْمُصْحَفِ ، وَلَوْ طُلِبَتْ تَفْسِيرُ
الْحُلُولِ فِي كَلَامِهِمْ وَجَدْتُهُمْ يَرِيدُونَ تَزْيِيهِ كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى الَّذِي هُوَ صِفَتُهُ
عَنِ الْكَوْنِ فِي الْوَرَقِ ، لِأَنَّ هَذَا بَزْعُمِهِمْ بَيِّنَةٌ لِلصِّفَةِ عَنِ الْمَوْصُوفِ وَمُفَارَقَةٌ
لَهُ ، فَيَرَوْنَ أَنَّهُمْ إِنْ أَقْرَأُوا بِأَنَّ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ فِي الْمُصْحَفِ أَبْطَلُوا
أَنْ تَكُونَ لِلَّهِ تَعَالَى صِفَةُ الْكَلَامِ ، لِأَنَّ كَلَامَهُ حِينَئِذٍ يَنْتَقِلُ وَيَحُلُّ فِي الْوَرَقِ .

وهذا منهم جَهْلٌ بِحَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، فَإِنَّ نَقْلَ الْكَلَامِ لَيْسَ كَنَقْلِ الْحَجَرِ
وَالصُّخْرِ ، فَنَقْلُ الْحَجَرِ وَالصُّخْرِ يَزِيلُهُ عَنْ مَوْضِعِهِ إِلَى الْمَوْضِعِ الَّذِي نُقِلَ
إِلَيْهِ ، بِخِلَافِ الْكَلَامِ ، فَهَذَا رَسُولُ اللَّهِ ﷺ كَانَ يُحَدِّثُ أَصْحَابَهُ بِالسُّنَنِ
وَالشَّرَائِعِ ، وَأَصْحَابُهُ يَحْفَظُونَ ذَلِكَ وَيَنْقُلُونَهُ عَنْهُ ، فَهَلْ مَا عَلَّمَهُمْ مِنْ قَوْلِهِ
ﷺ وَحَفِظُوهُ زَالَ عَنْهُ وَفَارَقَهُ؟ لَا يَعْقِلُ هَذَا عَاقِلٌ ، وَإِلَّا كَانَ مَا يَتَكَلَّمُ بِهِ
الْمُتَكَلِّمُ لَا يَقْدِرُ أَنْ يَتَكَلَّمَ بِهِ أَكْثَرَ مِنْ مَرَّةٍ ، وَإِنْ قُلْنَا : فَارَقَتْهُ صِفَةُ الْكَلَامِ
وَانْتَقَلَتْ إِلَى غَيْرِهِ بِسَمَاعِ ذَلِكَ الْغَيْرِ لِهَذَا الْكَلَامِ وَحِفْظِهِ لَهُ ، لَمَا صَحَّ أَنْ
يَبْقَى وَصْفُ الْكَلَامِ لَازِماً لَهُ ، وَلَعَادَ أَبْكَمَ بَعْدَ تَكْلِمِهِ مَرَّةً ، وَهَذَا غَيْرُ مَعْقُولٍ
وَلَا مُتَّصِرٍ .

(٧٥) «مجموع الفتاوى» ١٢/ ٣٨٣ - ٣٨٥ وانظر ص : ٣٨٦ و ٥٦٥ .

ولو صحَّ ما قالوه - أيضاً - لما صحَّت إضافة الكلام إلى مَنْ قاله ابتداءً، فالحديث - مثلاً - سَمِعَهُ أَبُو هُرَيْرَةَ رضي الله عنه من النَّبِيِّ ﷺ، يُضَافُ عَلَى قَوْلِ هَؤُلَاءِ إِلَى أَبِي هُرَيْرَةَ لَا إِلَى النَّبِيِّ ﷺ، لِأَنَّهُ فَارَقَ النَّبِيَّ ﷺ بِتَكْلِمِهِ بِهِ وَحَلَّ فِي أَبِي هُرَيْرَةَ فَصَارَ قَوْلًا لِأَبِي هُرَيْرَةَ، وَهَذَا الْمَعْنَى زَيْغٌ وَضَلَالٌ وَمُجَانِبَةٌ لِلْفَهْمِ السَّلِيمِ، وَتُعَدُّ عَنِ الصَّرَاطِ الْمُسْتَقِيمِ.

قال شيخ الإسلام: «ولهذا يقال: فلانُ يُنْقَلُ علمُ فلانٍ، ويُنْقَلُ كلامه، ويُقال: العلمُ الذي كان عندَ فلانٍ صارَ إلى فلانٍ، وأمثالُ ذلك، كما يُقال: نقلتُ ما في الكتاب، ونسختُ ما في الكتاب، أو نقلتُ الكتابَ أو نسختُه، وهم لا يُريدون أن نفسَ الحروف التي في الكتاب الأولِ عُدِمَتْ منه، وحلَّت في الثاني، بل لَمَّا كَانَ الْمَقْصُودُ مِنْ نَسْخِ الْكِتَابِ مِنَ الْكُتُبِ وَنَقْلِهَا مِنْ جَنْسِ نَقْلِ الْعِلْمِ وَالْكَلَامِ، وَذَلِكَ يَحْصُلُ بِأَنْ يُجْعَلَ فِي الثَّانِي مِثْلُ مَا فِي الْأَوَّلِ، فَيَبْقَى الْمَقْصُودُ بِالْأَوَّلِ مَنْقُولًا مَنْسُوخًا، وَإِنْ كَانَ لَمْ يَتَغَيَّرِ الْأَوَّلُ؛ بِخِلَافِ نَقْلِ الْأَجْسَامِ وَتَوَابِعِهَا، فَإِنَّ ذَلِكَ إِذَا نُقِلَ مِنْ مَوْضِعٍ إِلَى مَوْضِعٍ زَالَ عَنِ الْأَوَّلِ» (٧٦).

فهذا النظمُ العربيُّ مكتوبٌ فيما لا يُحصى من المصاحف، ويحفظه مَنْ لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللَّهُ مِنَ الْخَلَائِقِ، وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي سَمِعَهُ الصَّحَابَةُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قرآنٌ واحدٌ كما أنزلَ بِسُورِهِ وَآيَاتِهِ وَحُرُوفِهِ وَكَلِمَاتِهِ، وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، وَهُوَ نَفْسُهُ الَّذِي تَكَلَّمَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ.

قال شيخ الإسلام: «بل إذا قرأه الناس، أو كتبه في المصاحف،

لَمْ يَخْرُجْ بِذَلِكَ عَنْ أَنْ يَكُونَ كَلَامَ اللَّهِ تَعَالَى حَقِيقَةً، فَإِنَّ الْكَلَامَ إِنَّمَا يُضَافُ إِلَى مَنْ قَالَهُ مَبْتَدَأً، لَا إِلَى مَنْ قَالَهُ مُبَلِّغاً مُؤَدِّياً، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ: حُرُوفُهُ وَمَعَانِيهِ، لَيْسَ كَلَامُ اللَّهِ الْحُرُوفَ دُونَ الْمَعَانِي، وَلَا الْمَعَانِي دُونَ الْحُرُوفِ» (٧٧).

وقال الإمام ابن قُتَيْبَةَ: «وَالْقُرْآنُ لَا يَقُومُ بِنَفْسِهِ وَحْدَهُ، وَإِنَّمَا يَقُومُ بِوَاحِدَةٍ مِنْ أَرْبَعٍ: كِتَابِيَّةٍ، أَوْ قِرَاءَةٍ، أَوْ حِفْظٍ، أَوْ اسْتِمَاعٍ، فَهُوَ بِالْعَمَلِ فِي الْكِتَابِيَّةِ قَائِمٌ، وَالْعَمَلُ خَطٌّ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَالْمَكْتُوبُ قُرْآنٌ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَهُوَ بِالْعَمَلِ فِي الْقِرَاءَةِ قَائِمٌ، وَالْعَمَلُ تَحْرِيكُ اللِّسَانِ وَاللَّهْوَاتِ بِالْقُرْآنِ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَالْمَقْرُوءُ قُرْآنٌ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَهُوَ بِحِفْظِ الْقَلْبِ قَائِمٌ، وَالْحِفْظُ عَمَلٌ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَالْمَحْفُوظُ قُرْآنٌ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَهُوَ بِالِاسْتِمَاعِ قَائِمٌ فِي السَّمْعِ، وَالِاسْتِمَاعُ عَمَلٌ وَهُوَ مَخْلُوقٌ، وَالْمَسْمُوعُ قُرْآنٌ وَهُوَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ» (٧٨).

وقال الحافظ الذَّهَبِيُّ: «إِنَّكَ تَنْقُلُ مِنَ الْمُصَحَّفِ مِثَّةَ مُصَحَّفٍ، وَذَاكَ الْأَوَّلُ لَا يَتَحَوَّلُ فِي نَفْسِهِ وَلَا يَتَغَيَّرُ، وَتُلَقِّنُ الْقُرْآنَ أَلْفَ نَفْسٍ، وَمَا فِي صَدْرِكَ بَاقٍ بِهَيْئَتِهِ لَا يَفْصَلُ عَنْكَ وَلَا يَغَيَّرُ، وَذَاكَ لِأَنَّ الْمَكْتُوبَ وَاحِدٌ، وَالْكِتَابَةُ تَعَدَّدَتْ، وَالَّذِي فِي صَدْرِكَ وَاحِدٌ وَمَا فِي صُدُورِ الْمُقْرئينَ هُوَ عَيْنُ مَا فِي صَدْرِكَ سَوَاءً، وَالْمَتَلَوُّ وَإِنْ تَعَدَّدَ التَّالُونَ بِهِ وَاحِدٌ، مَعَ كَوْنِهِ سُوراً وَآيَاتٍ وَأَجْزَاءً مُتَعَدِّدَةً، وَهُوَ كَلَامُ اللَّهِ وَوَحْيُهُ وَتَنْزِيلُهُ وَإِنْشَاؤُهُ، لَيْسَ هُوَ بِكَلَامِنَا أَصْلاً، نَعَمْ، وَتَكَلَّمْنَا بِهِ وَتَلَاوَتْنَا لَهُ وَنَطَقْنَا بِهِ مِنْ أَفْعَالِنَا، وَكَذَلِكَ كَتَابَتْنَا لَهُ

(٧٧) «الواسطية» - «مجموع الفتاوى» ١٤٤/٣.

(٧٨) «الاختلاف في اللفظ» ص: ٢٤٨ - ٢٤٩ - «عقائد السلف».

وَأَصَوَاتُنَا بِهِ مِنْ أَفْعَالِنَا، قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ: ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾
[الصفات: ٩٦]...» (٧٩).

وقال: «فَالْمُقْرَى يُلْقَنُ الْخَتْمَةَ مِثَّةَ نَفْسٍ وَمِثَّتَيْنِ فَيَحْفَظُونَهُ، وَهُوَ لَا يَنْفَصِلُ عَنْهُ مِنْهُ شَيْءٌ، كَسِرَاجٍ أَوْقَدْتَ مِنْهُ سُرْجاً وَلَمْ يَتَغَيَّرْ» (٨٠).

وذكر شيخ الإسلام رحمه الله اعتقادهم هذا الذي ذكرنا، وقال: «بَلْ كَلَامُ الْمَخْلُوقِينَ يُكْتَبُ فِي الْأَوْرَاقِ وَهُوَ لَمْ يُفَارِقْ ذَوَاتَهُمْ، فَكَيْفَ لَا يُعْقَلُ مِثْلُ هَذَا فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى» (٨١).

فتفسير القوم للخُلُولِ فِي الْمُصْحَفِ عَلَى مَا ذَكَرْنَا وَإِنْكَارُهُمْ لَهُ بَاطِلٌ، مَبْنِيٌّ عَلَى أَصْلِهِمْ فِي نَفْيِ أَنْ يَكُونَ مَا بَيْنَ دَفْتِي الْمُصْحَفِ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ، لِأَنَّ هَذَا مُحْصُورٌ مُحَدُودٌ، وَكَلَامَ اللَّهِ لَا نِهَآيَةَ لَهُ، وَهُوَ مَعْنَى وَاحِدٌ، وَهَذَا تَلْيِيسٌ قَدْ كَشَفْنَاهُ بِفَضْلِ اللَّهِ تَعَالَى وَمِثَّتِهِ.

وَأَمَّا إِطْلَاقُ اللَّفْظِ: إِنَّ كَلَامَ اللَّهِ حَالٌ فِي الْمُصْحَفِ، فَلَيْسَ مِمَّا جَرَتْ بِهِ أَلْسِنَةُ السَّلَفِ وَالْأَلَمَّةِ، وَإِنْ كَانَ قَدْ ذَكَرَهُ بَعْضُ الْمُتَأَخِّرِينَ مِنْ أَهْلِ السُّنَّةِ، إِلَّا أَنَّ مَذْهَبَ السَّلَفِ أَوْلَى بِالِاتِّبَاعِ، وَإِنَّهُ يُخْشَى مِنَ الْإِطْلَاقِ وَرُودُ مَعَانِي بَاطِلَةٍ، وَإِنَّمَا يُكْتَفَى بِالْقَوْلِ: إِنَّ مَا بَيْنَ دَفْتِي الْمُصْحَفِ كَلَامُ اللَّهِ بِحُرُوفِهِ وَمَعَانِيهِ، مِنْهُ بَدَأَ وَإِلَيْهِ يَعُودُ، وَهُوَ صِفَتُهُ، غَيْرُ بَائِنٍ مِنْهُ.

قَالَ ابْنُ قُتَيْبَةَ - رَحِمَهُ اللَّهُ -: «وَلَسْنَا نَشْكُ فِي أَنَّ الْقُرْآنَ فِي

(٧٩) «العلو» ص: ١٤١.

(٨٠) «العلو» ص: ١٢٤.

(٨١) «مجموع الفتاوى» ١٢/٢٧٦.

المصاحف على الحقيقة، لا على المجاز، كما يقول أصحاب الكلام: إن الذي في المصحف دليل على القرآن وليس به، والله تبارك وتعالى يقول: ﴿إِنَّهُ لَقُرْآنٌ كَرِيمٌ . فِي كِتَابٍ مَكْنُونٍ . لَا يَمَسُّهُ إِلَّا الْمُطَهَّرُونَ﴾ [الواقعة: ٧٧ - ٧٩] والنبي ﷺ يقول: «لا تُسافروا بالقرآن إلى أرض العدو»^(٨٢) يريد المصحف^(٨٣).

وقد شَرَحْتُ معنى هذا في الباب الأول بما يُزيل تلبس الأشعرية ومن قال بقولهم.

● تعظيم المصحف عند الأشعرية:

اعتقاد الأشعرية في كلام الله تعالى أنه المعنى القائم بنفسه، وأن هذا لم ينزل، وإنما نزلت العبارة عنه، وهذه العبارة مخلوقة تحل في المصاحف أدى بمتأخريهم إلى تهوين شأن المصحف، بل أدى بجهالهم إلى الاستهانة به، وهذا مما فاقوا به المعتزلة، وشبهوا به غلاة الجهمية.

وبيان ذلك: أن تعظيمه عند عقلائهم والقُدماء منهم على وجه الخصوص، لأجل كونه عبارة عن الكلام النفسي ودلالة عليه، فتعظيمه لدلالته على العظيم.

وبهذا يُفسرون قول النبي ﷺ: «لا تُسافروا بالقرآن إلى أرض العدو، فأني أخاف أن يناله العدو»^(٨٤).

(٨٢) حديث صحيح، سبق تخريجه ص: ٢٠١.

(٨٣) «مختلف الحديث» ص: ١٣٦.

(٨٤) انظر التعليق (٨٢) المذكور قريباً.

والَّذِي يُحْمَلُ إِنَّمَا هُوَ الْمَصَاحِفُ الَّتِي فِيهَا الْقُرْآنُ، وَتَعْلِيلُ النَّهْيِ عَنِ السَّفَرِ بِهَا بَيِّنٌ فِي الْخَبَرِ، وَهُوَ الْخَوْفُ مِنْ أَنْ تَنَالَهُ أَيْدِي الْكَفَّارِ، فَلَا تُؤْمَنُ مِنْهُمْ إِهَانَتُهُ، وَهَذَا الْمَعْنَى حَقٌّ وَصَوَابٌ، لَكِنَّهُ عِنْدَ أَهْلِ السُّنَّةِ وَالْأَثَمَةِ لِأَنَّ فِيهِ كَلَامَ اللَّهِ عَلَى الْحَقِيقَةِ بِالْفَاظِ وَمَعَانِيهِ، هَذَا وَجْهُ النَّهْيِ عَنْهُمْ، أَمَّا الْأَشْعَرِيَّةُ فَلَأَنَّ فِيهِ الْعِبَارَةَ عَنْ كَلَامِ اللَّهِ.

فَجَاءَ مُتَأَخِّرُوهُمْ وَزَادُوا أَنَّهُ مَخْلُوقٌ فِي اللَّوْحِ الْمَحْفُوظِ، أَوْ غَيْرِهِ، أَوْ قَوْلُ جَبْرِيلَ، أَوْ مُحَمَّدٍ ﷺ، فَهُوَ هَذَا مِنْ شَأْنِ الْمُصْحَفِ عَنْهُمْ، حَتَّى فَاضَلُوا بَيْنَهُ وَبَيْنَ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، قَالَ الْبَاجُورِيُّ: «وَهَلِ الْقُرْآنُ بِمَعْنَى اللَّفْظِ الْمَقْرُوءِ أَفْضَلُ أَوْ سَيِّدُنَا مُحَمَّدٌ ﷺ؟» فَأَشَارَ إِلَى خِلَافٍ عَنْهُمْ فِي ذَلِكَ، ثُمَّ قَالَ: «وَالْحَقُّ أَنَّهُ ﷺ أَفْضَلُ لِأَنَّهُ أَفْضَلُ مِنْ كُلِّ مَخْلُوقٍ» (٨٥).

قُلْتُ: سُبْحَانَكَ هَذَا بُهْتَانٌ عَظِيمٌ، أَيُّ جُرْأَةٍ هَذِهِ الَّتِي تُؤَدِّي بِأَصْحَابِهَا إِلَى جَعْلِ صِفَةِ الرَّبِّ تَعَالَى أَدْنَى مِنَ الْمَخْلُوقِ - مَعَ شَرَفِ الْمَخْلُوقِ - !!؟

بَلْ إِنْ بَعْضُهُمْ لَمَّا رَأَوْا أَنَّ هَذَا الْقُرْآنَ الَّذِي فِي الْمُصْحَفِ لَيْسَ كَلَامَ اللَّهِ حَقِيقَةً وَإِنَّمَا هُوَ دَلَالَةٌ عَلَيْهِ، رَأَوْا أَنَّ كُلَّ الْمَخْلُوقَاتِ سِوَاهُ أَدَلَّةٌ عَلَى الْخَالِقِ وَصِفَاتِهِ، وَمَعَ ذَلِكَ فَلَا يَجِبُ احْتِرَامُهَا، وَمَا دَلَّ عَلَى الْخَالِقِ أَوْلَى بِالْاحْتِرَامِ مِمَّا دَلَّ عَلَى صِفَتِهِ، وَصَلَّ بِهِمُ الْحَالُ حِينَئِذٍ إِلَى أَنْ قَالُوا فِي هَذَا الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ: مَا هَذَا إِلَّا وَرَقٌ وَمِدَادٌ، فَحَصَلَ بِذَلِكَ شَرُّ عَظَمٍ.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «ثُمَّ تَبَعَ أَقْوَامٌ مِنْ أَتْبَاعِهِمْ أَحَدَ أَهْلِ الْمَذْهَبِ،

(٨٥) «شرح الجوهرة» ص: ٩٤.

وَأَنَّ الْقُرْآنَ مَعْنَى قَائِمٌ بِذَاتِ اللَّهِ فَقَطْ، وَأَنَّ الْحُرُوفَ لَيْسَتْ مِنْ كَلَامِ اللَّهِ، بَلْ خَلَقَهَا اللَّهُ فِي الْهَوَاءِ، أَوْ صَنَفَهَا جَبْرِيلُ أَوْ مُحَمَّدٌ، فَضَمُّوا إِلَى ذَلِكَ أَنَّ الْمُصْحَفَ لَيْسَ فِيهِ إِلَّا مِدَادٌ وَوَرَقٌ، وَأَعْرَضُوا عَمَّا قَالَه سَلَفُهُمْ مِنْ أَنَّ ذَلِكَ دَلِيلٌ عَلَى كَلَامِ اللَّهِ فَيَجِبُ احْتِرَامُهُ، لَمَّا رَأَوْا أَنَّ مُجَرَّدَ كَوْنِهِ دَلِيلًا لَا يُوْجِبُ الْإِحْتِرَامَ، كَالدَّلِيلِ عَلَى الْخَالِقِ الْمُتَكَلِّمِ بِالْكَلَامِ، فَإِنَّ الْمَوْجُودَاتِ كُلَّهَا أَدَلَّةٌ عَلَيْهِ، وَلَا يَجِبُ احْتِرَامُهَا^(٨٦)، فَصَارَ هَؤُلَاءِ يَمْتَنِّهُونَ الْمُصْحَفَ حَتَّى يَدُوسُوهُ بِأَرْجُلِهِمْ، وَمِنْهُمْ مَنْ يَكْتُبُ أَسْمَاءَ اللَّهِ بِالْعَدْرَةِ إِسْقَاطًا لِحُرْمَةِ مَا كُتِبَ فِي الْمَصَاحِفِ وَالْوَرَقِ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ وَآيَاتِهِ^(٨٧).

قُلْتُ: وَمِمَّا يُصَدِّقُ مَا حَكَاهُ عَنْهُمْ شَيْخُ الْإِسْلَامِ، مَا رَوَاهُ ابْنُ حَزْمٍ فِي «الْفَصْلِ»^(٨٨) قَالَ: أَخْبَرَنِي عَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ الْمُرَادِيُّ الصُّقْلِيُّ الصُّوفِيُّ أَنَّهُ رَأَى بَعْضَ الْأَشْعَرِيَّةِ يَطْحُ الْمُصْحَفَ بِرِجْلِهِ، قَالَ: فَأَكْبَرْتُ ذَلِكَ، وَقُلْتُ لَهُ: وَيْحَكَ! هَكَذَا تَصْنَعُ بِالْمُصْحَفِ، وَفِيهِ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى؟ فَقَالَ لِي: وَيْلَكَ! وَاللَّهِ مَا فِيهِ إِلَّا السُّخَامُ وَالسَّوَادُ، وَأَمَّا كَلَامُ اللَّهِ فَلَا، وَنَحْوُ هَذَا مِنَ الْقَوْلِ الَّذِي هَذَا مَعْنَاهُ^(٨٩).

(٨٦) قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ فِي مَوْضِعٍ آخَرَ: «وَلَوْ كَانَ مَا فِي الْمَصْحَفِ وَجِبَ احْتِرَامُهُ لِمَجْرَدِ الدَّلَالَةِ، وَجِبَ احْتِرَامُ كُلِّ دَلِيلٍ، بَلِ الدَّلِيلُ عَلَى الصَّانِعِ وَصِفَاتِهِ أَعْظَمُ مِنَ الدَّالِّ عَلَى كَلَامِهِ، وَلَيْسَتْ لَهُ حَرْمَةٌ كَحَرْمَةِ الْمُصْحَفِ» «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» ٣٩١/١٢.

(٨٧) «مَجْمُوعُ الْفَتَاوَى» ٤٢٥/٨.

(٨٨) ٨١/٥ - طَبْعُ عَكَاظِ -.

(٨٩) قُلْتُ: وَعَلِيُّ بْنُ حَمْزَةَ هَذَا يَكْنَى أَبَا الْحَسَنِ، تَرْجَمَ لَهُ الْحَافِظُ الْحَمِيدِيُّ فِي «جَذْوَةِ الْمُقْتَبَسِ» ص: ٣١٣، وَقَدْ سَمِعَ مِنْهُ، وَقَالَ: «كَانَ يَتَكَلَّمُ فِي فَنُونٍ، وَيُشَارِكُ فِي عُلُومٍ، وَيَتَصَوَّفُ».

وَأَنْتَ - وَفَقَّكَ اللَّهُ - قَدْ تَعَجَّبُ مِنْ هَذِهِ الْحَالِ الَّتِي وَصَلَ إِلَيْهَا بَعْضُ
 الْأَشْعَرِيَّةِ، وَقَدْ لَا تُصَدِّقُ ذَلِكَ ابْتِدَاءً وَتُسْتَكْبِرُهُ، مِنْ أَجْلِ مَا تَرَاهُ مِنْ
 تَظَاهُرِهِمْ بِتَكْرِيمِ الْمُصَاحِفِ، وَتَعْظِيمِهَا، وَتَقْبِيلِهَا، وَالْقِيَامِ لَهَا حِينَ
 الْإِتْيَانِ بِهَا، وَلَكِنَّكَ حِينَ تُدْرِكُ مَا شَرَحْنَاهُ مِنْ اعْتِقَادِهِمْ، فَلَيْسَ يَبْعُدُ وَقُوعُ
 ذَلِكَ مِنْ سَفَلَتِهِمُ الَّذِينَ لَمْ يَقْدِرُوا اللَّهَ تَعَالَى قَدْرَهُ.

وَلِهَؤُلَاءِ السُّفَهَاءِ سَلَفٌ فِي الْإِسْتِهَانَةِ بِالْمُصْحَفِ وَعَدَمِ تَعْظِيمِهِ،
 ذَلِكَ هُوَ الْجَهْمُ بْنُ صَفْوَانَ - رَأْسُ الْجَهْمِيَّةِ - فَقَدْ قَالَ أَبُو نُعَيْمٍ الْبَلْخِيُّ
 - وَكَانَ صَدُوقًا - :

كَانَ رَجُلٌ مِنْ أَهْلِ مَرَوْ صَدِيقًا لَجَهْمٍ، ثُمَّ قَطَعَهُ وَجَفَاهُ، فَقِيلَ لَهُ :
 لِمَ جَفَوْتَهُ؟ فَقَالَ : جَاءَ مِنْهُ مَا لَا يُحْتَمَلُ، قَرَأْتُ يَوْمًا آيَةَ كَذَا وَكَذَا، فَقَالَ :
 مَا كَانَ أَظْرَفَ مُحَمَّدًا، فَاحْتَمَلْتُهَا، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ طهَ، فَلَمَّا قَالَ : ﴿الرَّحْمَنُ
 عَلَى الْعَرْشِ اسْتَوَى﴾ قَالَ : أَمَا وَاللَّهِ لَوْ وَجَدْتُ سَبِيلًا إِلَى حَكِّهَا لَحَكَّكْتُهَا
 مِنَ الْمُصْحَفِ، فَاحْتَمَلْتُهَا، ثُمَّ قَرَأَ سُورَةَ الْقَصَصِ، فَلَمَّا انْتَهَى إِلَى ذِكْرِ
 مُوسَى قَالَ : مَا هَذَا، ذَكَرَ قِصَّةً فِي مَوْضِعٍ فَلَمْ يُتِمَّهَا، ثُمَّ ذَكَرَ هَهُنَا فَلَمْ
 يُتِمَّهَا، ثُمَّ رَمَى بِالْمُصْحَفِ مِنْ حَجَرِهِ بِرِجْلَيْهِ، فَوُثِّبَتْ عَلَيْهِ (٩٠).

وَهَذَا الْمَعْنَى الَّذِي تَقْشَعِرُّ مِنْهُ الْجُلُودُ، وَتَنْفَرُ مِنْهُ الْقُلُوبُ، وَيَأْبَاهُ دِينُ
 الْمُسْلِمِينَ، لَمْ يَكُنْ عِنْدَ قُدَمَاءِ الْأَشْعَرِيَّةِ، وَاللَّهُ تَعَالَى أَمَرَ بِالْعَدْلِ، فَإِنَّ
 أَوْلَثَكَ - عَلَى مَا ذَكَرْنَا عَنْهُمْ مِنَ الْإِعْتِقَادِ فِي الْقُرْآنِ الْعَظِيمِ - إِلَّا أَنَّهُمْ كَانُوا

(٩٠) رَوَاهُ الْبُخَارِيُّ فِي «خُلُقِ أَعْمَالِ الْعِبَادَةِ» رَقْمَ (٧٠) وَعَبْدُ اللَّهِ بْنُ أَحْمَدَ فِي
 «السُّنَنِ» رَقْمَ (١٩٠) وَسَنَدُهُ صَحِيحٌ.

يَعْظُمُونَ الْمُصْحَفَ، وَيَبْجُلُونَهُ لِدَلَالَتِهِ عِنْدَهُمْ عَلَى الْقَدِيمِ النَّفْسِيِّ، بَلْ إِنَّكَ تَجِدُ فِيهِمْ مَنْ يُصْرِّحُ بِتَكْفِيرِ مَنْ اسْتَهَانَ بِالْمُصْحَفِ.

وَلَكِنْ بَدْعَ هَؤُلَاءِ الْأَوَائِلِ ضَرَّتْ بِهِؤُلَاءِ السُّفَهَاءُ، فَإِنَّهُمْ تَوَسَّعُوا فِيهَا حَتَّى أَخْرَجَتْهُمْ مِنَ الْإِسْلَامِ، وَهَذَا شَأْنُ الْبِدْعِ وَتَأْثِيرِهَا عَلَى أَصْحَابِهَا.

قَالَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ: «فَالْبِدْعُ تَكُونُ فِي أَوَّلِهَا شَبْرًا، ثُمَّ تَكْثُرُ فِي الْإِتْبَاعِ حَتَّى تَصِيرَ أَذْرَعًا وَأَمْيَالًا وَفِرَاسِخَ» (٩١).

وَحِينَ ذَكَرَ شَيْخُ الْإِسْلَامِ بَدْعَ الْأَشْعَرِيَّةِ وَاعْتِقَادَهُمُ الْبَاطِلَ الَّذِي شَرَحْنَاهُ، قَالَ: «وَهَذَا الْقَوْلُ فِيهِ نَوْعٌ مِنَ الضَّلَالِ وَالنَّفَاقِ، وَالْجَهْلِ بِحُدُودِ مَا أَنْزَلَ اللَّهُ عَلَى رَسُولِهِ، وَهُوَ الَّذِي أَوْقَعَ الْجُهَالُ فِي الْاسْتِخْفَافِ بِحُرْمَةِ آيَاتِ اللَّهِ وَأَسْمَائِهِ، حَتَّى أَلْحَدُوا فِي أَسْمَائِهِ وَآيَاتِهِ» (٩٢).

وَقَالَ: «وَقَدْ اتَّفَقَ الْمُسْلِمُونَ عَلَى أَنَّ مَنْ اسْتَخَفَّ بِالْمُصْحَفِ، مِثْلَ أَنْ يُلْقِيَهُ فِي الْحُشِّ، أَوْ يَرْكُضَهُ بِرِجْلِهِ، إِهَانَةٌ لَهُ، أَنَّهُ كَافِرٌ مَبَاحُ الدِّمِ» (٩٣).



(٩١) «مجموع الفتاوى» ٤٢٥/٨.

(٩٢) «مجموع الفتاوى» ٣٨٢/١٢.

(٩٣) «مجموع الفتاوى» ٤٢٥/٨.

المبحث الرابع

أسماء الله تعالى عند الأشعرية

إنَّ عقيدة الأشعرية في كلام الله تعالى جَرَّتْهم إلى إدخالِ أسمائِهِ الحُسْنَى ضِمْنَ ما اعتقدوه، ولكن في ألفاظهم في ذلك لَبْسٌ لا يَفْطن له مَنْ لم يفهم مرادهم، فإنَّهم يُطلقون القول: أسماء الله غيرُ مخلوقة، وهذا الإطلاق لأهل السُّنة أيضاً، ولكنَّه عند الأشعرية خلاف ما هو عليه عند أهل السُّنة.

وبيان ذلك:

أنَّ الأشعرية كانوا يقولون: الاسمُ هو المُسمَّى، ويطلقون القول بذلك، ومرادهم: أنَّ الاسمَ هو عَيْنُ المُسمَّى، فاسمُ الله عندهم هو الله، فالاسمُ عندهم هو الذات، وليس هو الدالُّ عليها، وهذا المعنى لم يَسبقهم أحدٌ إليه، ولا يَعْرِفُ النَّاسُ الاسمَ إلاَّ القولَ الدالُّ على المُسمَّى.

فلَمَّا حُجِّجوا بتعددِ أسماءِ الله تعالى، والذاتُ واحدةٌ غيرُ متعدِّدة، قالوا: المرادُ بالأسماءِ حالُ التعدِّدِ التَّسمياتِ لا الذَّوات، فحديثُ النَّبِيِّ ﷺ: «إنَّ لله تسعةً وتسعينَ اسماً» معناه: تسعةً وتسعينَ تسميةً، وقوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الأعراف: ١٨٠] معناه: التَّسمياتُ،

والتَّسْمِيَّاتُ هي الأقوالُ المؤلَّفةُ من الحُرُوفِ، مثل: (الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، السَّمِيعُ، الْعَلِيمُ) ^(١) وهذه مخلوقةٌ عندهم، لأنها ألفاظٌ، والألفاظُ مخلوقةٌ.

وهذا مِنْهُمْ خَرَقُ لِمَا دَلَّ عَلَيْهِ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ وَكَلَامُ الْعَرَبِ، فَإِنَّ الْعَرَبَ لَا تَعْرِفُ التَّسْمِيَةَ إِلَّا النُّطْقَ بِالْأَسْمِ والتَّكْلُمَ بِهِ، وَلَيْسَتْ هِيَ الْأَسْمُ نَفْسَهُ، وَأَسْمَاءُ الْأَشْيَاءِ هِيَ الْأَلْفَاظُ الْمَعْرُوفَةُ بِهَا الدَّالَّةُ عَلَيْهَا، لَيْسَتْ هِيَ أَعْيَانُ الْأَشْيَاءِ ^(٢).

ف (زيد) اسمٌ عَلِمَ بِلا نِزَاعٍ، فَإِذَا سُمِّيَ أَحَدٌ بِهِ لَمْ يَكُنْ هُوَ عَيْنَ الْمُسَمَّى، وَإِنَّمَا هُوَ اللَّفْظُ الدَّالُّ عَلَيْهِ، وَإِطْلَاقُ هَذَا اللَّفْظِ عَلَى زَيْدٍ هُوَ تَسْمِيَتُهُ بِهِ، وَهَذَا بَيِّنٌ لَا يَخْفَى إِنْ شَاءَ اللَّهُ.

وَقَدْ نَطَقَ الْكِتَابُ وَالسُّنَّةُ بِأَنَّ لِلَّهِ تَعَالَى الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، فَقَالَ تَعَالَى: ﴿قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوْ ادْعُوا الرَّحْمَنَ أَيًّا مَا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى﴾ [الإِسْرَاءُ: ١١٠] وَقَالَ: ﴿وَلِلَّهِ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَى فَادْعُوهُ بِهَا﴾ [الأَعْرَافُ: ١٨٠] وَقَالَ النَّبِيُّ ﷺ: «إِنَّ لِلَّهِ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا، مِثْلُهُ غَيْرُ وَاحِدٍ، مَنْ حَفِظَهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» ^(٣).

فَقَالَتِ الْجَهْمِيَّةُ وَالْمُعْتَزَلَةُ: الْأَسْمُ غَيْرُ الْمُسَمَّى، فَأَسْمَاءُ اللَّهِ غَيْرُهُ، وَكُلُّ شَيْءٍ غَيْرُ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، ف (الرَّحْمَنُ، الرَّحِيمُ، الْحَيُّ، الْقَيُّومُ...) هَذِهِ الْأَسْمَاءُ الْمَوْلُفَةُ مِنَ الْحُرُوفِ، وَغَيْرُهَا مِنَ الْأَسْمَاءِ الْحُسْنَى مَخْلُوقَةٌ

(١) انظر: «أصول الدين» لعبدالقاهر ص: ١١٤ - ١١٥.

(٢) انظر: «مجموع الفتاوى» ١٩٥/٦.

(٣) حديث صحيح جليل.

وقد تناولته بالتخريج والشرح في جزء مفرد.

عندهم .

فأراد الأشعرية ومن على شاكلتهم إبطال قولهم ، فقالوا : الاسم هو المسمى ، أي : عينه ، فاسمُ الله هو الله ، والله غيرُ مخلوق ، فاسمه غيرُ مخلوق ، وهذا في الحقيقة لا تخالف فيه الجهمية ، فإنهم يعتقدون أن الله تعالى غيرُ مخلوق وهم إنما قالوا بخلق الأسماء التي هي الأقوال الدالة على المسمى كـ (الرحمن ، الرحيم) وهذه عند الأشعرية تسميات ، وهي ألفاظ مخلوقة ، فأبي فرق بين اعتقاد الطائفتين من جهة الحقيقة والمعنى ؟

قال شيخ الإسلام : «وافقوا الجهمية والمعتزلة في المعنى ، ووافقوا أهل السنة في اللفظ»^(٤) .

والسلف لم يكونوا يعرفون الكلام في الاسم والمسمى ، وإنما يعلمون أن لله تعالى الأسماء الحسنى ، ولما ظهرت مقالة الجهمية في ذلك أنكروها الأئمة ، وكان في علماء السنة من أطلق القول في الرد عليهم ، فقال : الاسم هو المسمى ، وهذا الإطلاق موافق لإطلاق الأشعرية ، لكن يخالفه في المعنى ، فإن من أطلق ذلك من أئمة السنة لم يريدوا أن الاسم هو عين المسمى .

وأكثر أئمة السنة على إنكار هذه المقالة نفياً وإثباتاً ، لأن كلاً من الإطلاقيين بدعة تجرُّ إلى محاذير ، كما جرَّت الجهمية والأشعرية إلى القول بخلق الأسماء الحسنى^(٥) .

(٤) «مجموع الفتاوى» ١٩٢/٦ .

(٥) انظر لتفصيل هذه المسألة (قاعدة في الاسم والمسمى) لشيخ الإسلام

ضمن «مجموع الفتاوى» ١٨٥/٦ .

وَيُبْطَلُ قَوْلُ هَؤُلَاءِ الْمُتَبَدِّعَةِ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ تَعَالَى مِنْ كَلَامِهِ، وَقَدْ بَيَّنَّا
الْإِعْتِقَادَ فِيهِ، وَأَنَّهُ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، فَاسْمَاؤُهُ تَعَالَى غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ.

وَعَلَى ذَلِكَ نَصُّ الْأَئِمَّةِ رَحِمَهُمُ اللَّهُ، وَاسْتَدَلُّوا بِذِكْرِ الْأَسْمَاءِ فِي كَلَامِ
اللَّهِ عَلَى بُطْلَانِ قَوْلِ مَنْ يَقُولُ بِخَلْقِ الْقُرْآنِ الْعَرَبِيِّ الْمُبِينِ.
فَمِنْ ذَلِكَ:

١ - قَوْلُ الْإِمَامِ الشَّافِعِيِّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «مَنْ حَلَفَ بِاسْمٍ مِنْ أَسْمَاءِ اللَّهِ
فَحَنَثَ فَعَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، لِأَنَّ اسْمَ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ حَلَفَ بِالْكَعْبَةِ أَوْ
بِالصُّفَا وَالْمَرَوَةِ فَلَيْسَ عَلَيْهِ الْكَفَّارَةُ، لِأَنَّهُ مَخْلُوقٌ، وَذَاكَ غَيْرُ مَخْلُوقٍ»^(٦).

قُلْتُ: وَالْحَلْفُ إِنَّمَا يَقَعُ بِالْأَلْفَاظِ، كـ(وَاللَّهِ، وَالرَّحْمَنُ، وَالْخَالِقُ،
وَالْعَزِيزُ) وَنَحْوِ ذَلِكَ، فَلَوْ قِيلَ: هَذِهِ أَلْفَاظُ مَخْلُوقَةٍ، وَغَيْرُ الْمَخْلُوقِ إِنَّمَا هُوَ
مَسْمَاها - كَمَا يَقُولُهُ مُحَقِّقُو الْأَشْعَرِيَّةِ - وَهَذِهِ مَوْضُوعَةٌ لِلدَّلَالَةِ عَلَيْهِ، فَلَا فَرْقَ
حِينَئِذٍ بَيْنَ الْحَلْفِ بِهَا، وَالْحَلْفِ بِالْكَعْبَةِ وَالصُّفَا وَالْمَرَوَةِ، لِأَنَّ الْجَمِيعَ
مَخْلُوقٌ، وَذَلِكَ لِأَنَّ الْحَالِفَ إِنَّمَا يَحْلِفُ بِالْأَسْمِ الَّذِي هُوَ الْقَوْلُ وَاللَّفْظُ
الْمَوْضُوعُ مِنَ الْحُرُوفِ، الَّذِي يُرَادُ بِهِ الْمُسَمَّى، وَهَذِهِ عِنْدَ الْأَشْعَرِيَّةِ
تَسْمِيَاتُ مَخْلُوقَةٍ.

٢ - وَقَوْلُ أَبِي دَاوُدَ: سَمِعْتُ أَحْمَدَ - يَعْنِي ابْنَ حَنْبَلٍ - ذَكَرَ لَهُ رَجُلٌ

(٦) أَثَرُ صَحِيحٍ، سَبَقَ تَخْرِيجُهُ ص ١٢٨.

وَعَلَّقَ مُحَقِّقُ «آدَابِ الشَّافِعِيِّ» - ذَاكَ الْأَشْعَرِيُّ - عَلَى قَوْلِهِ: «وَذَاكَ غَيْرُ
مَخْلُوقٍ» بِقَوْلِهِ: «يَعْنِي مَسْمَاهُ وَمَدْلُولُهُ» كَذَا قَالَ، وَهُوَ تَفْسِيرٌ لِمَا ذَكَرْنَاهُ عَنْهُ وَعَنْ أَشْبَاهِهِ
مِنَ الْأَشْعَرِيَّةِ مُدَّعِي التَّحْقِيقِ مِنْ أَنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ الْمَوْضُوعَةَ مِنَ الْحُرُوفِ الْمُتَعَدِّدَةِ الْكَثِيرَةِ
هِيَ تَسْمِيَاتُ مَخْلُوقَةٍ لَا أَسْمَاءَ.

أَنَّ رَجُلًا قَالَ: إِنَّ أَسْمَاءَ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ، وَالْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، قَالَ أَحْمَدُ: «كُفْرٌ بَيِّنٌ»^(٧).

وقال عبد الله بن أحمد: سمعتُ أبي رحمه الله يَقُولُ: «مَنْ قَالَ: الْقُرْآنُ مَخْلُوقٌ، فَهُوَ عِنْدَنَا كَافِرٌ، لِأَنَّ الْقُرْآنَ مِنْ عِلْمِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ، وَفِيهِ أَسْمَاءُ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ»^(٨).

٣ - وَقَوْلُ إِسْحَاقَ بْنِ رَاهُوَيْهَ: «أَفْضُوا - يَعْنِي الْجَهْمِيَّةَ - إِلَى أَنْ قَالُوا: أَسْمَاءُ اللَّهِ مَخْلُوقَةٌ، لِأَنَّهُ كَانَ وَلَا اسْمَ، وَهَذَا الْكُفْرُ الْمَحْضُ، لِأَنَّ لِلَّهِ الْأَسْمَاءَ الْحُسْنَى، فَمَنْ فَرَّقَ بَيْنَ اللَّهِ وَبَيْنَ أَسْمَائِهِ وَبَيْنَ عِلْمِهِ وَمَشِيئَتِهِ، فَجَعَلَ ذَلِكَ مَخْلُوقًا كُلَّهُ، وَاللَّهُ خَالِقُهَا، فَقَدْ كَفَرَ، وَلِلَّهِ عَزَّ وَجَلَّ تِسْعَةٌ وَتِسْعُونَ اسْمًا، صَحَّ ذَلِكَ عَنِ النَّبِيِّ ﷺ أَنَّهُ قَالَ، وَلَقَدْ تَكَلَّمَ بَعْضُ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى جَهَنَّمَ بِالْأَمْرِ الْعَظِيمِ، فَقَالَ: لَوْ قُلْتُ: إِنَّ لِلرَّبِّ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ اسْمًا لَعَبَدْتُ تِسْعَةً وَتِسْعِينَ إِلَهًا، حَتَّى إِنَّهُ قَالَ: إِنِّي لَا أَعْبُدُ اللَّهَ الْوَاحِدَ الصَّمَدَ، إِنَّمَا أَعْبُدُ الْمُرَادَ بِهِ، فَأَيُّ كَلَامٍ أَشَدُّ فِرْيَةً وَأَعْظَمُ مِنْ هَذَا، أَنْ يَنْطِقَ الرَّجُلُ أَنْ يَقُولَ: لَا أَعْبُدُ اللَّهَ؟»^(٩).

قُلْتُ: وَالْجَهْمِيَّةُ أَرَادُوا انْكَارَ أَسْمَاءِ اللَّهِ بِدَعْوَى أَنْ تَعَدَّهَا تَعَدُّ لِلْإِلَهِةِ، فَقَالُوا: هِيَ غَيْرُ اللَّهِ، وَهِيَ مَخْلُوقَةٌ، لِيُطِيلُوا تَعَلُّقَهَا بِاللَّهِ تَعَالَى، وَالْأَشْعَرِيَّةُ قَالُوا: التَّعَدُّ دَلِيلُ الْحَدَثِ وَالْخَلْقِ، وَالْقَدِيمُ لَا يَتَعَدَّدُ، وَالْأَسْمَاءُ

(٧) سبق تخريجه ص ١٢٨.

(٨) سبق تخريجه ص ١٢٨.

(٩) رواه ابن أبي حاتم - كما في «السنة» لابن الطبري رقم (٣٥٢) - وسنده

صحيح.

معدودة، وقد قال النبي ﷺ: «مَنْ أَحْصَاهَا دَخَلَ الْجَنَّةَ» وَلَا يَقَعُ الْحَضَرُ
وَالْإِحْصَاءُ إِلَّا لِمَا هُوَ مَخْلُوقٌ، فَهَذِهِ الْأَسْمَاءُ مَخْلُوقَةٌ، وَهِيَ دَالَّةٌ عَلَى
الْمُسَمَّى، كَمَا أَنَّ الْأَلْفَاظَ فِي الْكَلَامِ دَالَّةٌ عَلَى الْكَلَامِ الْحَقِيقِيِّ، وَلَيْسَتْ
هِيَ الْكَلَامَ، لَكِنَّهُمْ عَسَرَ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ: إِنَّ الْأَسْمَاءَ مَخْلُوقَةً، فَقَالُوا: هِيَ
غَيْرُ مَخْلُوقَةٍ، لِأَنَّ الْأِسْمَ هُوَ الْمُسَمَّى، وَالْمَتَعَدَّدُ هُوَ التَّسْمِيَاتُ لَا الْأِسْمُ،
فَابْطَلُوا الْمَعْلُومَ مِنَ اللَّغَةِ وَالشَّرْعَ بِفَاسِدِ الرَّأْيِ.

ولقد أوردَ البخاري رحمه الله إلزاماً على الجهمية، هو واردٌ على
الأشعرية أيضاً، قال:

«وقالوا: إِنَّ اسْمَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ، وَيُلْزَمُهُمْ أَنْ يَقُولُوا إِذَا أَدَّنَ الْمُؤَدَّنُ،
لَا إِلَهَ إِلَّا الَّذِي اسْمُهُ اللَّهُ، وَأَشْهَدُ أَنَّ مُحَمَّدًا رَسُولُ الَّذِي اسْمُهُ اللَّهُ، لِأَنَّهُمْ
قَالُوا: إِنَّ اسْمَ اللَّهِ مَخْلُوقٌ» (١٠).

فتأمل - رحمك الله - مذهب الأشعرية في أسماء الله، واعلم أنهم
ينزهون اسمَ الله القديم عن أن يكون مؤلفاً من حروفٍ منظومةٍ.

يقول ابن عساكر - وهو منهم مع ما له من العلم والجلالة - وهو يصفُ
المُشَبَّهَةَ: «وَعَلُّوا فِي إثْبَاتِ كَلَامِهِ - أي الله تعالى - حَتَّى حَسِبُوهُ يَحْتَمِلُ
بِجَهْلِهِمْ تَجْزِئاً وَانْقِسَاماً، وَظَنُّوا اسْمَ اللَّهِ الْقَدِيمِ أَلْفاً وَهَاءً تَتْلُو لَاماً
وَلَاماً» (١١).

قلتُ: وهذه الجُمْلَةُ لَيْسَتْ مِنْ مُعْتَقَدِ الْمُشَبَّهَةِ الضَّلَالِ، وَإِنَّمَا هُوَ

(١٠) «خلق أفعال العباد» رقم (١٠٨).

(١١) «تبيين كذب المفتري» ص: ٢٥ - ٢٦.

معتقد أهل السنة الأبرياء من اعتقاد أصحاب البدع، وقد شرحناه عنهم فيما سبق في الباب الأول، وبيننا أن كلامه تعالى يتجزأ ويتبعض، وهذا القرآن أبين حجة عليه، ونبين هنا أن أسماء الله تعالى هي ألفاظ دالة على المعاني، عرف الله بها نفسه، كما عرف نفسه بسائر صفاته، فإن أسماء صفات له تعالى، واسم (الله) هو المؤلف من ألف وهاء تتلو لهما ولاماً، لأن اسم الله عندنا ما دل على ذاته تعالى، ألا ترى أن الله أمر عباده بتسبيحه كما أمرهم بتسبيح اسمه، فقال: ﴿وَسَبِّحُوهُ بُكْرَةً وَأَصِيلاً﴾ [الأحزاب: ٤٢] وقال: ﴿سَبِّحْ اسْمَ رَبِّكَ الْأَعْلَى﴾ [الأعلى: ١] وقال: ﴿فَسَبِّحْ بِاسْمِ رَبِّكَ الْعَظِيمِ﴾ [الواقعة: ٧٤، ٩٦. الحاقة: ٥٢]؟ والعباد يجيبون: سُبْحَانَ اللَّهِ، سُبْحَانَ رَبِّي الْأَعْلَى، سبحان ربي العظيم، فبين تعالى أن تسبيح اسمه تسبيح له، لأن الاسم إنما يُراد به المُسمى، ومثل ذلك في دعائه تعالى بأسمائه وذكره بها.

وكذا بين أن اسمه تعالى مُبارك، فقال: ﴿تَبَارَكَ اسْمُ رَبِّكَ ذِي الْجَلَالِ وَالْإِكْرَامِ﴾ [الرحمن: ٧٨] وقال: ﴿تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤] فأسماءه تعالى مباركة لبركة المُسمى بها، وهو الربُّ تعالى.

والمقصود هنا بيان أن الأشعرية جانبوا الصواب باعتقادهم أن الأسماء الحُسنى المتعددة لله تعالى إنما هي التسميات، وهي ألفاظ مُحدثة مخلوقة، واسم الله القديم هو ذاته تعالى.

ويان أن هذا ليس بينه وبين قول الجهمية فرق في المعنى والحقيقة، إذ الجميع قالوا بخلق الأسماء، التي هي الألفاظ التي يُراد بها

المُسْمَى ، وَمَنَعُوا مِنْ ذَلِكَ لِلتَّعَدُّدِ ، إِلَّا أَنَّ الْجَهْمِيَّةَ صَرَّحُوا أَنَّ التَّعَدُّدَ فِي
الْأَسْمَاءِ تَعَدُّدٌ فِي الذُّوَاتِ ، وَهَذَا عِنْدَهُمْ تَعَدُّدٌ لِلْأَلْهَةِ ، وَالْأَشْعَرِيَّةُ لَمْ
يُصَرِّحُوا بِذَلِكَ ، فَالْخِلَافُ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْجَهْمِيَّةِ فِي هَذِهِ الْقَضِيَّةِ خِلَافٌ
لَفْظِيٌّ .



وجه التوافق بين قولي المعتزلة والأشعرية في القرآن

بَعْدَ هَذَا الْعَرَضِ لاعتقاد الأشعرية في كلام الله تعالى ، ومُقارنتِهِ باعتقاد السُّلَف ، واعتقاد الجَهمية المعتزلة ، يتبيَّنُ لَكَ مُجَانِبَتُهُمْ فِي ذَلِكَ لاعتقاد السُّلَف والأئمة ومُبايَنَتُهُمْ فِيهِ ، ومُوَافَقَةُ الْمُعْتَزِلَةِ الْجَهمِيَّةِ فِي حَقِيقَةِ الْأَمْرِ ، وَأَنَّ الْخِلَافَ بَيْنَهُمْ وَبَيْنَ الْمُعْتَزِلَةِ يَشْبَهُ أَنْ يَكُونَ خِلَافاً لَفْظِيّاً ، بَلْ هُوَ فِيمَا أَرَى كَذَلِكَ ، وَقَدْ صَرَّحَ بِهَذِهِ الْحَقِيقَةِ مُحَقِّقُهُمْ إِمَامُ الْحَرَمِيِّ ، فَقَالَ : «وَقَوْلُهُمْ : إِنَّهُ كَلَامُ اللَّهِ تَعَالَى ، إِذَا رُدُّ إِلَى التَّحْصِيلِ آلِ الْكَلَامِ إِلَى اللُّغَاتِ وَالتَّسْمِيَّاتِ ، فَإِنَّ مَعْنَى قَوْلِهِمْ : هَذِهِ الْعِبَارَاتُ كَلَامُ اللَّهِ : أَنَّهَا خَلَقُهُ ، وَنَحْنُ لَا نُنْكِرُ أَنَّهَا خَلَقُ اللَّهِ ، وَلَكِنْ نَمْتَنِعُ مِنْ تَسْمِيَةِ خَالِقِ الْكَلَامِ مُتَكَلِّمًا بِهِ ، فَقَدْ أَطْبَقْنَا عَلَى الْمَعْنَى ، وَتَنَازَعْنَا بَعْدَ الْإِتِّفَاقِ فِي تَسْمِيَّتِهِ» (١٢) .

قُلْتُ : وَبَيَانُ هَذِهِ الْمُوَافَقَةِ لاعتقاد المعتزلة من وَجْهَيْنِ :

الأوَّلُ : الْمُعْتَزِلَةُ لَا يُجَوِّزُونَ قِيَامَ الصُّفَاتِ وَالْأَفْعَالِ بِذَاتِهِ تَعَالَى ، فَوَافَقَهُمُ الْأَشْعَرِيَّةُ فِي نَفْيِ قِيَامِ الْأَفْعَالِ بِذَاتِهِ تَعَالَى ، فَتَقَوَّا لِهَذَا أَنْ يَقُومَ بِهِ تَعَالَى مَا يَتَعَلَّقُ بِمَشِيئَتِهِ وَاخْتِيَارِهِ ، فَتَجَّ قَوْلُهُمْ : الْكَلَامُ مَعْنَى وَاحِدٌ أَزَلِيٌّ

(١٢) «الإرشاد» ص : ١١٦ - ١١٧ .

- وقد أبنت لك عن بطلان هذا المذهب - وقالوا: كل ما تعلق بالمشيئة والقدرة فهو مخلوق، فوافق الأشعرية المعتزلة في شطر قولهم، فنفوا قيام الأفعال، وقالوا: هي مخلوقة، وأثبتوا قيام الصفات على تفصيل ليس هذا محله.

والثاني: إن ما تألف من الحروف والألفاظ فهو مخلوق عند الأشعرية والمعتزلة، لكن الأشعرية يقولون: هو عبارة عن الكلام القديم، والمعتزلة يقولون: بل هو كلام الله على الحقيقة، إذ لم يقرأوا للأشعرية بقولهم الذي شرحناه عنهم في إثبات الكلام النفسي لفساده.

فرجع قولهم إلى الاتفاق على كون القرآن العربي مخلوقاً، وفي قول المعتزلة من الموافقة اللفظية للسلف في هذه القضية أكثر من قول الأشعرية، ذلك لأنهم سموه كلام الله حقيقة، أما الأشعرية فتحقيق قولهم أن ليس لله في الأرض كلام على الحقيقة، ويطلقون على القرآن كلام الله مجازاً على أرجح أقوالهم.

قال شيخ الإسلام: «وهذا شر من قول المعتزلة، وهذا حقيقة قول الجهمية» (١٣).

وقد تقرر أن كلام الله تعالى، معاني وألفاظ يتكلم بهارثنا متى شاء، وكما شاء، والقرآن العربي كلامه، والتوراة العبرية كلامه، وكل ذلك على الحقيقة لا على المجاز، وهو غير مخلوق كيف تصرف، ولا يعرف المسلمون منذ عهد النبوة قرآناً غير هذا العربي، ولا يعرفون ما بين الدفتين

إلا كلام الله على الحقيقة، فنازعتهم المعتزلة الجهمية في هذا القرآن لا في غيره، فقالت: مخلوق، وقال أهل السنة: كلام الله غير مخلوق، ولم يخطر ببال أحد قبل ابن كلاب - أصل الأشعرية - أن كلام الله هو الكلام النفسي وهو غير مخلوق، فالأئمة ابتلوا وحصل البلاء للأمة جميعاً بسبب هذا القرآن العربي لا الكلام النفسي الذي لم يذره الناس ولم يعرفوه، ولقد كان أهون عليهم أن يقولوا للناس بقول الجهمية في هذا القرآن وبواقفهم فيه، لأن عوام المسلمين لا يعلمون الخلاف الواقع إلا في هذا القرآن، إذ لا يعلمون قرآناً سواه، وهذا أيسر عليهم في المحنة من القتل والتعذيب، إذ لا مَحْظُور فيه عند الأشعرية إلا سد باب الذريعة، كما قاله غير واحد من أئمتهم.

يقول الباجوري الأشعري: «ومع كون اللفظ الذي نقرأه حادثاً لا يجوز أن يقال: القرآن حادث إلا في مقام التعليم، لأنه يُطْلَقُ على الصفة القائمة بذاته أيضاً، لكن مجازاً على الأرجح، فربما يتوهم من إطلاق أن القرآن حادث أن الصفة القائمة بذاته تعالى حادثه، ولذلك ضرب الإمام أحمد بن حنبل وحبس على أن يقول بخلق القرآن، فلم يرخص» (١٤).

وقال أيضاً: «لكن لا يجوز أن يقال: القرآن حادث، أو كلام الله حادث، لأنه وإن كان المراد به هذه الألفاظ، لكن يوهم الصفة القديمة، ولذلك لا يجوز أن يقال: القرآن مخلوق، أو كلام الله مخلوق، وقد امتحن كثير من العلماء على القول بخلق القرآن» (١٥).

(١٤) «شرح الجوهرة» ص: ٧٢.

(١٥) «حاشية الباجوري على كفاية العوام» ص: ١٠٢.

قلت: وهذه مقالة جائرة، تضمنت الكذب على الأئمة، والإمام أحمد بالخصوص، فإنه رحمه الله لم يأت عنه مجرد إطلاق: القرآن غير مخلوق، وإنما نص على إبطال كلام أسلاف الأشعرية الذين ظهروا في أواخر حياته كالكرابيسي وابن كلاب، وهم اللفظية النافية الذين شرحوا اعتقادهم في الباب الثاني، بل نص على أنهم جهمية، ونصوصه أبين من أن تُفسر وتُفصل في ذلك، بل هو وسائر إخوانه من الأئمة أبعد الناس عن اعتقاد اللفظية الذين يعتقدون أن الألفاظ القرآنية مخلوقة.

ولو كان الأمر كما زعمتم أن قول الأئمة: القرآن غير مخلوق، سداً للذريعة، لثلا يفهم أن الكلام النفسي مخلوق، لكان هذا جهلاً منهم وعدم فهم لأدنى مقاصد الشريعة - وحاشاهم من ذلك - لأن الأمر على قولكم يكون عند التحقيق فتحاً لباب الذريعة لا سداً له، لأن اللبس والتُمويه على الأمة بمقالة الأئمة: القرآن غير مخلوق، أشد وأعظم، وذلك لأن الأمة أجمع تتبعهم على هذه المقالة، والأمة لا تعرف قولهم متوجهاً إلا إلى هذا القرآن الذي بين الدفتين، فيضيفون الكلام المخلوق - عندكم - لله، ويجعلونه صفة له، ويكفرون من خالفهم في ذلك تبعاً لأئمتهم، فهذا الباب إذاً أحوج إلى السد من باب الكلام النفسي لعظم البلوى به، ولكنكم حرمتكم التوفيق فلم تعوا ما تقولون، وهذا بعض ما تستحقونه جزاء إغراضكم عن الوحي المعصوم، وإقبالكم على الكلام المذموم.

وإضافة لهذا فإننا - معشر أهل السنة - نمهلك أعماركم جميعاً - وقد أمهلناكم قروناً - على أن تأتوا بنقل صحيح أو ضعيف عن أحد من الأئمة زمن المعتزلة وقبله إلى عهد النبوة، يُصرح لكم أن كلام الله معنى واحد

مجردّ عن الألفاظ، والألفاظ ليست كلام الله على الحقيقة، إن كنتم صادقين.

هذا ما نَقَطَعُ بِعَجْزِكُمْ عنه، بل إنَّكُمْ لا تُحِبُّونَ الكلامَ فيه خَشْيَةَ الافتضاحِ وَبُذُورِ العَوْرَاتِ، فهذا صاحبُكم الباجوريُّ يقولُ بِمَنْعِ ذِكْرِ عقيدتكم لأحدٍ إلَّا على وجهِ الشَّرْحِ والتَّفْصِيلِ، ولو قيلَ: على وجهِ التَّلْبِيسِ والتَّضْلِيلِ لكانَ أَلْيَقَ، وإلَّا فأيُّ توحيدٍ هذا الذي يقومُ على الكِتْمَانِ والتَّسْتُرِ؟

فأيُّ معنى إذا خالفتُم فيه المعتزلةَ وتظاهرونَ بالرُّدِّ عليهم فيه؟

ليس لَكُمْ إلَّا أنْ المعتزلةَ لا يُثْبِتُونَ صِفَةَ الكلامِ لله إلَّا المَخْلُوقِ، ولم يَفْصِلُوا بينَ المَخْلُوقِ والكلامِ النَّفْسِي القديمِ.

وهذا تلبِيسٌ قد انكشفَ بِفَضْلِ اللهِ وَمَنِّهِ، والمعتزلةُ خَيْرٌ مِنْكُمْ حينَ أَبْطَلُوا هَذَا الكلامَ النَّفْسِيَّ الذي ابْتَدَعْتُمُوهُ، على ما هُمْ فيه منَ البِدْعَةِ والشرِّ، وأنْتُمْ حَسِبْتُمْ أَنْكُمْ وافَقْتُمُ السَّلَفَ والأئمةَ في إثباتِ صِفَةِ الكلامِ، والسَّلَفُ لا يَعْرِفُونَ كلامَ اللهِ تعالى على تفسيركم، بل لا يَعْرِفُونَ كلامَ اللهِ إلَّا الذي ادَّعَتِ المعتزلةُ الجَهْمِيَّةُ أَنَّهُ مخلوقٌ، وَقَوْلُ الجَهْمِيَّةِ هذا هو قولُكم.

فالسَّلَفُ وأهلُ السُّنَّةِ بَرَاءٌ مِنْ اعتقادِكُمْ.

وبهذا فإنِّي أَحْسِبُكَ قَدْ فَهِمْتَ وَجْهَ التَّوَأْفُقِ بينَ قولِي المعتزلةِ والأشعريةَ، وَأَنَّهُ في الحقيقةِ قَوْلٌ واحدٌ، لكن المعتزلةَ اتَّوَا به صَرِيحاً لا لَبْسَ فيه، وهؤلاء قالوا به بطريقةٍ مُلْتَوِيَةٍ مُشَكِّكَةٍ.

ولقد ذكرتُ في الباب الثاني في مسألة اللَّفْظ أنَّ القَوْلَ بِخَلْقِ الألفاظ
المُنزَلة قولٌ تَسْتَرُّ به الجَهْمِيَّة لِيَلْبِسُوا على الناس دينهم.

قال شيخ الإسلام: «جمهورُ الناس يقولون: إِنَّ أصحابَ هذا القول
عند التحقيق لم يُثبتوا له كلاماً حَقِيقَةً غَيْرَ المخلوق» (١٦).



(١٦) «مجموع الفتاوى» ١٢/١٢١.

المبحث السادس

الأشعرية وأهل السنة في مسألة القرآن

لَقَدْ كَانَ الْمُعْتَزِّلَةُ فِي الزَّمَنِ الْغَابِرِ يَصِفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِـ (أَهْلِ السُّنَّةِ) وَكَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ كَانُوا عَلَى هَذَا النَّحْوِ، وَالْأَشْعَرِيَّةُ وَمِثْلُهُمُ الْمَاتَرِيدِيَّةُ مِمَّنْ تَلَقَّبُوا بِهَذَا، فَهُمْ يَصِفُونَ أَنْفُسَهُمْ بِـ (أَهْلِ السُّنَّةِ) وَيَقُولُونَ فِي اعْتِقَادِهِمْ: إِنَّهُ (اعْتِقَادُ أَهْلِ السُّنَّةِ) وَرَبَّمَا عَزَّزُوا ذَلِكَ بِأَنَّهُ فِيهِمْ كَثْرَةٌ مِنْ أَهْلِ الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ، وَرُوَاةِ السُّنَنِ وَالْآثَارِ.

يَقُولُ الزُّبَيْدِيُّ: «إِذَا أُطْلِقَ: أَهْلُ السُّنَّةِ وَالْجَمَاعَةِ، فَالْمُرَادُ بِهِمُ الْأَشَاعِرَةُ وَالْمَاتَرِيدِيَّةُ» (١٧).

قُلْتُ: وَيَنْصُرُونَ ذَلِكَ بِكَثْرَةِ الْأَتْبَاعِ، وَهَذَا مِمَّا اغْتَرَّ بِهِ كَثِيرٌ مِنْ أَهْلِ زَمَانِنَا وَنَسُوا غُرْبَةَ أَهْلِ الْحَقِّ.

وَلَقَدْ كَانَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَأَتْبَاعُهُ قَلَّةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى الْمُعْتَزِّلَةِ لِمَا كَانَ مَعَهُمْ مِنْ قُوَّةِ السُّلْطَانِ، وَلَمْ يَكُنْ هَذَا حِجَّةً فِي مِيزَانِ أَهْلِ الْحَقِّ عَلَى صِحَّةِ اعْتِقَادِهِمْ، وَكَانَ فِيهِمْ مَنْ يُنْسَبُ إِلَى الْفِقْهِ وَالْحَدِيثِ وَالْعِلْمِ.

(١٧) «شرح الإحياء» ٦/٢.

وإنما الميزان عَرَضُ الآراءِ والأقوالِ والمذاهبِ على الكتابِ والسُّنةِ
وما كان عليه سَلَفُ الأُمَّةِ، وهذا لا يَحْتَاجُ إلى إيضاحٍ، فإنَّه لا يخفى مثله
على أهلِ الإنصافِ والإخلاصِ والاتباعِ، فما وافقَ الشَّرْعَ منها قُبِلَ، وما
لَمْ يوافقْ طُرِحَ ونُبَذَ.

والدَّعوى المجرَّدة رَخيصةٌ لِقائلها، ولم يكن لصاحبِ بدعةٍ في يومٍ
من الدَّهْرِ أن يقولَ: إِنِّي مُبتَدِعٌ، أو صاحبُ هوى، خصوصاً إذا أَرَادَ لدائه
أن يَسْرِيَ في الناسِ، فإنَّه يتلقَّبُ بأحسنِ الألقابِ، ويتسمَّى بأحسنِ
الأسماءِ.

وكما بَطَلَتْ دَعوى المعتزلةِ الجهميَّةِ في سالفِ الزَّمانِ، بَطَلَتْ دَعوى
الأشعريةِ والماتريديةِ عندَ أهلِ الحَقِّ والسُّنةِ، ولقد شَرَحْنَا من ذلك ما فيه
الدَّلالةُ القاطعةُ على مخالفةِ الأشعريةِ والماتريديةِ لاعتقادِ أهلِ السُّنةِ
ولمَنهَجِ السَّلَفِ، مع أنَّي تناوَلْتُ اعتقادَهُم في مسألةِ القرآنِ وبعضِ ما
يرتبطُ بها لا جَميعِ المسائلِ التي خَرَجُوا فيها عن الصُّراطِ المستقيمِ، فإنَّ
لَهُم من الاعتقاداتِ الباطلةِ سِوى ما بَيَّنَّته شيئاً كثيراً.

وَأنتَ أيها الناظرُ في قَوْلِي أَحَدُ رَجُلَيْنِ: إمَّا أن تكونَ مُنصِفاً طالباً
للحَقِّ ابتغاءَ وجهِ الله، وإمَّا أن لا تكونَ كَذَلِكَ، فإنَّ كُنتَ الأوَّلَ أدركتَ
الحَقَّ إن شاء الله وبأنَّ لك، وإنَّ كُنتَ الثاني فَلَسْتُ أرجوكَ فلا تُتَعِبْ
نفسَكَ.

ولو عُدَّتْ للبابِ الثاني من كِتَابِي هذا ونظرتَ بأدنى تأمُّلٍ ما أوردتهُ
في اللَّفْظِيَّةِ الَّذِينَ جَهَّمَهُم الإمامُ أحمدُ وغيرُهُ من الأئمَّةِ، علمتَ أنَّ ذلك

مُنْصَبٌ تماماً على الأشعرية والماتريدية، بَلْ إِنَّ اللَّفْظِيَّةَ الْأَوَائِلَ الَّذِينَ أَنْكَرَ
 الْإِمَامُ أَحْمَدُ وَغَيْرُهُ مِنْ أئِمَّةِ السُّنَّةِ مَقَالَتَهُمْ أَفْضَلُ مِنْ هَؤُلَاءِ وَأَقْرَبُ إِلَى الْحَقِّ
 مِنْهُمْ، فَإِنَّ أَوْلَثَكَ لَمْ يُحْفَظْ عَنْهُمْ تَصْرِيحٌ بِأَنَّ اللَّهَ لَا يَتَكَلَّمُ بِحَرْفٍ وَلَا
 صَوْتٍ^(١٨)، وَلَا نَفْيٌ تَعْلُقُ الْكَلَامَ بِالْمَشِيئَةِ وَالْقُدْرَةِ، فَجَاءَ أَصْلُ هَؤُلَاءِ
 الْمُتَبَدِّعَةِ ابْنُ كُلاب، فَأَدْخَلَ عَلَى النَّاسِ هَذِهِ الْأَبَاطِيلَ.

وَأَنِّي ذَاكِرٌ لَكَ بَعْضَ كَلَامِ الْأَئِمَّةِ فِي إِنْكَارِ قَوْلِ الْكَلَابِيَّةِ وَمَنْ وَافَقَهُمْ
 كَالْأَشْعَرِيَّةِ وَالْمَاتَرِيدِيَّةِ فِي كَلَامِ اللَّهِ تَعَالَى، سَوَى مَا سَقَيْتُهُ فِي الْبَابِ
 الثَّانِي:

١ - الإمام أحمد بن حنبل:

كَانَتْ مَقَالَةُ ابْنِ كُلابَ غَيْرَ ظَاهِرَةٍ فِي عَصْرِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ، سَوَى
 الْقَوْلِ بِخَلْقِ أَلْفَاظِ الْقُرْآنِ، وَقَدْ سَبَقَ بَيَانُ إِنْكَارِ الْإِمَامِ أَحْمَدَ ذَلِكَ أَشَدَّ
 الْإِنْكَارِ وَتَبْدِيعِ مَنْ قَالَ هَذِهِ الْمَقَالَةَ، بَلْ تَكْفِيرِهِ وَتَجْهِيمِهِ.

وَمَعَ ذَلِكَ فَقَدْ عَلِمَ الْإِمَامُ أَحْمَدُ بِابْنِ كُلابَ، وَأَنَّهُ مِنَ اللَّفْظِيَّةِ
 الْقَائِلِينَ: أَلْفَاظُنَا بِالْقُرْآنِ مَخْلُوقَةٌ، فَأَنْكَرَ بَدْعَتَهُ، وَشَدَّدَ عَلَى أَصْحَابِهِ، مِثْلَ
 الْحَارِثِ الْمُحَاسِبِيِّ، بِسَبَبِ ذَلِكَ.

وَقَدْ سَأَلَ بَعْضُ مَنْ كَانَ يَمِيلُ إِلَى قَوْلِ ابْنِ كُلابَ الْإِمَامَ أَبَا بَكْرٍ بَنَ
 خَزِيمَةَ، فَقَالَ: مَا الَّذِي أَنْكَرْتَ مِنْ مَذَاهِبِنَا أَيُّهَا الْإِمَامُ حَتَّى نَرْجِعَ عَنْهُ؟
 قَالَ: «مَيْلَكُمْ إِلَى مَذْهَبِ الْكَلَابِيَّةِ، فَقَدْ كَانَ أَحْمَدُ بْنُ حَنْبَلٍ مِنْ أَشَدِّ النَّاسِ
 عَلَى عَبْدِ اللَّهِ بْنِ سَعِيدٍ (يَعْنِي ابْنَ كُلابَ) وَعَلَى أَصْحَابِهِ، مِثْلَ الْحَارِثِ،

(١٨) انظر: «مجموع الفتاوى» ٣٧٩/١٢.

وغيره» (١٩).

وقد نقل الأشعري نفسه عن الإمام أحمد قوله: «نحن لا نحتاج أن نشك في هذا القرآن عندنا، فيه أسماء الله، وهو من علم الله، فمن قال لنا: إنه مخلوق، فهو عندنا كافر» (٢٠).

قلت: وهذا النص منتزَع على الأشعرية من وجوه:

الأول: أن الكلام عندهم مُغايِرٌ للعِلْم، وليس به مطلقاً.

قال الباجوري الأشعري: «والكلام: القول، وما كان مكتفياً بنفسه، والعلم هو المعرفة، كما يؤخذ من القاموس في مواضع متعددة، وإذا ثبت أنها متغايرة لغة كانت متغايرة شرعاً، وبالجُمْلَةِ فكُنه كل واحدة غير كُنه الأخرى، ونفوض علم ذلك لله تعالى» (٢١).

قلت: نحن لا نرتاب في أن كلام الله تعالى من علمه، كما قال تعالى: ﴿الرَّحْمَنُ . عَلَّمَ الْقُرْآنَ﴾ [الرَّحْمَنُ: ١ - ٢] وكما قال: ﴿وَلَيْنِ اتَّبَعَتْ أَهْوَاءَهُمْ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ . . .﴾ [البقرة: ١٤٥] وكما قال: ﴿فَمَنْ حَاجَّكَ فِيهِ مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ [آل عمران: ٦١] وكان هذا من حُجَّة الإمام أحمد على الجَهْمِيَّة فيما ذكرناه عنه في الباب الأول (٢٢).

(١٩) رواه الحاكم في «تاريخه» - كما في «مجموع الفتاوى» ١٧١/٦ -

١٧٢ - وسنده صحيح.

(٢٠) «الإبانة» ص: ٧١.

(٢١) «شرح الجوهرة» ص: ٨٦.

(٢٢) انظر: ص ١٢٤ - ١٢٥.

والثاني: كلامُ الله عندهم لا يتبعُضُ، وكذا علمُه، والإمام أحمد جعل القرآنَ بعضاً من علمه تعالى.

والثالث: قوله: «هذا القرآن» إشارةً إلى حاضرٍ، وأكَّده بقوله: «عندنا» وليس عندنا إلا هذا القرآن العربيُّ.

والرابع: أثبت أن أسماء الله تعالى في هذا القرآن المُشار إليه، ولا يفهم أحدٌ من ذلك إلا الأسماء الحُسنَى، ك (الله، الرَّحْمَن، الرَّحِيم) وغير ذلك، وهذه عند الأشعرية تسمياتٌ مخلوقة، لكونها مؤلفةً من الحروف، والقرآن العربيُّ نفسه عندهم مخلوق، لأنه مؤلفٌ من الحروف، إلى غير ذلك من أباطيلهم.

فالأشعرية خالفوا نصَّ الإمام أحمد من أوَّله إلى آخره، فترى على ماذا يَرُدُّ قولُ أحمد رحمه الله: «فمن قال لنا: إنه مخلوق فهو عندنا كافر»؟ وعلى مَنْ؟!

وقد ذكرتُ آنفاً قولَ أحمد بن سعيد الدَّارمي: قلتُ لأحمد بن حنبل: أقولُ لك قولي، وإن أنكرتَ منه شيئاً فقل: إني أنكرُهُ، قلتُ له: نحن نقول: القرآن كلامُ الله من أوَّله إلى آخره، ليس منه شيءٌ مخلوقٌ، ومَنْ زعمَ أن شيئاً منه مخلوقٌ فهو كافرٌ، فما أنكرَ منه شيئاً، ورَضِيهِ (٢٣).

قلتُ: والأشعرية يقولون: الكلامُ الذي له أوَّلٌ وآخرٌ ويتبعُضُ فهو مخلوقٌ.

فمَنْ المقصودُ إذاً بقوله؛ «ومَنْ زعمَ أن شيئاً منه مخلوقٌ فهو كافر»؟

٢ - الإمام أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة إمام الأئمة :

كان رحمه الله تعالى شديداً على الكلابية^(٢٤) - أصل الأشعرية والماتريدية - .

وقد ذكر شيخ الإسلام أبو إسماعيل الأنصاري في «مناقب الإمام أحمد» فتنة الكلابية، وقال :

«فطار لتلك الفتنة ذاك الإمام أبو بكر - يعني ابن خزيمة - فلم يزل يصيح بتشويهها، ويصنف في ردّها، كأنه مُنذر جيشٍ، حتى دَوَّنَ في الدفاتر، وتمكَّن في السرائر، ولقَّن في الكتائب، ونقش في المحارِب: إن الله متكلمٌ، إن شاء تكلم، وإن شاء سكت، فجزى الله ذاك الإمام، وأولئك النفر الغر عن نُصرة دينه وتوقير نبيه خيراً»^(٢٥).

وله قصصٌ حصلت له مع الكلابية تنبئ عن شدته عليهم، وإنكاره لاعتقادهم في القرآن.

٣ - الحافظ الثقة أحمد بن سنان الواسطي :

قال رحمه الله : «مَنْ زَعَمَ أَنَّ الْقُرْآنَ شَيْئَيْنِ، أَوْ أَنَّ الْقُرْآنَ حِكَايَةٌ، فَهُوَ وَاللَّهِ الَّذِي لَا إِلَهَ إِلَّا هُوَ زَنْدِيقٌ، كَافِرٌ بِاللَّهِ، هَذَا الْقُرْآنُ هُوَ الْقُرْآنُ الَّذِي أَنْزَلَهُ اللَّهُ عَلَى لِسَانِ جِبْرِيلَ عَلَى مُحَمَّدٍ ﷺ، لَا يُغَيَّرُ وَلَا يُبَدَّلُ، لَا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِ...»^(٢٦).

(٢٤) «مجموع الفتاوى» ١٦٩/٦.

(٢٥) «مجموع الفتاوى» ١٧٨/٦.

(٢٦) سبق سياقه بتمامه وتخرجه ص ١٩٨ - ١٩٩.

قلتُ: والذي كان يقولُ: شيئين، أوّل الأمر، داوُدُ الأصبهاني،
والذي كان يقول: حِكَايَةُ ابْنِ كُلاب - أصلُ الأشعرية والماتريدية - لكنَّ
الأشعريَّ خالفه في إطلاق لفظ (حكاية) على القرآن العربي، ويقولُ: هو
عبارة، لأنَّه رأى أن لفظَ (حكاية) لا يُناسِبُ اعتقادَهم.

قال الإمام الفقيه أبو حامد الإسفراييني: «وكان ابنُ كُلاب عبد الله
ابن سعيد القطان يقول: هي - أي الألفاظ - حكاية عن الأمر، وخالفه أبو
الحسن الأشعريُّ في ذلك، فقال: لا يجوز أن يُقال: إنها حكاية، لأنَّ
الحكاية تحتاجُ إلى أن تكونَ مثلَ المحكي، ولكنَّه عبارة عن الأمر القائم
بالنفس، وتقرَّر مذهبُهم على هذا» (٢٧).

٤ - الإمام الفقيه الجبل أبو العباس بن سريج: أحمد بن عمر، إمام
الشافعية في وقته:

قال رحمه الله: «وقَدْ صَحَّ وتقرَّر واتَّضَحَّ عند جميع أهل الديانة
والسُّنة والجماعة من السَّلف الماضين، والصُّحابة، والتَّابعين، من الأئمة
المُتَّهدين الراشدين المشهورين إلى زماننا هذا: أن جميع الآي الواردة عن
الله تعالى في ذاته وصفاته، والأخبار الصادقة الصَّادرة عن رسولِ الله ﷺ
في الله وفي صفاته التي صَحَّحها أهل النُّقل، وقَبَلها النُّقادُ الأثبات، يَجِبُ
على المرءِ المُسلمِ المؤمنِ الموفِّقِ الإيمانَ بكلِّ واحدٍ منه كما وردَ، وتسليمُ
أمره إلى الله سبحانه وتعالى كما أمر» فذكرَ جملةً من الصُّفات، ثم قال:
«وإثباتُ الكلامِ بالحَرْفِ والصُّوتِ، وباللُّغاتِ، وبالكَلِماتِ وبالسُّورِ،

(٢٧) قاله في كتابه «التعليق في أصول الفقه» كما في «درء التعارض»

. ١٠٧/٢

وكلامه تعالى لجبريل والملائكة، ولملك الأرحام، وللرحم، ولملك الموت، ولرضوان، ولمالك، ولآدم، ولموسى، ولمحمد ﷺ، وللشهداء، وللمؤمنين عند الحساب، وفي الجنة، ونزول القرآن إلى سماء الدنيا، وكون القرآن في المصاحف...» فذكر أشياء حتى قال: «نقبلها، ولا نردّها، ولا نتأولها بتأويل المخالفين، ولا نحملها على تشبيه المشبهين، ولا نزيد عليها، ولا ننقص منها، ولا نفسرها، ولا نكيّفها، ولا نترجم عن صفاته بلغة غير العربية، ولا نشير إليها بخواطر القلوب، ولا بحركات الجوارح، بل نطلق ما أطلقه الله عز وجل، ونفسر ما فسرّه النبي ﷺ، وأصحابه، والتابعون، والأئمة المرضييون من السلف المعروفين بالدين والأمانة، ونجمع على ما أجمعوا عليه، ونمسك عما أمسكوا عنه، ونسلم الخبر الظاهر، والآية الظاهر تزيّلها، لا نقول بتأويل المعتزلة والأشعرية والجهمية والملاحدة والمجسّمة والمشبّهة والكرامية والمكيّفة، بل نقبلها بلا تأويل، ونؤمن بها بلا تمثيل، ونقول: الإيمان بها واجب، والقول بها سنة، وابتغاء تأويلها بدعة» (٢٨).

قلت: ابن سريج ذاك الإمام الذي لا يُجهل قدره، ولا يُنكر فضله، به انتشر فقه الشافعي رحمه الله، وربما فضله بعض الأئمة على سائر أصحاب الشافعي، حتى على المزيّني تلميذه، وقد عدّ المُجدّد على رأس ثلاث مئة، وأنشد فيه المنشد:

اثنان قد ذهباً فبورك فيهما عمر الخليفة ثم حلف السؤدد
الشافعي الألمعي محمد إرث النبوة وابن عم محمد

(٢٨) نقله ابن القيم في «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص: ٦٢ - ٦٤.

أُبَشِّرُ أَبَا الْعَبَّاسِ إِنَّكَ ثَالِثٌ مِنْ بَعْدِهِمْ سُقِيَا لِثَرْتَةِ أَحْمَدَ
فَهَلْ تَعْدُونَهُ - معشر الأشعرية - مجسماً حين أثبت الكلام بالحروف
واللغات، وشهد عليكم بالتأويل المذموم؟ أم ماذا أنتم قائلون؟

٥ - الإمام الفقيه الحجة أبو حامد أحمد بن محمد الإسفراييني،
رأس الشافعية والمقدم فيهم:

كان من أشد الناس على الأشعرية، وبالخصوص على مُحَقِّقِهِم
الأكبر أبي بكر الباقلاني.

قال الحافظ أبو الحسن الكرجي الشافعي: «ولم يزل الأئمة الشافعية
يأنفون ويستنكفون أن يُنسبوا إلى الأشعري، ويتبرؤن مما بنى الأشعريُّ
مذهبَه عليه، وينهون أصحابهم وأحبابهم عن الحوم حوالَيْه، على ما
سَمِعْتُ عِدَّةً من المشايخ والأئمة - منهم الحافظ المؤتمن بن أحمد بن علي
السَّاجِي - يقولون: سَمِعْنَا جماعةً من المشايخ الثقات قالوا: كَانَ الشَّيْخُ أَبُو
حَامِدٍ أَحْمَدَ بْنِ أَبِي طَاهِرِ الْإِسْفَرَايِينِي إِمَامَ الْأَئِمَّةِ الَّذِي طَبَقَ الْأَرْضَ عِلْماً
وَأَصْحَاباً، إِذَا سَعَى إِلَى الْجُمُعَةِ مِنْ قِطْعِيَةِ الْكَرَجِ إِلَى جَامِعِ الْمَنْصُورِ،
يَدْخُلُ الرِّبَاطَ الْمَعْرُوفَ بِالزُّوزِيِّ، الْمُحَازِي لِلْجَامِعِ، وَيُقْبَلُ عَلَى مَنْ
حَضَرَ، وَيَقُولُ: اشْهَدُوا عَلَيَّ بِأَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، كَمَا قَالَه
الإمام ابن حنبل، لا كما يقوله الباقلاني، وتكرَّرَ ذَلِكَ مِنْهُ جُمُعات، فَقِيلَ
لَهُ فِي ذَلِكَ، فَقَالَ: حَتَّى يَنْتَشَرَ فِي النَّاسِ، وَفِي أَهْلِ الصَّلَاحِ، وَيشيعَ
الخبرُ فِي أَهْلِ الْبِلَادِ: أَنِّي بَرِيءٌ مِمَّا هُمْ عَلَيْهِ - يعني الأشعرية - وباريءٌ مِنْ
مَذْهَبِ أَبِي بَكْرِ بْنِ الْبَاقِلَانِي، فَإِنَّ جَمَاعَةً مِنَ الْمُتَفَقِّهَةِ الْغُرَبَاءِ يَدْخُلُونَ
عَلَى الْبَاقِلَانِي خُفْيَةً، وَيَقْرَءُونَ عَلَيْهِ، فَيُقْتَنُونَ بِمَذْهَبِهِ، فَإِذَا رَجَعُوا إِلَى

بلا دهم أظهروا بدعتهم لا محالة، فيظن ظان أنهم مني تعلموه قبله، وأنا ما قلتُه، وأنا بريء من مذهب الباقلاني وعقيدته» (٢٩).

قلت: فبالله عليكم معشر الأشعرية! أترون الإمام أبا حامد بريء من التوحيد الصحيح حين برىء من اعتقادكم؟ أم هو مجسم يدعو الناس إلى التشبيه وعدم التنزيه؟

ولماذا فرق بين اعتقاد الإمام أحمد بن حنبل والباقلاني، مع أنه أفضل أئمتكم وأعظمهم قدراً؟

ولماذا يشهر به على رؤوس الناس؟

بل إنه قد شهد عليه بأشد من ذلك.

قال الإمام أبو بكر عبيد الله بن أحمد الزاذقاني (وكان ثقة فاضلاً):

«كنت في درس الشيخ أبي حامد الإسفراييني، وكان ينهى أصحابه عن الكلام وعن الدخول على الباقلاني، فبلغه أن نفراً من أصحابه يدخلون عليه خفية لقراءة الكلام، فظن أنني معهم ومنهم» - وذكر قصة قال في آخرها: «إن الشيخ أبا حامد قال لي: يا بني، قد بلغني أنك تدخل على هذا الرجل - يعني الباقلاني - فيأياك وإياه، فإنه مبتدع يدعو الناس إلى الضلالة، وإلا فلا تحضر مجلسي، فقلت: أنا عائد بالله مما قيل وتائب إليه، واشهدوا علي أنني لا أدخل إليه» (٣٠).

(٢٩) «درء تعارض العقل والنقل» ٩٦/٢ - ٩٧.

(٣٠) رواه أبو الحسن الكرجي - كما في «درء التعارض» ٩٧/٢ - بسند

صحيح.

رَحِمَ اللهُ الشَّيْخَ أَبَا حَامِدٍ، مَا أَشْبَهَهُ بِالْأُتَمَّةِ الْأَوَائِلِ فِي التَّحْذِيرِ مِنْ أَهْلِ الْبِدْعِ، وَالنَّهْيِ عَنْ مُجَالَسَتِهِمْ.

وقال رحمه الله: «مَذْهَبِي وَمَذْهَبُ الشَّافِعِيِّ وَفُقَهَاءُ الْأُمُصَارِ: أَنَّ الْقُرْآنَ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، وَالْقُرْآنُ حَمْلُهُ جَبْرِيلُ مَسْمُوعاً مِنَ اللَّهِ تَعَالَى، وَالنَّبِيُّ ﷺ سَمِعَهُ مِنْ جَبْرِيلَ، وَالصَّحَابَةُ سَمِعُوهُ مِنْ رَسُولِ اللَّهِ ﷺ، وَهُوَ الَّذِي نَتْلُوهُ نَحْنُ بِالسَّنَنِ، وَفِيمَا بَيْنَ الدُّفَّتَيْنِ، وَمَا فِي صُدُورِنَا، مَسْمُوعاً وَمَكْتُوباً، وَمَحْفُوظاً وَمَنْقُوشاً، وَكُلَّ حَرْفٍ مِنْهُ كَالْبَاءِ، وَالتَّاءِ، كُلُّهُ كَلَامُ اللَّهِ غَيْرُ مَخْلُوقٍ، وَمَنْ قَالَ: مَخْلُوقٌ، فَهُوَ كَافِرٌ، عَلَيْهِ لَعَائِنُ اللَّهِ وَالْمَلَائِكَةِ وَالنَّاسِ أَجْمَعِينَ» (٣١).

قُلْتُ: فَانْهَارَ بَنِيَانُكُمْ مَعَشَرَ الْأَشْعَرِيَّةِ.

وَأَمَّا أَنْتُمْ أَيُّهَا الْأَصْحَابُ السَّلَفِيُونَ، فَإِنْ كَانَتْ تَغْرُكُمْ الْكَثْرَةُ مِنَ الْمُتَنَسِّبِينَ إِلَى الْأَشْعَرِيِّ، فَاعْلَمُوا أَنَّ الْكَثْرَةَ فِي أَوَّلِ حَالِ الْأَشْعَرِيَّةِ كَانَتْ عَلَى تَبْدِيدِهَا وَذَمِّ اعْتِقَادِهَا، وَهَؤُلَاءِ الَّذِينَ ذَكَّرْنَاهُمْ مِنَ الْأُتَمَّةِ وَمَنْ يَأْتِي ذَكَرَهُمْ وَمَا قَالُوهُ فِي حَقِّ الْأَشْعَرِيَّةِ، مِنْ أُتَمَّةِ الشَّافِعِيَّةِ وَالْحَنَابِلَةِ وَغَيْرِهِمْ، مِمَّنْ كَانَ أَصْحَابُهُمْ إِنَّمَا يَصْدُرُونَ عَنْ أَقْوَالِهِمْ وَكَلَامِهِمْ، لَهُوَ أَكْبَرُ شَاهِدٍ عَلَى مَا أَقُولُ، وَلَكِنْ حِينَ تَبَاعَدَ الزَّمَانُ أَزْدَادَ الْإِعْرَاضُ عَنِ الْقُرْآنِ وَالسُّنَنِ وَهَذِي السَّلَفِ وَالْأُتَمَّةِ، فَكَثُرَ أَهْلُ الْبِدْعِ.

(٣١) رواه أبو الحسن الكرجي - كما في «درء التعارض» ٩٥/٢ - ٩٦ - بسند

٦ - الإمام أبو الحسين يحيى بن أبي الخير العمراني، فقيه الشافعية وإمامهم ببلاد اليمن:

قال الإمام ابن القيم: «له كتاب لطيف في السنة على مذهب أهل الحديث، صرح فيه بمسألة الفوقية والعلو، والاستواء حقيقة، وتكلم الله عز وجل بهذا القرآن العربي المسموع بالأذان حقيقة، وأن جبرائيل عليه الصلاة والسلام سمعه من الله سبحانه حقيقة، وصرح فيه بإثبات الصفات الخبرية، واحتج بذلك ونصره، وصرح بمخالفة الجهمية النفاة» (٣٢).

٧ - الإمام أبو عبد الله الحسن بن حامد، شيخ الحنابلة:
كان ممن أنكر اعتقاد الأشعرية (٣٣).

٨ - الإمام الحافظ أبو نصر السجزي، شيخ السنة:

له في ذلك كتاب «الإبانة الكبرى في أن القرآن غير مخلوق» (٣٤) وقد حكيت عنه بعض كلامه فيما سبق في هذا الكتاب، وهو من أشد الناس على الأشعرية، بل إنه قد بالغ في ذلك حتى قال: «لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم، من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب، والقلانسي، والأشعري، وأقرانهم، الذين يتظاهرون بالرد على المعتزلة وهم معهم، بل أحسن حالاً منهم في الباطن، من أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً، ذا تأليف واتساق، وإن اختلفت به اللغات» (٣٥).

(٣٢) «اجتماع الجيوش الإسلامية» ص: ٧١.

(٣٣) «درء التعارض» ١٠٠/٢.

(٣٤) «سير أعلام النبلاء» ٦٥٤/١٧.

(٣٥) «درء تعارض العقل والنقل» ٨٣/٢.

٩ - الإمام الحُجَّةُ الحافظ أبو القاسم سعد بن علي الزنجاني :
كان من مُنكري اعتقاد الأشعرية (٣٦).

١٠ - الإمام قَوَامُ السُّنَّةِ إسماعيل بن محمد بن الفضل الأصبهاني :

قال : « قال أصحابُ الحديث وأهلُ السُّنة : إنَّ القرآنَ المكتوبَ الموجودَ في المصاحفِ ، والمحفوظَ الموجودَ في القلوبِ ، هو حقيقةُ كلامِ الله عزَّ وجلَّ ، بخلافِ ما زعمَ قومٌ : أنه عبارةٌ عن حقيقةِ الكلامِ القائمِ بذاتِ الله عزَّ وجلَّ ودلالةً عليه ، والذي هو في المصحفِ مُحَدَّثٌ وحُرُوفٌ مَخْلُوقَةٌ ، ومَذْهَبُ علماءِ السُّنةِ وفُقَهاءِهِمْ : أنه الذي تكَلَّمَ الله به ، وسَمِعَهُ جبريلُ من الله ، وأدَّى جبريلُ إلى النبي ﷺ ، وتحدَّى به النبي ﷺ ، وجعله الله عزَّ وجلَّ دلالةً على صِدْقِ نبوتهِ ومُعْجَزَةٍ ، وأدَّى النبي ﷺ إلى الصَّحابةِ رضوانَ الله عليهم حسبَ ما سَمِعَهُ من جبريلَ عليه السَّلام ، ونقلَه السَّلَفُ إلى الخَلَفِ قَرْنًا بعدَ قَرْنٍ » (٣٧).

١١ - الحافظ الفقيه العَلَمُ موفق الدين ابن قدامة المَقْدِسِي :

ولا يخفى قدرُهُ وفضْلُهُ ، قد كانَ رحمه الله شديدًا جدًّا على الأشعريةَ ، وله في ذلك تصانيف في الرَّدِّ عليهم ، وإظهار باطلهم ، وقد كان مشهوراً ما بين آل قُدَّامة وآل عَسَاكِر من النُّفْرة بسببِ الاعتقادِ .

وخلافتُ سِوى مَنْ ذَكَرْنَا لَا يُحْصِيهِمْ إِلَّا اللهُ مِنَ الأوائلِ والأواخرِ ، كانوا جميعاً على إنكارِ اعتقادِ الأشعريةِ وأشباهِهِمْ في مسألةِ القرآنِ ، واعتقادِ

(٣٦) «درء تعارض العقل والنقل» ١٠١/٢ .

(٣٧) «الحجة» ق ١٠٣/ب - ١٠٤/أ .

خلاف ما يعتقدون، وهم في ميزان الأشعرية مُشَبَّهَةٌ مُجَسِّمَةٌ، مع أنَّهم عالة على أكثرهم في الفقه والعلم.

وفي الجملة فإن قول الأشعرية والماتريدية في كلام الله تعالى، ليس هو قول السلف، بل ولا يعرفه السلف، وإنما هو اعتقاد مبتدع زائغ، موافق في حقيقة الحال لاعتقاد الجهمية الذين كفَّروا السلف وهَجَرُوهم، وأَمَرُوا بهَجَرهم، وإظهار باطلهم والتحذير منهم.

قال شيخ الإسلام: «وإنكار تكلم الله بالصوت وجعل كلامه معنى واحداً قائماً بالنفس بدعة باطلة لم يذهب إليها أحد من السلف والأئمة» (٣٨).

وقال: «وهؤلاء يردون على الخلقية - يريد المعتزلة - الذين يقولون: القرآن مخلوق، ويقولون عن أنفسهم: إنهم أهل السنة الموافقون للسلف الذين قالوا: إن القرآن كلام الله غير مخلوق، وليس قولهم قول السلف، لكن قولهم أقرب إلى قول السلف من وجه، وقول الخلقية أقرب إلى قول السلف من وجه» (٣٩).

قلت: وهذا القرب لا يجعلهم من أهل السنة، كما أن قرب المعتزلة لم يجعلهم من أهل السنة.

وقال شيخ الإسلام أيضاً: «فكل من المعتزلة والأشعرية في مسائل كلام الله وأفعال الله، بل وسائر صفاته، وافقوا السلف والأئمة من وجه،

(٣٨) «مجموع الفتاوى» ٥٢٨/٦.

(٣٩) «مجموع الفتاوى» ١٣٢/١٢.

وخالفوهم من وجه، وليس قول أحدهما هو قول السلف دون الآخر، لكن الأشعرية في جنس مسائل الصفات، بل وسائر الصفات والقدر أقرب إلى قول السلف والأئمة من المعتزلة» (٤٠).

وكلام شيخ الإسلام فيهم لا يحصى كثرة، وهذا من أسباب نقمتهم عليه، وقد ضمنت الكثير من ذلك كتابي هذا.

قلت: فالأشعرية والماتريدية إذاً لا يصح أن يكونوا هم أهل السنة، لما جانبوا فيه السنة، وتركوا فيه طريق السلف والأئمة، إذ بدعتهم من شر أنواع البدع، إن لم تكن شرها وأسوأها، ولولا التأويل الذي وقعوا بسببه في مخالفة اعتقاد السلف لكان للكلام معهم صورة أخرى!!

فتأمل أخي ذلك واحذر مخالفة ما جاء به الرسول ﷺ، وترك سبيل المؤمنين من أهل خير القرون، ولا تستهوينك الآراء والظنون فتقول على الله غير الحق، وتجادل في آياته بالباطل.

ومن للذَّب عن السنن والعقيدة السلفية إن نحن واطأنا المبتدعة واعتذرنا لهم وجادلنا عنهم؟

فالله المستعان على ما آل إليه الحال من غربة السنة وظهور البدع، وهو حسبنا ونعم الوكيل.



خاتمة

بعد هذا البسط للعقيدة السلفية واعتقاد أهل البدع، وبه تمّ المراد، أذكرُ في الختام - بإيجاز - أهمّ الأسباب التي وقع بسببها الاغترارُ بأهل البدع - وخاصّةً الأشعرية والماتريدية - مع الذبّ الموافق للشّرْع عَمَّن عُرِفَ بالإمامة في الحديث والفقه وغير ذلك من علوم الشريعة مع انتسابه إلى هذه الطوائف.

فمن أسباب الاغترار بأهل البدع - كالأشعرية ونحوهم -:

١ - دَعَوَاهُمُ الانتساب إلى أهل السُّنَّة والحديث، وتأكيدهم ذلك باشتغالهم بعلوم السُّنَّة، وإسناد الروايات، ممّا هو شعار السلف والأئمة.

٢ - انتصارهم للسُّنن في المسائل الفرعية، والدِّفاع عنها، وتصنيف المصنفات في ذلك.

٣ - اشتهاؤ الكثير منهم بالدِّيانة والصَّلاح، والأمر بالمعروف والنَّهي عن المنكر، والجِّهاد في سبيل الله.

٤ - اشتغالهم بالرَّد على الطوائف المخالفة لشرعية الإسلام،

كَرْدُودِ الْأَشْعَرِيَّةِ عَلَى الْمَعْتَزَلَةِ، وَالرُّدُودِ عَلَى الْفَلَّاسِفَةِ.

هـ - كَثْرَةُ الْمَوَافِقِينَ لَهُمْ عَلَى مَرِّ الزَّمَانِ.

هذه أهم الأسباب التي اغترَّب بها كثيرٌ من الناس، فهَوَّنُوا مِنْ بَدْعِ هَؤُلَاءِ، بَلْ إِنَّهُمْ جَعَلُوهَا سِتْرًا يَسْتَرُونَ بِهِ فُضَائِحَ أَهْلِ الْبَدْعِ، وَغَفَلَ هَؤُلَاءِ عَنْ كَوْنِ الضَّلَالِ فِي الْإِعْتِقَادِ أَعْظَمَ الضَّلَالِ، وَقَدْ كَشَفْنَا لَكَ فِي قَضِيَّةٍ وَاحِدَةٍ، وَهِيَ قَضِيَّةُ (الْكَلَامِ) عَنْ أَبَاطِيلِ مُذْهَلَةٍ، وَضَلَالَاتٍ مُهَوَّلَةٍ.

وهذه الأسبابُ التي ذَكَرْنَا يُعَدُّ أَكْثَرُهَا حَسَنَاتٍ لِهَؤُلَاءِ الْمُبْتَدِعَةِ، لَا نَبْخَسُهُمْ أَشْيَاءَهُمْ، وَرَبُّنَا تَعَالَى أَمَرَ بِالْعَدْلِ فِي الْحُكْمِ وَالْقَوْلِ، فَصَاحِبُ الْبِدْعَةِ قَدْ يَكُونُ فَاضِلًا لِمَعَانٍ مِنَ الْفَضْلِ فِيهِ، وَلَكِنْ لَكَوْنِ مَا زَلَّ بِهِ عَظِيمًا - بَغَضَ النَّظَرِ عَنْ قَصْدِهِ وَمُرَادِهِ - لِتَعَلُّقِهِ بِأَصُولِ الدِّينِ، وَجَبَ التَّنْبِيهُ عَلَى خَطَرِهِ نَصْحًا لِلْأُمَّةِ، لِئَلَّا يَتَضَرَّرَ النَّاسُ بِبِدْعَتِهِ، خَاصَّةً إِذَا كَانَ مِنْ ذَوِي الْفَضَائِلِ الْمَشْهُورَةِ وَالْخِصَالِ الْمَحْمُودَةِ، لِأَنَّ تَأَثَّرَ النَّاسِ بِمَنْ هَذَا وَصَفُهُ أَشَدُّ مِنْ غَيْرِهِ، وَيَبْقَى قَصْدُهُ وَمُرَادُهُ فِيمَا بَيْنَهُ وَبَيْنَ اللَّهِ تَعَالَى.

وهذه طَرِيقَةُ السَّلَفِ، قَالَ الْبَغَوِيُّ رَحِمَهُ اللَّهُ: «وَقَدْ مَضَتْ الصَّحَابَةُ، وَالتَّابِعُونَ، وَاتَّبَاعُهُمْ، وَعِلْمَاءُ السُّنَّةِ، عَلَى هَذَا مُجْمَعِينَ، مُتَّفَقِينَ عَلَى مُعَادَاةِ أَهْلِ الْبِدْعَةِ وَمُهَاجَرَتِهِمْ»^(١).

وَمَنْ طَالَعَ كِتَابَ تَرَاجُمِ الرُّوَاةِ ثَبَّتَ لَهُ صِحَّةُ ذَلِكَ.

فَلَا يَجُوزُ لِلْمُسْلِمِ أَنْ يُهَوِّنَ مِنْ شَأْنِ الْبَدْعِ، وَإِنْ وَقَعَتْ مِنْ فَاضِلٍ، فَإِنَّ ذَلِكَ مُنَافٍ لِمَا أَوْجَبَ اللَّهُ تَعَالَى مِنَ النَّصِيحَةِ، وَمُخَالِفٌ لِمَنْهَجِ السَّلَفِ

(١) «شرح السنة» ٢٢٧/١.

ومواقفهم من أهل البدع.

وفي الأشعرية - مثلاً - علماء لهم قَدَمٌ في خِدْمَةِ الشريعة، أمثال:
الحافظين أبي بكر البيهقي، وأبي القاسم بن عساكر، والإمام العز بن
عبد السلام، وغيرهم من فضلاء الأشعرية، نذكُرهم بما لهم من المحاسن،
غير أننا ننبه على ما وقعوا فيه من البدعة، فإن الحق لا مُحَابَاةَ فيه، ولا
تَمَنُّعًا بدعتهم من الانتفاع بعلومهم في السنن والفقه والتفسير والتاريخ
وغير ذلك، مع الحذر.

ولنا أسوة بالسلف والأئمة فإنهم رَوَوْا السنن عن الكثير من المبتدعة
لِعَلَّهم بصدقهم، مع نعتهم لهم بالبدعة.

وَنَجْتَنِبُ التكفير والتضليل والتفسيق للمُعَيَّن من هذا الصنف من
العلماء، فإن هذا ليس من منهج السلف، وإنما نكتفي ببيان بدعته وردّها
إذا تعرّضنا لها، أو خَشِينَا أن يتضرّر بها الناس، مع اجتناب ذكره بالسوء
في ذاته بما يزيد على ذكر ما في بدعته من مخالفة الدين لما قد يتعدّى بنا
إلى الغيبة المحرّمة.

وهذا كلّهُ في حقّ العالم إذا لَمْ تَغْلِبْ عليه البدع والأهواء، وعَلِمْنَا
منه حرصه على متابعة الرسول ﷺ، وتحرّي الحق من الكتاب والسنة إلا
أنه لم يُصَبِّه لشيء ما أو غير ذلك - شأن الكثير من متقدمي الأشعرية خلافاً
لأكثر متأخريهم، فإنّ لكثير من مُتَقَدِّمِيهِم اجتهداً في طلب الحقّ -.

أمّا إذا غلبت عليه الأهواء ومُخَالَفَةُ صَرِيحِ الشريعة، ولم يكن
متحرّياً للحق من كتاب الله وسنة نبيه ﷺ فليس له توقير ولا حرمة ولا كرامة.

نَسْأَلُ اللَّهَ أَنْ يَهْدِيَنَا الصِّرَاطَ الْمُسْتَقِيمَ، وَأَنْ يُجَنِّبَنَا سُبُلَ الضَّلَالَةِ،
وَنَسْتَغْفِرُهُ مِنْ زَلَّةِ الْفِكْرِ أَوْ الْقَلَمِ، هُوَ حُسْبُنَا وَنَعْمَ الْوَكِيلُ وَلَا حَوْلَ وَلَا قُوَّةَ
إِلَّا بِهِ.

وبهذا ينتهي ما أردناه، والحمد لله رب العالمين.



الفهارس

وهي أربعة فهارس:

- = ١ = فهرس أطراف الأحاديث.
- = ٢ = فهرس أطراف آثار الصحابة والتابعين.
- = ٣ = فهرس الرجال المذكورين بجرع أو تعديل.
- = ٤ = فهرس الموضوعات.

فهرس اطراف الأحاديث

(أ)

احتج آدم وموسى	١٨٢ ، ٨٤
أحياناً يأتيني مثل صلصلة الجرس	١٠٥
إذا تكلم الله عز وجل بالوحي سمع صوته أهل السماء	١٦٨
إذا رأيتم الذين يتبعون ما تشابه منه	٢٢٩
إذا قضى الله الأمر في السماء ضربت الملائكة	١٦٥
أعذكما بكلمات الله التامة	١٣١
اللهم أعوذ برضاك من سخطك	١٣٢
اللهم إني أعوذ برضاك من سخطك	١٣٣
ألم يقل الله : ﴿استجبوا لله وللرسول﴾	١٨٩
أما لو قلت حين أمسيت : أعوذ بكلمات الله	١٣٠
إن الله إذا تكلم بالوحي سمع أهل السماوات	١٦٧
إن الله إذا قضى أمراً في السماء	١٦٦
إن الله تبارك وتعالى يقول لأهل الجنة	١١٥
إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها	٥٨
إن الله كتب كتاباً قبل أن يخلق	٨٧
إن الله يحدث لنبه ما شاء	٦٠
إن الله يصنع كل صانع وصنعه	٢٧٨

- ٤١٨ إن لله تسعة وتسعين اسماً
 ٢١ إن مثلي ومثل ما بعثني الله به كمثل رجل
 ٢٥ إن مما أخشى عليكم شهوات الغي
 ١٠٠ إن موسى قال: يا رب، أرنا آدم الذي أخرجنا
 ٦١ إن هذه الصلاة لا يصلح فيها شيء من كلام الناس
 ٢٤ إنما أخاف على أمتي الأئمة المضلين
 ١٧٤ إنما الأعمال بالنيات
 ١٠٤ إنما هو جبريل، لم أره على صورته
 ٩٨ ، ٨٩ إني قمت من الليل فصليت ما قدر لي
 ٢٥ أوصيكم بتقوى الله والسمع والطاعة
 ٩٨ أول ما بدئ به رسول الله ﷺ من الوحي الرؤيا
 ١٨٨ ألا أخبرك بأفضل القرآن
 ٢٦ ألا إن من قبلكم من أهل الكتاب افترقوا

(ث)

- ٥٩ تكلتك أمك يا معاذ، وهل يكب الناس
 ١١٣ ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ... رجل حلف على سلع
 ١١٢ ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ... رجل على ماء بالقلاة
 ١١٤ ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ... شيخ زان
 ١١٣ ثلاثة لا يكلمهم الله يوم القيامة ... المسبل إزاره

(ج - ح)

- ١٨٩ الحمد لله رب العالمين هي السبع المثاني
 ٩٢ خيركم من تعلم القرآن وعلمه

(ز - ح)

- ١٠٤ رأيت جبريل عند سدرة المنتهى
 ٢٧٩ ، ١٧٤ زينوا القرآن بأصواتكم

(ف - ق)

- فأوحى الله إليّ ما أوحى ١٠١
 فضل كلام الله على سائر الكلام ١٣٤ ، ٨٥
 قالت قريش لليهود: أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ٣٧٠

(ك - ل)

- كان يقطع قراءته آية آية ٣٧٧
 كل أمتي يدخلون الجنة إلا من أبى ٢١٠
 كلمتان خفيفتان على اللسان ٦٠
 كما أنتم على مصافكم ٨٨
 لأعلمنك سورة هي أعظم السور ١٨٩

(م)

- ما أحلّ الله في كتابه فهو حلال ١٧٧
 ما أذن الله لشيء ما أذن لنبي ٢٧٩
 ما منكم من أحد إلا سيكلمه الله ١١٠
 من حلف بغير الله فقد أشرك ١٢٧
 من قال إذا أمسى ثلاث مرات: أعوذ بكلمات الله ١٣٠
 من كذب عليّ متعمداً فليتبوأ ٢٧٩ ، ٦٥
 من نزل منزلاً ثم قال: أعوذ بكلمات الله ١٢٩
 مهلاً يا قوم، بهذا أهلكم الأمم ٣٦

(ن)

- نبدأ بما بدأ الله به ١٨٣
 نعم مكلفاً (حين سئل: أنبيأ كان آدم؟) ٩٩ ، ٨٦
 الندم توبة ٣٥٠

(هـ)

- هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط ١٦٠

- هَذَا سَبِيلَ اللَّهِ ٢٢
هَلْ مِنْ رَجُلٍ يَحْمِلُنِي إِلَى قَوْمِهِ؟ ٨٥

(٩ - ١١)

- وَالَّذِي نَفْسِي بِيَدِهِ إِنَّهَا لَتَعْدِلُ ثُلُثُ الْقُرْآنِ ١٩٠
لَا تَسَافِرُوا بِالْقُرْآنِ إِلَى أَرْضِ الْعَدُوِّ ٢٠١ ، ٤١١

(١٢)

- يَا أَبَا الْمُنْذِرِ، أَتَدْرِي أَيَّ آيَةٍ مِنْ كِتَابِ اللَّهِ ١٨٩
يَا جَابِرُ، أَلَا أَخْبِرُكَ مَا قَالَ اللَّهُ لِأَيِّكَ؟ ١١٧
يَا عَقِبَةَ، أَلَا أَعْلَمُكَ خَيْرَ سَوْرَتَيْنِ ١٩٠
يَا مَعْشَرَ مَنْ آمَنَ بَلْسَانُهُ وَلَمْ يَدْخُلِ الْإِيمَانُ قَلْبَهُ ٣٤٨
يَحْشُرُ اللَّهُ الْعِبَادَ (أَوْ النَّاسَ) عِرَاءً ١١١ ، ١٦٤
يَدْنِي الْمُؤْمِنَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مِنْ رَبِّهِ عِزَّ وَجَلٍ ١١١
يَسْرِي عَلَى كِتَابِ اللَّهِ لَيْلاً ١٩٥
يَقْبِضُ اللَّهُ الْأَرْضَ وَيَطْوِي السَّمَاوَاتِ ١١٠
يَقُولُ اللَّهُ تَبَارَكَ وَتَعَالَى لَأَهْوَنَ أَهْلِ النَّارِ ١١٦
يَقُولُ اللَّهُ عِزَّ وَجَلٍ أَنَا عِنْدَ ظُنِّ عَبْدِي ٣٥٠



فهرس أطراف آثار الصحابة والتابعين

٣٧	ابن مسعود	اتبعوا ولا تبدعوا فقد كفيتم
٣٥٧	أبو هريرة	اقرأ بها في نفسك
٢٣	ابن مسعود	إن الله نظر في قلوب العباد
١٦٠	ابن مسعود	تعلموا القرآن فإنه يكتب بكل حرف منه
٩٨	عبيد بن عمير	رؤيا الأنبياء وحي
٩٢	أبو عبد الرحمن السلمي	فضل القرآن على سائر الكلام
٣١٢	قتادة	قوله (كن) فسماه الله عز وجل كلمته
١٧٨	ابن عباس	كان أهل الجاهلية يأكلون أشياء
٩٢	ابن عمر	كذب الحجاج، إن ابن الزبير لا يبدل كلام الله ابن عمر
٣٤٧	عمر	كنت قد زورت مقالة أعجبتني
٩٠	أبو بكر	ليس بكلامي ولا كلام صاحبي
١٩٦	ابن مسعود	ليتنزعن هذا القرآن من بين أظهركم
١٦١	ابن عباس	ما يمنع أحدكم إذا رجع من سوقه
١٦١	يحيى بن إبراهيم النخعي	من كفر بحرف منه فقد كفر
٩١	عائشة	والله ما كنت أظن أن الله ينزل براءتي وحياً
٩١	خباب	يا هناه، تقرب إلى الله ما استطعت
١٩٦	أبو هريرة	يسرى على كتاب الله فيرفع إلى السماء
٩٣	قتادة	يعلمون أنه كلام الرحمن

فهرس الرجال المذكورين بجرج أو تعديل

(أ)

١٢٣	إبراهيم بن عبد الله بن عبد القاري
٣٣٣	أحمد بن إبراهيم الدورقي
١٤٤	أحمد بن جواس الحنفي
١٧٢	أحمد بن الحسن الترمذي
٢٧١	أحمد بن حميد أبو طالب المشكاني صاحب أحمد
٨٧	أحمد بن خليل الحلبي
٤٣٦ ، ١٩٨	أحمد بن سنان الواسطي
٣٣٥ ، ٢٣٥ ، ١٥٥	أحمد بن صالح المصري
٣٣٢	أحمد بن عبد الله بن يونس
١٦٦	أحمد بن عبدة الضبي
٣٣٧ ، ٢٥٠	أحمد بن كامل القاضي
٣٣٠	إسحاق بن البهلول
١٤٥	إسماعيل بن يحيى المزني
٣٥٠	إسماعيل بن شيبه الطائفي
٨٧	أبو الأشعث الصنعاني شراحيل بن آدة
٨٨ ، ٨٧	الأشعث بن عبد الرحمن الجرمي
٨٨	الأشعث بن عبد الرحمن اليامي

١١٤	الأعمش : سليمان بن مهران
٣٣٠	أنس بن عياض أبو ضمرة الليثي
١٤٤	أيوب بن محمد

(ب)

٣٤٠	بشر بن السري
٣٢٦ ، ١٢٣	بشر بن غياث المريسي
٣٢٨ ، ١٩٨	أبو بكر بن عياش

(ج)

٣٢٨	أبو جعفر السويدي
١٣٩	جعفر بن محمد الصادق

(ج - خ)

٣٢	الحارث المحاسبي
٢٦٢	أبو حامد الأعمشي
٢٣٦	حرب بن إسماعيل الكرمانى
٢٩١	أبو الحسن أحمد بن محمد بن سالم البصري
٢٨٩	أبو الحسن الأشعري علي بن إسماعيل بن أبي بشر
٢٣٠ ، ٢٠٦	الحسين الكرابيسي
١٤٤	حكيم بن سيف الرقي
٢٢٧	حماد بن زيد
٣٢٨	حمزة بن سعيد المروزي
٢٦٨	خلف بن محمد بن إسماعيل

(ز - ح)

١٤٤	الربيع بن سليمان صاحب الشافعي
١٧٨	رجاء بن حيوة
٣٤٩	رميح بن هلال الطائي

- ريحان بن سعيد ٨٨
 زيد بن أبي سلام : زيد بن سلام بن أبي سلام ٩٠

(س)

- سعيد بن أبي عروبة ٨٦
 سفيان بن عيينة الهلالي ٣٢٩ ، ١٩٨ ، ١٤٠ ، ١٢٣
 سليمان بن حرب ١٤٢
 سليمان بن طرخان التيمي ٣٢٤
 سوار بن عبد الله ١٤٤
 سلام بن أبي مطيع ٣٢٤
 ابن سينا ٢٩٢

(ش - ط)

- شاذ بن يحيى الواسطي ٣٣١
 شعيب بن الحبحاب ١٦١
 أبو طالب المكي عبد بن محمد بن المهاجر ٢٧١
 طلحة بن خراش بن الصمة ١١٨

(ع)

- عاصم بن رجاء بن حيوة ١٧٨
 عبد الأعلى بن حماد ١٤٤
 عبد الله بن إدريس ٣٢٧ ، ١٤١
 عبد الله بن زيد أبو قلابة ٨٨
 عبد الله بن سعيد بن كلاب أبو محمد القطان البصري ٢٨٨
 عبد الله بن محمد بن عقيل ١١٩
 أبو عبد الرحمن السلمي (التابعي) ٩٢
 عبد الرحمن بن محمد المحاربي ١٦٨
 عبد الرحمن بن مهدي ٣٢٩

٥٩	عبد الملك بن عبد العزيز بن جريج
١٤٤	عبد الوهاب بن الحكم
٨٦	عبد الوهاب بن عطاء
٤٤٠	عبيد بن أحمد الزاذقاني
١٤٤	عبيد الله بن عمر بن ميسرة القواريري
٩٨	عبيد بن عمير الليثي
١٥٤ ، ١٤٤ ، ١٤٣	عثمان بن أبي شيبة
٩٢	ابن عربي الطائفي
٣٤٠	علي بن الجعد
٤١٣	علي بن حمزة أبو الحسن المرادي الصقلي
٣١	أبو عمر عادل بن كايد
١٩٧ ، ١٣٨	عمرو بن دينار
١٣٢	العلاء بن هلال

(ف - ق)

٢٧٣	فوران بن محمد صاحب أحمد
٣٣١	القاسم بن سلام أبو عبيد
١٩١	القاسم بن عبد الرحمن مولى معاوية
٩٢	قتادة بن دعامة السدوسي
١٥٤	قتيبة بن سعيد
٣٥٠	قدامة بن محمد
٨٨	أبو قلابة: عبد الله بن زيد

(م)

٢٣	مجالد بن سعيد
١٣٢	محمد بن إبراهيم بن الحارث
٢٤٨	محمد بن أسلم الطوسي
٣٢٦	محمد بن أعين

١٤٤	محمد بن بكار بن الريان
٣٢٩	محمد بن خازم أبو معاوية الضرير
٢١٧	محمد بن السائب الكلبي
٢٦٣	محمد بن شادل
١٤٤	محمد بن الصباح بن سفيان
١١٩	محمد بن علي بن ربيعة السلمى
٢٩١	محمد بن كرام السجستاني
٢٦٢	محمد بن يحيى الذهلي
٣٣٤	محمد بن يوسف بن الطباع
٢٤	المسعودي
٣٢٧	معتمر بن سليمان
٢١٧	مقاتل بن سليمان
٢٩٩	أبو منصور محمد بن محمد بن محمود الماتريدي
١١٨	موسى بن إبراهيم

(ن - هـ)

٢٥٠	الناشيء: عبد الله بن محمد بن شرشير أبو العباس المعتزلي
٣٣٢	هارون بن معروف المروزي
٣٣٥	هارون بن موسى الفروي
١٣٣	هشام بن عمرو الفزاري
١٤٤	هناد بن السري

(و - ي)

٣٢٨ ، ١٤٢	وكيع بن الجراح
٣٣٢ ، ١٥٤ ، ١٤١	أبو الوليد الطيالسي: هشام بن عبد الملك
١٤٤	وهب بن بقية
٢٤٨	يحيى بن يحيى النيسابوري
٣٢٧	يحيى بن يوسف الزمّي

- يزيد بن زريع ٣٢٧
- يزيد بن هارون ١٤١ ، ٣٣١
- أبو يوسف القاضي صاحب أبي حنيفة ٣٢٦
- يوسف بن يحيى أبو يعقوب البريطي صاحب الشافعي ١٤٥ ، ٣٣٢



فهرس الموضوعات

مدخل

٧	* مقدمة الطبعة الثانية
١١	سبب التشديد على الأشاعرة في الكتاب عموم البلوى بهم
١٢	نقد فاضل إنكاري قولهم: (لأبي الحسن الأشعري تحولان) والجواب عنه
١٢	نقد آخر إثباتي صفة السكوت لله عز وجل والجواب عنه
١٦	زعم ثالث أنني أنقل من كلام ابن القيم دون عزو والجواب عنه
١٩	* مقدمة الكتاب
٢٠	الصراط المستقيم وسبل الشيطان
٢٣	استقامة الصدر الأول
٢٤	مبدأ الاختلاف في الأمة وسببه
٢٧	بدعة الجهمية من أخطر أنواع البدع
٢٨	سبب تأليف الكتاب والباعث عليه
٣٥	* التنبيه على مسائل يحتاج إليها قبل الشروع في المقصود
٣٥	(١) العقل لا يثبت تشريعاً وإنما هو آلة الفهم
٣٨	(٢) بطلان تسمية علم التوحيد بعلم الكلام
٤٠	(٣) طريقة السلف أعلم وأحكم وأسلم الطرق
٤٣	(٤) أهل البدع لا خبرة لهم باعتقاد السلف
٤٧	(٥) إطلاق الألفاظ المجملة ليس من طريقة السلف
٤٩	* مجمل خطة تأليف الكتاب

الباب الأول

العقيدة السلفية في كلام رب البرية

٥١	الفصل الأول: بيان حقيقة الكلام
٥٥	* المبحث الأول: حقيقة الكلام
٦٣	* المبحث الثاني: حقيقة المتكلم
٦٥	* المبحث الثالث: أنواع الكلام
٦٩	الفصل الثاني: عقيدة السلف في إثبات الصفات
٦٩	* قاعدة جلية في الاعتقاد
٦٩	الدعائم التي يقوم عليها الاعتقاد السلفي
٧٤	القاعدة المالكية في الاعتقاد
٧٧	الفصل الثالث: شرح اعتقاد السلف في كلام الله تعالى
٧٩	* المبحث الأول: جملة اعتقاد أهل السنة في كلام الله تعالى
٨٣	* المبحث الثاني: الأدلة المثبتة لصفة الكلام
٨٣	من أدلة الكتاب
٨٤	من أدلة السنة
٩٠	من الأثر
٩٣	دلالة المعقول من وجهين
٩٧	* المبحث الثالث: التكليم في الدنيا
٩٧	مراتب التكليم
٩٧	- المرتبة الأولى: الوحي المجرد
٩٩	- المرتبة الثانية: التكليم الخاص من وراء حجاب
١٠٣	- المرتبة الثالثة: التكليم بواسطة الرسول
١٠٩	* المبحث الرابع: التكليم في الآخرة
١٠٩	أوجه التكليم في الآخرة
١٠٩	- الأول: للحساب والقضاء بين العباد في المحشر
١١٥	- الثاني: تكليمه تعالى لأهل الجنة
١١٦	- الثالث: تكليمه تعالى لأهل النار

١١٧	فرع : في تكليم الله لعبدالله بن عمرو بن حرام
١٢١	* المبحث الخامس : كلام الله تعالى غير مخلوق
١٢٢	أدلة إثبات هذا الاعتقاد
١٢٢	- من أدلة الكتاب
١٢٩	- من أدلة السنة
١٣٥	- من المعقول الصريح
١٣٨	- من كلام أئمة السلف في إثبات هذه العقيدة
١٣٨	١ - عمرو بن دينار
١٣٩	٢ - جعفر بن محمد الصادق
١٤٠	٣ - مالك بن أنس
١٤٠	٤ - سفيان بن عيينة
١٤٠	٥ - عبد الله بن المبارك
١٤٠	٦ - أبو عبد الله الشافعي
١٤١	٧ - وكيع بن الجراح
١٤١	٨ - يحيى بن سعيد القطان
١٤١	٩ - يزيد بن هارون
١٤١	١٠ - عبد الله بن إدريس
١٤١	١١ - أبو الوليد الطيالسي
١٤٢	١٢ - سليمان بن حرب
١٤٢	١٣ - أحمد بن حنبل
١٤٣	١٤ - يحيى بن معين
١٤٣	١٥ - أبو بكر بن أبي شيبة
١٤٣	١٦ - عثمان بن أبي شيبة
١٤٤	١٧ - جماعة من شيوخ أبي داود السجستاني
١٤٤	١٨ - علي بن المديني
١٤٥	١٩ - أبو يعقوب البويطي
١٤٥	٢٠ - المزني صاحب الشافعي

١٤٥	٢١ - البخاري
١٤٥	٢٢ - أبو حاتم وأبو زرعة الرازيان
١٤٩	* المبحث السادس : الوقف في القرآن
١٥٣	تشديد الأئمة على الواقفة
١٥٣	- قول الإمام أحمد
١٥٤	- قول إسحاق بن راهويه
١٥٤	- قول قتيبة بن سعيد
١٥٤	- قول أبي الوليد الطيالسي
١٥٤	- قول عثمان بن أبي شيبة
١٥٥	- قول أحمد بن صالح المصري
١٥٥	- قول يحيى بن معين
١٥٥	- قول أبي زرعة وأبي حاتم الرازيين
١٥٧	* المبحث السابع : كلام الله تعالى بحرف وصوت
١٥٧	الاستدلال لكون كلامه تعالى حروفاً
١٦١	الاستدلال لكونه تعالى يتكلم بصوت
١٦٥	تعليق : متى يصار إلى تقدير محذوف
١٧٠	تنبيهان :
١٧٠	- الأول : الفرق بين الحروف في كلام الله وكلام المخلوق
١٧٣	- الثاني : الصوت المسموع من القارئ حال التلاوة
١٧٧	* المبحث الثامن : كلام الله تعالى بمشيئته واختياره
١٧٧	تعليق : إثبات صفة السكوت المتعلقة بالمشيئة لله تعالى
١٧٧	تعلق الصفات الاختيارية بالمشيئة والقدرة
١٨٠	الكلام من الصفات الاختيارية
١٨٧	* المبحث التاسع : تفاضل كلام الله تعالى
١٩١	وجه كون سورة الإخلاص تعدل ثلث القرآن
١٩٣	* المبحث العاشر : كلام الله منزل منه ، منه بدأ وإليه يعود
١٩٧	أقوال السلف في هذه العقيدة

- ١٩٧ قول عمرو بن دينار -
 ١٩٧ قول سفيان الثوري -
 ١٩٨ قول سفيان بن عيينة -
 ١٩٨ قول أبي بكر بن عياش -
 ١٩٨ قول الإمام أحمد -
 ١٩٨ قول أبي جعفر أحمد بن سنان الواسطي -
 ١٩٩ تنبيه : حول معنى قولهم : (منه خرج)

الباب الثاني

توضيح مسألة اللفظ بالقرآن ورفع ما وقع بسببها من الإشكال

بالقرآن

- ٢٠٥ * تمهيد
 ٢٠٧ الفصل الأول : تفسير الألفاظ المجملة التي وقع بسببها الإشكال
 ٢٠٩ * المبحث الأول : بيان هل اللفظ هو الملفوظ أم غيره ؟
 ٢١٥ * المبحث الثاني : تبين المراد بقوله تعالى : ﴿ إنه لقول رسول كريم ﴾
 ٢١٥ المراد بآية الحاقة نبينا ﷺ
 ٢١٧ المراد بآية التكويد جبريل عليه السلام
 ٢١٨ معنى إضافة القول إلى جبريل ومحمد ﷺ
 ٢٢٣ الفصل الثاني : مسألة اللفظة وموقف أهل السنة
 ٢٢٥ * المبحث الأول : جملة اختلاف الناس في مسألة اللفظ
 ٢٢٥ الجهمية
 ٢٢٥ الكلائية (اللفظية النافية)
 ٢٢٦ اللفظية المثبتة
 ٢٢٦ أهل السنة
 ٢٢٧ * المبحث الثاني : اللفظية النافية جهمية
 ٢٢٨ أقوال علماء السنة في هذه الطائفة
 ٢٢٨ - النصوص عن الإمام أحمد في تبديعهم وتجهيمهم
 ٢٣٥ - قول إسحاق بن راهويه

- ٢٣٥ - قول أحمد بن صالح المصري الحافظ
- ٢٣٥ - قول أبي مصعب الزهري
- ٢٣٥ - قول أبي زرعة وأبي حاتم الرازيين
- ٢٣٥ - قول حرب بن إسماعيل الكرماني
- ٢٣٧ اتفاق أهل السنة على كون الكلام العربي بحروفه ومعانيه كلام الله
- ٢٣٨ أقدم من صحَّ عنه إنكار قول اللفظية النافية هو الإمام أحمد
- ٢٣٩ * المبحث الثالث: إقامة الحجة على بطلان اعتقاد اللفظية النافية
- ٢٤٠ الوجه الأول ودلالته من ستة وجوه
- ٢٤٢ الوجه الثاني ودلالته من أربعة وجوه
- ٢٤٤ الوجه الثالث
- ٢٤٤ الوجه الرابع والخامس
- ٢٤٥ الوجه السادس والسابع الثامن
- ٢٤٦ بعض أقاويل السلف والأئمة المؤيدة لما ذكر
- ٢٤٦ - قول عبد الله بن المبارك
- ٢٤٦ - قول الإمام أحمد بن حنبل
- ٢٤٧ - قول إسحاق بن راهويه
- ٢٤٨ - قول يحيى بن يحيى النيسابوري
- ٢٤٨ - قول محمد بن أسلم الطوسي
- ٢٤٨ - قول محمد بن جرير الطبري
- ٢٥٠ - قول القاضي أحمد بن كامل البغدادي
- ٢٥١ - قول أبي الشيخ الأصبهاني
- ٢٥٢ - قول أبي عثمان الصابوني
- ٢٥٣ - قول أبي القاسم ابن الطبري
- ٢٥٥ * المبحث الرابع: بيان غلط اللفظية النافية على الإمامين أحمد والبخاري
- ٢٥٥ انتساب كثير من أهل البدع للإمام أحمد لترويج بدعهم
- ٢٥٦ إبطال نسبة اعتقاد اللفظية النافية للإمام أحمد
- ٢٦١ بيان غلطهم على الإمام البخاري

٢٦٣	البخاري لم يقل بقول اللفظية
٢٦٩	* المبحث الخامس: اللفظية المثبتة مبتدعة
٢٦٩	إنكار الإمام أحمد قول اللفظية المثبتة
٢٧١	قصة إنكار حكاية أبي طالب صاحبه عنه أنه يقول بقولهم
٢٧٥	بيان خطأ من أخطأ عليه في هذه المسألة
٢٧٧	ذكر ما جرّ إليه إطلاق هذا القول من البدع
٢٧٧	- البدعة الأولى: القول بأن فعل القاري غير مخلوق
٢٨٠	- البدعة الثانية: جعل كلام الله الحروف دون المعاني

الباب الثالث

عقائد الطوائف المبتدعة في كلام الله وكشف أباطيلها

٢٨٥	* تمهيد
٢٨٩	تعليق: نبذة موجزة عن أبي الحسن الأشعري
٢٩٣	الفصل الأول: ذكر جملة أقوال طوائف أهل البدع في كلام الله تعالى
٢٩٥	١ - المتفلسفة وبعض غلاة الصوفية
٢٩٧	٢ - الجهمية من المعتزلة وغيرهم
٢٩٧	٣ - الكلامية
٢٩٨	٤ - الأشعرية
٢٩٨	- موافقتهم الكلامية في جميع قولهم إلا في فرعين
٢٩٩	- الماتريدية موافقون للأشعرية
٣٠٠	٥ - السالمية ومن وافقهم من أهل الكلام والحديث
٣٠١	٦ - الكرّامية
	الفصل الثاني: كشف تلبيس الجهمية المعتزلة في كلام الله تعالى
٣٠٣	وحكم السلف والأئمة فيهم
٣٠٥	* المبحث الأول: ذكر شبه المعتزلة ونقضها
٣٠٥	الشبهة الأولى: ﴿الله خالق كل شيء﴾
٣٠٧	الشبهة الثانية: ﴿إنا جعلناه قرآناً عربياً﴾

٣٠٨	الشبهة الثالثة: ﴿ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث﴾
٣١٠	الشبهة الرابعة: ﴿وكان أمر الله قدراً مقدوراً﴾
٣١١	الشبهة الخامسة: تسمية عيسى كلمة الله
٣١٢	الشبهة السادسة: ورود سمات الحدوث والخلق كالنسخ والتعاقب
٣١٧	* المبحث الثاني: تحريف المعتزلة لمعاني التنزيل لإبطال صفة الكلام
٣١٧	تكليم الله لموسى
٣٢٠	إضافة الكلام إلى الله في مثل قوله: ﴿حتى يسمع كلام الله﴾
٣٢٣	* المبحث الثالث: المعتزلة في ميزان أئمة السلف
٣٢٤	كلام أئمة السلف في المعتزلة
٣٢٤	- قول سليمان التيمي
٣٢٤	- قول سفيان الثوري
٣٢٤	- قول سلام بن أبي مطيع
٣٢٥	- قول مالك بن أنس
٣٢٥	- قول عبد الله بن المبارك
٣٢٦	- قول أبي يوسف القاضي
٣٢٧	- قول معتمر بن سليمان وحمام بن زيد ويزيد بن زريع
٣٢٧	- قول عبد الله بن إدريس الأودي
٣٢٨	- قول أبي بكر بن عياش
٣٢٨	- قول وكيع بن الجراح
٣٢٩	- قول سفيان بن عيينة الهلالي
٣٢٩	- قول أبي معاوية الضرير
٣٢٩	- قول عبد الرحمن بن مهدي
٣٣٠	- قول أبي ضمرة أنس بن عياض الليثي
٣٣١	- قول يزيد بن هارون
٣٣١	- قول أبي عبيد القاسم بن سلام
٣٣٢	- قول أبي الوليد الطيالسي
٣٣٢	- قول أحمد بن عبد الله بن يونس

- ٣٣٢ قول هارون بن معروف المروزي
- ٣٣٢ قول البويطي صاحب الشافعي
- ٣٣٣ قول يحيى بن معين
- ٣٣٣ قول الإمام أحمد بن حنبل
- ٣٣٥ قول الحافظ أحمد بن صالح المصري
- ٣٣٥ قول هارون بن موسى الفروي
- ٣٣٥ قول البخاري
- ٣٣٦ قول أبي حاتم وأبي زرعة الرازيين
- ٣٣٦ قول أبي بكر بن خزيمة
- ٣٣٧ قول محمد بن جرير الطبري
- ٣٣٧ وقوع التكفير لبعض أعيان الجهمية
- ٣٣٨ الذي يهون شأن الجهمية إما مبتدع أو جاهل
- ٣٣٩ إطلاق التكفير ليس كتعيينه
- ٣٤٠ تعليق: دعوى كون البخاري روى عن جهمية دعوى فاسدة
- ٣٤٣ الفصل الثالث: كشف تلبيس الأشعرية في إثبات صفة الكلام لله تعالى
- ٣٤٥ * المبحث الأول: تعريف الكلام عند الأشعرية
- ٣٤٦ ذكر شبه الأشعرية في تعريفهم الكلام
- ٣٥١ النقص عليهم
- ٣٥١ ذكر الجواب عما استدلوا به من اللغة
- ٣٥٢ فساد احتجاجهم بشعر الأخطل النصراني من وجوه
- ٣٥٦ ذكر الجواب عما استدلوا به من الكتاب والسنة
- ٣٦٢ كلام الله تعالى عند الأشعرية
- ٣٦٥ * المبحث الثاني: إبطال كون الله تعالى معنى مجرداً
- ٣٦٥ ذكر بعض كلام محققهم
- ٣٦٧ بيان فساد ذلك من وجوه ستة
- ٣٧١ مناظرة طريفة مع أشعري
- ٣٧٤ نشوء بدعتين شنيعتين عن اعتقادهم المذكور

- ٣٧٤ - البدعة الأولى : كلام الله ليس بحرف ولا صوت
- ٣٧٦ - ذكر ما تعلقت به الأشعرية لنفي كون كلام الله بحرف وصوت
- ٣٧٨ - ذكر الجواب عما موّهت به الأشعرية
- ٣٨٧ - البدعة الثانية : إنّ الله لا يتكلم بمشيئته واختياره
- ٣٩١ - قولهم : الأمر والنهي وصفان للكلام
- ٣٩٥ * المبحث الثالث : القرآن العربي عند الأشعرية
- ٣٩٦ سياق نصوص بعض محققهم في كون القرآن العربي مخلوقاً
- ٤٠٣ شبهة وبيانها
- ٤٠٧ تنبيه حول تنزيه الأشعرية القرآن عن حلوله في المصحف
- ٤١١ تعظيم المصحف عند الأشعرية
- ٤١٢ - مفاضلة الأشعرية بين القرآن والنبي ﷺ وترجيح فضله ﷺ
- ٤١٣ - أشعري يبطح المصحف برجله
- ٤١٧ * المبحث الرابع : أسماء الله عند الأشعرية
- ٤١٩ حقيقة قول الأشعرية هو أن الأسماء الحسنى مخلوقة
- ٤١٩ مخالفتهم اعتقاد السلف في ذلك
- ٤٢٠ - قول الشافعي في أسماء الله تعالى
- ٤٢٠ - قول الإمام أحمد بن حنبل
- ٤٢١ - إسحاق بن راهويه
- ٤٢٢ - قول البخاري
- ٤٢٥ * المبحث الخامس : وجه التوافق بين قولي المعتزلة والأشعرية في القرآن
- ٤٢٧ من افتراء بعض الأشعرية على أئمة السلف
- ٤٣١ * المبحث السادس : الأشعرية وأهل السنة في مسألة القرآن
- ٤٣٢ اعتقاد الأشعرية هو اعتقاد اللفظية الذين جهّمهم الأئمة
- ٤٣٣ إنكار أئمة السنة اعتقاد الأشعرية
- ٤٣٣ - إنكار الإمام أحمد اعتقاد ابن كلاب
- ٤٣٦ - قول أبي بكر بن خزيمة
- ٤٣٦ - قول الحافظ أحمد بن سنان الواسطي

- ٤٣٧ قول أبي العباس بن سريج إمام الشافعية
- ٤٣٩ قول الإمام أبي حامد الإسفراييني رأس الشافعية
- ٤٤٠ نقله اعتقاد الشافعي وعامة فقهاء الأمصار خلاف الأشعرية
- ٤٤٢ قول الإمام يحيى بن أبي الخير العمراني الشافعي
- ٤٤٢ قول أبي عبد الله بن حامد شيخ الحنابلة
- ٤٤٢ قول الحافظ أبي نصر السجزي
- ٤٤٣ قول الحافظ أبي القاسم سعد بن علي الزنجاني
- ٤٤٣ قول الإمام قوام السنة إسماعيل بن الفضل الأصبهاني
- ٤٤٣ قول الحافظ الفقيه أبي محمد بن قدامة المقدسي
- ٤٤٤ الأشعرية ليسوا من أهل السنة
- ٤٤٧ * خاتمة
- ٤٤٧ من أسباب الاغترار بأهل البدع
- ٤٤٩ في الأشعرية علماء لهم قدم في خدمة الشريعة
- ٤٤٩ اجتناب التكفير والتفسيق للمعين من أهل الأهواء المتأولين

الفهارس

- ٤٥٣ * فهرس أطراف الحديث
- ٤٥٧ * فهرس أطراف آثار الصحابة والتابعين
- ٤٥٩ * فهرس الرجال المذكورين بجرح أو تعديل
- ٤٦٥ * فهرس الموضوعات



المكتبة والمطبع
دار النور للنشر والتوزيع
 هاتف ٦٤٨٩٧٥ - فاكس ٦٤٨٩٧٥ - ص.ب ١٨٦٧٨٧
 ص.ب ١٨٦٧٨٧ - الأردن